

الأعمال الكاملة

لأمير الشعراء أحمد شوقي

جمع وترتيب وشرح

ابراهيم الابياري

المجلّد السّابع

النثر - المسرحيّات

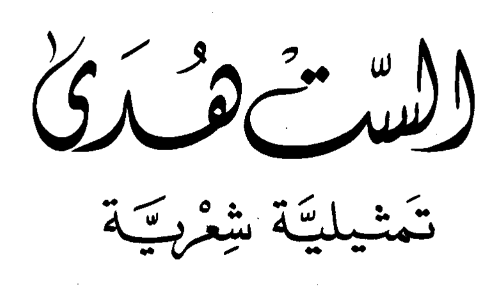
السِت هدى - شيطان بنتاءور - علي بك الكبير أو دولة المماليك - عنترة - قنبيز - قمبيز

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ ١٩٩٤م

دار الكتاب العربي

الطَابق الثَامِن - بنَاية بَنك بيبلوس - فردَان - تلفون : ٨٦١١٧٨/٨٠٠٨١١/٨٦٢٩٠٥
تلفاكس : ٤٧٨١٤٣١ (١٢١٢) تلكس : ٤٠١٣٩ L.E كتاب برقيًا : الكتاب. ص.ب : ٥٧٦٩-١١ بيروت - لبنان



السّتّ هُدى

تَمثيليّة شِعْريّة

الموسوعة الشوقية

الأعمال الكاملة

لأمير الشعراء أحمد شوقي

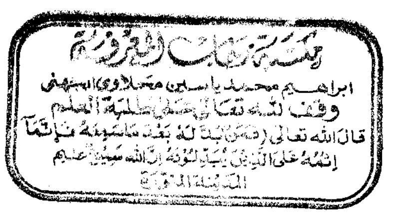
جمع وترتيب وشرح

ابراهيم الابياري

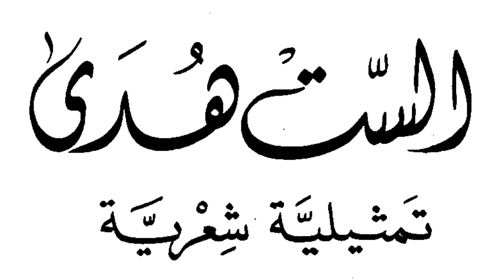
المجلد السابع

النثر - المسرحيات

الست هدى - شيطان بنتاءور - علي بك الكبير أو دولة المماليك - عنترة - قمبيز



الناشر
دار الكتاب العربي


السّت هُدى
تمثيليّة شِعْريّة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذه تمثيلية شعرية لا تكاد تبعد في موضوعها كثيراً عن موضوع البخيلة، ويكاد يكون الحي، الذي اختاره شوقي للبخيلة، هو الحي الذي اختاره لهذه التمثيلية.

وأكاد أرى أن هذه التمثيلية «الست هدى» سبقت «البخيلة» زمناً، وأن هذا الزمن ليس بالكثير.

إذ هي لم تقع أحداثها سنة (١٨٩٠)، كما ذكر في أولها، فثمة ما ينقض هذا، وهو قول الست هدى، وهي تعرِّف بزوجها الرابع تقول:

يكتب اليوم في اللواء وغداً في المؤيد.

ومعروف أن اللواء جريدة أنشأها مصطفى كامل سنة (١٩٠٠م)، وعلى هذا تكون أحداث الرواية وقعت مع هذا العام، أي (١٩٠٠م) أو بعده. لا في سنة (١٨٩٠) كما ذكر في أول التمثيلية.

وقد عرفت قبل أن تمثيلية البخيلة كانت سنة (١٩٠٧). ومن هنا ترى أن التمثيليتين جاءتا متتابعتين في زمنين متقاربين، سبقت هذه تلك بقليل.

وقد مثلت هنا كما مثلت فيما سبق من تمثيليات، فحررت، وضبطت ضبطاً كاملاً، وشرحت وعرَّفت، لتسلم التمثيلية للقارىء قراءة وفهماً.

والله ولي التوفيق.

ابراهيم الأبياري
شوال ١٤١٢ هـ
يونيه ١٩٩٢ م

المشاركون والمشاركات
في هذه التمثيلية

الست هدى	:	
الست زينب	:	صديقتها
خديجة	:	من فتيات الجيران
أسماء	:	
بهية	:	
اقبال	:	
عبد المنعم المحامي	:	زوج الست هدى
حلمي	:	كاتبه
السيد العجيزي	:	من أعيان الريف وزوج آخر للست هدى
محمد	:	من أصدقاء «السيد العجيزي»
أحمد	:	
عامر	:	
الشيخ الحلبي	:	
مصطفى النشاشقي	:	
ألماز	:	آغا
رضوان	:	خادم
سلمان	:	مراب

الفصل الأول

«في دار صغيرة مؤلفة من: «مندرة» في الطبقة السفلى، ومن سُلم يُصعد منه إلى قاعة صغيرة، وثلاث حجرات... والمنزل مطل على مسجد «أبي الليف» بحيّ «السيدة زينب».
«الست هدى» وجارتها «زينب» في إحدى الحجرات».

الست هدى : كَيْفَ يا أُخْتُ أَنْتِ؟

زينب : نحنُ بِرَغْدٍ كُلُّنا ما بَقِيتِ أنتِ برَغْدِ

الست هدى : أنتِ يا «زَيْنَبُ» الوفيَّةُ بالعَهْدِ

زينب : ولِمْ لاَ أَفِي وخَيْرُكِ عِنْدِي؟
نحن من أربعينَ عـاماً على خيْـر جِـوَارٍ بَيْن آثنتيْنِ وَوُدٍّ

الست هدى : لاَ، بَلِ العهدُ لا يَزِيدُ على العِشريْن...
خَلِّي حِسابَه لا تَعُدِّي
اسمَعِي زَيْنَبُ، آسْمَعِي يا صـديقي لَكِ هَذَا الدَّبُّوسَ

زينب : لِي أَنَا؟

الست هدى : بَعْدِي

أنــا أَعْـطَيْتُ كُـلَّ صـاحِبَـةٍ شَـيْئـاً
وأنْـصَـفْـتُ فـي الـوَصِـيَّـةِ جُـهْـدِي
مــا يَـقُــولُ الجِـيـرَانُ «زَيْنَـبُ» عَـنِّـي؟

زينب : أَتركِيهِمْ، لا تَحْفِلِي بالرَّدِّ

الست هدى :

يَقُــولُـونَ في أمْـرِي الْكَثِيــرَ وَشُغْـلُهُمْ
حَـديـثُ زَوَاجـي أو حَـدِيـثُ طَـلاَقـي
يَـقُـولُـونَ إنِّي قَـدْ تَـزَوَّجْـتُ تِـسْـعَـةً
وإنِّـيَ وآرَيْــتُ الـتُّـرَابَ رِفَــاقِـي
ومــا أنــا «عِــزْرِيــلٌ» ولَـيْسَ بِمَـالِـهِـمْ
تَـزَوَّجْـتُ، لَكِـنْ كــانَ ذَاكَ بِـمَــالـي
وتِـلْكَ فَـدَادِيـنـي الـثَّـلاثُـونَ كُـلَّـمَـا
تَـوَلَّـى رِجــال جِئْـنَـنِـي بِــرِجَــالِ
فَـمَـــا أَكْـثَـرَ عُـشّـاقِـي وما أَكْـثَـرَ خُـطَّابـي!
ولَــوْلَا الـمَــالُ مــا جَــاؤُوا أذِلَّاءَ إلـى بَـابِـي
لَـسْتُ مـا عِـشْتُ نـاسِيَـهْ لَـسْـتُ أَسْـلُو حَـيَـاتِـيَـهْ
أوَّل الـبَـخْـتِ «مُـصْـطَفَى» مُـصْـطَفَى كـانَ سَـارِيَـهْ[1]
حِـيـنَ يَـمْـشِـي تَـظُنُّـهُ نَـخْلَةَ «الـمَـرْجِ» ماشِيَـهْ[2]
رَحْـمَـةُ الله عَـلَيْـهِ لَــمْ يَـكُـنْ يَـطْلُبُ مَـالِي
تِـلْكِ «أبْـعَـادِيَّـتِـي» وَهْـيَ جُـنُـونٌ لـلرِّجَـالِ[3]
لَـم تَـكُـنْ تَـخْـطِرُ فـي الْـعَـامِ لَـهُ يَـوْمـاً بِـبَـالِ
لَمْ يَـكُـنْ يَـعْــنِـيـهِ مــن ذَا كَ ســوى قـبضِ الإجَــارهْ

---

(١) السارية: عمود من الخشب في السفينة ينصب عليه الشراع. تصف مصطفى بالطول.
(٢) المرج: ضاحية من ضواحي القاهرة مشهورة بنخيلها.
(٣) الأبعادية: الضيعة، عامية.

جَـعَـلَ الله تَـعَـالَـى جَـنَّـةَ الـخُـلْدِ قَـرَارَهْ
مَـاتَ فَكِدْتُ أَمُوتُ حُـزْنـاً وكـان بَـدْرِي بَـدا تمـامـا
ثُـمَّ تـزوَّجْتُ بَـعْـدَ خَـمْسٍ مَنْ ذَا يَـرَى فَعْلَتِي حَـرَامَـا

زينب :

أَجَـلْ تَـعِيـشِيـنَ وتَـدْفِنِيـنَـا حَتَّى تُصِيبي مِنْهُـمُ البَـنِيـنَـا

الست هدى :

وزَوْجِـيَ الثَّـانِـي «عَـلِي» ولـم يَـكُـنْ يَـصْـلُحُ لِـي
يَا لَيْتَنِي لَمْ أقْبَلِ

ذَاكَ لِـمَـالِي آخْـتَـارَنِـي وآخْـتـرْتُـه لِـمَـالِـهِ
مـا كَـانَ إلاَّ مُـفْـلِسـاً وقَـعْـتُ فـي حِـبَـالِـهِ

يَـرْحَـمُـه الله، وكـانَ ذَا بَـخَـرْ
وكَـانَ إنْ يَـقْـعُـدْ وإنْ يَـقُـمْ نَـخَـرْ
وإنْ مَـشَـى تَخْـرُجُ أصْـوَاتٌ أُخَـرْ
يَـرْحَـمُـهُ الله لَـقَـدْ عِـشْـنَـا مَـعَـا
مـن السِّنِيـنَ الصَّـاخِـبَـاتِ أرْبَـعَـا
ثُـمَّ مَـضَـى لِـرَبِّـه لا رَجَـعَـا

رَحْـمَـةُ الله عَـلَيْـهِ جُـنَّ بـالنَّـسْـلِ جُـنُـونَـا
ثُـمَّ لَـمَّـا مَـاتَ مَـا خَـلَّفَ لِـي إلاَّ دُيُـونَـا

وَمَـاتَ لَـمْ تَبْكِـهِ عُيُـوني وكـان بَـدْرِي بَـدا تمـامـا
ثُـمَّ تَـزَوَّجـتُ مِـنْ سِـوَاهُ مَنْ ذَا يَـرَى فَعْلَتِي حَـرَامَـا

زينب :

أَجَـلْ! تَعِيشِينَ وتَـدفِنِيـنَـا حَتَّى تُصِيبي مِنْهُـمُ البَنِيـنَـا

الست هدى :

ولَسْتُ أَنْسَى زَوْجِيَ الـرَّابِعَـا لا نَـافِعاً كـان ولاَ شَـافِعَـا
قـالُوا: أَدِيبٌ لَمْ يَـرَوْا مِثْلَهَ ولَقَّبُـوهُ الكَـاتِبَ البـارِعَـا
قَـدْ زَيَّنُـوهُ لِيَ، فـاخْتَـرْتُـهُ ما آخْتَرتُ إلاّ عـاطِلاً ضـائِعا

رائِـحٌ أَكْـثَـرَ الـزَّمَـان عَـلَى الـصُّـحْـفِ مُـغْـتَـدِي
يَـكْتُـبُ اليَـوْمَ فـي «اللِّوَا» وغَداً فـي «الـمُـؤيَّـدِ»[1]
لَـيْـلَهُ أوْ نَـهَـارَهُ فـارِغُ الـجَـيْـبِ والـيَـدِ

ويُـعْجِبُنِـي عِنْـدَ المُبَـاهَـاةِ قَـوْلُـه:
بَـنَـيْـتُ فُـلاَنـاً أوْ هَـدَمْـتُ فُـلاَنـا
وقـد يُـصْبِـحُ الْـمَبنِيُّ أوْضَـع مَـنْـزِلاً
وقـد يُصْبِـحُ الـمَهْـدُومُ أرْفَـعَ شَـانَـا

رَحْـمَـةُ الله عَـلَيْـهِ كـانَ لا يَـحْـقُـر مـالاَ
كـانَ إنْ أفـلَس لا يَـسْـألُـنِـي إلاّ رِيَـالاَ

ثُـمَّ تَـزَوَّجْـتُ بُـيـوزبـاشِـي «قَـمَـرْ»
نَـهَـى كَـمَـا شَـاءَ هَـوَاهُ وأَمَـرْ[2]
لَـقَدْ وَدِدْتُ أنَّـه زَوْجُ العُـمُـرْ

لا، لا عـفـا الله عنـه ولا تَـرَقَّ لِـصـاغِ
لا، لا عـفـا الله عنـهُ لِصٌّ أراد مـصـاغـي
وطَـالَـمَـا زيَّـنَ لِـي أنَّنِـي أبِـيـعُ أَوْ أَرْهَـنُ أَطْـيَـانِـي

---

(١) اللوا: جريدة مصرية أنشأها مصطفى كامل سنة (١٩٠٠م). والمؤيد: جريدة مصريـة أنشأهـا علي بن أحمد بن يوسف سنة (١٨٨٩م).
(٢) يوزباشي: رتبة في الجيش قديمة.
(٣) صاغ: رتبة في الجيش قديمة.
(٤) المصاغ: الحلى المصوغ.

مِن أَجْـلِ «يُوْزَبـاشِي»؟ لقـد ضَـلَّ، لاَ
لا أَشْـتَــرِي جَـيْـشـاً بِــفَـدَّانِ
لــحَــاهُ الله كـــانَ مُــنَـى فُــؤَادِي
وفــاكِــهَــتِــي ورَيْــحَــانِــي ورَاحِــي
وكُــنْــتُ أُحِـبُّــهُ ويُـحِـبُّ طِــيــنــي
ويَــحْــلُـمُ بــالــقِــلاَدِةِ والــوِشَــاحِ
وكــان مُــقَــامِــراً شَــرِّيــبَ خَــمْــرٍ
يَـجِـيءُ البَـيْـتَ في ضَــوْءِ الـصَّـبَـاحِ
يَــكَــادُ إذا تَــوَرَّطَ فــي قِــمَــارٍ
يُــقــامِــرُ بــالــنُّــجُــومِ وبــالــسِّــلاَحِ
عِشْنَــا ثَــلاَثـاً بها آفْتَــرَقْنَــا وكــان بَــدْري بَــدا تَمــامــا
طَــلَّقنِي فــآلْتَـمَسـتُ زَوْجــاً مَنْ ذا يَــرَى فَعْلَتِي حَــرَامَــا

زينب :

أَجَــل، تَعِيشِيـنَ وتَــدْفِنيـنَــا حَتَّى تُصِيبي مِنْهُـمُ البَـنِينَــا

الست هدى :

وعِـشْتُ عــامَـيْـن دُونَ زَوْجٍ ثُـمَّ تَــزَوَّجْتُ بــالـمُــوَظَّـفْ
لَــمْ أنــسَــهُ مُــنْــذُ مــاتَ يَــوْمــاً
مــا كَـــانَ أبْــهَـى! مــا كَـــانَ أظْــرَفْ!
كـــانَ خَــفِــيــفــاً وكـــانَ حُــلْــواً
ومِــنْ نَــسِــيــمِ الــرَّبِــيــعِ ألْــطَفْ!
مــا كُــنْــتُ أَدْرِي إذا تَــوَلَّــى
أَجَــيْــبُــهُ أم قَــفَــاهُ أَنْــظَفْ!
يَــرْحَــمُــهُ الله مــاتَ مــا وَجَــدُوا
فــي جَـيْـبِــهِ غَـيْــرَ قِـطْـعَـتَـيْ ذهَــبِ!

وسُــبْـحَــةٍ مِــنْ خِــزَانَــتِـي سُــرِقَــتْ
كــانَــتْ على الــرَّفِّ مِــنْ وَفَــاةِ أبِــي
وسَّعْتُ فِي دَفْنِـهِ ومَـأْتَـمِـهِ ولم أُضيِّق عَلَيْـهِ في رَجَبِ

رَحْــمَــةُ الله عَــلَيْــه كــان «جَخَّــاخــاً» كَبِـيـرًا[1]
كُــلَّ يَــوْمٍ يـدعُ الـبَـيْـتَ رَئِـيـسـاً أو وَزِيـرًا
ثُــمَّ لا يَــرْجِـعُ بِــي إلاَّ كَــمَـا كَــانَ صَـغِـيـرا

رَحْــمَــةُ الله عَــلَيْــهِ كــانَ مَـشْـغُـولاً بِــطِـينـي[2]
كُــلَّ يَــوْمٍ بِــزَبُــونٍ أو بِــسِــمْــسَــارٍ يَـجِـيـنِـي
وفَــدَادِيــنــيَ عِــنْــدِي هِـيَ في الـحِـفْظِ كَـدِيـنِي

مــا كَــانَ في وَجْـنَـتِـي يُـقَـبِّـلُـنـي بَــلْ هَــمُّــهُ في يَــدِي يُـقَـبِّــلُهَــا
وعَــيْــنُــه فــي خَــوَاتِــمِــي أَبَــداً يُـحَــدِّثُ النَّفْسَ كَيْفَ يَـنْـشُـلُهَـا

ثُــمَّ اقْـتَــرَنْــتُ بِــفَــقِــيــهٍ عــالِــمٍ فــي الــبَــلَدِ
لا فـي الشُّـيُــوخِ الـقُــدَمَــا ولاَ الــشُّــيُــوخِ الــجُــدُدِ
كَـــهْـــلٌ أخُــو خَـمْـسِــيــنَ لَـكِــنْ فــي نَـشَــاطِ الأَمْــرَدِ

زينب :

عَـــرَفْـتُـهُ، ذاك الـفَـقِـيـهُ «الـشَّـيْـخُ عَـبْـدُ الـصَّـمَـدِ»
قَــدْ كــانَ فــي «الـخُـطِّ» وَجِـيـهــاً ومُـقَـبَّـلَ الـيَـدِ
وكُــلُّ مَــنْ مَــرَّ بِــهِ خــاطَــبَــه بِــسَــيِّـدِي! . . .

الست هدى :

يَــرْحَــمُــهُ الله لَــقَــدْ أدَّبَــنِـي
حَتَّى عَــرَفْتُ كَيْـفَ تَخْـضَـعُ النِّسَـا؟

---

(١) الجخاخ: الذي يتفاخر كذباً، عامية.
(٢) بطيني: أي بأرضي.

زينب : أنْتِ؟. . .

الست هدى : أجلْ!. . أدَّبَني بِيَدِهِ ورِجْلِه وبالْعَصَا

زينب : كيفَ؟. . . مَتَى؟

الست هدى :

رَأى غُبَاراً عالِقاً بجَبْهَتِي
ولم أكُنْ أعْلَمُ مِنْ أيْنَ أتَى؟
فَقَالَ هَذَا التُّرْبُ مِنْ نافِذَةٍ
مَنْ كُنْتِ مِنْهَا تَنْظُرِينَ يا تُرَى؟. . .
وهَاجَ حَتَّى خِفْتُ أنْ يَقْتُلَنِي
وشَمَّر الذَّيْلَ وجَرَّدَ العَصَا
وَجاءَ بالنَّجَّارِ مِنْ سَاعَتِهِ
سدَّ الشبَابيكَ وسَمَّر الكُوَى
فقُلْتُ يَهْوَانِي وتِلْكَ غَيْرَةٌ
يا حبَّذَا الزَّوْجُ الغَيُورُ حَبَّذَا!
وقَبْلَهُ لَمْ أرَ مَنْ غارَ ولاَ
مَنْ ظَنَّ في قَلْبِي لِغَيْرِهِ هَوَى
يَرْحَمُهُ الله لَقَدْ ماتَ عَلَى
سَحْرِي ونَحْرِي بَعْدَ ما صلَّى الضُّحَى
ماتَ ولَمْ يَرْقُدْ له جَنْبٌ ولاَ
بدَتْ عَلَيْهِ عِلَّةٌ ولا آشْتَكَى

رَحَمَةُ الله عَليه لم يَكُنْ فَمُه يَذْكُرُ «أبعَادِيَّتِي»
وإذا ما جَاءَني أو جِئْتُه لم يُقَلِّبْ عَينَه في «صِيغَتِي»
لَكِنَّهُ في عُمْرِهِ ما حَلَّ عُقْدَةَ كِيسِهِ
يَقْتَاتُ من مال السِّوى لا مالِهِ وفُلُوسِهِ

كَـأنَّ الأَزْهـرَ المَعْمُـورَ بَيْتِي   هُنَاكَ «جِرَايةٌ» وهُنَا «جِرَايهْ»[1]
خَـلَّفَ الـشَّـيْـخُ مـن الأولَادِ مـا يَـمْـلأُ حَـارَهْ
قُـسِّـمَـتْ ثَـرْوَتُـهُ فِـيـهِـمْ فَـنَـالَ الـطِّفْـلُ بَـارَهْ

عِـشْـتُ مَـعَ الـشَّـيْـخِ نِـصْـفَ عـامٍ
وكـان بَـذْرِي بَـدا تَـمـامـا
ومـاتَ فـٱخْـتَـارَنِـي سِـوَاهُ
مَـنْ ذا يَـرى فَـعْـلَتِـي حَـرَامَـا؟

زينب :
أجـل، تَعِيشِيـنَ وتَـدْفِنِـينَـا   حَتَّى تُصِيبي مِنْهُـمُ البَنِيـنَـا

الست هدى :
أَتَـذْكُـرِيـنَ بـعْـدَهُ   مَـنْ جَـاءَ بَـيْـتِي يَـخْـطُبُ

زينب : مَنْ ذَاك؟ مَنْ؟

الست هدى : أنْتِ الَّتِي جِئْتِ بِهِ يَا زَيْنَبُ

زينب :
«مَهْـدِي» المُقَـاوِلُ الثَّـرِي   الـمـمْـتَلِي مِـنَ الـذَّهَـبْ

الست هدى :
قَـد ذَهَـبَ الله بِـهِ   أَجَـلْ، إلَـى الـنَّـار ذَهَـبْ
لـم يَـنْسَ أنْ يَـذْكُـرَ «أبْـعَـادِيَّـتـي»
مـا لِـلْغَـبـيِّ، ولِـطِـيـنـي مَـا لَـهُ
ولَـمْ يَـكُـنْ عِـنْـدَ الـطَّـعَـام يَـسْـتَحِـي
يَـأْكُـلُ مـالِـي ويَـعـدُّ مَـالَـهُ

---

(١) الأزهر: أي الجامع الأزهر، وكانت تُعقد به حلقات للدرس، كما كان يعطي كل دارس أرغفة من العيش يومياً. وكانت تسمى الجراية.

يَـرْحَـمُـهُ اللهُ وإنْ لَـمْ أرَ لَـوْنَ قِـرْشِـهِ
عِـشْتُ آثْـنَـتْـيـنِ مَـعَـهُ لَـمْ أنْـتَـفِـعْ بِـفَـرْشِـهِ
لَـوْ لَـمْ يَـمُـتْ لَـمِـتُّ مِنْ جَـخَّـتِـهِ وفَـشِّـهِ[1]
كـأنَّـمَـا تَـسَـرَّبَـتْ عِـمَـارَةٌ فـي كِـرْشِـهِ
يَـدِبُّ كـالـحَـلُّوفِ فِـي خُـرُوجِـهِ مِـنْ قَـشِّـهِ
ومـا آسْـتَـرحْـتُ لَـيْـلَةً مِـن طَـحْـنِـهِ ودَشِّـهِ
ومِـنْ تِـلاَلِ جِـيـرِهِ ومَـنْ جِـبَـالِ «دَبْـشِـهْ»[2]
ظَلَلْتُ عـامَـيْـن فـي بَـلاَءٍ وكـان بَـدْرِي بَـدا تمـامـا
ومـات «مَهْدِي» فكـانَ عَـوْضٌ مَن ذَا يَـرَى فَعْلَتي حَـرَامَـا

زينب :
أجـل. تَعِيشِينَ وتَـدْفِنِينَـا حَتَّى تُصِيبي مِنْهُـمُ البَنِينَـا

الست هدى :
ثُـمَّ آقْتَـرنْـتُ بِـمُـحَـامٍ عَـاطِـلِ
شِـرِّيبِ خَمْـرٍ يَحْتَسِيهـا في الـضُّحَى
قَـلَّتْ دَعَـاوِيـهِ وقَـلَّ مَـالُـهُ
وأَصْبَـحَ الْـمَـكْـتَـبُ مِنْـهُ قَـدْ خـلا

عبد المنعم المحامي [زوج الست هدى، وهو سكران، يصعد السلم]:
هُـدى، ، ضَـلاَلٌ، أيْـن أنْـتِ يـا هُـدَى؟
أيْـنَ الـعَـجُـوزُ؟ أيْـنَ جَـدَّتـي هُـدَى؟

الست هدى :
وَا نَـكَـدا «زَيْـنـبُ» وا داهِـيَـتَـا
لـقـد أتـى لَـمْ أدْرِ مِـن أيْـنَ أتـى
يَشْتمُ في السُّلَّمِ

(١) الفش: التفاخر كذباً، عامية.
(٢) الدبش: صغار الحجارة، عامية.

زينب :

خَلِّيهِ دَعِي لا تفْـرِضِيـهِ غَيْـرَ سكْـرَانَ هَــذَى
رأيتُه،

الست هدى : وكَيْفَ؟

زينب : مِنْ تَحْتُ وَقَدْ

كَـانَ مِـن الـسَّـقْـفِ أطَـلَّ وآنْـحَـنَـى
وكـانت الحَـارةُ منَّـا آمْتَـلأتْ فـأَرْسَـلَ القَيْءَ عَلَينَـا ورَمَى

الست هدى : القَيْءُ؟ ماذَا قُلْتِ؟

زينب :

قُـلتُ مـا رَأتْ عَيْنِي ومـا مَرَّ على رَأْسي وَمَـا

عبد المنعم : [وهو بالسلم]:

هُـدَى، عَـجُـوزَ النَّحْس، أنْـتِ قِـرْدَةٌ
خَـطُوطُـكِ الـوَحْـلُ وكُحْلُكِ العَمَى[1]

الست هدى : سَمْعتِ، يا زَيْنبُ؟

زينب : خَلِّيهِ، دَعِي

لا تـفْـرِضيـهِ غَـيْـر سَـكْـرانَ هَـذَى
ومَـرَّةً جـاءَ «أبَـا الـلِّيـفِ» ضُـحَّـى
أذَّنَ فـي الـنَّـاس يُـصَلُّونَ الـعِـشَـا
فَضِيحَةٌ في الخُطِّ!

الست هدى : وَافَضِيحَتَا!

زينب : ما شَهِدُوا في «الحَنفِيِّ» مِثْلَهَا

---

(١) الخطوط: بفتح وضم، مادة تخطط بها الحواجب.

عبد المنعم : [وهو بالسلم]:

هُــدَى، تـعَـالَيْ، يـا عَـتِيقَـةِ، اظْهَــرِي
عِـنْـدِي لــكِ النَّـعْــلُ وهْـذِه الـعَـصَـا

الست هدى : سَمِعْتِ يا زَيْنَبُ؟

زينب : خَلِّيه، دَعي
لا تَـفْــرِضِيــهِ غَـيْـرَ سَـكْـرَانَ هَـذَى

الست هدى :

دَعِيــهِ يَـهْـذِي مـا يَـشَـاَ غَـداً تَـرَيْـنَ زَيْـنَـبُ
فَـفِـي غَـدٍ لِـي وَلَـهُ شَـأنُ، غَـداً يُـؤَدَّبُ

زينب :

ومَـا الَّـذِي عَـزَمْـتِ يَـا حَـبِيبَـتِـي أنْ تَـصْـنَعِـي

الست هدى :

أقْــذِفُ فــي الـقِــسْـمِ بِـهِ وأشْـتَـكِـي وأدَّعِــي(١)
إنّ رِجَـالَ الـقِـسْـمِ ، والـنَّـائِـبَ والـقـاضـي مَـعِـي

[لزوجها]:

لـتَـنْـدَمَـنَّ يـا لُـكَـعْ يَـا مَـنْ يَـقُـومُ ويَـقَـعْ

عبد المنعم : [وهو بالسلم]:

مــاذا سَـمِعْـتُ؟ صَـوْتَـهَـا؟ أأنْـتِ بُـومَـتِـي هُـنَـا
الآن يـا جُـمَّـيْـزَةَ الـخُطِّ أُرِيـكِ مَـن أنَـا؟

زينب : هُـدَى، حَبِيبَتِي آسَمعِي تَـعَـالَيْ آهْـرُبِي مَعِي

الست هدى : أنَا؟

زينب : آسْمعِي، دَعِيهِ،

---

(١) القِسم: أي مركز الشرطة.

الست هدى : لَا

زينب :

دَعِيــهِ يــا هُــدَى، دَعِــي

لا تُــغْــضِــبــيــهِ إنّــهُ مُــمْــتَــلِئٌ، لَــيْسَ يَــعِــي

عبد المنعم : [وهو بالسلم]:

هُــدَى! هُــدَى! أَيْــنَ هُــدَى؟

أيْــنَ الــعَــجُــوزُ الــبــالِــيَــهْ؟

أَيْــنَ مَضَــيْتِ بُــومَــتِي؟ أيْــنَ ذَهْــبــتِ قُــفَّــتِي[1]

خَــدَّاكِ ضِــفْــدِعْــتَــانِ قَــدْ أَسَــنَّــتَــا

وأُذُنَــاكِ عَــقْــرَبَــانِ مِــنْ قِــنَــا[2]

وحــاجِــبَــاكِ وَالــخُــطُوطُ فِــيــهِــمَــا

كَــدُودَتَــيْــنِ آكْــتَــظَّتَــا مِــنَ الــدِّمَــا

وبَــيْــنَ عَــيْــنَــيْــكِ نِــفَــارٌ وجَــفَــا

عَــيْنٌ هُــنَــاكَ خَــاصَــمَــتْ عَــيْــنــاً هُــنَــا

الست هدى : دَعِيني أُقَطِّعْ عَلَيْهِ الحِذَاءَ وأَجْزِ الـوَقَاحَ على ذَنْبِهِ

دَعِــيــنِيَ أَضْــرِبْــهُ حَــتَّــى يُــفِــيــ

ــقَ فــلا بُــدَّ، زَيْنَــبُ، مِــنْ ضَــرْبِــهِ

قَــدْ جَــاءَ. . . هَــيَّ نَتَّقِــي جُنُــونَــه وهَــوَسَــهْ

فَفِي يَمِينِــهِ العَصَــا وفي الــشِّمَــالِ الــمِكْــنَسَــهْ

سَكْــرَانُ يَضْرِبْ إذَنْ لِنَهْــرُبْ هلُمَّ زَيْنَبْ

هَــذِهِ حُجْــرَةُ نَــوْمِي أَسْرِعِي ، زَيْنَبُ، فيهَــا

نَحْنُ، يــا زَيْنَبُ،لا نَــكْبَــحُ سَــكْــرَانَ سَــفِــيــهَــا

[تدخلان الحجرة، وتستتران وراء الباب]

---

(١) القفة: المَقْطَف الكبير، وبها تشبه العجوز المقعدة.

(٢) قنا: بلد في صعيد مصر مشهورة بالعقارب.

عبد المنعم : [وهو داخل يترنح]
هُدَى، ذاتُ الفَدَادِينِ، هُدَى

الست هدى : فَكَّرَ في طِينِي

عبد المنعم : مَنْ لِيَ بـالـزَّبَـرْجَـدِ؟ مَنْ لِيَ بـالـزُّمُـرُّدِ؟
يا لَيْتَ ذَاكَ في يَدي!

الست هدى : سَمِعْتِ؟ عَبـدُ المُنْعِمِ قَـدْ هَـامَ في خَـوَاتِمِي
[يجتاز «عبد المنعم» القاعة إلى حجرة نومه]

الست هدى :
زَيْـنَـبُ، آنْـظُرِي مـا الَّذِي صَنَـعْ؟

زينب :
جَـاءَ حَـجْـرَةً ثُمَّ فـآضْـطَجَـعْ[1]
فَلْنَدَعْهُ في النَّوْمِ فَلْنَدَعْ

الآنْ أَسْتَوْدِعُك الله هُدَى

مَحفُوظَةً،

الست هدى : لا تُهْمِلِينِي، زَيْنَبُ

[تخرج زينب]

[تسمع ضجة بالسلم . . .]

الست هدى : ما الصَّوْتُ؟ . . . ما أَسْمَعُ؟ مَنْ يا تُرَى؟
ما هٰذِه الضَّجَّةُ في السُّلَّمِ ؟
هـذا خَـطُوطِـي وكُـحْـلِي وتِـلْكَ صِـبْـغَـةُ شَـعْـرِي
لَـمْ أَنْسَ حُـمْـرَةَ خَـدِّي لَـمْ أَنْسَ زِيـنَـةَ صَـدْرِي
وهـذا الـثَّـوبُ مـا أَبْـهَـى! وهـذا الـخُفُّ مـا أَحْـسَـنْ!

(١) حجرة: ناحية.

ومِـنْـدِيـلِي عَـلَى رَأْسِـيَ مـا أحْـلى!.. ومـا أزْيَـنْ!...

وهٰـذِهِ خَـوَاتِـمِـي بِـهَـا يَـدِي مُـرَصَّـعَـهْ

وهَـذِهِ قَـلائِـدي فـي لَـبَّـتِـي مُـلَمَّـعَـهْ[1]

إقْتَـرَب الصَّـوْتُ وتِـلْكَ أرجـلُ

تَـدِبُّ عِـنْـد الـبَـابِ، مَـنْ؟

أصوات : هَلْ نَدْخلُ؟؟

الست هدى : أُدْخُلْنَ!.. أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَباً بالحَبَائِبِ

[تـدخل أربـع فتيـات من بنـات الجيـران: «خـديجـة» و«أسمـاء» و«بهية» و«إقبال»]

خديجة : صَبَاحَ الخَيْرِ يا عَمةُ

الست هدى : صُبِّحْتُنَّ بالخَيْرِ

«خَـدِيـجَـةُ» آبْنَـتي هُـنَـا؟ هَـذا هـو الـتَّـفَـضُّـلُ

خديجة :

إنْ أنَـا بـالـعَـمَّـةِ لَـمْ أسَـلْ، فَـعَـمَّـنْ أسْـألُ؟

الست هدى : أنْـتِ آبْنَتِي سَـتَـأخـذيـنَ خـاتَمِـي الـزُّمُـرُّدَا

خديجة : اليَوم يا عَمَّةُ؟

الست هدى : لا!

خديجة : مَتَى إذَنْ مَتَى؟

الست هدى : غَدَا مِنْ بَعْدِ مَوْتي،

خديجة : لا تموتي، أنَا عَمَّتِي الفِدَا

(١) اللبة: موضع القلادة من العنق.

الست هدى : [لأسماء]

وأنـــتِ يـــا أَسْـمَـــا إذا مِـــتُّ غَـــداً
أَخَـــذْتِ هـــذا الـخَـــاتَـمَ الـــزَّبَـــرْجَـــدَا

أسماء : لا كَانَ، يا عمَّة، عشتِ الأَبدَا

اقبال : أَسْمَاءُ يا عمةُ مَخْطُوبَةٌ،

الست هدى : لِمَنْ؟

إقبال : لِشَيْخِ عُمْدَةٍ في الصَّعِيدْ!

الست هدى : حَذَارِ، يا أَسْمَاءُ، أنْ تَفْعَلِي

أسماء : أنَا؟ أبِي يَخْتَارُ لِي مَنْ يُرِيدْ

الست هدى : قُولِي لَهُ: العُمْدَةُ جَرَّبْتُهُ

أسماء : أقُولُ؟ مَنْ يَسْمَعُ أَوْ مَنْ يَعِي؟
إنَّ أبِي صَعْبٌ وَلا أَجْتَرِي

الست هدى : [لبهية] إِذَنْ دَعِينِي أنَا أَفْعَلُ، دَعِي
وأَنْتِ يا آبْنَتِي؟

بهية : خُطِبْتُ مِنْ زَمَنْ

الست هدى : مِنْ زَمَنٍ؟ تبارَكَ الله، لِمَنْ؟

بهية : لِضَابِطٍ في الجَيْشِ!

الست هدى : ضابِطٌ؟

بهية : أَجلْ

الست هدى : أحْسَنْتِ! أحْسَنْتِ! تَخيَّرْتِ الرَّجُلْ!

بهية :
مَـــا آخْتَرْتُ، يـــا عَمَّتِي، ولَكِنْ أبـــي وأُمِّي تـــخَـــيَّـــرا لِـــي

بَنَــاتُ مِصْــرِ خُـطِـبْـنَ لَـكِنْ لا يتنَــاقَشْنَ فـي الــرِجَــالِ
نُـبَــاعُ يــا عَـمَّـتِـي ونُـشْــرَى مــا نَحْنُ إلاَّ عُـرُوضُ مــالِ

الست هدى : [لأسماء]
وكَيْف أُختُكَ «بَنْبَا»

أسماء : تُقبِّلُ اليَدَ

الست هدى : عِشْتِ

أسماء : مَخْطُوبَةٌ هِيَ أيضاً

الست هدى : ماذا تَقُولِينَ بِنْتِي؟
مَـنِ الـكَـبِـيـرَةُ؟ «بَـنْـبَـا» أمِ الـكَـبِـيـرةَ أنْـتِ؟
عُمرُكِ بالتَّخْمِينِ

أسماء : لَسْتُ خَالَتِي مُخَمِّنَه
فــي رَجَـبَ الّــذِي مَـضَـى أتْـمَـمْـتُ عِـشْــرِيــنَ سَـنَـهْ

الست هدى : عِشْرُونَ أنْتِ يا آبْنَتِي إِذَنْ فمـا عُمْـرِي أَنَـا؟

أسماء : سِتُّونَ يا خَالَةُ؟

الست هدى : صَــهْ، لــم أَرَ مِـنْــكِ أرْعَـنَــا

أسماء : خَمْسَونَ يا سَيِّدتي؟

الست هدى : كَذبْتِ كِذْباً بَيِّنَا

أسماء :
إِذَنْ فَـفِـي الـعِـشْــرِيــنَ يَــا خَــالَــةُ أنْــتِ وأنَــا

الست هدى :
هَــذَا الــحَــدِيــثُ عَــبَــثٌ خُــذِي بِــنَــا فــي غَــيْــرِهِ
كُــلُّ آمْــرِيءٍ دَاخِــلُهَــا بِــرِزْقِــهِ وعُــمْــرِهِ

خديجة :

أُسكُتي، أَسماءُ، خَلِّي السِّنَّ ما هذا الفُضُولْ؟

هِيَ، يَا خالَةُ، حَمْقى لَيْسَ تَدْري مَا تَقُولْ

أَنْتِ، يا خَالَة، فيوَجْهِكِ قَدْ خُطَّ القَبُولْ

لا مَشِيبُ لا آصْفِرَارُ لا غُضُونُ لا ذُبُولْ

السِت هدى : سَمِعتِ، أَسْمَاءِ، عِلِّميها ما الْقَوْلُ؟

خديجة : بَلْ أَنْتِ عَلِّمِينَا

السِت هدى : صُنَّ جَمَالَ الوُجُوه صَوْناً فالسِّنُّ بالوَجْهِ لا السِّنِينَا

[يسمع صوت خارج الحجرة]

ما ذَاكَ عِنْدَ البَابِ؟ صَوْتُ رَجُلٍ؟

القادم : سَيِّدتي! . . . أَدْخُلُ؟

السِت هدى : «أَلمَازُ»، آدْخُلِ!

«أَلْمَازُ» آغا! . . .

الأغا : سَيِّدتي! . . .

السِت هدى : يا مَرْحَباً! يا مَرْحَبا!

الأغا : أَرْسَلَتْني حَرَمُ الباشَا

السِت هدى : أَعِدْ

الأغا : أَرْسَلتْنِي حَرَمُ البَاشَا إِلَيْكِ

السِت هدى :

هذا أغا البَاشَا آقْتَرِبْ ماذا وَرَاءَ القَادِمِ؟

الأغا :

أَحْمِلُ يا سيِّدَتي تَحِيَّةَ الهَوَانِمِ . . .

الست هدى :

بـالله، «أَلْـمَـازُ»، إلاّ جَلَسْـتَ بـالـقُـرْبِ مِنّـي
تُـحِـبُّ بُـنّـي فَـجَـرِّبْ بُـنَّ الـسَّـرايَ وَبُـنّـي

[تناوله قهوة]

مـا لِـلْهَوَانِمِ، «أَلْمَازُ»، لَيْسَ يَسـأَلـنَ عَـنّـي؟

الأغا :

نَـسِـيـتِ يـا سَـيِّـدتـي أَمْسِ، أَمَـا كُـنَّ هُـنَـا

الست هدى : ومَـنْ أَنـا حَتَّـى تَـزُورني الشُّـمُـوسُ مَـنْ أَنَـا؟

الأغا :

والـيَـومَ يـا سَـيِّـدتـي أَرسـلْنَـنِـي بـالـمَـرْكَـبَـهْ

الست هدى : جِئْتَ إذنْ في طلبـي؟

الأغا : أجَلْ، وتَحتُ، الْعَرَبَهْ

الست هدى : أَيَّتُهُنَّ يا أغَا؟

الأغا : «فِيكتُوريَا» المـقْفَّـلَة

ذَاتُ الـرَّفَـارِفِ الـخِـفَـا فِ والـسُّتُـور الـمُـسْـدَلَـهْ

رَكُـوبَـةُ الـهـانِـمِ فـي الأعْـيَـادِ والـمَـوَاسِـمِ
إلـى الـسَّـرَايَـاتِ مِـنَ الإنـشَـا إلى الـهَـيَـاتِـمَ[1]

الست هدى : [للفتيات]

«الجَـوانْتي» هُنَاك، «أَسْمـا»، انـظُريـهِ
أُنْـظُري، يـا «خَـدِيجـةُ»، الْفَـرْجِيَّـهْ[2]

[وهي تلبس]

---

(١) السـرايـات والإنشاء والهياتم: أحياء بالقاهرة.
(٢) الجوانتي: القفاز، عامية. والفرجية: ثوب واسع طويل الأكمام.

أنــظُري، «إقْـبَــالُ»، مــا أجْـمَــلَ هَــذِي الــفَــرَجِـيًّـا
أُنــظُري شَــالــيَ، «أســمــا»، كَـيْـفَ حَــلَّى كَـتِـفَـيّـا
ثُــمَّ آنْــظُرا هُـنَــاكَ يــا بِـنْـتـيَّ فَـوْقَ الــكَــنَـبَــهْ
مِــرْوَحَــةً مــن الــنَّــعَــامِ بِــيَــدٍ مُــذَهَّــبَــهْ
وخَــلِّيَــا هُــنَــاكَ لِــي مِــرْوَحَــةً
عــاجــاً وأُخْــرَى كُــلُّهــا مِن الــصَّــدَفْ

خديجة : [همساً]
أَسْمَاءُ! . . .

أسماء : أُخْتِي! . . .

خديجة :
أَبَيْتُ أم مَعْمَلٌ مِن مَرَاوِحْ؟

أسماء :
مـا تَصْنَعِينَ خـالَتي بهــذه المَــرَاوِحِ؟

الست هدى :
أنــا ابْنتي مُـولَعَــةٌ بهَــا وبـالـرَّوَائِـحِ
ذكَّــرتْـني «أَسْـمــاءُ»، لا تَنْـسَـيِ الــوَرْدَ
عَلَى الـرَّفِّ ولاَ اليَــاسَمِيـنَ

أسماء : خَالةُ، ماذَا؟

الست هدى : كُلُّ شَيءٍ عِنْدِي

أسماء : أأَنتِ سَمْعَانُ أم الماوَرْدِي[1]؟

---

(١) سمعان والماوردي: محلان تجاريان بالقاهرة.

الست هدى :

«أَسْمَا»، تَعَالي آنظري
كَيْفَ تَرَيْنَ رِجْلِيَا؟
هَذَا الحِذَاءُ هَلْ تُرَى
يَلِيقَ لِلفِكْتُورِيَا؟[1]

أسماء :

خَالَةُ، لا تُبَدِّلي
هذا الحذاء «مَمْلَكَهْ»[2]

الست هدى :

الله، يا بُنَيَّتِي
يَطْرَحُ فِيكِ البَرَكَهْ

[للأغا]

«ألمازُ» هَيِّ نَنْطَلِقْ طَالَ وُقُوفُ العَرَبَهْ
لا أَحَدٌ في الخُطِّ إلَّا آسْتَوْقَفْتَهُ العَربَهْ
فَحَارَةٌ قائِمَةٌ وحَارَةٌ مُنْقَلِبَهْ

الأغا :

سَيِّدتي لا تَخَافِي مَرْكَبَتِي لا تَعِزُّ

الست هدى :

«ألمازُ» أنْتَ ظَرِيفٌ ومَرْكَبَاتُكَ عِزُّ

[للفتيات]

قَدْ آنَ أن أجِيبَ دَعْوَةَ الأغا
هَيِّ ابنتَيَّ هَيِّ ألْبِسَانِي

[الفتيات يشتغلن بلباسها. . .]

---

(١) فكتوريا: كانت ملكة انجلترا حينذاك.
(٢) مملكة: أي غاية في الجمال، عامية.

الست هدى : [لخديجة وأسماء]

أنـتِ ابنَـتي وهــذِه فتَــاتــي   بَنَــاتُ جـارَاتِي وصَــاحِبَـاتِي

إذَا حُرِمْتُ النَّسْلَ هُنْ بَنَاتِي

وكُــلُّ مــا فَــوْقَ صَــدْرِي   وفــي يَــدِي مِـنْ «مَـصَــاغٍ»

وكُــلُّ شَــيْءٍ ببيتــي   لَــكُــنَّ بــعْــد دِمَــاغِــي

ستـار

الفصل الثاني

[في قاعة الدار
عبد المنعم يتناول طعام الفطور... الست هدى
عبد المنعم ينادي حلمي الكاتب وهو تحت...]

عبد المنعم : حِلْمِي!... تَعَالَ!...

حلمي : سَيِّدي!...

عبد المنعم : تَعَالَ يا ٱبْنِيَ، ٱصْعَدِ

[يحضر حلمي]

تَـعَـال قَـرِّبْ «شَـلْتَـةً» تَـعَـالَ هُـهُـنَـا اقْـعُـدِ
صُـبِّـحْـتَ بـالـخَـيْـرِ أهْـلاً

حلمي : يا صَبَّحَتكَ السَّعَـادَةْ
هـذا الفَـطُورُ سَيِّـدِي بِـصِحَّـةٍ وعَـافِـيَـهْ!

عبد المنعم : تَعَالَ جَرِّب هَذِهِ الصِّنَّاعَةْ

حلمي : لقد أكلتُ الفُولَ مُنْذُ سَاعَةْ

عبد المنعم : تِلْكَ بِضَاعَةٌ وذِي بِضَـاعَـهْ

حلمي : [وهو يأكل]

الـفُـولُ يـا سَـيِّـدي لَـذِيـذٌ

الـفُـولُ مِـن حَـارَة الـنَّـصَـارَى

والـعَيْشُ مِـن مَـخْبَـز الـرِّمـالـي

الست هدى : والزَّيْتُ مِنْ مَعْمَل البَدَارِي[1]

عبد المنعم :

الـبَـدَارِي! مـا تِـلْكِ؟ لا تِـلْكِ سُـوقٌ

قـد سَـمِعْنَـا بـهـا، ولا تِـلْكِ حـارَهْ!

حلمي ولَيْمُونُكِ، يا هَانِمُ

الست هدى : كالشُّهْدِ وكالسُّكَّرْ

حلمي : ومِنْ أَيْنَ بِهِ جِيءَ؟

عبد المنعم : مِن الجَنّة والكَوْثرْ

الـفُـولُ، يـا حِلْمِـي، لَـذِيـذٌ، فكُـلْ

وخَـلِّ مـا تَـسْـمَـعُ مِـنْ دَشِّـهـا

فَـمَـا عَـلَى الـدُّنْيَـا سِـوَى أَكْـلِهَـا

ولا عَـلَى الأَرْضِ سِـوَى فَـرْشِـهـا

كُـلْ، كُـلْ، ولا تُصْـغ لَهَـا فـإنَّـهَـا مُـمَـخْـرِقَـهْ[2]

وكُـلّ شَـيْءٍ لـم يَـكُـنْ قـادِرَةٌ أن تَـخْـلقَـهْ

الست هدى :

لا أَيُّـهـا الـفـاضِـلُ، لَا مـا أنـا بـالـمُـحَـامِـيَـهْ

أُثِـيـرُ مِـنْ شِـقْـشِـقَـةٍ زَوْبَـعَـةً فـي آنِـيَـهْ[3]

---

(١) الرمالي: صاحب مخابز مشهورة عرفت باسمه.

(٢) ممخرقة: تختلق الحديث.

(٣) الشقشقة: شيء كالرئة يخرجه الجمل من فيه إذا هاج وهدر.

حلمي : وما ذَاكَ يا سَيِّدي في يَدَيْكَ؟

عبد المنعم : أَلَذُّ مِن اللَّبَنِ المُزْبدِ
زَبْيَبٌ

حلمي : عَلَى الرِّيق؟

عبد المنعم : لا يا غَبِيٌّ!
على الفُول!

حلمي : أفْظعُ، يا سَيِّـدي

الست هدى :
نَـحْنُ يـا حِـلْمِي هَـلَكْـنَـا أَصْبَـحَ الـمَـنْـزِلُ حـانَـهْ
صَـارَ لا يَـكْفِـي الـمُـحَـامِي كُــلَّ يَــوْمٍ جَـمْـدانَـهْ[1]

زينب : [لدى الباب]
العَوَافي!

عبد المنعم : صَوْتٌ لَدى البَابِ

الست هدى : هَذِي زَيْنَبُ جارَتِي، تَعَالي تَعَالِي
[لزوجها]
خَبِّيء الـخَمـر أَخْفِ ما أَنْتَ فِيهِ

عبد المنعم : دَعْنَني، دَعْنَ، ما لَكُنَّ ومالِي؟

الست هدى : أُدخُلِي، جارَتِي، آدْخُلي، هَيَّ خُشِّي
[لزوجها]: خَبِّيءِ الخَمرَ!

عبد المنعم : أَتْرُكِيني وحَالِي

---

(١) الجمدانه: أناء من الزجاج كبير.

السّت هدى : أُدخُلِي، زَيْنَبُ، آدْخُلي لا تَهَابي

زينب : مَنْ هُنا؟ قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رِجَال

السّت هدى : الأفنْدِي وسِكْرِتير الأَفَنْدِي
أُدْخُلِي، لا غَرِيبَ زَيْنَبُ عِنْدِي

زينب : الأَفَنْدِي! وتَقُولِين آدْخِلِي؟

السّت هدى : أُدْخِلِي لَيْس سِوَاهُ ها هُنَا
ما الَّذِي تَخْشَيْنَ يا أُخْتُ، آدْخُلِي

زينب : لا، دَعِيني... أنَا لَمْ أَنْسَ العَصَا

[زينب تنصرف مذعورة، ويظهر «ألماز أغا» لدى الباب]

الماز أغا : صَبَاحَ الخَيـر، يا هانِمُ

السّت هدى : مَنْ؟ صُبِّحْتَ بالخَيْرِ

[لزوجها]

هَـذا أغـا البَـاشَـا أَتَى — وفِـيمَ جـاءَ يـا تُـرَى
إرْمِ الزَّبِيبَ مِنْ يَدَيْـكَ — فَهُـوَ مِنْ أَهْـلِ التُّقَى(١)

عبد المنعم :
لِـيَنْـصَـرِفْ لِشَـأْنِـهِ — فـمـا لَـهُ ومـا لَنَـا؟

السّت هدى : إرْمِ الزَّبِيبَ قُلْتُ

عبد المنعم : لا

السّت هدى : يَسْتَهْزِئُ النَّاسَ بِنَا
قُمْ آمْضِ حِلْمِي بـالـزَّبِيبِ، بَـلْ بِـهِ أَمضِي أَنَـا

[تخبيء الزبيب... فيدخل الأغا]

---

(١) الزبيب: نوع من الشراب يُسكر.

الأغا : سَيِّدتِي، عِنْدَكِ ناسٌ؟

الست هدى : ما سِوَى زَوْجِي هُنَا

أغا : [للزوج]

عـافِـيَـةً يـا سَـيِّـدي هـذَا فَـطُورٌ أم غَـدَا ؟

عبد المنعم :

أَدْنُ تَـفـضَّـلْ، كُـلْ مَـعِـي فَـولٌ لَـذِيـذٌ يـا أَغَـا

الأغا :

بِـصِـحَّـةٍ يـا سَـيِّـدي أَكَـلْـتُ مِـنْ وَقْـتٍ مَـضَـى

عبد المنعم :

لَا، لَا، بَـل آدْخُل، يـا أغَـا أُدْخُـلْ مَـكَـانـاً غَـيْـرَ ذَا

هـذا الـمَـكَـانُ قَـذِرٌ خُـذِيـه ثَـمَّ، يـا هُـدَى

الأغا :

يا حَبَّذا الْمَجْلِسُ لَـوْلَا شُغُلٌ دَاعٍ لَقضَّيْتُ الـنَّهـارَ هـهُنـا

حلمي : وما الَّذِي يَشْغَلُكَ الآن؟

عبد المنعم : وما يَعْنِيكَ يا أَحْمَقُ مِنْ شَأنِ الأغَا؟

الأغَـواتُ تَنْقَضِي أَعمـارُهُمُ بَيْن السَّـرايَاتِ هُنَـاكَ وهُنَـا

[همساً]

أتْـرُكْـهُ يَـمْضِي، يـا غَـبـي فَـلَا أُرِيـدُهُ هُـنَـا

حلمي [للأغا] : أنتَ ظَـرِيفٌ، يا أخي

الأغا : أَنْتَ الظَّرِيفُ لا أنَا

[للمحامي]

ما آسمُ أخِينَا؟

عبد المنعم : ذاكَ «حِلْمِي» كاتِبي

الأغا : السكْرِتيرُ؟ . . . مَرْحَباً يَا مَرْحَبَا
والآنَ في حِرَاسَة الله

حلمي : آنْتَـظِـرْ، يا سيِّدِي

عبد المنعم : [همساً]
دَعْهُ

حلمي : انْتَظِرْ نَخْرُجْ مَعَاً

عبد المنعم : وأَيْنَ يا حِلْمي؟

حلمي : أُشَيِّعُ الأغَا

الأغا : لا، سَيِّـدِي، بـالله

حلمي : لا،

الأغا : بَلْ ابْقَ!

حلمي : لا

الأغا : لي كِلْمَةٌ يا سَيِّدِي أَقُولُهَا لِلْهَانِم

عبد المنعم[مبتسماً]: آذْهَبي مَعَ الأَغا هُدَى

الأغا : يا سَيِّدي الهانِمُ أُخْتِي لا تَخَفْ

حلمي : أُنْظُرُ إليه ما أخَفَّه دَمَا

عبد المنعم : إمْضِي هُدَى هَلُـمَّ شَيِّعي الأَغَا
الأُخْتُ يا هُدَى تُشَيِّعَ الأخـا

[السيدة والأغا يخرجان]

الـحـمـدُ لله عـلى نِـعْـمَـتِـهِ زالَ الـعَـنَـا
أَشْـــرِبُـهـا؛ فـــلا هُـــدَى ولا الـطَّـواشِـيُّ هُـنَـا[1]

---

(١) الطواشي: الخصي.

لِــي سَــاعَــةٌ مــا ذاقَــهــا   أنْــفِــي ولا ذَاقَ فَــمِــي

[ويخرج الكأس من مخبئها بين قدميه]

حَــتَّــى لَــكِــدْتُ مِــنْ ظَــمَّــى   أَشْــرَبُــهَــا بِــقَــدَمِــي
حُــرِمْــتُ مِــنْــهَــا سَــاعَــةً   وأَنْــتَ كُــنْــتَ الــسَّــبَــبَــا
سُــبْــحَــانَ مَــنْ لَــمْ يُــعْــطِكَ الــفَــهْــم وأَعْــطَاكَ الــغَــبَــا
الآن تَــأْتي هُــدَى فكُنْ فَــطِنــاً   حِلْمِي وكُنْ ثَعْلَبــاً وكُنْ حَذِرًا
إنَّ هُدَى ذِئْبَةٌ

حلمي : عَليَّ أَحِلْ
سَــوْفَ تَــرَى مــا أكُــونُ، سَــوْفَ تَــرَى
مــا ذَاكَ أوَّلَ نَــصْــبٍ   جَــرَّبْــتَ فِــيــهِ صَــبِــيَّــك

عبد المنعم :
إحْفَظْ لِسَــانَكَ، حِلْمِي   فَــمَــالُ زَوْجِــيَ مَــالِــي
حــلْــمــي صَــهٍ هَــا هِــيَ ذِي عــائِــدَةٌ
مَــنْ يَــفْــتَــحُ الــحَــدِيــثَ؟ أَنْــتَ أم أَنَــا؟

عبد المنعم : بَلْ أَنْتَ ثُمَّ خَلِّ لي تَمَامَهُ

حلمي : ولِمَ لاَ نَقْتَحِمُ النَّار مَعَا

[تدخل هدى]

عبد المنعم : هُدَى

الست هدى : لَقَدْ كُنتَ غَلِيظاً جَافِياً
ولَمْ تُعَظِّمْ الأغَا

عبد المنعم : قَدْ كُنْتُ مَشْغُولاً بِلُقْمَتي هُدَى

الست هدى : تُعَاقِرُ الخَمْرَ ضُحَى!
ولَــوْ رَآكَ لَــجَــرتْ فَــضِــيــحَــةٌ

عبد المنعم : لكن مَضَى وَمَا رأى! . . . .

حلمي : رَأَيْتِ سَيِّـدي وكَيْف ساسَـهُ؟ وكَيْفَ دارىَ وَٱتَّقى
لأجْلِ عَيْنَيْكِ رَمَى الزَّبِيبَ مِنْ يَدَيْهِ

الست هدى : ألرِّجْسَ رَمَى!

عبد المنعم : الآن أَصْغِـي، يا هُدَى، مَسْـأَلـةٌ آنَ بِهَـا أنْ يُعْتَنَى

الست هدى : وبِمْ تُرِيدُ أَعْتَنِي؟

عبد المنعم : بمكتـبي،

الست هدى : وما الَّذِي لَهُ جَرَى؟

عبد المنعم : يَكَادُ مَكْتَبِي يَكُونُ مُقْفَلاً

الست هدى : ما ضَرَّني أنْ يُقْفَلا

حلمي :
سَيِّـدَتِي المَكْتَبُ «أَبْعـادِيَّـةٌ» هَـل تَـتْـرُكَـانِـه سُـدَى؟
غـلّـتُـهُ أَلْـفَـان كُـلَّ سَنَـةٍ

الست هدى : وكَيْفَ ذَاكَ؟ ومَتَى؟

حلمي : بَلْ زَادَ عَنْ ذٰلك، يا سيِّدَتِي
بالأَمْسِ، مِنْ عامٍ مَضَى

الست هدى : وما الَّذي تُرِيدُ أنْ أَصْنَعهُ؟

حلمي : مُدِّي لِزَوْجِكِ اليَدَا

الست هدى : وكَيْفَ، يا حِلْمِي؟

حلمي : نَبِيعُ الطِّينَ أو نَرْهَنُهُ إلى مَدَى

الست هدى :
طِـينـي أنَـا أَبِيـعُـه، أَرْهُـنـه؟ مـاذا تَـقُـولُ يـا فَـتَـى؟

حلمي : لَقَدْ عَرَضْتُ صَفْقَةً رابِحَةً

إنْ أُنْقِذَ المَكْتَبُ أَنْقذْنَا الغِنَى

الست هدى : حِلْمي تَعَقَّل!

حلمي :

دَعِيني «المِتْـرُ» أُغْـرِق دَيْـنَـا[1]

كُـنّـا نُقِـيمُ الـدَّعَـاوَى صَـارتْ تُـقَـامُ عَـلَيْـنَـا

فــي كُـلِّ يَـوْمٍ يَـطْلُبُـونَ الْـمِـتْـرَ بـالْـمُـقَـدَّمِ

وَيْـلِي عَلَيْـكَ، سَـيِّـدي وَيْـلِي عَلَي مُـعَـلِّمِـي

غَـداً تَـرَيْـنَ سَـيِّـدي فـي قَـفَصِ الْـمُـتَّـهَـمِ

الست هدى : [لنفسها]

أَتَـسْـمَـعِـيـنَ يـا هُـدَى؟

إبْكِي هُـدَى، انْـدُبـي، الْـطِمِي

غَداً يَقُولُونَ: هُدَىتَزَوَّجَتْ بمجرمِ

حلمي :

الْـمُـحَـامِـي عَـلَيْـهِ لِـلنَّـاسِ دَيْـنٌ

تَـصْلُحُ الْـحَـالُ حِـيـنَ نَـخْلُصُ مِـنْـه

دَيْـنُـه أَنْـتِ تَـقْـدِرِيـنَ عَـلَيْـهِ

مـائـتـا لِـيـرَةٍ؛ فـأَدِّيـهِ عَـنْـهُ

الست هدى : أؤدِّي الدَّيْنَ، يا حِلْمِي؟ ومِنْ أَيْنَ؟

حلمي : مِن الطِّينِ

الست هدى :

ومـاذا بَـعْـدُ يَبْـقَـى لِـي إذا بِـعْـتُ فَـدَادِيـنِـي؟

---

(١) المِتر: الأستاذ المحامي. فرنسية.

[لنفسها]

لَـوْلاَ فَـدَادِيني وغَـلاَّتُـهَـا   مَـا طَـافَ إنْسَـانٌ عَلَى بَـابِي

بِهَـا تَـزَوَّجْتُ وفِي قُـطْنِهَـا   كَـفَّنْتُ أَزْوَاجِـي وخُـطَّابِـي

[لحلمي]

أنـا أُؤدِّي الـدَّيْـنَ عَـنْـه! أنَـا

مـا تَسْتَحْي، يـا شَـابُّ، مـا تَـخْجَـلُ؟

حلمي :

أَلَسْتِ، يـا سيِّـدتي، زَوْجَـهُ   والـزَّوْجُ عن صاحِبِهـا تَحْمِـلُ

الست هدى :

أَحْمِـلُ عَنْ مُسْتَهتَرٍ، يَـوْمَـه   ولَـيْلَهُ سَـكْـرَانَ لا يَعْقِـلُ؟

[تنادي]

رِضْوَان!...

[يَدخل رضوان]

رضوان : مَنْ؟ «سِتّي»؟

الست هدى : [همساً] رِضْوَان!...

رضوان : مَوْلاَتِي!...

الست هدى :

إذْهَـبْ عَـلَى الـفَـوْرِ أدْعُ صَـدِيـقَـاتِـي

[يخرج رضوان]

[عبد المنعم يتمشى مغضباً]

عبد المنعم : [لحلمي]

قَـدْ قُلْتَ، يـا حِلْمي، الصَّـوَابَ إسْمَعِي هِـذا هُـو الصِّدْقُ

هُدَى

مَكْتَبِيَ الثَّـروَةُ مَكْتَبِي الغِنَى   لا مَـكْـتَـبُ إلاَّ أنـا

الست هدى :

أَنْتَ؟ لأَنَت حـانَـةٌ تنقَّلت وأَنْــتَ بِـرِمِـيـلُ مَـشَـى
وأَنْتَ شَيْءٌ في الرِّجَالِ ضائعٌ وَعَــالَـةٌ عــلى الـنِّـسَـا

حلمي :

سَـيِّـدَتـي لا تَـشْـتُـمِـي سَـيِّـدَتي لا تَـغْـضَـبـي
طِـيـنُـك قَـدْ تُـرْجِـعُـهُ قـضِـيَّـةٌ فـي الـمَـكْـتَـبِ

عبد المنعم :

إنِّــيَ لَـمْ أَخْـطُبْكِ، يَـا هُـدَى لِـفَـرْطِ حُـسْـنِـكْ
ولا تَـزَوَّجْـتُـك ، يـا صَـغِـيـرَتـي لِـسِـنِّـكْ
ولا وَقَـعْـتُ فـي الـبَـلَا ءِ لِـسَـوادِ عَـيْـنِـكْ

الست هدى : إذن، لِطيني بِي تَزَوَّجتَ؟

عبد المنعم : أجَلْ، لِطِينكْ

الست هدى : وأنـا يـا مُحـامِيَ الشُّـومِ مـا آخْتَـرتُـكَ للقُبْـحِ والمُحَيَّـا الدَّمِيمِ

عبد المنعم :

هَــذَر بَــيِّـنٌ وقَــوْلٌ هُــرَاءٌ لِمْ إذَنْ قـد قَبِلْتِني لَـكِ بَعْـلاً

الست هدى :

ذَكَـرَ الـخَـاطِـبُـونَ فَـضْـلَكَ عِـنْـدي
فـإذا أَنْــتَ لَـسْـتَ لـلفَـضْـلِ أَهْـلاَ

عبد المنعم :

إذن دَعِـي الـزَّبَـرْجَـدَا لِـي ودَعِـي الـزُّمُـرُّدَا
وكَـلَّ مـا حَـلَّـيـتِ مِـنْـهُ الـكَـفَّ والـمُـقَـلَّدَا[1]

---

(١) المقلد: موضع القلادة.

السست هدى :
ولِمْ؟ قُـلْ لِي: أمـالُ أبِيـكَ هَـذَا؟
أأُمُّـكَ خَـلَّفَـتْ هَـذِي الـحُـلِيَّـا؟

عبد المنعم : أَلَسْتُ الزَّوْجَ؟

الست هدى : لا ما أَنْتَ زَوْجُ

عبد المنعم : فَمَا أَنَا؟

الست هدى : بـل طُفَيْلِيٌّ عَلَيَّا

عبد المنعم : هاتِي مَصُوغَكِ

الست هدى : لَا

عبد المنعم : إذَنْ لا بُـدَّ لِـي مِنْ فَلْقِ رَأْسِـكْ

الست هدى :
تَـضْـرِبُـنْـي؟ أهٰـكَـذَا يَـكُـونُ شُكْـرُ الـحَسَـنَـهْ؟

[وتتناول عصا]

تَـضْـرِبُـنـي أنَـا الَّـتِـي تَـأْكُـلُ زَادِي مِـنْ سَـنَـهْ

عبد المنعم :
حِلْمِي! . . . تَقَّـدّم نَحْـوَهَـا خُـذ الـعَـصَـا مِن كَـفِّـهَـا
حِلْمِي آخْتَـطِفْ مِنْهَـا العَصَـا

حلمي : ما حَاجَتي بِخَطْفِهَا؟
أَمَـا تَـرَاهَـا كـالـلّبَـاةِ فِـي مُـشَـارِ عُـنْـفِـهَـا[1]

عبد المنعم :
طِـرْ يـا جَـبَـانُ، وآنْـتَـزِعْ مِن الـخَـبِـيـثَـةِ الـعَـصَـا

---

(١) اللباة: اللبؤة.

حلمي :

بَـل الـجَبَـانُ مَـنْ يُـجَـرِّدُ الـعَـصَـا عَـلَى الـنِّـسَـا

تُـرِيدُ أنْ تَـأْخُـذَ بـالقُـوَّةِ مِنْهَـا مـالَهَـا؟

فما لَهَا لا تَسْتَمِيتُ في الدِّفاعِ مـا لها؟

الست هدى :

يـا وَيْلَتَا، واخَجَلِي وعَـارِي لِـي رَجُـلٌ بـأُذُنَـيْ حِـمَـارِ

أُضْحُوكَةُ الجارَةِ، شُغْلُ الجَارِ لم يُـرَ إلاّ طَافِحـاً في الدَّارِ[1]

ثِيَـابُـهُ كفُـوطَـةِ الـخمَّـارِ تَنْضَـحُ بـاللَّيْـلِ وبـالنَّهَـارِ

عبد المنعم :

أَتَسْمَعُ حِلْمِي كَلاَمَ العَجُـوزِ؟ ومـا تقـذف الـرِّمَّـةُ البـالِيَـهْ؟

أَخَـذْتُ عَصَـايَ لِتَـأديبِهـا فَجُـرَّ عَصَـاكَ وقِفْ نـاحِيَـهْ

حلمي :

رَأَيْـتُ رِجَـالاً يَـضْـرِبُـونَ نِـسَـاءَهُـمْ

فشُـلَّتْ يَـمِينِي يَـوْمَ تُـضْـرَبُ زَيْنَـبُ[2]

[تدخل زينب ثائرة وراءها نساء من الحارة]

زينب :

مَـنْ قَـالَ تُضْـرَبُ زَيْـنَـبُ؟ مَنْ قَـالَهَـا؟ أنـا أُضْـرَبُ؟

مَنْ قـال ذَلِـكَ يـا هُـدَى؟ لأُرِيـهِ كَـيْـفَ يُـؤَدَّبُ

الست هدى :

مـا قَـالَهَـا كـاتِـبُ المُحَـامِي وإنَّمَـا قَـالَهَـا الـمُحَـامِي

زينب : إذَنْ هو السِّكِّير يا أخْتُ

---

(١) طافح : أي آكل، عامية.

(٢) زينب: بيت قديم.

الست هدى : أجَلْ

زينب : ما تَستَحِي تَقُولُ ذاكَ يا رَجُلْ؟
مُنْذُ مَتى فارَقَ وَجْهَكَ الخَجَلْ؟

الست هدى :
دافِعي، زَيْنَبُ، عَنّي شارِكيني ما أُقاسِي
مُنْذُ حِينٍ أَوْعَدَ السِّكِّيرُ أنْ يَفْلَقَ راسِي
إنْ أنا لَمْ أُعْطِهِ دُرِّي ويَاقُوتي ومَاسِي

زينب :
إذنْ دَعِيني دَعِيني هُدَى دَعِينِي أَنْزِلْ عَلَى زَوْجِكِ آنْتِقَامِي

عبد المنعم :
حِلْمي تَأَمَّلْ هَذِهِ عِصَابَةٌ
مِنْ خَدَمِ البَيْتِ ومِنْ بَعْضِ النِّسَا
قَدْ نَظَرَتْ في البَيْتِ حَتَّى جَمَعَتْ سِلاحَهَا مِن هُهُنَا وهُهُنَا
زَحَّافَةٌ مِكْنَسَةٌ مِغْرَفَة ونَحْنُ ما فِي يَدِنَا غَيْرُ العَصَا
حِلْمي تأَهَّبِ آسْتَعِدَّ دافِعِ

حلمي : قِفْ أَنْتَ، عَنْ رَأْسِكَ حامٍ، رافِعِ
أسَامِعٌ أمْ أنتَ غَيْرُ سَامِعِ ؟
أُنْظُرْ إلى الزَّحَّافَهْ تَدُورَ فِي لَطَافَهْ كَعُنُقِ الزَّرَافَهْ

عبد المنعم : وتِلْك؟

حلمي : تِلْكِ المِغْرَفَه كالعَقْرَبِ المُؤلَّفَهْ

النساء : [يضربن المحامي ويقلن]

إضْرِبْنَهُ حَتَّى يَقَعْ
إضْرِبْنَهُ، خُذ يا لُكَعْ

كَـيْـفَ تَـرَى؟ أيْـنَ الـوَجَـعْ؟

عبد المنعم : أَجِرْنِي، حِلْمِي، تَعَالَ آحْمِنِي

حلمي : أنا؟ خَلِّنِي، خَلِّنِي، أَهْرُبِ
عَـلَيَّ مِـن الـيَـوْمِ لا تَـعْـتَـمِـدْ
فـإنِّـي آسْـتَـقَـلْتُ مـن الـمَـكْـتَـبِ

عبد المنعم : [لحلمي وهو منصرف]
قِـفْ يـا جَـبَـانُ تَـعَـالَ!... قُـلْتُ

حلمي :
لا تَـنْـتَـظِرْنـي إنِّـي آسـتَـقَـلْتُ
أنْـتَ تَـعَـرَّضْـتَ لِـذَا إبْقَ!... خُـذ الزَّبَـرْجَـدا
وأَنْـتَ كُـنْـتَ الـمُـعْـتَـدِي أَقِـمْ!... خُـذِ الـزُّمُـرُّدَا
إنِّـي مُـسْـتَـعْـفٍ

عبد المنعم : والأجْـرُ؟ نَـنْـسَـاهُ؟

حلمي :
الأَجْـرُ قَدْ ضَـاعَ يُـعَـوِّضُ الله!

الست هدى :
زَيْـنَـبُ تِـلْكَ صَـخَـرةٌ بِـغَـيْـرِ حِسٍّ فَـاضْـرِبِـي
[تضربه]
أَسمَا، خَـدِيجَـةُ، آضْـرِبَـا رِضْـوَانُ أَدِّبْ أَدِّبِ
هَـذا هُـوَ الـفُـولُ فكُـلْ هـذا الـزَّبِـيـبُ فـآشْـرَبِ
خُـذْ مِنْ يَـدِي الـزَّبَـرْجَـدَا خُـذْ مِـنْ يَـدي الـزُّمُـرُّدا
وخُذْ إن اسطعـت اليَدَا

عبد المنعم :

حَسْبِي هُدَى كَفَى كَفَانِي ضَرْبَا

قَدْ كَانَ هَذَا اليومُ لِي مُخَبَّا[1]

سَلَّمتُ رايَتِي فكُفِّي الحَرْبَا

الست هدى : إنْ أنَا خلَّصتُك ماذا تَصْنَعُ؟

عبد المنعم : أَذْهَبُ!

الست هدى : ثُمَّ؟

عبد المنعم : أبداً لا أَرْجِعُ

الست هدى : أُخْرُجْ إذَنْ وَلِّ القَفَا يا لُكَعُ

قِفْ يا مُحَامي لِي آسْتَمِعْ وآسْمَعْنَ يا مَنْ هَهُنَا

النَّذْلُ قَدْ رَدَّ الطَّلاَقَ لِمَشْيئَتِي أنَا

[تخرج عقد زواجها]

عِصْمَتِي مِنْكَ في يَدِي شَهِدَتْ لِي الوَثَائقُ

إمْضِ يا نَذْلُ لا تَعُدْ إنَّكَ اليومَ طَالِقُ

---

(١) مخبا: أي مخبأ.

الفصل الثالث

[بحجـرة بالـطبقـة العليـا من دار المـرحـومـة «الست هـدى».
«السيدالعجيزي» من أعيان الريف وزوج المرحومة «الست هدى»]

العجيزي : [لنفسه]

الـمَـالُ صـار، يـا عَـجُـوزُ، مـالِـي
وأَصـبَـحَ الـبَـيْـتُ ومـا حَـوَى لِـي
مِنْ بَعْدِ عشْرةٍ من الرِّجَالِ
نَـعَـمْ رِجَـالٌ كَـثِـيـرٌ مـاتُـوا بحَسْـرَةِ مَـالِـكْ[1]
كُـنْـتُ الـمُـوَفَّـقَ وَحْـدِي لـمَّـا ظَـفِـرْتُ بِـذَلِـكْ
الـطِّيـنَ في «بَـنْـهـا» كـمـا قِـيـلَ لِـي
مـن أجـوَدِ الأَطْيـانِ فـي الـنَّـاحِـيَـهْ[2]
وفي الضَّـوَاحِي يـا عَجِـيـزِي ٱبْتَـهِـجْ
مـا قِـيمـةُ الـفَـدَّان في الـضَّـاحِـيَـهْ؟
والـبَـيْـتُ مِـلْكٌ قَـيِّـمٌ وإنْ مَـشَـى فِـيـه الـقِـدَمْ

---

(١) مالك، هو ابن عمرو نديم جذيمة الأبرش، وكان جذيمة قد أقصاه عن منادمته.
(٢) بنها، وبالكسر: إحدى مدن مصر.

مُـهَـنْـدَمٌ مُـنَـوَّرٌ مِـنْ رَأْسِـهِ إلـى الـقَـدَمْ
بـأَيْـسَـرِ الـبَـيَـاضِ والـتَّـرمِـيـمِ يَـحْـيَـا مِـنْ عَـدَمْ
مـا قِـيـمَـةُ الـبَـيْـتِ يـا عَـجِـيـزِي
ومـا يُـسَـاوِي إذا يُـبـاعُ
قـد قِـيـلَ أَلْـفٌ، وقـيـلَ أَغْـلَى
أَلْـفٌ ونِـصْـفٌ كـذا يُـشَـاعُ
والـفَـرْشُ شَـيْءٌ حَـسَـنٌ الـفَـرْشُ لا بَـأْسَ بِـهِ
لا بُـدَّ مِـنْ تَـنْـجِـيـدِهِ لا بُـدَّ لِـي مِـنْ قَـلْـبِـهِ
الـكَـنَـبَـاتُ خَـشَـبٌ زَانٌ وسِـنْـدِيَـانُ
قَـيِّـمَـةٌ يَـبْـدُو عَـلَى صـانِـعِـهـا الإتْـقَـانُ
وهَـذِهِ سَـجَّـادَةٌ نـادِرَةٌ ذَاتُ ثَـمَـنْ
وهَـذِه أُخْـرَى عَـلَـيْـهَـا قَـدَ تَـقَـادَمَ الـزَّمَـنْ
وصِـيـغَـةُ الـعَـجُـوزِ والـحُـلِيُّ
أيـنَ تُـرى مَـوْضِـعُـهـا الـخَـفِـيُّ؟
أَسْـأَلُ «رِضْـوَانَ» فَـمَـا لِـي غَـيْـرُهُ مِـنْ مُـرْشِـدِ

[ينادي]

رِضوان! . . .

رضوان : مَنْ ذَاكَ يُنَادِيني؟ أَأَنْتَ سَيِّدِي؟

العجيزي :

رِضْـوَانُ أَنْـتَ صَـادِقٌ تَـعَـالَ «رِضْـوَانُ» آصْعَـدِ!

[يحضر]

رِضْـوَانُ قُـلْ يَـا وَلَـدِي أَيْـنَ مَـكَـانُ الـصِّـيـغَـةِ؟
فِـي أيِّ مَـوْضِـعٍ تُـرَى جَـوَاهِـرُ الـمَـيِّـتَـةِ؟

رضوان : مَصَاغُهَا يا سَيِّدِي لَيْسَ هُنَا

العجيزي : أَيْنَ إذَنْ؟

رضوان : في مَنْزِل الباشا «صَفَرْ»
قَدْ ذَهَبَ الأَغَا بِهِ في عُلْبَةٍ

العجيزي : مُنْذُ مَتَى؟

رضوان : مِنْ نَحْوِ شَهْرٍ قَدْ غَبَرْ

العجيزي : في المَرَضِ الأَخِيرِ؟

رضوان : في أوَّلِهْ

العجيزي : وأَيْنَ كُنْتَ؟

رضوان : كُنْتُ في بَعْضِ السَّفَرْ

العجيزي : أمانَةٌ ثُمَّ تُرَدُّ

رضوان : سَيِّدي أَعْلَمُ مِنِّي بالدَّخَائِلِ الأُخَرْ

العجيزي : وكُنْتَ أَنْتَ حاضِراً؟

رضوان : أَجَلْ حَضَرْتُ يَوْمَ ذَاكَ، وخَدَمْتُ مَنْ حَضَرْ

[صوت من الطبقة السفلى]

يا صاحِبَ المَنْزِلِ

العجيزي : مَنْ

الصوت : ثَلاثَةٌ مُحَمَّدٌ، وعامِرٌ، وأَحْمَدُ

جِئْنَا نَرَاكَ سَاعةً، فَقُلْ لَنَا
تَنْزِلُ أَمْ نَحْنُ إلَيْكَ نَصْعَدُ

العجيزي :

قَدْ حَلَلْتُمْ بِدَارِكُمْ إصْعَدُوا عِنْدِيَ آصْعَدُوا

[لرضوان]

رِضْوَانُ أَجْلِسْهُمْ هُنَا وَحَيِّهِمْ حَتَّى أَجِي

وجِئْـهُـمُ بِـقَـهْـوَةٍ مِـنْ عَـزَبَـانَ الـقَـهْـوَجِـي

[الثلاثة يصعدون]

رضوان :

تَـفَـضَّـلُوا، يـا سَـادَتِـي الآنَ يَـأْتِـي سَـيِّـدِي

[ويخرج]

محمد : ثَرْوَةٌ ضَخْمَةٌ

أحمد : وخَيْرٌ كَثِيرٌ

محمد : كُلُّ هَذَا إلى العَجِيزِيِّ آلاَ

أصْبَـحَ الكَـلْبُ بَعْـدَ أنْ كـانَ يَـمْشِـي

يَـنْفُضُ الـجَيْـبَ،أكْـثَـرَ الـنـاسِ مَـالاَ

أحمد : و«المَصاغُ» «المَصَاغُ» بالرُّوحِ أَفْدِيهِ

فَمَاذَا مِنْ لُؤْلُؤ وزَبَرْجَدْ

محمد :

وهَـلْ نَـسِـيـتَ يـا أخـي خـاتَـمـهَـا الـزُّمُـرُّدَا؟

فَـهُـمْ يَـقُـولُـونَ يُـسَـاوِي مـائِـةً وأزْيَـدَا

أحمد :

قَـد ٱرْتَـدَى الـمُـغَـفَّـلُ الـحَـرِيـرَا

وٱتَّـخَـذَ الـشَّـاهِـيَّ والـكَـشْـمِـيـرَا

أحمد : إذا مَشَى حَسِبْتَه أميرًا

وحِذَاؤه، أَرَأَيْتَهُ؟

محمد : لا ، كَيْفَ؟ كَيْفَ حِذَاؤُهُ؟

أحمد : تَسْبِيـكَ رِقَّتُـهُ ويَـأْخُـذُ نـاظِـرَيْـكَ بَـهَـاؤهُ

والـحِـزَامُ، الحِـزَامُ، رُقْعَـةُ كَشْمِيـرٍ تَمَنَّيْتُ أنْ أُكَـفَّنَ

وكَمْ وكَمْ مِنْ قَيِّمٍ قد اقتنى بعد السَّعةْ
ذَاكَ الحِمَارُ تحتُ مثلُ الشمعة المُلمَّعةْ

محمد : لا، يا أخي، الحِمَارُ شَيْءٌ مِن شُهُورٍ أَرْبَعَهْ
قد آشْتَرَيْتُه لَه وكُنْتُ في السوقِ مَعَهْ
إنْ زَادَ شَيءٌ فاللِّجَامُ أو يَكُونَ البَرْدَعَهْ

أحمد : الطِّينُ يا عامرُ، الطِّينُ عَجَبْ
الطِّينُ أَبعادِيَّةٌ مِنْ الذَّهَبْ

والبَيْتُ يا سَيِّدِي مُحَمَّدْ البَيْتُ فَخْمُ البِنَا مُشَيَّدْ

محمد : كَمْ يا تُرى الأَرْضُ والمَبَانِي؟

أحمد : أَلْفُ ذِرَاعٍ وقِيلَ أَزْيَدْ

محمد :
عامِرُ، لِمْ سَكَتَّ، لِمْ وما آبْتَلاكَ بالبَكَمْ

عامر : صَهْ في غَدٍ أَسْتأجِرُ الطِّينَ

محمد : وكَيْفَ؟ وبِكَمْ؟

عامر : ذاكَ فَنِّي

أحمد : مُذْ كانَ يُسْتَأْجَرُ الطِّينُ

عامر : أَجَلْ تِلْكِ صَنْعَتِي يا عَزِيزِي
في غَدٍ تَكْتُبُ الشُّرُوطَ وأَمْضِي
نَحْو «بِنهَا» أَحْتَلُّ طِينَ «العَجِيزي»

محمد :
ما كالعَجِيزي رَجُلٌ يَدْرِي اغْتنامَ الفُرَصِ
إنَّ «هُدَى» دَجَاجَةٌ باضَتْ لَهُ في القَفَصِ

أحمد :

وقـد رَأَيْـتَ كَـيْـفَ كـانَ دَفْـنُـهـا
قـد دُفِـنَـتْ مِـثْـلَ فَـقِـيـرَاتِ الـنِّـسَـا

عامر :

لا، يا أخِي، ظَلَمْتَهُ إنَّ الَّـذِي قامَ على المَأْتَمِ والدَّفْنِ الأغَا
جـاء مـن الـبَـاشَـا ومِـنْ زَوْجَـتِـهِ
أَخْـرَجَـهـا خَـرْجَـةَ عـزٍّ وغِـنَـى

[يدخل العجيزي فيقول]:

العجيزي :

يـا مَـرْحَـبـاً بـالأَحْـبَـابِ يـا مَـرْحَـبـاً بـالصِّـحَـابِ
كـذا أُنْـسَى! كـذا أُجفَى! كـذا عَـنِّـي لا يُـسْـأَلْ!

محمد :

بِـنَـا شَـوْقٌ ولَـكِـنَّـا نَـرَى الـمَشْغُولَ لا يُشْغَـلْ

أحمد :

يـا عَـجِـيـزِيُّ عَـزَاءَ مَـرَّةً أُخْـرَى عَـزَاءَ
أنْـتَ قَـدْ أَحْـسَـنْـتَ واللَّهِ، وأَظْـهَـرْتَ الـوَفَـاءَ
مِـثْـلَ مـا قَـدْ دُفِـنَـت مـا دَفَـنَ الـقَـوْمُ الـنِّـسَـاءَ

محمد : وما الَّذِي أَنْفَقتَ؟

العجيزي : خَمِّنْ، قُلْ عَلَى التَوَهُّمِ

محمد : أَمائةً؟

العجيزي : في الدَّفْنِ ثُمَّ مِثْلَهَا في المَأْتَمِ

[زائر ينادي من تحت]

يا صاحِبَ البَيْتِ

العجيزي : [لنفسه] قَدْ صَارَ لِي بَيْتُ

الزائر : يَبْقَى لَنَا الحيُّ ويُرْحَمُ المَيْتُ

العجيزي : [لنفسه]

يَـرْحَـمُـكِ الله، هُـدَى خَـيْـرُكِ هَـذَا عَـمَّـنـي

الزائر :

تَـهَـانِئي يـا عَـجِـيـزِي لَـقَـدْ وَرِثْـتَ جَـلِيـلاً

تَـهَـانِئيِ يـا صَـدِيـقِي قَـدْ نِـلْتَ خَـيْـراً جَـزِيـلاَ

العجيزي : مَنْ؟

الزائر : مُصْطَفَى النّشَاشِقي

العجيزي : أجِئْتَني بعُلْبَتي؟[1]

الزائر : أجّل!

العجيزي :

تَـعَـالَ آصْـعَـدْ بِـهَـا إصْـعَـدْ مَعِـي أحِبَّـتِـي

الزائر : مَعِي الفَقيهُ الحَلَبِي

العجيزي : يا مَرْحَباً بهِ، آصعَدَا

[للحاضرين]

ذَاك فَـقِـيـهُ مِـنْ سَـبِـيـلِ دِيـنِـه عَـلَى هُـدَى

أَتَعْرِفُونَ الشيْخَ؟

أحمد : قُلْ عامِرُ

عامر : سَلْ مُحَمَّدَا

---

(١) النشاشقي: بائع النشوق.

محمد : في «الزّينبيّ» قَدْ سَمِعْنَاهُ يَرُجُّ المَسْجِدَا

ذاكَ الفَقِيهُ لَيْسَ بَعْدَهُ أحَدْ لَكِنّه عِنْدِي مُزوِّرُ البَلَدْ

كم حَلَّ بالفَتْوَى وبالفَتْوَى عَقَدْ

أحمد :

يا حَلِبيُّ أَنْتَ حَبْلُ المَشْنَقَهْ

كَمْ لَكَ في الحَارَاتِ مِنْ مُعَلَّقَهْ

لم يَخْلُ بَيْتُ لَكَ مِنْ مُطَلَّقَهْ

[يدخل النشاشقي والشيخ]

العجيزي :

هذا هوَ الشَّيْخُ أَتى، يا مَرْحَباً! يا مَرْحَبَا

[للحاضرين]

آسْتَقْبِلُوهُ وقِفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ أدَبَا

[لرضوان]

البُنُّ، يا رِضْوَانُ

الشيخ الحلبي : لا . . شَيئاً مِن الكَرَاوِيَهْ

العجيزي :

إذْهَبْ جِيءِ الشَّيخ بها عاطِرَةً وصافِيَهْ

النشاشقي : [همساً في أذن العجيزي، ويناوله العلبة]:

هذا النَّشُوقُ من نَشُوقِ المُفْتِي

يَلِيقُ لِلوَارِثِ زَوْجِ السِّتِّ

آخر : [يُنادي من تحت]

صاحِبَ البَيْتِ

العجيزي : سَيِّدي

الزائر : عِمْ صبَاحاً أنا عَبدُ اللَّطِيفِ شَيْخُ الحارَهْ

العجيزي : مَرْحباً! مَرْحباً! تعال تَفَضّلْ

[للحاضرين]

رَجُلٌ لا يَرَى ثِيَابَ الجَارَهْ

الشيخ : [عند وصوله]

ولَـكِـنْ أنـا مـا قَـدْرِي؟ وهَـذَا مَـجْـلِسٌ عـالٍ

العجيزي : [همساً]

تَعَالَ، ما يَقُولُونَ؟

الشيخ : صُنُوفَ القِيلِ والقالِ

يُـعَـزُّونَـكَ بـالمَيْتِ يُهنُّـونَـكَ بـالـمَـالِ

[وهو ينظر إلى جوانب البيت]

تَـعـالَـى الله مَـا أَبْـهَـى! تَـعَـالَـى الله مـاَ أَوْسَـعْ!

مَـكَـانُ الأُنْسِ والـبَـسْطِ وبَـيْـتُ الـنِّـشْـوةِ الأَرْبَـعْ

يَـرْحَـمُـهـا الله لَـقَـدْ كـانَتْ مَـلاَكـاً مُـحْـسِـنَـا

ولَـمْ تُـقَـابِـلْ رَجُـلاً فـي بَـيْـتِـهـا إلاّ أَنَـا

فَـكَـمْ طَـعِـمْـتُ وشَـرِبْـتُ وكُـسِـيـتُ هَـهُـنَـا

الـبَـيْـتُ لـمَّـا آشْـتَـرَتْـهُ كـان أبـي شَـيْـخَ حـارَهْ

ولـم تَـزَلْ كُـلَّ عَـامٍ تُـجِـيـل فِـيـهِ الـعِـمَـارَهْ

العجيزي : وأنْتَ؟..

الشيخ :

كُـنْـتُ آبْـنَ خَـمْسٍ فَـلَسْـتُ أَذْكُـرُ شَـيَّـا

إلاّ لَـيـالِـيَ عُـرْسٍ لَـعِـبْـتُ فيـهـا صَـبِـيّـا

لـم يَـدْخُـلِ الـبَـيْـتَ زَوْجٌ وفَـارَقَ الـبَـيْـتَ حَـيَّـا

العجيزي : إذن فعُمرُ البَيْت سِتُّونَ سَنَهْ

الشيخ : ومَنْ يَقُول مائةً ما غَبَنهْ
فهم يَقُولُون الفِرنْسِي سَكَنَهْ[1]

العجيزي : إذن، فلقَّبُوهُ بالعَتِيقِ

أحد الحاضرين : والأَرْضُ والمَوْقِعُ يا صَدِيقِي؟

آخر : البَيْتُ كُلُّه على الطَّرِيقِ

الشيخ :

بَلْ مَنْزِلٌ مُبَارَكُ تِسكُنُه في عَافِيَهْ
يَكْفِيهِ ما حَلَّ عَلْيهِ مِنْ جَلَالِ النَّاحِيَهْ
فأَنْتَ بَيْن الحَنَفِيِّ والبَتُولَ الزاكِيهْ[2]
لا تَنْس مَنْ جَارُكَ يا جارَ الرِّضَى والحَنَفي

الحاضرون :

وكُلُّنَا خَادِمُهُ وكُلُّنا في الكَنَفِ

آخر : [يزعق من السلم ويقول]:
يا عَجِيزي يا صَدِيقي

العجيزي : [في اضطراب لنفسه]:
ذاكَ دَاوُدُ المُغَنِّي[3]

رُبَّمَا خَلَّطَ حَتَّى
أَضْحَكَ المَجْلِسَ مِنِّي

داود : [من تحت]
أَيُّها الوَارِثُ قُلْ لِي
أَأَعَزِّي أم أُهَنِّي؟

---

(١) الفرنسي، يعني نابليون بونابرت.
(٢) الحنفي: يعني مسجد السلطان. والبتول: المنقطعة إلى الله، يعني المسجد الزينبي.
(٣) داود: هو داود حسني المغني (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧).

العجيزي : [للحاضرين]

ذاكَ دَاوُدُ الـمُـغـنِّـي
قـد أتَـى يَسْـأَلُ عَـنِّـي

داود :

لَقَـدْ أَتَيْـتُ ومَعِـي حَمِيـدَهْ لِكَيْ أُرِيهَـا دَارَكَ الجَدِيـدَهْ

العجيزي : [لنفسه]

الـوَيْـلُ لِي الـوَيْـلُ لِي حَمِيـدَةٌ فـي مَنْـزِلِـي
كَيْفَ أُوارِي خَجَلِي؟

العجيزي : [للحاضرين]

أَتَـسْـمَـعُـونَ؟ مَـعَـهُ زَوْجَـتُـهُ

أحد الحاضرين : وما لِدَاوُدٍ وللتَّفَرْنُجِ

آخر : أَصْعِدْه، دَعْهُ، يا عَجِيزِيُّ، يَجي

العجيزي : لا، ومَقَامِ (الحَنَفِيِّ) لَنْ يَجِي

آخر :

قـابِلْهُ لا تُضِـعْ عَلَيْـهِ سَعْيَـه لَيْسَ عَلى أَمْثَالِـه مِن حَـرَجِ

العجيزي :

لا، لَـنْ يَـطَا لِـي عَـتَـبَـهْ سَـوف أُرِيْـهِ أدبَـهْ

[وينزل فيصرف «داود» ويعود]

زائر آخر : [يصيح من تحت]

الزائر : سَيِّدِي! سيِّدِي!.. أأنْتَ هُنَا؟

العجيزي : مَنْ؟

الزائر : أنا سَلْمَانُ يا عَجِيزي، أأَصْعَدْ؟

العجيزي : [لنفسه]

ذَاكَ سَــلْمــانُ جَــاءَ يَطْلُبُ، بــالــدَّيْـنِ
وقــد جِنَّ، أمسِ، حَــتَّــى تــهــدَّدْ

أحد الحاضرين : سَلَمانُ مَنْ؟

مصطفى :

تَجْهَلُه؟ ذاك مُـرَابِـي الـنَّـاحِـيَـهْ
إسْتَـرْجَـعَ الخَمْسِينَ مِنِّي بَـعْـدَ شَـهْـرَيْـن مِـيَـهْ

محمد : مُسْلمٌ؟

مصطفى : وابنُ مُسْلِمٍ ولَـه جَـدٌّ بَقْلبِ الصَّعِيـدِ شَيـخٌ ولِيُّ
لـم يَـدَعْ لـليَـهُـودِ في الـخُطِّ رِزْقـاً
لَـيْس فـي الـخُطِّ غَـيْـرُهُ رِبَـوِيُّ
يـا يَـهُـودَ الأَرْضِ قَـدْ أَصْبَـحَ يَشْقَى الـعـالَمُـونَ
مِنْ بَنِي الإسْـلامِ سَلمـانُ ومِـنْـكُـم سَـالَـمُـون

محمد : [همساً]: وما لَه والعَجِيزِي وما الَّذِي جاءَ يَصْنَعْ؟

أحمد :

أَلَـيْسَـتْ الـزَّوْجُ مـاتَـتْ فـالـوارِثُ الـيَـوْمَ يَـدْفَـعْ

العجيزي :

سَـلْمَـانُ يـا إخْـوَانُ لَـمْ يَـأْتِ لِـديْـنِ أو سَـنَـدْ

عامر :

ومـا يَـضُـرُّ الـدَّيْـنُ لَـمْ يَـخْـلُ من الـدَّيْـنِ أحَـدْ

العجيزي :

لا، بَـلَ عَـلاَقَـتِـي بِـهِ عَـلاَقَـةٌ مـن الـبَـلَدْ
آبـاؤه كـانُـوا وآبـائـي شُـيُـوخـاً وعُـمَـدْ

محمد : نادِ إذَنْ يَصْعَدْ فلا بَأْسَ في مَجِيئِهِ

العجيزي : سَلْمانُ! سَلْمانُ

تعال، سلْمانُ، فما هُهُنَا إلاَّ أحِبَّاءُ وإخْوَانُ

[يدخل سلمان ويقول للعجيزي]

سلمان :

قِيْلَ لي عَنْكَ مُطْلَقُ البَطْنِ شَاكٍ

كَيْفَ يا سَيِّدِي العَجِيزِيُّ حالُكْ؟

العجيزي : أَحمَدُ الله قد تَعافَيْتُ فاجْلِسْ

[همساً]

لا تخَفْ، في غَدٍ يُوافِيكَ مالُكْ

سلمان :

أمامَكَ شَهْرَانِ حتَّى تُفِيقَ

وتَهْدَا فلِمْ لا تَمُدُّ الأجَلْ؟

وتَدْفَعُ خَمْسِينَ فَوْقَ الحِسَابِ

إذا الإرْثُ مِن كُلِّ وَجْهٍ كَمَلْ

دَواتِي عَلَيَّ وفيها اليَرَاعُ وأنْتَ بخَيْرٍ وهذا السَّنَدْ

فَخُذْهُ، ووَقِّعْ

العجيزي : وسِرْ في الرُّوَاقِ لا يَطْلعُنَّ عَلَيْنا أَحَدْ

[ينصرفان]

محمد :

قَدْ دخَلا في الرُّواق سِرّاً وفاز بالوَارِثِ المُرَابِي

أحمد :

وبَيْنَ هَذا وذا حِسَابٌ ويَعْلَمُ الله بالحِسَابِ

[يعودان]

سلمان : [همساً لمصطفى]

يـا مُصْـطَفَى يـا نَشُـوقِي

مصطفى : لَـبَّـيْـكَ، سَـلْمَـانُ أَهْـلاَ

سلمان :

لِي كِلْمَةٌ فادْنُ مِنِّي لا تَنْسَ، دَيْنُكَ حَلاَّ

العجيزي :

مـاذا يَـقُـولُ الـمُـرَابـي؟ ومـا أسَـرَّ إلَـيْـكَـا؟

مصطفى :

يُـريـدُ مِـنِّـي نَـشُـوقـاً مِـمَّـا رَأى فـي يَـدَيْـكَـا

الحلبي : الحقُّ أنَّه نَشُوقٌ طَيِّبٌ

مصطفى : وفيه يا فَقِيهُ عِرَقُ العَنْبَر

البـاشَـوَاتُ كُلُّهُم قَـدْ أَقْبَلُوا عَلَيْـهِ والمُفْتِي وشَيْـخُ الأَزْهَـرِ

وسيـدات «الخط» مـن حيـن إلى

آخـر يـبعـثن الأغـا فـيشـتـري

عامر : [في سخرية]

السيِّدات؟ أأُنْثَى

على النَّشُوقِ تَطُوفُ؟

مصطفى :

لِـمْ لاَ؟ أمـا هُـنَّ خَـلْقٌ أمَـا لَـهُـنَّ أُنُـوفُ؟

لا تَنْسَ يا عامرُ! . . .

عامر : ماذا مُصْطَفَى؟

مصطفى : لا تَنْسَ يا أخِي أعزَّ النَّاسِ

أُمُّك كـانَتْ مِنْ غَـرَامِهَـا بِـهِ تَـأْخُـذُهُ مِنِّي بـالأَكْـيَـاسِ

عامر :

أُمِّي أنـا ! يا رَجُلًا لا يَسْتَحِي   نَشَـاشِقيٌّ يَـذْكُـرُ المُخَـدَّرَهْ

[يتناول كل من مصطفى وعامر عصاه]

مصطفى :

وأيُّ عَـارٍ بـالنَّشُـوقِ إنَّـمـا

الـعَـارُ كُـلُّ العَـار شَـغْـلُ السَّـمْسَـرَهْ

شيخ الحارة :

خُـذُوا العَصَـا مِنْ «عـامرٍ» و«مُصْـطَفى»

إنِّـي أخَـافُ أن تَـكُـونَ «مَـجْـزَرَهْ»

عامر : دَعُوهُ لِي لا بُدَّ مِنْ تَحْطِيمِهِ

مصطفى : خَلّوه لي لا بُدَّ أن أُكَسِّرَه

العجيزي :

وحُـرْمَـةُ المِيْتَـةِ تَنْسَيـانِهَـا   وحَـقُّ بَيْـتي لا تُـرَاعِيَـانِـهْ

غَـداً يُقَالُ عَنْكُمـا قَـدْ سَخِـرَا   مِن العَجِيـزِيِّ ومنْ ضِيفَـانِـهْ

مصطفى :

تِـلْكِ الـعَـصَـا طَـرَحْـتُـهَـا   يـا سَـيِّـدي، حُـبَّـاً بِـكَـا

عامر :

وأنـا أيـضـاً قَـدْ رَمَـيْـتُ بـالـعَـصَـا لأَجْـلِـكَـا

[صوت من الخارج]:

دُسْتُورَكُمْ يا أَهْلَ هذَا المَنْزِلِ

العجيزي : مَنِ؟

الصوت : الأَغَا!

العجيزي : أَلماَزْ أغا؟ تَفَضَّلِ

الأغا : [يدخل باكياً مولولاً... ويقول]:

آهٍ علـى صَـدِيـقَـتـي آهٍ عَـلَيْـكِ يـا «هُـدَى»
قـد خُـرِّبَ الـبَـيْـتُ فَلَيْـتَ لَـكِ عَيْنـاً فـتَـرى!
أَيْنَ جَبِينٌ كـانَ كـالْبَـدْرِ سَنـاءً وسَنَـا؟
وأيْـنَ «أَهْـلاً» كُـلَّمـا جِئْـتُ وأَيْـنَ «مَـرْحَـبَـا»؟
وأَيْـنَ مـا قَـدْ كَـانَ لِـي عِنْـدَكِ مِن طِيـبِ اللِّقَـا؟
وأَيْنَ صَـوْتٌ كانَ كـالسِّحْرِ يُنَادِي يا أغـا؟

العجيزي :

مـاذا دَهَـاكَ، سَـيِّـدي هَـوِّن عَـلَيك، يـا أغـا!

الأغا : «مستمراً» قَدْ ذَهَبَ البَيْتُ، لِبَيْتِ الله وَحْـدَه البَقَـا
قَـدْ ذَهَبَ المـالُ، فسُبْحَـانَ الـذي لـه الغِنَى!..

العجيزي :

أَفِـقْ تَـجَـلَّدْ، يـا أخِـي لَـيْسَ الـبُكَـا مِنَ التُّـقَـى

الأغا :

أَبْـكِـيـكِ يـا هُـدَى وإنْ لَـمْ يُـرْجِـعْ المَيْتَ الـبُكَـا

[ويقع مغمى عليه]

مصطفى : [للأغا]:

جَـرِّبْ نَـشُـوقِـي مَـرَّةً خُـذْ تَـجِـدِ الـحُـزْنَ هَـدَا

العجيزي : رُشُّوهُ بالمَاءِ يُفِقْ

[لرضوان] رِضْوَانُ هَاتِ كُوزَ مَا

الأغا : [يرفع رأسه قليلاً ويقول]:

وَلْـيَـكُ عَـذْبـاً بَـارِداً إنِّـي أحِسُّ بـالـظَّمَـا
لَيْتَكِ ما مِتِّ وَلَيْتَ الميْتَ، يا هُدَى، أنَا!
هُـدَى تَـعَـالَـيِ انْـظُرِي الـبَـيْـتُ مِـنْـكِ قَـدْ خَـلاَ

[للعجيزي]:

سَيِّدي، أصْغِ لي:

هُـدَى... رَحْـمَـةُ الله عَـلَى رُوحِـهـا وألْـفُ سَلَامِ

يـا أَسَـفَـا عـلى «هُـدَى» يـا أَسَـفَـا! يـا أَسَـفَـا!

مـالِي يَـخُـونُنِي فَـمِي؟ مـا لِي تَخُـونُنِي الـقِـوَى؟

[ويتمايل الأغا ثم يسقط]

محمد :

لَـقَـدْ رَجَـعْـنَـا فَـوَقَـعْـ ـنَـا في الْبَـلَاءِ والـعَـنَـا

العجيزي : [للأغا]

قُمْ، يا أخي، انْهَضْ قُل تَكلَّمْ هاتِ بَيِّنْ، يا أغا

مـا نَـحـنُ في مَـأتَـمِـهـا مَـأتَـمُـهَـا قَـدْ آنْـقَـضَـى

وكُـلُّ حَـيٍّ مَـيِّـتٌ يَـوْمـاً وإنْ طَـالَ الـمَـدَى

الأغا : تَرَكَتْ عِنْدَنَا وَصَاةً

العجيزي : ومَاذَا؟

الأغا : كَتَبَتْها قَبْلَ الزَّوَاجِ بِعَامِ

كَـتَـبَـتْـهَـا وأشْـهَـدَتْ مُفْـتِي الـقُـطْرِ عَلَيْـهَـا وقـاضِـيَ الإسْلَامِ

قَدْ تَرَكَتْ يَرْحمُها الله! آمْسِكُوني لا أَقَعْ

[ويتمايل كالنشوان]

العجيزي : قُمْ خَلْفَه، يا مُصْطَفَى

مصطفى : دَعْهُ لِسَاعِدَيَّ دَعْ

الأغا :

قَـدْ تَـرَكَـتْ فـي عُـلْبَـةٍ «مَـصَـاغَـهـا» عَـشْـرَ قِـطَعْ

مِـنْ جَـوْهَـرٍ مُـبـرَّأً مـن الـخُـدُوشِ والـبُـقَـعْ

العجيزي : لِمَنْ؟ . .

الأغا :

لِـعَشْـــرٍ مِـنْ نِسَــاءِ الـحَــارَةِ مِنْ كُــلِّ جَــارةٍ وبِنْتِ جَــارَهْ

العجيزي : وعيَّنْتَهُنَّ؟

الأغا : أَجَلْ، وبيَّنَتْ

العجيزي : يا لِي، يَا لِلْغَبْنِ والخَسَارَةْ!

يــا أَسَــفَ الـدَّهْــرِ عَــلَى جَــوَاهِــرِي يــا نَــدَمــا

مصطفى : ما لَكَ، يا أَخِي؟

العجيزي :

أُحِسُّ أَنَّ ظَـهْــرِي ٱنْقَـسَمَــا

عُوقِبْتِ، يا «هُدَى»، ولا أُخْرِجْتِ مِنْ جَهنَّمَـا

[يغمى عليه]

محمد : لا بَأْسَ! لَا بأْسَ! إنِّي أَرَى بِهِ إغْمَاءَ

شيخ الحارة : رِضْوَانَ طِرْ جِىءْ بكُوزٍ

الحلبي : صُبُّوا عَلَيْهِ المَاءَ

العجيزي : [وهو يفيق]

والــبَـيْــتُ يــا أَغَــا أجِــبْ الــبَـيْــتُ مــا أصــابَــهُ؟

الأغا : وَقَفْتَهُ لِبِنْتِ أَوَّلِ زَوْجٍ

الحلبي : إنَّ هٰذا قَضَاءُ حَقّ قَدِيمِ

العجيزي :

أَتَــرَى الـبَـغْـيَ والـتَّـعَـسُّـفَ حَـقّـاً

يــا كَثِيــرَ التَّـحْلِيـلِ والتَّـحْـرِيـمِ

قـلَّبْـتـنِـي «هُــدَى» عـلى الـنَّــارِ حَـيّـاً
قَـلّب الله جِـسْـمَـهَــا فـي الـجَــحِـيــمِ

[للأغا]
وأَثَاثُ البَيْتِ هَذَا؟

الأغا : جاء أَيْضاً في الوَصِيّهْ!
أَصْـبَــحَ البَـيْتُ ومَـــا فـي البَـيْتِ مِـلْكــاً لِبَـهِيّــهْ

العجيزي :
إِرْمِ ، يـا دَهَـرُ، بــالـمَـصَــائِــبِ إرْمِ
ظَلَمَتّني «هُــدَى» فـمــا كَــانَ جُــرْمِي؟

شيخ الحارة :
بَـقِـيَ الـطِّيــنُ فــآنْـتَـظِرْ رَحَــمَــةَ الله
ولا يَــدْخُــلَنَّــكَ الـيَــأْسُ مِـنْـهَـا
إنَّهــا خَلَّفتْ ثـلاثِينَ فَــدَّانــاً ببنِهــا وأَنْتَ تَـعْـرِفُ بِنْـهَـا

الأغا : لا ، لا تُصَدِّق سَيِّدي
فَما دَرَى، ما عَرَفَا

العجيزي : ماذا جَرَى إذنْ؟ أَبِنْ

الأغا : الطِّينُ أيضاً أُوقِفَا

العجيزي : لِمَنْ؟

الأغا : لِبَيْتِ الله والرَّوْضَةِ قَبرِ المُصْطَفَى

العجيزي :
يــا رَبِّ بَـيــتُــكَ عَــنِّــي وعَــنْ نَـصِـيـبِـي غَـنِـيٌّ
وقُــلْ لِــقَــبْــرِكَ يُــرْجِــعْ لِــي ثَرْوَتــي، يــا نَـبِـيُّ
الـطِّـيـنُ أيضــاً قَــد مَـضَـى وكُــلُّ شَــيْءٍ آنْــقَــضَـى
يا لأَعاجِيبِ القَضَا

الحلبي : إصْبِرْ أخي، تَعَزَّ، ما هَذَا الجَزَعْ

هَبْ أنَّ ذلك الزَّوَاجَ ما وَقَعْ

لَيْسَ الحَيَاةُ غَيْرَ رِيٍّ وشِبَعْ

العجيزي : [وهو يهجم عليه]

هَبْ أنَّ رَأْسَكَ آنْفَلَقْ هَبْ أنّ مُخُّك انْدَلَقْ

حَتَّى جَرَى على الزَّلَقْ

سلمان :

الطِّينُ أيضاً قَدْ مَضَى يا وَيْحَ لِي، وَيْحَ لِيَهْ!

ضَاعَ عَلَيَّ تَعَبِي وضَاعَتْ الخَمْسُمِيَّهْ

هَذا العِجَيزيُّ مَزيجٌ مِنْ غَبَاءٍ ونَكَدْ

قد جاء مِصْرَ هارِباً من الدُّيُونِ في البَلَدْ

ومَا لَهُ مِنْ عَمَلٍ فِيهَا ولاَ لَهُ أَحَدْ

لَكِنْ عَلَيْهِ سَنَدُ

النشاشقي : إذْهَبْ، كُلِ، آشْرَبْ السَّنَد

الجميع : إذهبْ، كُلّ، آشْرَبْ السَّندْ!

ستار الختام



شَيْطانُ بنْتَاءُورْ

أو

لبْد لقمَان وَهُدْهُد سُليمَان

رِوَايــة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

بنتاءور، هو الشاعر المصري القديم، وكما كان لكل شاعر شيطان يُلقي في رُوعه، كذلك كان لبنتاءور هو الآخر شاعره يُلقى في رُوعه.

وكما جعل شوقي من هذا الشيطان نَسْراً، جعل من نفسه في تلقّيه عن هذا النَّسر هُدْهُداً.

وكما كان لهذا النسر ذِكْرٌ قَديم، وكان هذا الذكر القديم يرجع إلى نَسر لُقمان، كذلك كان لهذا الهُدْهد ذِكْرٌ قَديم، وكان هذا الذِّكْر القَديم يرجع إلى هُدْهُد سُليمان.

أما عن نسر لقمان، فيُحكى أن لقمان بن عاد مُعمَّر جاهليّ قديم. خُيِّر فاختار عُمْرَ سَبعة أَنْسُر، ومعروف أنّ النَّسر يطول عمرُه، وأخذ لقمان يرعى النسور نَسْراً، بعد نَسر، كلَّما مات نَسر آتَّخذ مكانه نسراً فَرْخاً، وأخذ يرعاه، إلى أن مضت بين يديه نُسور ستّة، وكان هذا النَّسر السابع، الذي عُرِف بآسم لُبَد، وإذا لقمان يرى بين يديه هذا النَّسر وقد شاخ، وغدا لا يَقْوَى على النَّهوض، إيذاناً بدُنُوّ أجله، عندها كان لقمان هَلِعاً، إذ عمره رَهْنٌ بعُمر هذا النَّسر، وكان كلَّما رآه قابعاً لا ينهض، يستحثّه على النهوض، وهو يقول له: انهض بعد.

وبهذا النسر الذي مضت حياة لقمان بِمَضِيّ حياته، ضرِب المَثل، فقيل: نَسْر لُقمان.

وأمَّا عن هُدهد سليمان، فلقد كان سليمان عليه السلام، قد علّمه ربُّه مَنْطِقَ الطَّيْر، فكان يَلْقَن عنه ما يقع حوالَيْه. وكان من حديث هُدهد سليمان - عليه السلام - وإتيانه سليمان - عليه السلام - بخَبر مَلِكة سَبأ، وهذا حيث يقول تعالى: ﴿**وتفقَّد الطيرَ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنَّه أو ليأتيَنّي بِسُلطان مُبين. فمكث غير بعيد فقال أحطتُ بما لم تُحِيط به وجئتُك من سَبأ بنبأ يقين**﴾ [النمل: ٢٠ - ٢٢].

وبعد، فهذا الكتاب صفحة من تاريخ مصر قديماً وحديثاً، في حوار بين النَّسر والهُدهد، يسأل أحدُهما ويُجيب الآخر: لا ليُبِّين ما كان فحَسْب، بل ليعقِّب بما شاء.

وثمة مواقف ثلاثة في هذا الكتاب تكاد تُعيِّن الوقت الذي كُتب فيه.

أَوَّلُها: حيث يقول المؤلف لئن زعم نابليون أن مصر لا يَنقصها إلاَّ التمديُن. ولا بد أن تناله على يد الفرنساويّين. أو غيرهم من الأُمم المتمدينة.

ثم يقول المؤلف معقباً: فقد مر مائة عام لا خمسون.

ونحن نعرف أن غزو الفرنسيّين لمصر كان سنة (١٧٩٨)، وأن جلاءهم عنها كان سنة (١٨٠٠).

ومن هذا نرى أن تأليف الكتاب كان:

أ - سنة (١٨٩٨) هذا إذا أخذنا بتاريخ الغزو.

ب - أو سنة (١٩٠٠) إذا أخذنا بتاريخ الجلاء.

وثانيها: حيث يقول المؤلف: وليس ما ترى من رَحمة الناس للبربر، وما تسمع من ذمّهم الإنكليز المُعْمِلين السيف في جنوب إفريقيا منذ عامين.

ونحن نعلم أن حرب البربر نَشبت سنة (١٨٩٩) وآمتدت أعوامها.

ويكاد هذا التاريخ الثاني لا يبعد كثيراً عن التاريخين السابقين.

وثالِثُها: حيث يقول المؤلف: وكانت الحكومة الإنكليزية إنما تريد من

فتح السودان ونشر العلم البريطاني في أرجائه، فكانت مشيئتها ما شاء كدأبها بإزاء رجالها الأمناء. وها قد مضى على السودان عامان.

والمؤلف هنا يشير إلى آسترجاع السودان على يد هربرت كتشنر سنة (١٨٩٩). وكان محمد علي قد استولى عليه سنة (١٨٢٠).

وهذا التاريخ لا يبعد هو الآخر عما سبق.

ومن هنا نرى أن تأليف الكتاب كان بين سنتي (١٨٩٨) وسنة (١٩٠٠).

وبعد، فلقد طبعت هذه الرواية طبعة سابقة سنة (١٩٥٣) لم يعرض فيها لشرح لُغوي، إلا في القليل النادر، ولم يُعرَّف فيها بما جاء من مسمَّيات، ولم تستكمل ضبطاً، وهذا ما استدركته في هذه الطبعة لتكون أيسر على القارىء قراءةً، وأقرب فهماً.

والله وليُّ التوفيق.

إبراهيم الأبياري
ذو القعدة ١٤١٢ هـ
يونيه ١٩٩٢ م



اهداء الرسالة

إلى حضرة الأستاذ الجليل العالم المفضال الشهير الشيخ عبد الكريم سلمان أحد أعضاء المحكمة الشرعية العليا[1]:

كَلِمٌ عُزِينَ إلى كَلِيمْ ... أَلْبَسْتُهُ ثَوْبَ الحَكِيمْ[2]

وجَعَلْتُهُ يَهْذِي ويَهْذِي ... بالحَقَائِقِ والرُّجُومْ[3]

فَوْضَى خَوَاطِرُهُ فإنْ ... جُمِعَتْ فكالعِقْدِ النَّظِيمْ

فَتَرَاهُ في وَادِي النَّقَا ... وتَرَاه في وَادِي الصَّرِيم[4]

وتَرَاهُ في عَهْدِ الْعَزِيزِ ... وفي وِلَايَةِ (مِصْرَيِيْم)[5]

ومِنَ السَّمَاءِ إلى الثَّرَى ... ومِنَ الحَضِيضِ إلى النُّجُومْ

حتَّى إذا أَتْمَمْتُهَا ... أَهْدَيْتُها (عَبْدَ الكَرِيمْ)

وأنا المُقِرُّ بِفَضْلِهِ ... الذَّاكِرُ الحَقِّ القَدِيمْ[6]

---

(١) هو: عبد الكريم بن حسين بن سلمان. ولد سنة (١٨٤٩م) درس في الأزهر. وكان رئيس تحرير الوقائع المصرية بعد محمد عبده. ومُفتشاً عامّاً للمحاكم الشرعية. وكانت وفاته سنة (١٩١٨م).

(٢) كلم: كلمات. وعزين: نُسِبن، بالبناء للمجهول فيهما. والكليم: من يكالمك.

(٣) يهذي: يتكلم غير مبين. والرجوم: الظنون لا دليل عليها.

(٤) النقا: الكثيب من الرمل. والصريم: الأرض لا تنبت شيئاً.

(٥) العزيز: يعني فرعون مصر أيام يوسف عليه السلام. ومصرييم: أي مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام. ويقال: إن مصر نسبت إليه.

(٦) يشير إلى تتلمذه عليه.

المحادثة الأولى

حَكَى الهُدْهُدَ مُنْبِىء الأَنْبَاء، وشَيْطَانُ بَعْضِ الشُّعراء، قال:

أَكْثَـرْتُ مخـالـطةَ النـاس حتى نَـدِمْت، وأَطَلْت النَّـظرَ في الكُتب حتى سَئِمْت، وآشتقت إلى عِبْـرة مَرْمُـوقة مومُوقة[1]، وحِكْمة من نَفسهـا مَسُوقـة. آخُذُها ولو مِن سُوقَة، لا مَطْرُوقةً ولا مَسْروقة: فخرجتُ إلى الأهـرام في وَقتٍ من أوقـاتنا المَـوْصوفـة، ويوم من أيـامنا المُختـارة، ذَهَب نهـارُه إلَّا أواخـره، وتَناوَبَ على الجوّ صاحِيه وماطِرُه:

تَـعَـرَّضَ الـغَـيْـمُ فـيـه لـلشَّـمْس فـي كُـلِّ مَـسْـلَكْ
تَـرُوغُ مـنـه فـتَـبْـدُو وتَـخـتـفـي حـيـن تُـدْرَكْ
والأُفْـق مـنـه ومـنـهـا كـالـطِّفـل يَبـكي ويَـضـحـكْ

فبلغتُ قضاءَها، وإذا ذَهبُ الأَصيلِ عليه يَـزْهُو آونـةً، ويَصْدأُ بـالغَيْم آونة، والشمسُ صَفراء في الأُفق مُنكسرة الأشِعّة، قد كادت ولَمَّا تَفْعل، كأنها عَيْنُ الأَشْقـر الأَحول، فـوثبتُ إلى الهَرم الأَكبـر، وحَـطَطْت فـوق حَجـر، ثم تَقَصَّيْتُ النَّظر، فكانت فاتحةَ العِبَر، وباكُورَةَ العِظَات الكُبَـر؛ إذ رأيتُ السُّيَّاح

---

(١) مرموقة: محط النظر. ومموقة: محبوبة.

حوالَى الأَثَر، يَرْتَعون في الأُصُل، ويَلعبون[١]، ويَنْزِلون عن الإبِل ويَركبون، وقد ضفَتْ عليهم ثِيابُ الكِبْرياء[٢]، وجَرُّوا ذُيول الزَّهْو والخُيَلاء؛ فغَضِبت من رُؤيتهم على هذه الصُّورة، وعَيْثِهم في القُبور بعد عَبَثهم بالجثث المَقْبُورة، فقلت، أيتها الحجارة الخالدة، آسْخَري من هؤلاء كما سَخِرتِ من قَمْبيز وخَيله[٣]، وآستهزئي بهم كما آستهزأت بنابليون وجُنوده[٤].

ثم خَرجتُ من الغَضب فأَبصرتُ، وتألَّفْتُ ما كنتُ أَنْكَرتُ؛ وما زال الغَضبُ يُعْمِي صاحبَه، ويُضِلُّ رَاكبَه، ويُريه صُدورَ الأَمر ولا يُريه عَواقِبَه. أبصرتُ فرأيتُ الغادي والرَّائح، والتُّرْجُمان بجانب السَّائح، ولم أَرَ من باكٍ ولا نائح، ولا مُهيب بالجَنْدل والصَّفائح[٥]، يجيبه صدًى من جانب القَبر صائح؛ فرجعتُ في أمر القوم إلى الرِّضا، وقلتُ إنما يَزورون قُبورَ الفراعنة في مصر، كما تُزار قصورُ الملوك في هذا العصر، وذكرتُ ساعةً قضيتُها في قَصر وندسور[٦] منذ ثمان سنين، والملكة[٧]، يومئذ في الحياة، لا تخرُج الشمسُ عن طَرَفي مُلكها كأنهما حاشيتا النهار، فدخلت المَقاصيرَ، وتنقَّلتُ في الحُجَر، ورأيت فِراشَ الملكة وقد هجرتْه، كما ينظُر هؤلاء إلى مَراقد الفراعنة وقد نُقل ما فيها إلى دُور التُّحف، وحِيل بين ذلك اللُّؤلؤ وهذا الصَّدَف؛ فرَحِم الله المصريِّين القُدماء، لولاهم ما ذَكر مصرَ الذاكرون، ولا ظلَّت كعبةً يَزُورها الزائرون:

قَضَوْا والدُّورُ باقيةٌ وأَوْدَوْا ... ولَيْسَ شُخوصُهُمْ بالْمُودِياتِ[٨]
فما ذَهبُوا ولكنْ في آغْتِرَابٍ ... وما ماتُوا ولكنْ في سُبَاتِ[٩]

---

(١) الأصل: جمع أصيل. وهو الوقت حين تصفر الشمس لمغيبها.
(٢) ضفت: سبغت.
(٣) قمبيز: من ملوك الفرس، غزا مصر سنة (٥٢٥ ق.م.)
(٤) نابليون: القائد الفرنسي الذي غزا مصر سنة (١٧٩٨م).
(٥) المهيب: الداعي، والجندل: الحجارة. والصفائح: الصخور العريضة.
(٦) وندسور: القصر الملكي البريطاني.
(٧) الملكة: يعني فكتوريا، وكانت عندها ملكة بريطانيا.
(٨) أودوا: هلكوا. والموديات: الهالكات.
(٩) السبات: النومة الخفيفة.

ب.

ثم وَقفتُ أتأمّلُ قُبورَ المُلوكِ العِظام، وأذكر عَبَثَ الأنام لا الأيّام، وأعجب للأهرام ـ وهي من عمل الأسرة الرابعة، وبُنيانُ المِصريِّ في أوّل عهده بالحياة، وبِدَايةِ دخوله في الحضارة، كيف رَسَختْ في الأرض رُسوخَه في العِلم، ووقفتْ للدَّهر وُقوفَه في الفنّ، وكلّما تأمَّلتُها جَزَتْني العِبْرة عن النَّظرة، والعِظَة عن اللَّحْظة[1]؛ فرأيتُ النَّعيم كيف يَزول، والحالُ كيف يَحُول والدَّولة كيف تَدُول، والمُلْك الكبير إلاَمَ يَؤُول: وبَعَثَ الموقفُ منِّي فقلتُ:

لـمّـا رأيـتُ قُـبـورَهُـمْ كَـمُـلَتْ فَـمَـا فـيـهـا لِـنَـاقِـدْ
وكـأنّـهـا نَـهْـدُ الـثّـرَى وكـأنّـه مُـذْ كـان نـاهِـدْ[2]
بَـلِيَـتْ رَوَاسِـيـهِ ولَـمْ تَـبْـلَ الـعِـظَامُ ولا الـمَـرَاقِـدْ[3]
وهَـوَتْ حَـوَالَـيْـهـا الـهَـيَـا كِـلُ والـكَـنَـائِسُ والـمَـسَـاجِـدْ
وخَـلَتْ مـمـالِـكُ وآنْـطَوت دُوَلٌ زَوَاهِـرُ كـالـفَـراقـد[4]
أيـقـنـتُ أنَّ الـمَـرءَ بَـعْـدَ الـمَـوْتِ بـالآثـار خـالِـدْ

وأدَمْتُ النَّظَر إلى الأهرام، لا لِعِظَمٍ في الجِرْم وفَخامةٍ في البُنيان، ورُسُوخٍ في الأرض وطُولِ زَمان، فإن آستعظام رُؤية الأَجْرام من خَلائق الصِّبْيان، لكن كمِرآة أرى فيها قُدماءَ المصريين كما هُم في الأعصُر الأُوَل، ولَمَّا يَكْتَمِلوا دُوَلاً أَرْبَعَ[5]، فلا أرى إلاّ صُوَراً واضحة، وأشباحاً لائحة؛ ثم أَنْظُر فيها المصريّين الأحياء، وكأنما أتأمّلهم في مِرآة مُحدَّبة مُقعَّرة: صُوَرٌ مَمسوخة، وأَشباح مُعْوَجّة، وأعضاء كمُخْتَلِط الأَشْلاء من ضِياع التناسُب؛ وما آختلف الزُّجاجُ لكنْ هي الأخلاق تُحسِّن وتُقَبِّح، وتُعْلِي وتُسْفِل، وتُقَوِّم

(١) جزتني: كفتني. والعبرة: الاعتبار بما مضى. واللحظة: المرة من لحظ العين.
(٢) النهد: الثدي. وناهد: بارز.
(٣) الرواسي: الجبال الراسية الثابتة.
(٤) زواهر: متلألئة مشرقة. والفراقد: النجوم.
(٥) يشير إلى بناء أهرام الجيزة وكان في عهد الأسرة الرابعة، ولم تكن قد انقضت.

وتُعَـوِّج، وتُرِيـك من قَوْم مـا لا تُريـك من آخرين. مـا أبعـدَ مـا بين الأصـل والفَرع! وشَتَّان ما بين الوالد والمَولود! ذلك قبيلٌ شادَ وسـادَ، وأَجَار من البِلَى الأجساد، ونَشر سُلطانـه على البلاد والعِبـاد، وأخذ لآثـاره مِن بَعْده مِيثـاقاً من الآباد[1]، حياتُه للموت وموتُه للحياة، يَعمل للذِّكْر ويُهيِّىء للأحـاديث، ويَتْرُك للأبناء، ويَعلم أن السِّيَر حياةٌ ثانية، في هـذه الدار الفـانية، وأنْ ليس المـوتُ إلّا سَفَراً من الأسفار، ونُقْلَةً من دار إلى دار:

ولا يـسـتــوي نـاءٍ يُعَـطَّلُ ذِكْرُهُ وآخَــرُ مَـذْكُـورٌ بكُــلِّ لِسَـانِ

ونحن مَعْشَرَ الأبناء فيمانـزعم، وذَرَارِيَّ المِصْرِيِّين القُدماءِ فيما نتوهّم، أُمَّة نِيَام، لا نَعرف المُلْك إلّا في الأحلام، كأنّا وُلاةُ العُهود شابُوا وآباؤهم قِيام؛ يَوْمُنا يومُ العاجِزين، وغَدُنا غَدُ اليائسين، وأَمْسُنا لا للدُّنيا ولا للدِّين؛ معنى الحَياة عِنْدنا شيءٌ باطِل، وطَرفاها نَعِيمٌ زائِل، ومـاهيَّتُها أيامٌ قَلائل؛ لا نَدَّخِر صالحات ولا باقيات، ولا نَرْجُو عُلُوّاً في حَياة ولا ممات، يَترُك أحدُنا لِوَلَدِه من وَجْدِه[2]، ولا يَتْرُك لهم من مَجْده.

قال الهُدهد:

وما لَبِثَت الشمسُ أنْ غَربت عن بلاد، وطَلعت على بِلاد، فآفَاقٌ في مِهْرَجان وآخَرُ في حِداد؛ فحدَّثَتْ نفسِي بالانْثناء، فِرَاراً من وَحشة الظَّلماء؛ لكنّي ما هَمَمْت حتى شَعَرْتَ بأنْتِفاض طائر من الجَوارح، وسمعتُ هاتِفاً يقول: يا مُنادِيَ الحَجَر، ومُناجِيَ الأثَر، أَخطأتك مُصْدُوقةُ الخَبَر[3]، وغابت عنك أُمّهاتُ العِبَر؛ هلاّ قلتَ في شَكْوَى الحال، ونَجْوى هذه الأطلال:

يأيُّها الهَرَمُ المَنحوتُ من زُحَلٍ صُبَّ النُّحُوسَ عَلَيْنا أَنْتَ والزَّمَنُ[4]
هَوَى حَوالَيْكَ مُلْكٌ لا قِيَامَ لَهُ وغُيِّبَتْ في ثَرَاكَ الأَرْبَعُ المُدُنُ[5]

---

(١) الآباد: الدهور، واحدها: أبد، بفتحتين.
(٢) الوجد: الحب.
(٣) مصدوقة الخبر: ما يدل على صدقه.
(٤) زحل: كوكب يتشاءم به.
(٥) الأربع المدن: طيبة ومنف وعين شمس والفسطاط.

وأَمْسَك الهاتِفُ عن الكلام، فالتفتُّ مَذْعُوراً، لعلي أرى على المكان شَبَح إنسان، أو خَيال شَيطان، فلم أَرَ غير نَسْر، مُسْتَجْمع في وَكْر، نَسَج عليه الدَّهْر، وهو يَرْنُو بصَفْرَاوين كالتِّبر، في كلتيهما إنسانٌ كنُقْطة من حِبْر[1]؛ فدنوت منه وتأمْلتُ فيه، وإذا هو قد وَهَن منه العَظْم، وتَناثر الرِّيْشُ من الكِبَر، وشَدّ مِنْسَرَه[2] إلى ساقَيْه بأسباب من الهَرَم، وأَكَل على جُؤْجُؤه[3] الزَّمنُ وشَرِب القِدَم؛ فقلت: لعلّه نُوحُ النُّسُور، أو بعضُ ما حَمل نَوحٌ معه من الطُّيور؛ وآبْتَدَرْتُ خطابَه فقلتُ: سلاماً أيها الشيطان! إن كُنتَ لُبَدَ لُقمان[4]، فإنِّي هُدْهُدُ سُلَيمان[5].

قال النَّسرُ وآستَضْحك: افتريتَ على النبيِّين والطَّيْر، وآنتحلت لي ولك ما للغير، أنا آدمُ الشُّعراءِ ولا إطراء، وأولُ من نَطَق بالقافية الغَرّاء، فوق هذه الغَبراء.

قال الهُدهد:

وكنتُ لم أُفقه ما رمَز إليه، ولم أُعلَم مُراده من بيتَيْه، فبشَّرتُ نفسي وقلت: شيطانٌ قديم، فلأعلمنّ منه ما لم أعلم، وفوق كل ذي عِلْم عليم. ثمَّ قلت أخاطبه:

الأيّام أيها النَّسر مدارسُ الأحلام، ولا يَستوي في العِلْم كَهلٌ وغُلام، فلا أَستحيي أن أسألك: من أنت؟ فقد آسْتَبهم عليّ ما بيَّنْت.

قال: أنا من سَمَّيْتَ في قَرِيضك، وكَرَّمْتَ في شِعرك، وبَعثتَ في قوافيك: فَضْلٌ لك لا أنساه، وما كنت تراني لولاه.

قلت: لئن صدقتْ مَزَاعمي، فأنت الرُّوح الأكبر، والشيطان الأَشهر،

---

(١) إنسان العين: ناظرها.
(٢) المنسر للطيور الجارحة، كالمنقار لغيرها.
(٣) الجؤجؤ: مجتمع رؤوس عظام الصدر.
(٤) لبد: آخر نسور لقمان بن عاد. وكان قد خيِّر فاختار عمر سبعة أنسر.
(٥) هدهد سليمان، هو الذي أتى سليمان عليه السلام بخبر بلقيس.

والنَّسر المُعَمَّر، بنتاءور شاعر الملك رعمسيس، وحامل لواء البَيان في طِيبة ومَنْفِيس.

قال: إنه أنا، وإني بك لـقرير؛ كنتُ أراك تَستمع لواعظ الدَّهر، فوق هذه المنابر؛ وتجمع الخَبَر والخُبْر[1]، عن ذلك المُلْك الغابر، والسلطانِ الغائب الحاضر؛ وجديرٌ بأقدم المقابر، أن تَعِظَ الزائر والعابر؛ فهَمَسْتُ في أُذنك بالبَيتين، أريد أن أُريك ما لم تَرَ عَيْن. أُنظر كيف تَر مَنْف؟

قلت: أطلال بالية، ورُسوم عافية، عندها قرية كبعض القُرَى، لا تكاد تُحْسَب من الثَّرَى.

قال: فكيف عَين شَمس؟

قلت: مَزارع ورمال، لا جَلالَ عليها ولا جَمال.

قال: فانظر الفُسطاطِ كيف تراها؟

قلت: بُيَيْتَاتٌ وأَديرة، ودِيار مُستنكرة.

قال: فما هذه البلدة الزاهرة، والرَّوضة الناضرة، والدُرِّيّة السَّافرة؟[2].

قلت: مدينة القاهرة.

قال: لمن هي؟

قلت: لِغَير أهلها!

قال: هي إذن في حُكم المُدن الغابرة: عواصمُ أربع، كنّ مَقَارَّ دُوَل، وكَراسيَّ مَمالك، وقَوَاعِدَ حكومات؛ تُغير إحداهنّ الشمسَ بأُبَّهة الملك وعَظمةِ السُّلطان، حَضرت الأهرامُ يومَها وأمسَها، وشَهِدت مصرعَها وكانت رَمْسَها؛ فاسأل ربَّك لقومك أن يَكْفِيَهم نَحْسَها!

---

(١) الخبر، بالضم: الامتحان.
(٢) الدرية: الكوكبة المتلألئة الضوء.

قال الهُدهد:

فأطرقتُ أتأمّل في مَعاني هذه الكَلِم الجوامع، وأتدبَّر مَغازِيَ هذه الحِكَم الرَّوائع ؛وأنا أَستعرض كُرَةَ الأرض في خاطري، وأُقلِّب صَفحاتِ التاريخ في فِكْري، فلا أجد لفَضاء الأهرام مثلاً فيما وَصَفه النَّسر؛ إلى أن أَخْرَجني من إطراقي بأن قال:

أَرى الهُدْهُدَ بَيْن عِبْرَة جَلَّتْ حين تَجلّت، وفكرةٍ في المَدائن الأربع كيف تَولَّت؛ فهل لك في كَلِمات تُمَثِّلك وقُوَّتك في الظُّلمات، وتُريك الأُمم في حال ذهابها، كيف يَنْقُصها الآلهةُ من أَخلاقها وآدابها.

قلت: لو كان فيهما آلهةٌ غَيرُ الله لَفسدتا؛ إنِّي أراك في ضلالك القديم!

قال: قَطعتَ حديثي لأَمْرٍ لا يَعْنِيك، لك ما تَعْبُد ولي ما أَعْبُد، ولا يَزِرُ النَّسْرُ وِزْرَ الهُدهد(١)؛ فإن كان لك في الصُّحْبة فعليّ ثلاث: ألاّ تُجْرِي الأُمورَ على هواك، وألاّ تَنْظُر فيها بمُقْتضى طِباعك، وأن تَأْخُذَها ولا تسأل عن أسبابها؛ فهذه الثلاثة تُخْرِج من العِلم إلى الجهل، فكيف تَخْرُج من الجَهل إلى العِلم.

قلت: ذلك لك يا شاعر الآلهة فأَنْجِزْ الآنَ ما وَعَدْت.

قال: هَلَك الفراعنة وخَلَت الأَسِرَّةُ منهم، وذَهبت دُولهم، ونُبِشت قُبورهم، وعُرِضَت جُثثُ عَزَّتْ عليهم وعلى الناس، ومَأْتَمهم بينكم، معاشرَ المصريّين قائمٌ لا يَنْفضّ، وما مَقعدكم منه إلا كالمُعَدِّدة: تَبْكي ولا دَمْع، وتَنْدُبُ ولا حُزْن؛ وتَهْتِف بما لا تَعرف من أخلاق الميت وصفاته، وسُنَّةٍ سارها في حياته؛ يَفخر أحدُكم بالعَظم الرَّمِيم، ويَتَحلَّى في حديثه بالمَجد القديم، ويُسَرُّ، وهو عُطْلٌ من الغِنى عَدِيم، بمَبالغ غيره من اليَسارة والنَّعيم؛ فإذا ذُكِر المصريّون القُدماء، رَفَعْتُم الأنوف للسَّماء، وزَعمتم أنكم سُلالة

(١) لايزر: لا يحمل، والوزر: الحمل الثقيل.

الفـراعنة العُـظماء، لكم التَّـاجان وعَـرشكم على المَاء؛ وإذا جَـرت أحاديث العرب، قُلْتُم بيننا أقربُ النَّسب، ولنا مـا تَرَكُـوا من حَسَب؛ وما هـو إلَّا سَبَبٌ قَـطَعْتُموه، ودِين ضَيَّعتمـوه، ولِسان عـربيّ بالعُجْمـةِ بِعْتُموه: وإذا سُمِّي جَـدُّ الأَتقيـاء، وواسِطة عِقْـد الأَنْبِيـاء، كُنتم كَلُّكم لآلىءَ الشَّـرَف، ومـا خَـرَج قَطُّ خَزَف من ذلك الصَّدف، وإذا نُصِر التُّـرك في حَرب، وتَـرَكُوا دَوِيّـاً في الشَّرق والغَـرْب. كُنْتم السيـوفَ والأَكُفَّ والضَّـرْب، ومـا ذُقْتم لهـا من حَـرْب ولا كَـرْب[1]؛ وإذا مات مَلِكٌ ليس منكم ولستُم منـه، ولا يُسأل عنكم ولا تُسـألون عنه، وخَلَّف لِقومه سِيرَةً تَسِير كالأمثال، وخَلَّى مَفَاخِرَ لن تَبِيد ولن تُنَال، كنتم المُؤَبِّنين الشُّعراء، لغيركم المِيراث، وعَليكم الرِّثاء.

قال الهدهد:

وبينما أنا في الإصغاء، آخُذ الحِكمة الغرّاء، عن آدم الشعراء، إذ قَطع الحـديثَ، وتركني مُفَكِّـراً في كُلِّ مـا هـاج بي ذِكْـره من قَـدِيم وحـديث، ثم صَرَفني على أن ألتقيه في مَنْفَ أصِيلَ الغد، وإنّ غداً لِنَاظِرِه لَقَرِيب.

(١) الكرب: الحزن والمشقّة.

المحادثة الثانية

قال الهدهد:

فـأَقْلَعْتُ للطيران، أؤمُّ عُشِّي في حُلوان، وأنـا كمن مَرَّ بـه غَرَام، على مَنـازل الآرَام[1]، يتلفَّت قَلْبي إلى تلك الأجـرام، ويَعِـزّ على نفسي أن تُفـارق الأهـرام؛ ثم جاشَت في صَـدري هَوَاجِس، وآمتـلأ خَطَرَاتٍ من الـوَسَـاوِس؛ فتمنَّيْت على فِئة غيرِ هذه الفئة، وأمَّلت من حُكَّام مصر بعـد مئة، أن يَتَّخـذوا من الأهـرام مَقَابِـر، للنَّفْر الأنفعين الأكـابـر، فيُـدْفَن فيهـا الجليـل والعـزيـز، كالبنتيون[2] في روما وباريس. أُمِنْيَّةٌ إن شئتَ عُـدَّها سَخـافـة، وإن شِئْت قُـل حَدِيث خُرافة[3].

مـن لي بـأن تُـجْعَـل الأَهــرامُ مَـقْبرةً
كـالبنتيـون لأهـل الـفَضـل والـفِـطَن
مَـفْـتـوحـةً لـوُفـود الأَرض قـاطِـبَـةً
يَـزُورُهـا النـاسُ مِن شـامٍ ومن يَمَـنِ

---

(١) الأرام: الظباء، واحدها: رئم، بالكسر.
(٢) البنتيون: مقبرة العظماء.
(٣) الخرافة: الحديث الكذوب.

مُغيَّبين من الإجلال في جَدَثٍ
مُدَرَّجين من الإعْظام في كَفَنِ
مَسْطُورةً بِمُذابِ التِّبْر فَوْقَهُمُ
آثارُهم والذي أَسْدُوْا مِن المِنَنِ

تَخيَّلتُ ثم خِلتُ الأَمر قد تَمَّ، وأعلنت الحكومة مَشِيئتها فيه، وصَدر الأمرُ العالي به، ولم يَبْقَ إلاّ العملَ بمُوجبه؛ فأُنْشِئت الأضرحة الفَخِيمة، في تِلك الحُجَر القديمة، وأُقيم الحُرّاس على أبواب الأَهرام، وكُتِب على مَداخلها بماء الذَّهب لعُظماء الرِّجال شُكْرُ الأوطان، وقيل: هذا القَبر، فأين الميت؟

قال الهُدهد:

خَطَراتُ شاعرٍ وأُمنيةُ شيطان، فمن حَضر بعده تَحْقِيقَها فلْيَذْكُره، ومن عَلِم بها ولم يَرها أُبرزتْ من القول إلى العمل فَلْيَعْذِره. ثم بَلَغْتُ عُشِّي، فنِمْتُ ناعِمَ البال مُغْتَبِطاً بما وعدت من لُقْيا النَّسر، كأنما وُعِدْتُ مُلْكاً كَبيراً؛ فلما أَصبح الصُّبْحُ، قطعت نهاري مُتَمَلْمِلاً حتى الأَصيل، وأنا لا أَدري ماذا عَنَى النَّسْرُ بمَنْف، أهذه القَرية أم تلك المدينة؟ وهل مَوعدنا مَنْفيس أم ميت رَهينة؟ حتى إذا ذَهب مُعظم النهار، طِرْت إلى النِّيل أُريد أن أَعْبُرَه فوق سارية من مُعَدِّيَة؛ فلما شارفته رأيتُ ما مُلئت منه تعجُّباً وتَحَيُّراً، رأيت شاطئَين يَتغايران، وضَفَّتين تَخْتلفان: هذه تَلُوح مُوحِشة كأنها قَبْرٌ بمكانٍ قَفْر، أَرْضٌ على الطَّبيعة، وفَلَّاح على الفِطرة، وجَيْئَة لِغَير مَطلب، وذَهاب في غَير مَغْنم، وزَرْع للفلاّح إنْباتُه، وللتاجر ثَمراتُه؛ وهذه تَمُوج بمَعالم العُمْران، وتَتجلَّى في زَخارف الحَضارة، وتتدفَّق حياةً، وتتوثَّب وجْداناً؛ فوقفتُ أتأمَّل هذا المَرْأى البَهِج، والمَنْظر العَجَب، والمَشْهَد البَديع وأنا أَتَّهِم الخيالَ ولا أتَّهِم الحِسّ، ولا أُبَرِّىء نَفسي من سِحرٍ أو مَسّ، وقد أَنساني الذُّهولُ ذِكْرَ ما وَعدني النَّسرُ أمس: أَنْظر إلى النِّيل فأَرَى المَجاديف تَنْتَهِب مِياهه من تكاثُر السُّفُن لَدَيْه، وتَلاقِي الزَّوْارق عليه، مَشْحُونةً بالبِضاعة، مَملُوءةً من الجَماعة،

فكأنما أَنْظُر إلى السين. أو الرين. أو الدانوب[1]؛ فذكرتُ عندئذ ما قاله نابليون لِجماعة من جُنده في مصر، وقد مَرّ بهم فرآهم ينظرون إلى النَّهر، وسَمِعهم يتساءلون: أهذا هو النيل الذي تُشِيد الكُتُب المُقدّسة بذِكْره، وتُبالغ الأجيال في قَدره؟ إنّ السَّمَاع به خَيْر من رُؤْيته. فٱقترب منهم، وقال: إنه لا يَعْوِز النِّيلَ إلا خمسون عاماً، ثم يَبْدُو لكم كما تَصِفُه الكُتُبُ المقدّسة أو أجلّ! فقلت في نفسي: لئن زَعم نابليون أنّ مصر لا يَنْقُصها إلا التَّمَدْينُ، ولا بُدّ أنّ تنالَه على يَدِ الفرنساويّين، أو غيرهم من الأُمم المُتمدِّنة، فقد مَرَّ مائةُ عام لا خَمسون[2]؛ فما بالي أَرى هذه الضَّفّة بحالتها التي رآها جنودُ نابليون عليها، وأَرى لَدَى هذه نَعِيماً ومُلْكاً كبيراً.

وبينما أنا في التخيُّل تارةً والتأمُّل تارة، والتوهُّم مرَّة، والتيقُّن كرّة، بَصُرْتُ بزَوْرقٍ يَقْتَرِب منّي، ويُجْرِيه عُصبةٌ من المُجدّفين، في الزِّيِّ المصري القديم، كما تمثّلهم لنا الآثار، وقد نَهض فيه رَجُلٌ كأنه المِثال المُنَصَّبُ رَوْنقاً وٱعتدالاً، وسَكِينةً ومَهابة، وهو مَكْشوف الرأس، لابِسٌ ثياب المصريِّين القدماء كذلك، فأَشفقتُ من رُؤية الزَّورق ورِجَاله لأوّل وَهْلة، وتَحفَّزتُ للمَطَار[3]؛فصاح الرجلُ بي يقول إليَّ، يا هُدهد، إني أنا النَّسر، فلا تَخَف ولا تَجْزَع.

قلتُ: وما بَدَّلَكَ، يا مولاي؟ وما هذه الحال؟ وَهَبْني جِئتُ إليك، فأين تُريد أن تَجعلني؟

قال: تقدَّم ثُم تكلَّم.

فطِرْتُ من فَوْري إليه، فتلقّاني بكِلْتا يدّيه، ثم رَفعني فَوق كتفه، وقال: هذا مكانُك فٱسْتَقِم فيه، ولا تُكْثِر من التلفُّت والانتفاض فتُؤذيني.

---

(١) السين والرين، والدانوب: أنهار في أوروبا.
(٢) لقد كان غزو الفرنسيين لمصر سنة (١٧٩٨م) وكان جلاؤهم عنها سنة (١٨٠٠م).
(٣) تحفزت: تهيأت. والمطار: الطيران.

قلت: سَمعاً وطاعة، يا مولاي.

وعندئذ أشار إلى الملاّحين أن يَنْثَنُوا بنا راجعين، فسالت أيديهم بالزَّورق في نَهْرٍ سَرَى به الجَلال، وخُطَّ عليه الجمال، تَتلاقى السُّفنُ فيه كالجبال، تَنُوء بالبَضائع والغِلال، وتَفِيض من الرجال والأموال؛ فسألت النَّسر: لمن هذه الأرباح، يا مولاي؟ لقد أَذكرتني كُنُوزَ سليمان عليه السلام، وجَوَارِيَه المُنشآتِ في البحر كالأعلام[1].

قال: هذه رَعِيَّة مولانا الملك رمسيس، تَروح وتَغدو بين طيبة ومَنفيس، ناهِضين بالمتاجر الجَسيمة. قائمين بالأعمال العظيمة، تجري السفنُ بهم ليلَ نهار، بين شاطئين كلاهما محطٌّ لِرحال التجّار.

قلت: وإلى أين تَمضي بي، الآن، يا مولاي؟

قال: ألم أَقُل لك موعدنا مَنف؟ وها نحن قادمون، وهذه معالمها تَبدو وتَظهر، وتِلْك مَجاليها تُضيء وتُزْهِر.

فأخذني الدَّهَش، وصِحْت: الله أكبر!

فأنكر النَّسْرُ عليَّ صَيحتي، وقال: ألم أؤدِّبك بالأمس؟ فهلا دارَيْتنا في دارنا، وأرضيتنا في أَرْضنا؟

قلت: وما عَساي كنتُ أقول، يا مولاي؟

قال: كان أَوْلَى بك أن تَسْكُت، أو أن تقول: الشمسُ كبيرة. وحَفِيدها رمسيس كبير.

قلت: لا أَعود لمثلها، يا مولاي؛ فهل لي أن أرى حفيد الشمس ذاك؟

قال: ستراه وتَسمعه، فلا تَعْجَل ولا تُؤْذِني بأسئلتك.

---

(١) الجواري: السفن. والأعلام: الجبال.

ثم آستقرّ بنا الزَّورقُ، ونالت أقدامُنا منفيس، فإذا بها تحلَّت من الزَّخارف بكُلّ نفيس، وتجلّت تختال في حُلَل البهاء وتَمِيس[1]، حيثُ التفتُّ رأيتُ حولي عَزَازَة وعِمارة[2]، وثَروة ويَسارة[3]، وصِناعة وتجارة، وجَاهاً وإمارة، وجُنودَ البرّ والبَحَّارة من كُل زِيٍّ وشارة؛ فلم أتمالك أن آغرَوْرَقت عيناي بالدمع، فالتفتَ النَّسرُ إليّ وقال: أدَمعةُ سُرور وفرح، أم عَبْرة أسًى وتَرَح؟[4].

قلت: بل كِلتاهما، يا مولاي، فلئن سَرَّني أن أرى هذا المَجد لمصر أوّلاً، لقد ساءني أني لا أراه لها أخيراً.

قال: لو أنّ فوق كُل شِبْر من أرض مصر هُدْهداً يَملؤه دَمعاً ما أغنى ذلك عنها شيئاً؛ فعليك بالتأمُّل والاستقراء، قبل البُكاء الاشتكاء؛ والتبصُّر والاعتبار، قبل النَّحِيب والاستعبار.

فكَفْكَفْتُ دمعي وقلت: لا يكوننَّ إلاَّ ما أمرتَ، يا مولاي.

قال الهُدهد:

ثم مَررنا بهيكل يأخُذ العَين، ويتملّك النفس، ويأْسِر الخاطِر، ويَستوقف اللُّبَّ قبل الناظر؛ فتوجَّه النَّسْرُ وُجْهَتَه، ثم دخل بين حُرّاس يَنحنون له تعظيماً وإجلالاً، وكُهَّانٍ يُوفُّونه تحيةً وآستقبالاً؛ وهُنالك جَعل يَطوف بي حَولَ القواعد والأركان، ويَرفع بَصَرَه إلى دعائم البُنيان، ويتنقّل بي من مكان إلى مكان، ويذهب بي صُعُداً وصَبَباً[5]، في حُجر عالية غالية، ومَقاصير خاليةٍ من عَيبٍ حالية، منها الدَّاجي المُظلم الحالك، وبعضُها مُنوَّر، للشمس إليه مَسالك؛ وهو يقول: هذا، يا بُنَيّ، الهيكل الأشهر، بيتُ (فِتاح) الإله الأكبر،

---

(١) تميس: تتمختر.
(٢) عزازة: قوة.
(٣) اليسار: الغنى.
(٤) الترح: الحزن.
(٥) صعداً: إلى أعلى. وصبباً: إلى أسفل.

حـامِي حِمَى هذه المـدينة، ومُلْبِسهـا الأَمن والنِّعمة والـزِّينـة، تَنَقَّـل معي من حَجـر إلى حَجر، ومِـلْ معي عن أثر إلى أثـر، وأَنْعِمْ النظرَ في هـذه النُّقـوش والصُّوَر، تَرَها في ضمائر الجَفن أدَقَّ من الخواطر والفِكَر، وما صُنِعتْ في نُور الشمس ولا في ضياء القمر، لكن في ضَوء سراج ضَئيل غير وهّاج؛ ثم تأمَّـل في الحَجَر بجانب الحَجَر، كأنهما واحد آنقسم على نَفْسه شَطْرين. آنظر إلى هـذه الجبال كيف قُـطعت، وإلى الأسـاس كيف وُضِعت، وإلى العَمَـد كيف رُفعت، وإلى الزَّخارف كيف جُمعت؛ هل ترى في جميع ذلك إلاّ مَعْـرِفةً في العِلم، ودِرايةً في الفَنّ، ومَهارة في الصناعة؛ وغَيْرَ إحكام في الصُّنع، وإتقانٍ في العمل، ورغبةٍ في الثناء، وهِمَّةٍ عـالية في الأمـر، وذكاءٍ فـائق في الأمور، وطاعةٍ واجبة للمَلِك على الرَّعايا، وعدالةٍ مفروضة للرَّعايا على الملك؛ وهذه يـا بُنَيَّ، أُسُس الآداب، ورُؤوس الأخـلاق، وقِـوى الحيـاة في الأُمم، وسـرُّ نجاح الشُّعوب.

قال الهُدهد:

وكنت أُراعي النَّسـر وفِكْـرَتي في المَلِك، أَتَمَنَّى أن أراه مَـرَّةً واحـدة، فناجيتُه بذلك، فغَضِب من هذه المفاجأة، وقال: المُلوك أيها الهدهـد في كُلّ مكـان من مَمَـالِكهم، إذا تَغَيَّـبوا حضـرت مـآثـرُهم، وإذا آحتجبـوا سَفَـرتْ مَفـاخِرْهم، فحيثُ نَقلت القَـدَم في هذه العـاصمة، حَـدَّثـك عـزُّ المُلْك عن المَلك، ووَصَفتْـه لك هـذه الدولـةُ الكُبـرى كـأنـك تـراه، على أني سـأُنيلك سُؤْلك، وأَجعلك من رمسيس[1] بحيثُ تَسمـع وترى، فلا تَعْجَل عليّ، ولا تكن كمن يُـزَوَّرَون الأستانـة ولا أَرَب لهم إلا «حَفلة السلاملك» وإذا قَضَـوْا أَربهم من حُضـورها رَجعـوا إلى أوطانهم مُتَبَجِّحين بمـا لم يعلمـوا من أبّهـة ذلـك المَلِك، وعظمة ذلك السلطان!

قلت: أَفَيُرضيك أن أكُفَّ عن السُّؤال، يا مولاي؟

---

(١) رمسيس: يعني رمسيس الثاني، فرعون مصري (١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ق.م).

قال: آسأل ما شِئْت إلّا الصغائر، فإنها تَقْتُل النُّفوس، وتُطفيء نور العقول، وما آشتغل بها شعبٌ إلا هلك حَيّاً؛ إن لرمسيس وَجْهاً كبعض الوُجوه، وجِسْماً كسائر الأجسام، لكن إذا وَقَفْتَ على شيء من بَسطة مُلْكه، وآمتلأتْ نفسُك مهابةً من سَعة دولته، ورأيت آثار نعمته على رَعِيّته، ثم لَقِيته بالذات، لَقِيتَ إلٰهاً في زِيّ إنسان، تَنْحَسِرُ في جلالته العَينان، ويَخْفِق لأدنى لَحظة منه الجَنان.

قلت: مَررنا في مجيئنا إلى الهيكل بعمائر شَتّى، وأبنية تُشَيَّد، وهياكل تُعمَّر؛ فكنت أرى العُمَّال صنفَيْن، والصُّنّاع فريقين مُختلفين، فما شَرُفَ من الأعمال، وكان للعقل والرأي مُعظمُ الأثر فيه، تولّاه المصريّون بأنفسهم، وما خَسَّ منها وكان شاقّاً يشترك فيه الساعِدُ والجِسم، كعمل الطُّوب، وجَرِّ الأثقال، قام به طوائفُ من الناس زَرِيَّةٌ أَزياؤهم، مُختلفة صُورهم، مُسْوَدَّة وجوهُهم؛ فمن هؤلاء، يا مولاي؟

قال: غُرباء أُسِرَوا في الحروب، وجيء بهم إلى مصر، فأرواحُهم مُباحةٌ للملك، يَنْهَب منها ما يشاء، ويُسخِّر من آستبقى فيما يشاء، ويَجُود ببعضها على قُوّاد جُيوشه الذين جَنَوْا معه ثَمر الوقائع، وشَهِدُوا بجانبيه المَعارك والمَعامع.

قلت: عجباً لكم، معشرَ الآباء، تَبْلُغون هذه المبالغَ من المَدنيّة، وتأخُذون هذا النصيب من الحضارة، ثم تَقْسُو قلوبُكم فهي كالحجارة أو أشدّ قَسوة؛ فلو آطّلَع الإفرنجُ خُلفاؤكم في الأرض اليومَ على سِيرتكم هذه في مُعاملة الغريب والأسِير، لأنكروها عليكم إنكاراً، ثم لَوَلَّوْا منكم فِرَاراً!

قال: يَبْقى الحَيْفُ ما بَقِي السَّيف[1]؛ وليس ما نَسَبْتَ إلى أصحابك من الرحمة المُتناهية، وعَزَوْتَ إليهم من الفَلسفة العالية، إلا ضلَّة من حِلْمك[2]،

---

(١) الحيف: الظلم.
(٢) الضلة: الهدر.

وقلّة في عِلمك؛ يُنكرون على ملوكنا أن يَلعنوا من ليس من دينهم من الأُمم، وما أشبههم في ذلك بإدوارد السابع، يوم ذَمَّ المَذهب الكاثـوليكي بمَسمع من الأشراف تُبَّاعِ هذا المذهب؛ ويَرموننا بفَرْط الكـراهية للغـريب وآقتناءِ الحِقـد له، ولنا في ذلك أعذار مَقبـولة، فمـا بَششنا في وجهـه قطُّ، ولا آستنمنا إليـه مرة، إلا طَمَع في مُلكنا وأَفسد علينـا أمرنـا؛ على أننا عَلَّمنـا الأُمم من بعدنـا شَرْع الوطنية، وعرَّفناهم كيف يَطُول عُمر الدولة عند قوم، وتُمَدُّ بُـرْهةُ الحُكم بينهم، إذا هم آعتمـدوا في جميـع أمـرهم على أنفسهم، وضَـربـوا على يـد الأجنبي أن تَعْبث في شُؤونهم؛ ولئن بالغنا للغُرباء في سُوء المعـاملة، فَلنا من مَوقع بلادنا الطبيعي عُذْر واضح؛ فما مِصر إلا سَهْلٌ سَهْلٌ غَزْوُه والإغارةُ عليه وواد مَكشوفٌ للأبصار الطامِحة إليه؛ فلو لم يَسهر عليه منّا الساهـرون ما لَبِث في قبضتنـا طَوال تلك القَـرون؛ أما أسِيـر الحـرب عنـدنـا فـأَشْقَى منـه أسِيـر الاستعمـار عنـدهم؛ يَـزْرَع لهـم ويَحْصُـدون، ويَبْني لهـم ويَسكنـون، ويَسهـر عليهم وينامون، ويفتح لهم البلادَ ويمتلكـون، وإلى بَعض هذا ينتهي الشقـاء والصَّغارُ والهُون.

قلت: يكـاد عِلْمُك يَسـع الأشياء كُلَّها، يا مـولاي؛ فلو علمتُ مـا مُـراد الملك رمسيس من مُـواصلة الغـزو ومتـابعـة الغـارة، والخُـروج من حَـرب والدُّخول في حَـرب، ومنزلتـه بين الملوك الغابـرين منهم والحاضـرين، ما لا تـرى أبصارُهم خلفهـا مطرحـاً؛ فهلاَّ أقـرّ السيفَ وحَقن الـدمـاء، فقـد ملك الأرض فهل يُريد أن يملك السماء؟

قال: السيفُ، يا بُنيّ، يُعْلِي السيف، والدُّوَلَ إذا كبِـرت، وعَـزّ مَقـامهـا وتَغلّبت، وعرفت الجاه والنفـوذ، جَدَّ بهـا الحِرْصُ على البقـاء، وطَمعت في المزيد من الارتقـاء، مخافـةَ أن تَقِف فيُدركهـا اللاحقـون، أو تتمهّل فيَفُـوتها السـابقون؛ وقـد جَرت العـادة بين الناس أنّ الضعيفَ لَا يـزال يَـرْمِي القَـوِيَّ بالبَغْي حتى يَصِيرَ ذا قُوة مِثْلَه فيَطغي مثلَ طُغيانه، والفقيرُ لا يـزال يَتَّهم الغنيَّ بـالجَشع حتى يَثْـرَى فيُصْبح هـو الأَجشع؛ وليس مـا تـرى من رحمـة النـاس

و«البوير» وماتَسمع من ذمّهم الإنكليزَ المُعْمِلين السَّيفَ في جَنوب إفريقيا منذ عامَين[1]، إلاّ حَسداً لا ينفع البوير ولا يُصغرّ الإنكليز؛ ولو أن إحدى الدُّول مكانَهم ما كان شأنُها إلا شأنَهم؛ على أن الفتح إذا نَفع القاهر مرةً، نَفع المقهور ألفَ مرّة، فرمسيس إنما يُخرج الأُمم من الظُّلمات إلى النور، فيَفُكّ عقولهم من عِقَالها، ويَشْفِي نُفوسهم من ضَلالها؛ ولولا فضلُ المصريّين على أهل الأَعْصُر الأُوَل، ما قامت للأحباش دَوْلة، ولا اجتمع للعِبْرانيّين أَمْر، ولا آنْعقد للأشوريّين لِوَاء؛ سَرَى نورهم في الأُمم المجاورة، وآمتدّت حياتُهم إلى الشعوب المعاصرة؛ وهكذا سُنّة الدهر في الناس: أواخِرُ يَرِثون الأُوَل، ودُوَل تَبني أنقاض دُول.

قال الهُدهد:

فعَذُبَتْ مقالةُ النَّسر في نفسي، كأنها لفظُ الشِّفاء على لسان طبيب، وقلتُ: لقد أخرجْتَنِي من يأسي، يا مولاي، وعَلَّمتني مِن مستقبل مصر ما لم أكن أعلم!

فتَنَهَّد بنتاءور وقال: تَجمع كُلَّ أُمة جَوامعُ شتَّى من لُغة ودين وجِنْس، وأَمَلٍ ويَأس، وسَرَّاءَ وضَرَّاء؛ وأنتم لا تعرفون غيرَ جامعةِ الموت تَجمع الأعداءَ.

ثم قَطع الحديثَ وقال: هذا شيءٌ، نَتحادث فيه بعدُ، فَلْنَبْقَ فيما نحنُ فيه من آجتلاء المَناظر والمَشاهد، ومُناجاة المَعالم والمعاهد.

قلتُ: ذلك أنفعُ لي، يا مولاي، فما هذا التِّمثال القائم بين مقاصير الآلهة من الهَيكل، وبين مَجلس الملك ومَنْصب عرشه منه؟ إنّي أراه كعَوج بن عَنَق في ضَخامته التي يَزْعُمون[2].

فمَشى النَّسرُ إلى التِّمثال وجَثا لديه، ثم نَهض وقال: فَرغ الملكُ من

---

(١) يعني حرب البوير التي نشبت سنة (١٨٩٩م).

(٢) عوج بن عَنَق: ملك باشان الجبّار المذكور في التوراة له في أساطير العرب أخبار كثيرة.

حُروبه التي تَسِير كالأمثال، وأمَّن تُخُومَ مَمالكه، وأخذ بالثقة من المَستعمرات الواسعة، وفَرَّق جُيوشَه في البَسِيطة يُعزِّزون فيها آيةَ المُلْك ويَحْمون أطرافها، وأصبح من ثُبوت الـدنيا لـه، وآستقامـة الأمر في يـده، بحيث قلتُ في وصفه ومدحه:

رَمْسِيس، يا مَـلِكَ الـدُّنْيَـا وواحـدَهـا
وبَضْعـةَ النُّـورِ وابنَ الـكَـوْكَبِ الأَحَـدِ

الشَّمْسُ مِثْلَك بـعـد اليَـوْمِ لا وَلَـدَتْ
والـشُّمْسُ مِثْلَك قَبْـلَ اليَـوْمِ لـم تَـلِدِ

فـإنْ تَكُنْ في سَرِيـرِ المَجْـدِ خـالِـدَةً
فـإنَّ عَـرْشَـكَ مَـرْفُـوعُ إلـى الأَبَـدِ

حتى إذا فـرغ من تَشييد مَملكتـه، والاحْتياط لِحِفْـظها، وجَعلهـا بمَأْمَنِ من الحُسَّاد والأعداء، فكَّـر فيما يُخلِّد آسْمَـه، ويُؤبِّد ذِكْـرَه، ويَكْفُل لتـاريخه الـدَّوام، فَبَنَى المدائنَ، وأنشـأ في كُل واحـدة منها هيكـلاً خاصّـاً بإلـه أهلها الذي يَعْبُدون، وسَـوَّر هذا الهَيكـل القَدِيم، بالأعمدة التي تراها مُحيـطة به، ولَيس أفخمَ ولا أضخم ولا أجـلَّ في الأَعْيُن منهـا، أَمَـر أن تُصْنَـع صـورتُـه مُعظَّمة وتُجعل في الهيكل، فعُمِل له هذا التِّمثال، وطولُه ثلاثون ذِراعـاً، وهو من عمل الأَسْرَى وحدَهم؛ وقد عُني المَلِك بأمر ذلـك، فَرَغِب أن يُكْتَبَ أنـه لم يَعمل مصريّ في هذا التمثال.

قلت: وفيمَ هـذا التبرُّؤ يا، مولاي؟ ولـو أنه من صُنْـع المصـريّين لكـان بالمِلك أَلْيَق، ولكانُوا به أحقَّ.

قال: إنّ رجلاً يرفع أكبـر دَولة في الأرض، ويقهـر أربعين أُمة، ويضـع حُدود مملكته أنَّى شاء، لا يُؤْخَذ بكبيرة، فكيف يُنتَقد في صغيرة!

قلت: لأنت في دفاعك هذا عن المَلِك أَشْعَرُ منك في مدحه!

قال: إنّما أدَّيْتُ بعضَ حَقِّه.

وهنا غَلب النعاسُ عـلى النَّسر، فجعل موعدَ الهُدهد مَيدان الملك في أَصِيل الغَد.

المحادثة الثالثة

قال الهُدهد:

كنتُ في صُدُوري عن مِيت رَهينة تحت سماء الليل، أَنـظُر قلَّة الرسـوم لديها، وأَرى نُدور الأطلال عليهـا، وما هي إلَّا مَقـابر بعض الملوك، ومَـدفن العجل أبيس، وذلك التِّمثال في حُفرته التي تنزل بـه عن سَطح الأرض بقـدر مـا جَرى الـدهر على منفيس في سـالف الأحقاب، ومـا عَقدت سَنـابكُ خيله عليهــا من مُتـراكم الحَصى والتُّــراب؛ فـأَعْجَبُ لــه كيف لم يُبْقِ من حـوَّاء العـواصم غير بقيّـة لا تُذْكـر في جانب مـا رأيتُها عليـه من السَّعة المتنـاهيـة، والعَظمة الجمَّة، والعِمارة المُدهشة؛ وتَبصَّرت مَلِيّاً في السبب، فلم أَرَ الـداء إلَّا مَوْقِعها الذي عَرّضهـا في كُل زمـان للفَيضان يعلوهـا، وأسلمها إلى ريـاح الصحـراء تختلف عليها فتَـذْروها؛ وذَهَبْتُ مـع المُؤرّخ عبد اللَّطيف[1] إلى أن مُعظم البَلْوى إنما جـاء من عَبَث الأُمم المُختلفين أديانـاً، الذين أغـاروا على وادي النيـل، ومَدِّهم يـدَ الحَسد إلى آثـار الفَراعنـة بمَعَاوِل الجَهـل، وما زال الحسد بِمَرْصَد للفَضل، وما آنفكّ الجهلُ عدوَّ العقل.

---

(١) عبد اللطيف، هو عبد اللطيف البغدادي المؤرخ، صـاحب الإفادة والاعتبار، بما في مصـر من الآثار. وكانت وفاته سنة (٦٢٩هـ ـ ١٧٣١م).

قال:

وكان جُؤجئي[1] قد جاش بالشِّعر عندما نَظرتُ التِّمثال في حاليه، وخَبَرْتُه في يومَيْه، فقلتُ فيه:

إنْ جِئْتَ «مَنْفاً» وهْيَ أوْ	لَى بازْدِيَارِكَ وانْتِيَابِكْ
ومَرَرْتَ بالأَطْلالِ مَرّاً	في مَجِيئِكَ أوْ ذَهَابِكْ
بالأَمْسِ كُنْتَ مُؤَلَّهاً	ماذا لَقِيتَ مِن انْقِلاَبِكْ
لا يَنْظُرونَ إلى ذُرَا	كَ ويَنْظُرونَ إلى رِحابِكْ[2]
ويُخاطِبُونَكَ راغِبِينَ	إلى ثَوابِكَ عَن عِقَابِكْ
أَزْرَى بِرَمْسِيسَ البِلَى	وهَوَى بهِ زَمَنٌ هَوَى بِكْ
وقُصارُ خَطْبِكَ عِنْدَ ذِي	نَظَرٍ يُبَالِغُ في خِطَابِكْ[3]
عابَتْكَ أحْدَاثُ الزَّمَا	نِ فكُنْتَ أكْمَلَ عِنْدَ عابِكْ[4]

وحَضرني بشأن هذا الأَثر شيءٌ من قَبِيل ما مَرّ الفِكْر بشأن الأَهرام؛ فأمّلتُ من جِهةٍ أن يَنْشَطَ المصريّون يوماً لتشييد بنائه، وتَكملة أعضائه، وتَجديد حُسْنه ورُوَائه، عساهم يقضون بهذا العمل الجليل، حَقَّ خَيْرِ مَلِكٍ لخير جِيل، رأى وادي النيل؛ وتمنَّيت من جهة أُخرى أن تَفْشُوَ التماثيلُ في مصر، لأن فيها بعضَ المكافأة لمنْ سَلف، وتَعْظِيمَ شأنِ الحياة في نَفْس الخَلف؛ ثم فكَّرت في رَجُل عظيم القَدر جَليل المَقام، خَطِير الشأن في صحائف الأيّام، لا صُحُف الأقوام؛ تُضيء مَزاياه ثَنَايَا التاريخ، وتَرْفعه أعمالهُ فوق البِرْجِيس والمِريخ[5]؛ إذا مات رشَّحَتْه الأُمةُ المصريّة، ليُمثَّل بالحجارة الأبديّة، ويُبَجَّل بالكلمات الذهبيّة، فما زال بي الوهمُ والخيال، حتى وجدتُ طِلْبَتي في الرِّجال، ولم يَبْقَ إلا عمل التمثال، فقلتُ حينئذ في نفسي: أينَ

---

(١) جؤجئي: أي صدري.

(٢) ذراك: علوك.

(٣) القصار: الغاية. والخطب: الشأن.

(٤) العاب: العيب.

(٥) البرجيس، والمريخ: نجمان في السماء يضرب بهما المثل في البعد.

من يَصنعه؟ وأين آلاتٌ تَرفعه؟ وكنتُ خرجتُ من أحلامي في المدينة الغابرة، وبلغتُ مَقامي في ضواحي القاهرة، فنِمْتُ أَطْيَبَ المَنام، أصِلُ الأحلامَ بالأحلام، حتى إذا طلع الفجرُ، آنتهيتُ أَشْوَقَ ما كنتُ إلى النَّسر، يَطول النهارُ ولا صَبر، كأن إحدى ساعاته شَهر؛ وما لي لا أَشتاقُ مُعلِّمي الحِكْمة في الحديث، ومُلْهِمي القَديمَ من العِلم والحديث، ومُمَثِّلَ الحقيقةَ في حِسّي، وكنت أجهلها في أَمْسِي، أو أُغالط فيها نفسي؛ ولما جاء الأصيلُ، هِجْتَ إلى شاطيء النيل، فوجدتُه كما عَهِدْتُه، وأَلفيتُ الحال، ما زال: صَغُرَتْ مدينةٌ وكَبُرَت مدينة، وعُطِّلت ضَفّة وضَفَتْ على أُختها الزِّينةَ؛ فاطمأنّ قلبي وقلتُ: صَدق النَّسر وَعْداً، وعَمَدت لأقرب الزوارق الحاضرة، وهي كالعَرائس في النيل خاطِرة[1]، بَعْضُها في جَيئة وذَهاب، ومنها المُتسابق في كل مُنْساب، الآخذ بأنواع الرِّياضات والألعاب، حتى خُيِّل لي أنه التاميز، أو أنّي لَدَى السين في باريز؛ فنظرتُ إليه وأنا أَحسب أنْ سأجِدُ سارية أَحُطُّ عليها، وأَسْتَند في وُقوعي إليها؛ فوجدتَ جَزَاءَ من يَنْقُل قَدمه ولا يُبْصِر قُدَّامَه، إذا عَلق جناحي، فالتفتُّ فإذا أنا في يَدِ رَجُلٍ تعلوه كَبْرةٌ وفترة[2]، ويَضْرِب لونُه إلى الصُّفرة، وعليه ثِياب مُزَرْكَشة من ثَمين الكتّان، وقد جلس أمامه غُلام من أَوْسَمِ ما آسْتَخدم الكُبراء، فقَلَّبني قليلاً، ثم دفعني إلى ذلك الغلام، وقال: هذه طِلْبتنا، ساقها الآلهة إلينا؛ فتَحفَّظ عليها، فقد تَفاءلت أنَّ شِفائي فيها؛ ما زال طبيب الرأس يُحيلني على طبيب الأحشاء، وهذا يُرشدني إلى الطبيب الرُّوحيّ، وهو يرى دوائي في مُساءلة الهياكل، وقد أَعْيَت الجميعَ عِلَّتي، حتى وصف لنا مُضْحِكنا (أوتا) الذي اشتهر بصِدق تجاريبه، على قِصَر قامته وتَشويه خِلْقته، أن رأس الهُدهد إذا سُحق، وأُضيف إليه قُلامَةٌ من حافر البغل، ومُزِج هذان بشيء من شَحْم الخِنزير المَذْبوح قُرْبَاناً لأوزيريس الإله، والقَمرُ في ليلة تَمامه، ثم تَناولت كُلَّ يوم حَبّةً من هذا التركيب، فقد يَنفعني

---

(١) خاطرة: متبخترة.
(٢) الكبرة: الكبر في السن، والفترة: ما يغشى الوجه من هم، أو كدر.

ذلك في عِلّتي التي حارت فيها العقاقير، وعَجز عنها الأطباء.

قال الهدهد:

فما آستتمَّ الرجلُ حتى ذُبِحْتُ من الذُّعر بغَيْر مُدْيَة، وقلت في نفسي: ما ذَنبي حتى يَخْتلط رأسي بحافر البَغل، وشَحم الخنزير، وليس أحقرَ من هذين! فجعلتُ أفكِّر في حيلة تنقذني من هذه المِيتة الشَّنيعة، فرأيتُ أن أَنْطِقَ لعلَّ الأمير يَستعظم الأمرَ فيضَنّ بي، ففعلت، فإذا أنا طَليقُ الجناح أطير، فنظرتُ تحتي فرأيت الرجل يُشير نحوي براحَتيه، كأنه يَستغفر لي أو يَستغيث بي، والزورقُ يكاد يَنْقَلِب بمن فيه، من هَوْل ما فاجأ رجالَه من أمري وشَهِدَوا من حالي مع مولاهم؛ فضحكتُ من رُؤيتهم على هذا الحال، وآرتفعتُ في المَطار حتى جازَتْني المدينة، فجعلت أحُطّ تارةً فوق جدار، وأستتر أخرى في الأشجار، وأتَنقل من حانوتٍ إلى دار، وأنا في هذه الأثناء أَلْحظ مُجمُل الأحوال، وأتزوَّد من المدينة نظرةً عامة، فرأيت حركةً لم أر مثلها فيما غَبَر، وشهدتُ من العَظمة ما يُصغِّر المدائِنَ الكُبَر: شوارع وَسِيعة، ودُورٌ رفيعة، وحدائق بديعة، وجماهير مُتدفِّقة وشُرطة مُنبثّة متفرّقة، وخَيل مَرْكوبة، ومركبات مَجرورة، ومخازن تَفيض من صُنوف المَتاجر، وحَوانيت لا تُحْصَى لديها ضُروب الصنائع؛ وكان من أعجب ما رأت العَينان، أُنْس الحيوان إلى الإنسان، وآطمئنان الطير إليه في كل مكان، تَمشي بجانبه آمنة، وتتوثَّب حولَه مطمئنّة، وأَعْجَبُها الكَرَاكيّ، رأيتها تتألّف الأهالي، وكنت أَظُنها لا تُستأنس؛ ورأيتُ نساء العامّة يَحملن أحمالَهن على الأكتاف، ويجعلها رجالُهم فوق الرُّؤوس؛ وتَلبس المرأة ثوباً واحداً، ويلبس الرجلُ ثوبين؛ وقد دَهِشْت من تَوَحُّدِ الزيّ عند القوم، وإيثارِهم من اللّباس الكتّان أو الصُّوف، وآختيارِهم من الألوان الأبيض، مع نَظافة تُضْرَب بها الأمثال، فكأنما كَمُلت الجوامعُ فيهم حتى هذه؛ وتَحيَّتُهم في الطريق أن يُفْضِيَ أحدُهم بيمناه إلى الأرض؛ وإذا عارض كبيرُهم صغيرَهم تنحَّى حتى يَعْبُر، وإذا مَرّ به وهو جالس قام له حتى يَمُرّ؛ ورأيت جميعَ الحيوان في الطريق إلا الخِنزير، ثم عرفت السَّببَ آتفاقاً، وذلك أني بَصُرْتُ بزِحَام، فاقتربتُ منه، فعلمتُ من تساؤل الناس أن أَحدهم تمسَّح به

خِنزير، فهُمْ يَسُوقونه إلى النهر ليُغْمَس فيه بجميع ثيـابه، وهم يعتقـدون أنه لا يطْهُرُ بدون ذلك؛ فرَثَيْتُ في نفسي لحاله، وضَحكتُ من أَمر هـذه العادة؛ ثم آحتواني ميدانٌ عظيم، يَنْحَسِرُ الطَّرْفُ في جوانبـه، ولا تُحيط العينُ بأطـرافه؛ فآبتهجتُ بآستقباله، وقلتُ: لعلّه ميـدانُ الملك، ولعلَّ المُلتقى قـريب! وفي الواقع كـان الأستاذ بنتـاءور أَوَّلَ إنسان وَقـع نظري عليـه؛ رأيتُه يشيـر بوَجهـه المتهلِّل نحـو السمـاء، وكـأنمـا يُفتِّش عنِّي الجِـوَاء، ويَنْشُـدُني في طَبقـات الهواء؛ فلما أخذني بَصَرُه، رَفع يـده يَستنْزلني، فهبطتُ فيهـا، ثم وثبتُ منهاً إلى كَتِفه، مُنتفِضاً من التأنُّس والحُبور، مُرَنِّقاً من غَلَب السُّرور[1]؛ فسألني عن أمـري، ومـا لَقِيتُ من وَحـدتي في رِحلتي، فحـدَّثتُـه حـديثي أوَّلَـه وآخِـرَه، فضَحِك من حادثـة الزَّورق، وقـال: تلك وَحدة لم يكن لـك عنها غِنًى وأنت أوّل أيـامك بهـذه المدينـة، لأنِّي أردتُ أن تَجمع في حُكمـك عليهـا بين مـا تسمع منِّي وما تراه في خاصَّة نفسك ومن أحوال أهلها وأَطـوارهم، وأخلاقهم وعـاداتهم؛ فما رَأْيُـك في ذلك المـريض؟ قلتُ: أحمقُ جاهلٌ، يـا مـولاي، وأطبَّـاؤكم أحمقُ منـه وأجهـل؛ وإني لأَعْجب منهم كيف يَبْلُغـون في الـطبِّ إجارةَ الجَسد من الفساد، وحِفْظَه من البِلَى على مَدى الآبَاد، ثم يَنْـزِلُون إلى الإيمـان بالـرُّقَى والطَّلاسم، واعتقـادهم أنْ رَأْس الهُدهـد وحـافـر البَغـل من العقاقير النافعة في بعض الأَدْواء. قال: الخُرافات، يا بُنيَّ، وُجِدَت من الإنسان مُنذ البدايـة؛ وسوف تَصحبـه إلى النهايـة، ولو بَلغ من المـدنيَّة أقصى غـاية؛ وأظُنّـك عَهِدْتَ بـاريز لا تَخْلُو منهـا، وهي فيما يـزعمون عـاصمةُ العـواصم، وكُرْسِيُّ التمدُّن الـقائم، قلت: كذاك هي، يا مولاي. قال: لكن هَلَّا أخذتَ من عِبارة المريض أنَّ الأطبـاء في منفيس ضُروب، وأنّ تَـوَزُّعَ الأَعمال قـاعدةُ التَّـطْبيب بينهم، فهذا للرأس، وذاك للبَـطن، وآخـر لأمـراض العَين، ورابـعٌ لأدواء الأُذن؛ كلٌّ على قدر آجتهاده في الفَرْع الـذي وَقَـف نَفْسَه عليـه؛ وهذا ما صار إليه الطِّبُّ أخِيراً عند الغـربيِّين، وهم يَعتقدون أن ذلـك بدايـةُ النجاح

---

(١) مرنقاً: متحيراً.

الحقيقيّ، وفاتحةُ عَصرٍ للعُلوم الطِّبيـة لا يقف آرتقاؤهـا فيه عنـد حَدّ؛ فلو لم يَكُن من فَضل أطبائنا الحَمْقَى الجُهلاء سوى أنّ القَومَ أخذوا عنهم هذا المَبدأ الجليل، لَكَفَى؛ على أنّني عالِمٌ بأنّ الطبّ لم يتقدم في هذه العاصمة التقدُّم اللائق بمَنزلتهـا في الحضارة، الجـديرَ بمَبـالغها في المـدنيّـة؛ ولهـذا الأمـرِ أسباب، أهمُّها قِلَّةُ الأمراض في هذه الأُمة، لأنهم من جِهَةٍ يَعتنون بأمر نظافـة الأَبـدان والملابس، إذ مِن عـاداتهم أن يَغْتَسِلَ واحـدُهم ثلاثَ مـرَّات بالنهـار ومـرَّتين بالليـل، فَمَثلُهم كالمتقين منكم معشَـر المُسلمين، الـذين يَتَـوَضـأُون خمسَ مـرَّات في اليـوم؛ ومن جهـةٍ أخـرى لأنهم في الغـالب رجـالُ عَمَـل ونُهوضٍ وحَركة؛ وإذا كان النَّشاط في الطِّبَاع، سَلِمت الجُسوم من الأوجاع؛ وبَـدَهِيٌّ أنَّ توسيـعْ العُلوم يكـون بقَـدْر الحـاجـة إليهـا، فـإذا عَـظُمت عَـظُم الاشتغال بها، وكَثُر الاختراع فيها، وإذا قَلَّت قَلّ؛ وأَكْبَرُ بُرهـان على ذلك مـا أَشَـرْتَ إليه من بُلوغنـا الدرجـة القُصْوَى في التَّحْنِيط والتَّصْبِيـر، فلولا آعتقـادُ الأفراد أنّ الأجسام بعد الموت مُقدَّسة، لا يَنبغي أن يَصِل إليها الفساد، لما آجتهد الأطباء المُختصُّـون بهذا الفنّ فيمـا يُمارسـون من جَليله وحَقِيره، حتَّى بلغوا فيه إلى دَرجـة الإعجاز، مُنسـاقين برَغْبـة الكافّـة، مُلبِّين مُنَادِيَ الحـاجة العامّة؛ وما يُقال عن التَّحْنيط يُقـال كذلـك عن فَنّ العِمارة والإنشـاء، فليس السَّببُ في رُقِيّـة بيننا هـذا الرُّقيَّ المُعْجِـز الباهـر، إلا مُبالغـةَ المصريِّين منـذُ القِدَم في قيمة الآلهة وتَصَوُّرَهم إيّاهم في مُنتهى العَظَمة المُؤبدَّة الأزليّـة، فلا يَرفعون لهم من الهَياكل إلا ما يَليق بمَقامهم هذا، ويَسْكُنونـه إلى الأبد؛ على أنّك لو قِسْتَ دُورَ الأهالي من جميع الـطبقات، ومـا رأيتَها عليـه من البساطـة والاقتصـاد من البنـاء، بـالهيـاكـل ومـا شَهِـدْتَ من فخـامتهـا، وآجْتَلَيْت من زَخارفها. لَعَلِمتُ أنَّ دَعواي مُبَرْهَنة من نَفسها، ولأَيْقَنت أنّ قُصـور المصريّين في الـطبّ لم يَكُن عن جهل وقِلّة ذكـاء، لكن عن عَـدَم حـاجـةٍ مـاسَّـة وقلّةِ آعتناء.

قلتُ: صدق مولاي وأفاد، لكن هذا مَيْدَانُ المَلِك، فأين قـصـره؟

قال: تَظَلُّ تَحْلمُ بالمَلِك! وقد أذْكَرتَني أنّ لي كلمةً أقولها لصائِغه الخاصّ بأمر جلالته، فَلْنَبْدأ به الآن.

قلت: الأَمْرُ أليك، يا مولاي.

فمشى النَّسْرُ وأنا فوق كَتِفه، حتى مَرّ بحانوت ضَيِّق المَدخل، زَرِيّ المَنظر، فرأيتُه يَهُمّ بالوُلوج. فقلتُ: لعلّك ضالٌّ، يا مولاي: فمِثْلُ هذا الحانوت لا يَكون لصائغ المَلِك!

قال: بل الضالُّ أنتَ يا كَثِيرَ العَجلة!

فَخَرِسْتُ؛ ودَخل الأُستاذ، فخفَّ لاستقباله رجلان: كَهْل وغُلام؛ وكانا ساعةَ دُخُولنا متقابلَيْن على مِنَصَّة للعَمل، مُكبَّيْن على الذَّهب يُفْرِغانه، ثمَّ يَصُوغانه، فحيَّياه، حقَّ تَحِيَّته، ثم عادا إلى العَمل وأخذا بما كانا فيه؛ وعندئذٍ قال الرجلُ للأستاذ: أتأذن، يا مولاي، أن أُتمم حديثي مع هذا الغُلام، ثم أتلقَّى أوامرك؟ فأجابه: أفْعَلُ، فلا تَكْره أن نُشاطِرَه الفائدة. فَاندفع الرجلُ يقول: آعلم يا بُنَيَّ أنّ الأمانة رأسُ مال التاجر، وهي والإتقان كلاهما رأسُ مال الصانع، وقد صيّرتُهما إليّ عادةً منذُ مارست هذه الصناعة، فلم أُكلَّفْ عَمَلاً إلا آستجمعت قِوايَ لِتَجْوِيده وإحكامه، وفَكَّرت في إتقانه قبلَ الفِكْر في إتمامه؛ فإنّ بدا نَقْصُ بعد ذلك بَرَّأتُ نَفسي وقلتُ: عليَّ بَذْلُ الجُهد وليس عليَّ أخْذُ المُستحيل؛ وكنتُ في بَدْءِ تعاطي هذه الحِرْفة مساعداً لمُحِبِّ الحقيقة أستاذي الذي آنتقل إلى الدُّور الأبديَة، فتعلَّمتُ منه مَحَبَّة العمل والإخلاصَ فيه، وبَذْلَ الجُهد في إتقانه؛ وهو الذي ذَهَّب تابوتَ المَلِك سيتي والدِ جلالة الملك، ونَقَشَه فأبدع نَقشه؛ وكان أَجْرُه عن ذلك مائةَ قلادة من الذَّهب، خَرَجتْ إليه من الخزائن السلطانيّة؛ فهنَّأتُه يومئذ بما نال من جَسِيم الرِّبْح، فكان جوابُه لي: آعلم أنه لو عُرِضت عليّ خزائنُ المَلك جمعاء، وأنا في العَمل أصنع التابوت، ما أَعَرْتُها نظراً؛ لأني رجوتَ أن يُقال: مَلِك الصناعة، شَرَّفها يومَ موتِ مَلِك الجماعة! فوعيتُ هذه النصيحة كما يُوعَى الوَحْيَ الآتِي من جانِب الآلهة؛ وها أنا أَبْذُلها لَكَ كما بُذِلتْ لي من قَبْلُ،

فكـانت أصـلَ سعـادتي، وسِـرَّ نَجـاحي، والسببَ في تَحصيـل هــذه الثَّروة الجسيمة، وآرتقائي في القصر إلى هذه المنزلةَ العَظيمة.

قال الهُدهد:

وكان الرجـلُ يُقدّم النصـائح لِتلميـذه وكأنهـا قلائـدُ يَصُوغهـا، وبنتاءور يَتثـاءب ويَتمطّى، فخَشِيتُ أن يَحُـولَ بنَـوْمـه المَعهـود، دون سمـاعي مَقـالـة الصائغ إلى آخـرها؛ فكـان ما خِفْتُ أن يكـون، وغَلب على النَّسر النُّعـاس؛ فقـال لي بلسان مُتَلَعْثِم: إذا جـاء الليلُ نـامت الشياطين، فـآرجع إلى عُشِّــك الآن وآلْقَني غداً في هذا الحانوت.

قال الهُدهد:

فلم يَكُن إلا إغمـاءَةٌ، حتى رأيتُ نفسي فـوق ســطح بيت العُمـدة في ميت رهينـة، فـآستعـذْت بـالله، وأقلَعْت مِن فَــوْري للطيـران، أؤمّ عُشِّي في حُلوان.

المحادثة الرابعة

قال الهُدهد:

وكان الغدُ، فأصبحتُ فيما أمسيتُ فيه، أَهْفُو إلى النَّسْر ولا أُعْطَى عنه صَبْراً، والنفسُ إلى ما يَشغلها عشيّقةٌ وَلِعَةٌ؛ فما زِلْتُ رَهْنَ أحوال، وجارَ عَيْش وأشغال، حتى زُيِّنت السماءُ الدنيا بالآصال؛ وإذا أنا في سفينة عند دَأْماء[1]، وهي تَجْرِي في بَحرٍ ولا ماء، مِن مَذاهب السماء؛ دَفّتها رِيشتان، وشِرَاعها جَناحان؛ فآستوت على ما وراء النهر، وإني لَفِي الحانوت كأن لم أَبْرَحْه، أراني فوق كتف النَّسر، أنظُر إلى الصائغ والغلام، وكأن ما مَرَّ فَتْرةُ من حُلْم؛ إذ الحديث مُتَّصل، والصائغ يقول: هذا، يا بُنيَّ، صاحبُ المَلِك وشاعره، وبُوقُه في الغَزَاة، وظِلُّه في النَّقلة، وداعِيه في الأُمة، وآيةُ مُلْكِه في الأَوَّلين، وحديثُه مِن بعده في الآخِرين، أوفده حَفِيدُ السَّموات، وشُعاعُ الشمس في الجماعات، برسالةٍ عَمِلْتُ بها قبل أن تَبْلُغ إليّ.

ثم آلتفت إلى بنتاءور وسأله قائلاً: أليس أمرُ المَلِك، يا مولاي، أن تُنْقش على القلائد الثلاثِ صُوَرُهُ الثلاثُ: يومَ قدم طيبةَ ظافراً، ويومَ صلَّى صلاة الظَّفر في هيكلها، ويومَ المِهْرجان؛ وكانت إشارته السابقة أن تتضمَّن الصورُ

---

(١) دأماء: بحر.

الثلاثُ حَملتَه على الأعداء في آتيش، ودُخولَه المدينة فاتحاً، وجُلوسَه لِملَكها ومُتْرَفيها يأتونه أذلّة صاغرين؟

قال: في هذا جِئْت؛ فلعلَّ إنساناً جاءك به قبلي.

فتبسَّم الصائغ حينئذ وقال: إنه ليس إنساناً، إنه المَلِكُ بذاته، أشرق هذا الحانوتُ بنُوره، وكأني به قائمٌ عند رأسي يقول: آصنع كَيْت، وآفعل كَيت، وأنا جالسٌ كما أنا الآن، أُحدّثه كما أُحدّثك؛ ثم مَشى تُظلِّله السماء، وتَحْرسه عَيْنُ ذُكَاء[1].

قال الهُدهد:

فـدَهشت مما سَمِعْتُ، ووَدِدْتُ لو كنتُ حاضراً في تلك الساعة، أرى المَلِكَ وأسمع حديثَه؛ وتَحسَّر الغلامُ كذلك وسأل أُستاذه قائلاً: وأين كُنْتَ يَا مولاي عندما تَقَدَّس هذا المكانُ بالمَلِك؟ قال: كُنْتَ في إصباحك لم تَغْدُ بعدُ إلى العَمْل، فلم أَشأ أن يُخْجِلك أن تعلم أن مَلِك الملوك سَبقك إلى حانُوت أنت فيه صَبيّ تتعلم صناعة!

فَخرِس الغلامُ وتلوَّن ألواناً من الخَجل!

ثم قال الصائغ، يُخاطب الأستاذ: ليس العَجَبُ، يا مولاي، أن يَسعى المَلِكُ إلى عَبده، فإن دَأْبه الأَخْذُ بِيَدِ العاملين، فكيف بعباده المُخلصين أمثالي؟ على أنّ كِبَارَ المُلوك يتنكَّرون لأخذ الحِكمة التي لا تنفُذ على المُلوك حِجْابَهم، وطَلبِ الحقيقة التي لا تَلِج عليهم أبوابَهم، كما يتنكَّر صغارُهم ليزدادوا من الصَّغائر؛ لكن العَجب كلّ العجب أن يَلْفِيَنِّي الملكُ قد ألغيتَ العمل بأمره الأول قبل أن يَنْقُضه، وعملت بما جاء من أُجله قبل أن أعلم به: أمهلتُه رَيثما تكلّم وأشار وأَمَر، ثم كَشفتُ عن القلائد بين عَيْنَيه؛ فآستغرب الأَمْرَ وسأل عن السبب، فقلتُ له: القلائد، يا مولاي، للملكة الصُّغرى، وهي

---

(١) ذكاء: الشمس.

بنت ملك آتيش، الذي كان عـزيزاً فـأذللته، ومَلِكـاً فاستعملتـه ثم صاهـرتَه، وأنت تُحبُّهـا وتفضلها في هَـوى القلب على سائـر نسائـك، ولَحَبْلٌ من مَسَـد تَجعله في جِيـدها[1]، أحبُّ إليهـا من قلائـدك التي تُذكِّـرها فَشـلَ قومهـا وذُلَّ أبيها.

فسُرَّ الملك بمَا قلتُ له، وأَقرّني على ما أخذتُ بـه من العمل، وقـال: خُلِق الغُرور للملك، وقد يَبْلُغ بنا، معشَر الملوك، حتى نُسيء إلى أعزِّ الناس علينا، ونحن نحسب أننا نُحسن إليه.

قال الهُدهد:

ثم وَدّع الأستاذُ الصائغ وَخَرَجنا وأنا أَقْضِي العجب ممـا سمعتُ ورأيت ولا أستطيع مع الأستاذ صَبـراً، فلما صـار وحده قلت: حَفِـظْتُ أشياء وغـاب عني شيء واحد، يا مولاي. قال: ومـا ذاك؟ قلتُ: إنفاذ الملك إيّـاك في أمر سَبقتْ به كلمتهُ للصائغ! فتبسّم ثم قال: هذا من تأديب رمسيس صَحابتـه لكيلا يَطْغُوا؛ يُعلِّمنا أنّ له جَسداً وقَدَميْن، ولساناً وعينين، وأن بين غَمْـر العامـة[2]، ولَفيف الخاصة، ممن لا يَحـوزهم مجلسُه، مَن يَليق أن يسعى الملوكُ إليـه، ويأخذوا الحكمة عنه! قلت: تَظَلُّ تُشَوِّقني إليه، فهل آنَ أن أراه أم لم يَئن، يا مولاي؟ قال: لكُل شيء ميقات، وليس هذا وقتَ رُؤية الملك، فاصبر معي، أو انقلب إلى عُشّك جاهـلاً محرومـاً! فاستعنت الله على الأستـاذ في نفسي، ولُذت بالصبر في أمري.

وطَفِق يجـوب بي الطُّرُق، ويَجُـول في الأزِقة، حتى خـرجنـا إلى بنـاءٍ رفيع، فَوق طـريق وَسِيع، فقَصـد الأستاذ قَصْـدَه، فسألتـه: ما هذه الدار، يا مـولاي؟ ولمن؟ قـال: هذه، يا بُنَيّ، شمسُ النهـار، ومَشْـرِقُ الأنـوار، ومَهْبِطُ الحِكمـة والأسـرار، ونقـطـة تـلاقي العُقـول الكِبـار؛ دارُ الأدب والفلسفـة، أَسَّسْنـاها على مِثـال الدار الكُبـرى في طِيبـة، وكنـا أربعـة، فلم يَمض علينـا

(١) المسد: الليف.
(٢) الغمر: الجمع لمزدحم المتكاتف.

عشـــرون عـامـــاً حتى نَمت ورَبَتْ، ونَجحت ورَفت[1]، وأَصبحت من تَعـدُّد الأساتذة، وتكاثُر الطلّاب، وتهافُت المستفيدين من الأجانب عُلماءَ وفلاسفـة، تُضارع أختها في طيبة، ويُميِّزهـا أن ليس للمَلِك ولا لحكومتـه، ولا للكَهنة، يـدٌ في التأسيس، ولا سبيـلٌ على التدريس، وأنهـا غِراسُ الأَفـراد وإحـدى هِمَمهم؛ فانظُر إلى الكثير كيف يأتي من القليـل. ومن مَيمون أمـر هذه الـدار أنّ وزير الخِزانة السلطانيّة لمّا سمع بها وزارها، وهي في أيامها الأولى، كَتب لها صَكّاً برُبع ثروته الواسعة، تَستوفي ذلك في حيـاته وبعـد مماتـه؛ ثم مات وانتقلت روحه الكريمة إلى المغرب[2]، وكان قد أَدخل ولدَيْه فيها، فلا، ورأْس الملك، يا بُنَيّ، مـا رأيتُ أنجبَ منهمـا، ولا أحبَّ للعِلْم، ولا أصبـرَ على تَحصيله، ولا أطلبَ للغايات فيه؛ إذا ذُكر فِتيان المملكة في مَجلس صـاحبها سَمَّاهما وأثنى عليهما، وسمع ثَناء الناس فيهما؛ فليت أباهمـا يُردّ إلى الحيـاة لينظر كيف تَجزي العنايةُ المحسنين، وتجعل عِمَاد بيوتهم من بعدهم البنين!

قلت: سُعـداء أنتم، معشرَ الآبـاء؛ آتفق أربعـةٌ منكم ولن يَتفق إثنـان منا، وبـذل أحدُكم رُبـع مالـه في البِرّ ولن يُنفق أحـدنا دَخـل عام واحـد في صالح الأعمال؛ ونحن الذين قال بعضهم فينا: «آتَّفقوا على أن لا يَتَّفقوا»[3].

فأَحفظت عبـارتي الأُستاذَ، وقـال: ما هـذا السُّمّ في الدَّسَم! ومن ذاك الذي يُثَبِّط الهِمم! هذا ومِثْله، أيها الهُدهد من الأوهام، وإنها لتُخامِـر العقولَ فتَعْقِلُهـا، وتُداخـل النفوسَ فتَقتلهـا. الأوهامُ داء الأُمم، ومَنيَّـة الشُّعوب، إذا تمكنت من قَوم كانت كالفأس في الأسـاس، وكالنـار في الشِّعار[4]، وكـالحَبل في الخِناق، وكالعِلّة في القلب، لا يَخْفِق معها إلا إلى حين. ومِن تَبالُـغ نَكد الـدنيا على الشـرق الحاضـر تَبالُـغُ هذا الـداء فيه؛ حُكومـاتـه دواليب تَـدور

---

(١) رفت: أينعت.

(٢) المغرب: حيث تغرب الشمس. وكـان المصريـون القدمـاء يعتقدون أن الـروح بعد مفـارقتها البدن تأوي إليها.

(٣) من كلمات السيد جمال الدين الأفغاني.

(٤) الشعار: ما يلي الجسد من الثياب.

بالأوهام، وبُلدانه مملوءة ما بَين السَّماكين من الأوهـام[1]، وأُممه تَرُوح وتَغْـدُو حيث تَجعلهـا الأوهام. نَـظَرُ الـواحـد منهم في الأمـور عـرضـاً وبعَيْنِ غيـره، وحُكمه فيها عن الهَوى، وآنقياده في إيـرادها وإصـدارها بـأَزِمّة الأوهـام. قال لكم رجُلٌ قولاً فـوَهِمْتُم فمِتُّم أحياء. لَيس مـع السَّلْوة عَيش، ولا مع القُنـوط عَمـل، ولا مـع اليـأس حيـاة؛ وليس أجلبَ للشـرّ والضَّـرّ من الـدَّعـوة إلى الرُّبوض، وتَوْهينِ العزائم، وإمـاتة القُلوب، وإخـراج النُّفوس من الـرجاء إلى اليأس، الذي هو الموتُ في أشنع صُوَره وأقبح أحواله.

قلت: الأهامُ، يا مولاي، داءُ الأُمم منذ القِدَم، لم تخْلُ منها أُمة خالية، ولن تَخْلُو منها أمـة آتية؛ فما بالك تُلزمها فريقاً دون فَريق، وتُنكرهـا على قوم ولا تنكرها على آخرين؟

قـال: خُلِق الإنسان من ضعف، فكـان الـوَهْمُ أولَ دِينٍ دان بـه، وأولَ حُكـومة دان لهـا، وأولَ شيطان سَكن إليـه. كـان على وجـه الـدهـر يَستقبـل المُجسَّمات ويَتَّخذ منهـا آلهة يَسجـد لها، ولا يـزال آخرَ الـدَّهر يتـوجّه إليهـا بالتأليه والتقديس والتَّنزيه؛ وإذا عَبَد الله كما تَعبدونه أنتم والنَّصـارى واليهود، كان لله الشَّطْرُ من تلك العبادة وللأوهام الشَّطر؛ فالمَسِيحيّ يُبلي الحَـديـد في كَنيسة القِدِّيس بطرس بروما آستلاماً وتَقْبيلاً، كما يَضع المُسلم خـدّه في عَتَب الأضرحة بالقاهرة تمسُّحاً وتَأْميلاً وتَعظيماً وتَبجيلاً. وكان في شَبِيبة الدهـر يُؤلِّه الجبابرةَ من البَشر أمثالَه، ويُحكِّمهم في عِرْضـه ودَمه ومـاله؛ ولا يـزال مُعظم الخَلق حتى الآن عُبَّـاداً للمُلوك يـأتـونهم طـائعين، غَـرَّهم التـاج، وخَـدَعهم العَرش، وغَشَّهم الحِجاب، وظَلَّلهم الاستبداد؛ فالسُّلطان في الأصـلِ للْوَهْم لا للسلاطين، وحَقيقة الطاعة له لا للمالكِين. وكان الوَهم أولَ شيـطان سَكن إليه الإنسان، تـولَّد منـه يَقِينهُ، ونَشـأ عنه عِلْمُـه، وجَرْت عليـه أُموره، وآنْبنى عليه حُكْمه، وتألَّف منه مألوفُ عاداته، يُحسّ به ويَشْعُر، ويَسمع به ويُبصـر،

---

(١) السماكان: نجمان نيران، أحدهما في الشمال، والآخر في الجنوب.

ويَعْجَزُ به ويَقْـدِر، وبه يَعيش وعليـه يموت. خَلت آلافُ من السنين، وحـافِرُ البَغـل في مِصر حـافـرُ البَغـل فيهـا، يَمْسـح في وَهْم بعض النـاس من بَعض العِلَل، ويَشْفِي من بَعض الأمـراض. ومَضت مئـاتٌ من القُـرون والميت في مصر يُجَنَّز آخرَ الدهر كما كان يُجنَّز أولَه؛ فلو رُفع الصَّلِيب من جِنازةٍ قِبْطيـة، وصِين القـرآنُ عن أن يُرَتِّله الهَمَـلُ في جِنازةٍ مُسلمـة، لخُيِّل لـك أنها جنـازة ميت منا معشرَ القدماء: رُسـوم احتفال، وقُـربان، وأَكْـل، وحَثْو تُـراب، وشَقّ جُيوب، ووَلْولة نساء، وعَويل عَبِيـد وإماء، ونَـدْب الميت ونَعْته بكيت وكيت؛ والأوهام، يا بُني ـ كما قلتُ ـ لا تَخلو منها الأُمم الكبيرة، والشُّعوب الحيّة، إلا أنها تَقِف حينئذٍ حيث العامّة لا تُجاوزها إلى الخـاصّة، إلا مـا نَدر؛ كمـا أنها تتملَّك الأُمَمَ الصغيـرة والشُّعوب المُنْحَـطّة، فيكون للخـاصّـة منهـا مِثْـلُ حَظّ العـامّة؛ وهُنـا عظيمُ البَلْوَى، ومُنْتَهى نَكَـد الدنيـا. أليس من الـوَهم القـاتِـل للأنْفُس، المُمِيت للقُلوب، أن يَصِحّ في أذهـان خاصّـة المصـريين من أُمـراء وعـظماء، وأُدبـاء وعُلماء، أنهم أُمّـة ليس فيهم فَلَاح، ولا يُـرْجَى في أُمـرهـم صَلاح؛ وأن اتِّفَاقهم سابعُ الجِهات، ورابع المُستحيـلات[1]؛ وأنّ الوطنَ ميت وأنهم مَيتون، وما أَشبه ذلك من الدَّعاوَى الباطلة التي لا تَنطبق على نـواميس الوُجود، ولا تُرَدّ إلى أحوال البشر وحوادث التاريخ. الأُمم، يا بُنيَّ، لا تموت، ولئن بَـدت عليها دلائـلُ الموت في أَزمنـة الاضمحلال، فمـا تِلْك إلا بُـؤْسَى تزول، وحال سَتَحُول. الأُمة تَصِحّ ثم تَعتلّ ثم تَصِحّ؛ تتجدَّد من حيث تَبْلَى، وتَقُوم من حيث تسقط، وتَصِحّ بالعِلَل. هذه اليابان، هل كان في حُسْبان أحدٍ أن تَضُمَّ صوتَها يـوماً مـا إلى أصوات دُول الغـرب في مَسألـة من أكبر مسـائل العَصـر، وتَطمـع مع الممـالك الـطامعة، وتُسَيِّـر الجُيوش في البـر، وتُخـرج الأساطيلَ في البحر؛ وقد كـانت وأنت في زَمن الدراسـة لا يُـذكـر اسمها إلا مَقْرُوناً بـاسم الصين، عُنوان الهمجيّـة، ومِثال التـوحُّش، والمُشبَّه بـه إذا ذُكر

(١) يعني أن الجهات ست ولا سابع لها، كمـا أن المستحيلات ثـلاثة، وهي: الغـول، والعنقاء، والخل الوفي، ولا رابع لها.

التأخُّر والانحطاط[1]. وعُرِض على المسيو «تييرس» الوزير الفرنساوي المشهور، مَشروعٌ يُراد به إنشاء السكة الحديدية في فرنسا، فسَخِر منه علانيةً في المجلس، وعَدَّه ضَرْباً من الهَذيان؛ ثُمَّ لم يَمْضِ نصفُ قرن على ذلك حتى أصبحت سكك الحديد في فرنسا تُكاثر الأَنعام. وقارَن المؤرِّخُ «فولنيه» الشهير بأسفاره الطويلة في الشرق وكُتبه الجليلة عنه ـ بين القاهرة وباريز على عَهده، فذَهب إلى أن عدد أهالي القَريتين واحد، وأنهما كِلتيهما تُضاءان بالسُّرُج وزَيت الزيتون، وتُحصَّنان من الخارج بالأَسوار، ومن الداخل بالأبواب، وأن الإنسان لا يَخْرُج فيهما بعد ساعة معلومة من الليل، إلى غير ذلك من شُبَه التأخُّر ومَخايل الانحطاط. و«فولنيه» هذا قَدِمَ القاهرة في أيام المماليك[2]، وكَتب ما كتب عنها في القرن الثامن عشر؛ فانظُر كيف تَبدَّلت الأمور، وتحوّلت الأحوال، وأصبحت باريز كما عَهِدْتَ عروس عواصم الغرب، تَعتاض كُلَّ يوم عن ضَوء بضَوء، وتبدّل حُصوناً بحُصون، وتَذهب مُخترعات وتأتي مخترعات، وتَخرج المدينةُ من أبوابها، وتَمتدّ إلى ما وراءَ أسوارها، من تكاثُر الأعمال، وتزاحُم العمّال، على كثرة ما أصابها بعد «فولنيه» من مصائب الدهر ونوائبه، فكَم هَول ثَورةٍ لاقَت، ونارَ حَرب ذاقت، وخَرابٍ إليه انساقت؛ وكم حكومةٍ قُلبت، ودولةٍ غيِّبت، ومَلكٍ قَتَلتْ، وقَيْصَرٍ عَزلت؛ كل ذلك في قرن ونصف قرن؛ ثم كانت النَّتيجة خُروجَها من دجنَّة هذه الحوادث سافرةً زاهرة، عظيمةً فاخرة؛ فلو أن أهلها دُعُوا إلى اليأس فَلَبَّوا، وقال لهم عُقلاؤهم مُوتوا أحياءَ فَسَمِعُوا، لكانت النتيجةُ بقاءها كما وَصفها «فولنيه» أو أضيَق حَلْقة أو أشدّ انحطاطاً. من هذا ومِثله تَعلم، يا بُنيَّ أن العِلم والبيان خُلِقا ليكونا حَرْبَ الأوهام، ونُوراً يُخْرِجُ إليه الأُمم من

---

(١) كانت الحال في الصين واليابان على ما وصف المؤلف مع مطلع هذا القرن، وهو الزمن الذي كان فيه تأليف هذا الكتاب.

(٢) كان مجيء فولنيه إلى مصر سنة (١٧٨٢) وكان الحكم في يدي ابراهيم بك ومراد بك، من المماليك، يتوليانه بالتناوب، إلى أن انتزعه منهما العثمانيون سنة (١٧٩٠) وكانت مصر تابعة لها يولون عليها من يشاءون من الولاة، غير أن المماليك كانوا يمسكون بزمام الحكم حيناً.

الظُّلمات، وأنّ حامِلهما مُطَالبٌ بالعَمل، والدَّعوة إلى العمل، حتى النَّفس الأخير من الحياة؛ فمن ثَبَّط هِمَمكم من عُلمائكم وعُظمائكم، فالْوُوا الوُجُوهَ عنه، وآنْفِرُوا بالأَسماع منه؛ ومَن دعاكم إلى حَياةٍ فذلك داعِي الخَير، فآستمعوا له وأَنْصِتُوا.

قال الهُدهد:

فما آستتمّ النَّسْرُ حتى مُلِئْتُ حَياةً وأملاً وثِقَةً من المُستقبل، الذي أَعتقد أن بِيَدِ الله، إذا شاء صَدّ عنه، وإذا شاء أقام فيه.

وكان للأستاذ درسٌ يُلقيه على الطلبة، فأَدرك أنّ الوقت سَرَق بعضُه بعضاً، وأنّ حَدِيثَه معي كان السببَ في ذلك؛ فَغَضِب في نفسه، وهَرْوَل حتى دَخل القاعة الكُبرى، وهناك خَفَّ مئاتُ الطلبة له إجلالاً، ثم آنْحَنَوْا إكباراً؛ وكان مَلَلُ الانتظار تَبْدُو دلائلُه على وجوههم، فتأمّلتُهم وأنا لا أصدّق حسِّي فيما أَنْظر وأَسمع، فإذا هم جميعاً مُرْدٌ أو كآلمُرد، لأن من عادتهم إزالة شَعر الوجه كما قَدَّمنا، وعليهم أَرْدِيَّة صافية من الكَتَّان الأبيض.

ثم تَصدّر الأستاذ للتدريس كأنه المَلِك على عَرشه، فغلب عليّ السُّرور، وقلتُ في نفسي: الآن نِلْتُ من السعادة ما لَم يَنْله أحد، لكنِّي ما تأهَّبْتُ للسماع، حتى تَثاءب النَّسْرُ وغَشِيْتُه السِّنة المعهودة، فآلتفت إليّ يقول بلسان يَعْقِدُه النُّعاس: إذا جاء اللَّيل ذَهبت الشياطين، ومَوْعِدنا غداً هذا المكان!

فاستعذتُ بالله، وخرجتُ من أَحلامي، وإذا أنا في وَكْرِي بحُلوان.

المحادثة الخامسة

قال الهُدهد:

كان الغَد، وجاء الأصيلُ، وآن الموعدُ؛ فأعملتُ جناحيّ أستقبل منفيس، فلما وصلتُها، قصدتُ دارَ العِلم والفلسفة فيها فدخلتُها، فرأيتُ الطلبة يَخْرُجون من الدَّرس، وكانوا يَستعدّون له بالأمس، وقد أحاطت عُصبة منهم بالنَّسْر يُماشُونه ويُلْقون عليه الأسئلة شَتَّى، ويَأْخُذون من بَحْرِ عِلْمه ورَوضة بَيانه، فأشرفتُ على حلقتهم أَخْطَفُ السَّمع، فسمعتُ أحدهم يقول للأستاذ: ما هي الفضيلة، يا مولاي؟ قال: ترك الرَّذيلة. قال: وما الرَّذيلة؟ قال: هي جَارَانِ في دار الجهل، والبَطالة في الشَّباب.

وسأله آخر: عَلَّمتنا، يا مولاي، أنَّ الراحة والسَّعادة كلتيهما في العمل، فدُلَّني على عَمل ألتمسهما فيه. قال: ابنُ مَن أنت؟ قال: ابن نَجَّار في المدينة. قال: عليك بمِنْشار أبيك، فإن فيه الراحةَ والسعادة.

وسأله ثالث: بماذا تَشْقَى هذه البلاد وبماذا تسعد، يا مولاي؟ قال: بالنِّيل والثَّور وبالمِحراث.

وألقى عليه رابعٌ هذا السؤال: مَن العالِمَ، يا مولاي؟ ومَن الحَكِيم؟ ومَن الطَّبيب؟ قال: العالم من لا يَنام، والحكيم من لا يَطْعَم، والطبيب من لا

يَموت! قال: هذا هو المُستحيل، يا مولاي؛ فما تريد بهذه المُبالغة؟ قال: أردتُ أن العالم من عَلَّم بالنهار وتعلّم بالليل، والحكيم من زَهِد في هذه الدنيا وقَنع منها بكِسرة، والطبيب من تَرك طِبّاً يعيش به الناسُ بعد موته.

وسأله تلميذ آخر: ما هي الفلسفة، يا مولاي؟ قال: هي آحتقار الدنيا، ورحمة الناس. قال: وما فضلُها؟ قال: تَحُول دون الهوى والغضب، وكِلاَ هذين مَذَلَّة. قال: وكيف تُؤخذ يا مولاي؟ قال تُوجد في الطباع، ولا تُؤخذ من الرِّقاع.

قال الهُدهد: ثم أشار النَّسْرُ إلى الطلبة أن يَنْفَضّوا من حوله، ففَعلوا إلا اثنين من خاصّة تلاميذه، ظلاَّ يُماشيانه، وأنا أطير حيث يَسيرون، حتى أخذوا إلى المدينة؛ وعندئذ وقعتُ فصِرْتُ فوق كتف الأستاذ، فلم يَقِف ولم يلتفت، لكن سمعتُه يقول لصاحبه: من فاته دَرْسي لا تَفُوته صُحبتي، ومن صَحِبني فَلْيَصْبِرْ معي؛ ليس للعِلْم وطن، ولا للحِكمة دار، بل العاقل مَن له على كل أرض مَدرسة، وعلى كل طريق أُستاذ؛ المدرسةُ تُقيم العقلَ في طريق العلم، ولا تتكفّل بوصوله، كالمَعبد: يُمِدُّ السَّريرة في الاعتقاد ولا يتكفّل لها بكشف الغطاء؛ فرُبَّ عابدٍ من نفسه وَصل، ومُتعلِّم من نفسه حَصّل؛ عرفتُ صُنوف العلم فلم أر كالفلسفة يأخذها إلمرءُ من نفسه، ثم من حيث التفتَ فرأى وكلما قيل له فسَمِع؛ من حديث المتكلِّم إنْ صِدْقاً وإنْ كَذِباً. وصُمُوت الصامت إنْ بَكَامَةً وإن بَكَما[1]، ونَعِيم المُنعم وبُؤْس البَئِيس، ومِشْية المُستكبر، وهَذيان المُهَوَّس[2] وعَربدة السَّكران، ومن النَّمل في مَشاغلها، والنَّحل في مَعاملها، والذَّر في مُسَتَشاره، والبَرْق في مُستطاره، والزَّهر في إقباله وإدبَاره، والفَلك ليله ونهاره، والبحر مُضطَّربه وقَراره؛ ومن النَّفس إذا آعتلَّت وإذا صَحَّت، وإذا طَمعت وإذا قَنعت، وإذا رَغِبت، وإذا تَسَلَّت، وإذا جَشأت، وإذا آطمأنت، وإذا شَكرت، وإذا جَحدت؛ ومن الطباع إذا

---

(١) البكامة: الانقطاع عن الكلام جهلاً أو تعمداً. والبكم: العجز عن الكلام خلقة.
(٢) المهوس: من به هوس.

امتُحنت، والسَّرائر إذا بُليت، والأهواء إذا آختُبرت. مدارس لا يَفْرُغ اللبيب منها، ودُروس لا يَصبر الحكيمُ عنها.

قال الهُدهد: فَفهِمْت أن النَّسر يعتذر، وأنه يَنْهَى عن الكلام ويأمُر بالسكوت؛ فآمتثلتُ ولم أَنْبِسْ.

ثم سِرْنا، فمررنا في طريقنا على دارٍ تُشَيَّد ويبالغ فيها. ويُوشك بنيانها أن يَتمَّ من زحمة الأيدي عليه؛ وكان ربُّها عندها بين غِلمانه وأعوانه، وكان الأستاذ يَعرفه، فاقترب منه وحَيَّاه، فردّ التحية؛ فخاطبه النَّسْرُ قائلاً: لمن هذا القَبر، أيها السيد؟ قال: هذا قَصرٌ، يا مولاي لا قَبر! قال: وجدنا آباءنا يُؤَبِّدون القُبور لا الدُّور، لأنها مَواطن القَرار، ومنازلنا جَمِيعاً مَعاشِر السُّفَّار؛ فعلامَ تَظْلِم سنَّتهم، ولا تَسِير في الحكمة سِيرَتَهم؟ قال: إني واهبُها للملك، ولا يُوهَب له إلا ما يليق به. قال: إنّ الملك في غِنًى عن مثلها، ولو كان ممّن يَطمحون إلى ما تملك أيدي الرَّعايا. أو يفرحون بما يُزْلَف لهم من ثمين الهدايا، ما ساد الأمم، ولا آعتَزَّ ولا آحتكم؛ إنه ليجيء إليه من أقاصي البلاد، ويدخل في خَزائنه من كرائم المال، ما لو جُعل بَعضُه فوق بعض لطاوَل الجِبال؛ وإنه لأَحْرى بك، أيها السيد، أن تَهْدِمَ هذا الصَّرْح من أساسه، ثم تَجود على كُل فقير في وادي النيل يَتَضَوَّر جوعاً بطُوبة من أنقاضه، يَشُدّ بها على لَحم بطنه، لتُخفِّف عنه من ألم الجوع!

ثم ودّعه وسار، فما زِلنا نذهب في المَذاهب، والنَّسْرُ دليلنا، حتى انتهينا إلى دار حَقيرة البُنيان، عندها صَبِيّان يلعبان، فقصد الأستاذُ قَصْدَهما، ودعاهما إليه، وقَبَّلهما فوق جَبِينَيهما؛ ثم قال يُخاطبهما، وعَيناه تَفيضان من الدمع: كان أبوكما رجلُ صِدْق؛ وكان وفيّاً؛ فَلَتْجزَينَّه السماءُ فيكما، ولتباركَنّ فيكما لأمّكما! ثم التفت إلى صاحبيه وقال: ألا أنبئكما مَن مَالِك هذا البيت الزَّرِيّ؟ قالا: بلى. قال: ذاك الذي يَبْني قصراً ليُهديه إلى الملك، وهو لا يُسامح تلك الأَرْملة ولا هذين اليتيمين في أُجرة شهر واحد؛ فما أَظْلَمه وما أظلم المَلَكَ يوم يَقبل هديّته، وما أظلم الحياة! وما أظلم الناس!

ثم ودّعهما الأستاذ، وآنطلق يمشي، ونحن نَتبعه، حتى دخل في طريق ضَيّق، فاندفع فيها حتى أتى عليها، وكان في آخرها منزل، فوقف بـه ثم دَقّ الباب، فخرج إليه رجلٌ وَقُورٌ، يَدُلّ تَجعيد وجهه على تَقدُّم ميلاده، فحيّاه النَّسْرُ، فردّ التحية، فسأله ما صَنع الملك باليتيمين وأُمِّهما؟ قال: رَأَف بهم وأَمر أن يُجْرَى لهم رِزْق من الخِزانة السلطانيّة. قال: خَيْراً فَعل، والخيرُ سَجِية فيه؛ فعُدْ إلى أهلك فقد آطمأنّ قلبي.

ثم تركه وآستمرّ في مَسيره، والفتَيان يُماشيانه، وقد سأله أحدهما: مَن الرجلُ، يا مولاي؟ قال: للملك جَواسيس يَتَّخِذُهم، لا على رَعِيّته، ولا على صَحابته، لكن على المُتعفِّفين من الفُقراء، وعلى الأرامل والأيتام، يَدُلُّونه عليه لِيَنْظُرَ في أمرهم؛ وهذا الرجل من أَدِلّاء المَلِك على الخير، ولا أَجْرَ له على ذلك غيرُ رضا نفسه، وطَلب الهدوء لها في رَمْسِه.

هذا ما يفعله رمسيس، ومُلْكُ الدنيا له، وأَمْرُ تدبيرها بيده، مُباركاً له في الآل والحال، والرعيّة والسلطان؛ وليأتينّ يومٌ يتخذ الملوكُ جَواسيسَ على الأرملة واليتيم، لِيَسْلُبوهما شِبْرَ أرض، أو جِدارَ منزل؛ فأولئك مُلْكُهم في دَمار، وتاريخهم في سِجلٍّ من عار.

ثم عَطف الأستاذ على حانة خَمّار فدخل، فتخلَّف الفتَيان، فأبى إلا أن يتّبعاه؛ وهناك جَلَسْنَا في ناحية، وطلب النَّسْرُ شيئاً من الخمر له ولتلميذَيه، وكان إزاءَنا ثلاثة فِتيان ترى عليهم دلائلَ النَّسب والحَسب، وكأنما عَرفوا الأستاذ، فاحتال أحدهم حتى تسلّل وآنصرف، وتَحوّل الثاني إلى زاوية فآنْكَمش فيها، ولَبِثَ الثالثُ كما وجدناه ثابتاً لا يتحرّك؛ فالتفت النَّسْرُ إلى أحد الصاحبَيْن وسأله قائلاً: أعرفتَ هؤلاء، يا بُنَيّ؟ قال: هم يا مولاي، بَنُو صَديقك القائد فلان. قال: هم بِعَيْنهم، يتردّدون إلى هذا المكان، وقد عَلِم والدُهم بذلك، فتشبَّث بي أن أتدارَكهم بالنُّصح، والخَمْرُ في رِقِّهم قبل أن يُصبحوا في رِقِّها؛ فكيف وجدتَهم، يا بُني؟ قال: أما الأوّل، يا مولاي، فيَخْجَل من نفسه، وأما هذا المُنكمش المُستتر فيَخْجل من الناس، وأما هذا الثالث

المُتهَتِّـك فلا يخجـل من نفسه ولا من النـاس! قال: أَصَبْتَ، يا بُنَيّ. ثم أقبل على رفيقه وسأله وكيف رَأْيُك فيهم أنت، يا بُنَيّ؟ قال: أرى، يا مولاي، أن يُوكَلَ الأوّل لنفسه، لأنها سوف تَزْجُره؛ وأن يُنْصَح للثاني، لأن المَقالـة تَنْجَح فيـه، وأن يُنْعَى هذا الثالث إلى أبيه، فضَحِك الأستاذ من جوابـه، وحَكَم بصوابـه؛ ثم ٱلتفت إلى ذلك الفَتى المنكمش، وناداه: مالكَ يا بن الأخ لا تكون رابِعَنا؟ قــال: إنْ أَذِن مـولاي فعلتُ. ثم خَفَّ إلينـا فجلس معنـا، فحيّـاه الأستـاذ ولاطفه، ثم خاطبه فقال ما أَطْيَبَ الخمرَ يـا بُنَيَّ! قال: أطيبُ منها، يا مـولاي هذا الثناء عليهـا منك. قـال: كيف تَجِدُهـا؟ قال: فيهـا لُطْفٌ وهي مُحْـرِقة. قال: كذلك الشَّرارة، تجدها لطيفةَ المُتَّقَـد، وقد تُضْـرِم ناراً على بَلَد! قـال: وإنها لَتَدِبُّ خَفِيَّة ضعيفة، ثم تتمكّن ظاهرةً قويّةً. قـال: وهكذا الـداء! قال: وإن الجسم ليستـريح معهـا، وتَخْرُجُ النفس بهـا من عـالَم الهُمـوم إلى عـالم مَوْهُوم قال: خَيْرٌ لشاربها إذن أن يَنْتَحِر، فالراحة كل الراحة في الموت! قال: وإنها، يا مولاي، لَعَادة، والنفس بما ٱعتادت مُنقادة! قال: الآن صَـرَّحْت، فإن كان ولا بُدَّ فخُذ منها لِطَرَبك، ولا تُعْطِها من عَقلك وأدبك، وٱتَّخذ منها صِحةً ولا تتخذ منها مرضاً، وٱشْرَبْها مع حَكِيم يقول لها: قفي، وخُذها في مجالس الكرام، فهناك أوائلُها طَرَب، وعـواقبها أَدب. قـال: أَلَنْتَ يامولاي فَنَجَحْتَ، ولـو أَلْحَحْتَ لَمـا أَفْلَحت، فلا يكونَنّ إلا ما نَصحت. قـال: بَقِيَتْ يا بُنيَّ في النَّفس حـاجة: إنّ أبـاك أَشفق من السُّفهـاء أن يَمـدّوك وأخـويـك في الغَيّ، فسلَّطني عليكم؛ فأما ذاك الـذي ٱستحيا فله نَفْسٌ تَـزْجُره، وهي حَسْبُـه؛ وأما أنت فقد رَأيتُ من عقلك ما يَطْمئِنُّ به قلبي؛ وأمّـا هذا الـذي يَشْرَبُهـا جَهْراً، ويَلْحَظُ اللائمين فيها شَزْراً، فالحِيلَةَ فيه قليلة، والنَّصِيحَةُ معـه مُستحيلة؛ فإذا لَقِيتَ أباك فتُبْ من تِلْقاء نفسك إليه، واكْفِنِي شُبْهَةَ المَنِّ عليه، بهداية ولَدَيْه، قال: أَمَرْتَ مُمتثلاً، يا مولاي. فودّعه الأستاذ ونَهض، وصاحباه على أَثره.

قال الهُدهد:

فلما خرجنا من الحانة، رأينا الناس يَزدحمـون على بابهـا، والتفتُّ إلى

النَّسر فرأيت الغَيظ على وجهه، وسمعتُه يقول لصاحبيه: ما أولَعَ الناس بالناس، يَشْتَغِل أحدَهم بشُؤون أخيه، وفي أَيْسَرِ شأنه ما يُلْهِيه! عَلِم الملأ أن بنتاءور دخل في هذه الحانة، فآجتمعوا ينظرون كيف خُروجه؛ فلأستقبلنّ جمعهم، ولأَخْطُبَنَّ فيهم. ثم فعل فقال: أيها الناس، الماسُ فوق التراب ماس، والخَزَف خزف ولو حُمِل على الرأس؛ أما والآلهة في معابدهم، وآباء المَلِك في مَراقدهم، لَرُبَّ صادرٍ عن هذا المنزل أطهرُ من خارجٍ من هيكل! أيها الناس، من زَلّ منكم فَلْيستتر، ومن رأى زلَّةَ فَلْيَسْتُر. من عَلِم على أخيه فَلْيَنْصَح له هَمْساً، ولْيَرْحَمْه في نَفسه، ولِيَدْعُ له في صلاته. أيها الناس، ثلاثة تَعْرض ولا يأمنها أحد أن تُفاجىء: المرضُ، والمُصيبة، والغَواية؛ وما شكر أحدكم الآلهة على الخَلاص منها بأفضل من رحمة الواقِعين فيها. رأيتم من السَّفاهة والمَجانة أن يَلِج شيخٌ في هذه الحانة، فاجتمعتم، ولو عَقلتم لما فَعلتم: إنّ للعقل كما تقدم زَلّة، وإن للحليم كما للجاهل ضَلّة، وإن النفس مع الهوى مائلة، والعاقل من إذا مال مع النفس آعتدل. أيها القوم، إن مَلِكَكم لكبير، وإن عَدوّكم لكَثير، أَمْرُكم نافذ في المَشرق، وسَيْفُكم في كُل مَفْرِق، وعِدَاكم يَسِيرون، وحُسّادكم يُسْعَرُون، فآسْتَبِقُوا نُفوسَكم وهذِّبوها، وحافظوا على أبدانكم ورَبُّوهَا، وأَعِدُّوها ليوم تَدْعوكم الأوطان. لِتُقرّبوها لا تُعطوا الغَوايةَ أَزِمَّتكم، فَتَسْلُب منكم ذكاءكم وهِمَّتكم؛ دخل الرُّعاة بلادكم في شَبيبة الدَّهْر[1]، فأفسدوا فيها وجَعلوا أعِزَّة أهلها أَذِلّة، وكان آباؤكم على أخلاقهم القديمة، يأخذون الفضيلة ويَذَرُون الرَّذيلة، صِحَاحَ العُقول، صِحَاحَ النُّفوس صِحّاحَ الأبدان؛ فآستجمعوا في وقت السُّكون، ثم وثبوا في وقت الوثوب؛ فاستَرَدُّوا مُلكهم بقُوة؛ ويراد منكم أن تكونوا في الأَمن في دِرْعٍ مُضَاعَفة من الفضيلة، لا تأمنون الدهر أن يأتيَ على عَجل. يا حَمَلَةَ السِّلاحِ، لا تَقْتُلكم في السِّلم الرَّاح. يا حَمَلة العِلْم، لا

(١) الرعاة، يعني الهكسوس الذين أخذوا في الإغارة على مصر مع أواخر الأسرة الثالثة عشرة (١٩٧ق.م) وبعد آنتهاء الأسرة الرابعة عشرة قبضوا على زمام الملك. وكانت منهم الأسرتان: الخامسة عشرة، والسادسة عشرة.

تَغْلِبكم الخَمْر على الحِلْم. يا معاشرَ الصُّنّاع، من كان الوقتُ رأسَ ماله، والصِّحة باب رِزْقه، والكَسْبُ قُوت عياله، فَلْيَهْجُر الخمرة، فإنّها مَضْيَعة الوقت، مَضَرَّةُ الصِّحة، آفَةُ النشاط.

قال الهُدهد:

فبينما النَّسر يتكلّم والجَمْعُ يَسمعون، بَرَز الخمّار له بين رجلَيْن من الشُّرطة كان استأجرهما، فطلبا إلى الأستاذ أن يُمْسِك عن الكلام، وألَّا يَذُمَّ الخمر في بَيتها، ولا يَطْعَن عليها في وجهها؛ ثم أبلغاه أن صاحب الحانة يدعوه إلى المَحكمة في اليوم التالي،ليُطالِبهُ أمام القضاة بِبَدَل ما أَمَّ به من الضَّرر ولَحِق به من الخسارة، بِسَبب هذه الخُطبة في هذا الموقف؛ فامتنع الأستاذُ من الكلام كما أشار، وأجاب بأنه سيُوافِي المحكمة في الغد؛ وهُناك يكون له وللخَمَّار شأن.

ثم مشينا نَخترق الصفوف، وهي تَتَنَحّى وتَنْحَنِي له في طريقه، حتى خرجنا من ذلك القِسم من المدينة، ودخلنا في قِسم آخر؛ قال الأستاذ لصاحبَيْه: غداً نَتبارز أنا والخمر، ويحكم القُضاة بيني وبين التَّجر. قال أحدُهما: قد كان لك، يا مولاي، غِنى عمّا أتيت، إنك ظَلَمت إنساناً من حيث هَدَيْت، قال: إن الطُّرق مدارس العامة، ولا يُعلِّمهم فيها إلا الخطباء، والرجلُ يظلم الناسَ ليلَ نهار، ومن ظَلَم ظالِماً فما ظلم؛ إني لا أُشْفِق من الخَمر على الخاصّة، فإنّ لهم عقولاً تَرُدّهم أحياناً إلى الاعتدال في أمرهم، وأشغالاً من العَيش. وأسباباً من السَّعة، تُعينهم على الخمر وتَقِيهم كثيراً من عواقبها؛ ولكني أُشْفِق منها على العامة، فهي فيهم سُلطان جائر، يَفْتِكُ ولا يرحم؛ وشَيطان ثائر، يَسْكُن الرُّؤوس فيملؤها شَرّاً، ويتملَّك النُّفوس فيملؤها خَبَائِث؛ وإذا هَلَكت العامّة في أُمة فقد هَلَكت الخاصة.

قال الهُدهد:

وبينما أنا مُؤْتَنس بحديث النَّسر، أَسمعه ولا أَمَلُّهُ، وأتعِظُ بجميع ما

يأتي ويَذَر، وإن لم يُخاطبني في هذه المرة ولم أُخاطبه، إذ قطع الحديث كعادته وتَثاءب، فعَلِمْت أن الساعة أَتَت، ثم نظر إليّ وقال كَلِمته المألوفة: إذا جاء الليلُ ذهبت الشياطين، فألْقِنَي غداً في المحكمة، تَسْمع وتَرَه.

المحادثة السادسة

قال الهُدهد:

فلما كان اليومُ التالي، سَئِمْتُ من النهار وطُوله، ومَن يَنْتظِرْ يَسأَمْ؛ حتى إذا مـال مِيزانُـه، وآصلت الآفاق[1] رَكِبْتُهـا إلى منفِيس، وأنـا أَنتـظر أن يكـون لتلك المُحـاكمـة نَبأ، وأرجـو أن أَقِف على درجـة القضـاء عنـد المصـريِّين القـدماء، لعلمي بـأن العدل ـ كمـا قيل ـ أَسـاس المُلْك، ولا عَـدْلَ إلا حيث القَضاء يَدُور دُولاَبُه، ويُوَلَّاه أَرْبَابُه، وتُوَثَّق أسبابه؛ فهو مِـرآة الحكومـات التي تَتَـراءى فيها بمـا هي عليه من آستقـامة أو عِـوَج، وظُلم أو عَدْل، وصَـلاح أو فسـاد، وآرتقـاء أو آنحـطاط؛ وأَسَاسُ الممـالك، إذا سَلِم سَلِمَت، وإذا تَهـدّم آنهدمت؛ وعُنوان شعـور الأمم وتَعَقُّلها، ودرجتهـا في العِرْفـان، ومَبَالِغهـا من الفضيلة الإنسانيّة؛ لأن القـوانين التي تَصنعها كُـلُّ أمة، وتَتَـواصَى بالخُضـوع لها، لَيست إلا مجموعـةَ تاريخهـا وآدابها وأخـلاقها وعـاداتها؛ ولأن القـائمين عليها بهذه القـوانين لَيْسوا إلا أفـراداً من أبنائهـا، يُبصرون بعينهـا، ويَسمعون بآذانها، ويَشْعُرون مِثْلَ شُعورها، ويَجِدُون مِثْلَ وجْدَانِها؛ فإذا زَكَوْا زَكَـا سائـرُ الأُمة، وإذاٰ خَبُثُوا خَبُثَت الأُمة جمعاء.

---

(١) آصلت: دخلت في وقت الأصيل.

قال:

فلما آحتوتني المدينة، رأيتُ الزُّمَر آخِـذين طريقـاً يتدفَّقون فيه، فقلتُ في نفسي: لعـلّ الزِّحـام من أجل بنتاءور وقَضِيتّـه، وطَفِقْتُ أطيـر إلى حيث يَسيـرون، حتى جَمعت الجُموعَ دارٌ لـديهـا هـالـة، وعليهـا من العَـدْل رَوْنَق وجلالة؛ فقلتُ في نفسي: دار القَضـاء لا محالـة؛ ومَرَقْتُ من فَـوْرِي فصِرْت فيها، أجُول مع الجائلين في نواحيها، وهناك عَلِمْتُ أنّ هذا البناء الرفيع، مَقَرّ حـاكم القِسم، وأنه يَجْلِس فيـه للقضاء بين النـاس؛ فقد رأيتُ كثيـراً من دُور الحكـومة في الأقـاليم، وهي التي يَجلس فيها عُمَـدُ البِـلاَدِ وأعيـانهـا وحُكَّـام القرى للفَصل في المُنازعات، فلم أَرَ ما يُحَاكِي رِفْعَةَ هذه الدار.

فأجابه أحدُهم: إنّ قِسْم الصناعة أكبر أقسام المدينة، يا مولاي، فلا غَرْوَ أن تكون دارُ الحكومة فيه بهذا العِظَم، لكن أيـأْذن لي مولاي إنْ سـألتُه، أَلَمْ يأْنِ لحُكومة جلالة المَلك أن تجعل القَضاء عملاً مُستقلاً، ونظاماً قائماً بذاته، فلا يَقْضِي بين الناس شيخُ القَرية، ولا حاكمُ القِسم، ولا قائِدُ العَسكر؟ قال: وأيّ بَأْسٍ بهؤلاء إذا آنْتُدِبُـوا للقضاء، وهم أشـدُّ النـاس آمتـزاجاً بـالأهالي، وأعْـرَفُهم بطبـاعهم وأحوالهم؛ وجُلُّهم على معـرفة وآستقـامة أخـلاق؛ بل إن الأهالي كثيراً ما يفـزعـون بمُنازعاتهم إلى أفراد منهم، آشْتَهَرُوا بالعِلم والخِبـرة ليَفْصِلُوا فيها، وهم يَرتاحون لقضائهم، ويَقْبَلون أحكامهم، ويَمْتَثِلُون الصـارِمَ منها كالجَلْد؛ وربما كانت هذه الأحكام أدنى إلى العَدل وأقربَ للصـواب ممَّا يُصْدِرُه قضاةٌ تُقيمهم الحكومة ولا تَنْتَقيهم؛ ولقـد رأيتُ الحُكَّام في القُـرَى إذا تَصدَّروا للقَضاء جلس بجـانبهم نَفَرٌ من الكُتَّـاب والأعيان ليُمِـدّوهم بالـرأي، ويَرُدُّوهم إلى الصواب فيه.

قال الهُدهد:

فآستغربتُ هذه الأقوال، وعَجِبْتُ للدَّهر كيف تشابه وَجْهُه وآخِرُه؛ فهذا قضـاء العُمُد كـان من ضِمْن نِظامـات المصريّين القـدماء، وهـو اليومَ الشُّغـل الشـاغل، والمَسـألة الكُبّـرى، في مصـر؛ وهؤلاء المُحلَّفـون كـانـوا يُؤازرون

القُضـاة على عهد الفَـرَاعنـة، وهم اليـومَ من ضَـرُورات القضـاء في بـاريـز، مركز الحضارة الحاضرة.

ثم ٱلتفت النَّسْرُ حولَه وقال لأصحابه: ما أجلَّ هذا المَوقِف!

وهناك بَصُرْتُ بالنَّسر في ناحية يُحيط به جماعة من أصدقائه وتـلاميذه، فٱقْتَرَبْتُ منه، فَهَبْطتُ مُستقرّي من كتفه، فالتفت إليَّ مبتسماً فقال: جُعل هذا الموقف للفضيلة يَنْصُرها فيه دُعاتُها، كما جُعل للجرائم يَفْتضح فيـه جُنَاتهـا؛ والمُتمثِّـلان فيه آثنـان: جانٍ تُعْلَن بَـراءته، وهـذا يبكي عليه مَن في الأرض؛ وبَـرِيءٌ تُعْلَن جِنَايَتُـه، وهـذا يَبكي عليـه من في السمـاء؛ ومَن لي أن أكـون الثاني!

فقال له أحـدُهم: قُضاة منفيس، يـا مولاي، قُضَـاة عَدْلٍ ودرايـة، فلا خـوفَ على رَفِيع شَـرَفك منهم.

قـال: لا يَضْطرب إلا القاضي العادل، ولا يُخطِىء إلا القاضي العَلِيم؛ ولو أن لبنتاءور أن يُحاكم نَفْسَه بنفسـه، لحار في شـأنه مـع الخّمار، فلم يَـدْرِ أيقضي لنفسه أم عليها.

قـال أحـدُهم: هَبْهُمْ، يـا مولاي، حَكَمـوا لصـاحب الحـانـة بشيء من المال، يأخُذه منك عِوَضاً لما لَحِق به من الخَسارة المَزعومة، فما يكون شـأن هذا الحُكم؟

قال: أكون قد أعطيتُ الفضيلة شيئـاً من مالي لا أستكثـره عليها وأُتْبِعـه المَنَّ.

فسألَه آخر: ما القَضاء، يا مولاي؟

قال: مَحكمة ظاهريّة ألجأ إليها فَسادُ المحكمة الباطنيَة.

قال: فما العَدْلُ؟

قال: شيء كان مع الإنسان الأوَّل حين لم يَكُن لـه في الأَرض شريـكٌ

يَزْحَمُهُ، وكان لا يَجِد عليها من يَظلمه.

قال الهُدهد:

فبينما النَّسر وأصحابُه في التحادُث، إذ دُعِي المُتقاضيان للمُثول في مَوْقِف القضاء، فدخل الأستاذ ونفرٌ من الشهود له وعليه؛ وكان القُضاة نحو سَبعة، هم حاكم القِسم ومُعاونوه. من كُتّاب الناحية وأعيانها، وكان مُتَرَدِّياً حُلةً للقضاء بيضاء ضافية، مُحلّاة الحَوَاشِي، تزهو بقَلاَئِد العِقيان التي كان الحُكَّام يُزَيِّنون بها صُدورهم كلما جلسوا للحُكْم بين الناس، فلما صار النَّسْرُ بين أيديهم، قال له الحاكم: أيها الأستاذ، إن لك بمُقتضى مناصبك السامية في المَملكة أن تَرْغَب عن قضائنا إلى قضاء جلالة الملك، كما لك أن تَقْبل مِنّا، قَضينا لك أم عليك؛ فانظر ماذا تُؤْثِر؟

قال: رَضِيتُ بقضائكم، لأنّ مناصبي السامية في المملكة ليس من شأنهاأن تُميِّزني على خَصمي هذا، في موقفٍ يستوي فيه الخُصوم، ويُقتَصُّ فيه للحَصَى من النُّجُوم؛ فآسمعُوا له ولي، ثم آقْضُوا ما أنتم قاضُون.

قال: إنه يقول إنك أَزْرَيْت به وبتجارته، وإنه لا بدّ له من بَدَل، ويطلُب من المحكمة أن تَحْكُمَ له بمالٍ يأخذه منك، وقد جاء بشُهود من عنده للإثبات؛ فهل جِئْتَ بشُهود من عندك للنَّفْي؟

قال: ليس لي شُهود من عندي، أيها القاضي، وما خطر لي قطُّ على بالٍ أن الشَّهادة تتجزّأ؛ لأنه لا فضِيلةَ ولا عِبَادةَ، حيث يختلف آثنان في شهادة؛ وإني لأَعجب لكم،معشرَ الحُكَّام كيف تقبلون من شاهد أن يُثْبِت ومن آخَر أن يَنْفِي، وأنتم تعلمون أنّ أحدهما كاذب. أو مُحرِّف للشهادة، لا مَحالةَ، وقَبُولُ الكَذِب إغراءٌ به، إن الشاهد دِعَامَةُ القضاء، إذا مَتُنَتْ مَتُن، وإذا وَهَنَتْ وَهَن؛ فقوِّمُوه تُقَوَّمُوا به، ولو أن من الآلهة قُضاةً في الأرض، ومن الملائكة مُتقاضيين، وفَسد الشاهد لَفَسَدُوا جميعاً. الشاهد عُنوان الأُمة، فآجعلوا عُنوانها الصِّدق والفَضِيلة، لا المَيْن والرَّذِيلة؛ إنّ شاهدَيْن يقول

أحدهما رأيت نهاراً، فيقول الآخر رأيت ليلاً، ويقول الأول: سمعتُ ضحكاً، فيقول الآخر: سمعت بكاء، لمن حقّهما أن يُفْصَل بينهما قبل أن يُفْصَل بين المتقاضين؛ فمن كَذَب منهما يُسْلَب السّمع والإبصار، ويُنادَى عليه في الناس بالفَضيحة والعار!

قال الحاكم: «نّ مَقام هذا المَقال المدرسة لا المحكمة، أيها الأستاذ؛ لا بُدَّ لنا أن نَسمع الشهود، فَلْيَخْرُجوا، ولْيَبْقَ منهم واحد.

فخرجوا إلا واحداً، فطلب القاضي منه أن يؤدي اليمين القانونية، وهي عند المصريين القُدماء: «أُقسم بحياة المَلِك، وبِنْعِمة الآلهة. . .» فأدّاها، ثمَّ قَصَّ على المحكمة ما رأى وما سمع، وحَدَّث القضاة حديثَ الخُطبة، وأعاد عليهم منها حتى فرغ من الشهادة فذهب لشأنه، وجيءَ بغيره فأدّاها، ثم شَهِد ثالث ورابع وخامس، فرأيتُ الكُلَّ على خُلُق واحد من توخِّي الصدق، والتوجّه إلى الحقيقة. والإيجاز في العبارة؛ فَغَبَطْتُ قُضاة الفراعنة بهم وبسائر الأُمة، أُمَّةِ الأخلاق؛ ورَثَيْتُ في نفسي لقُضاتنا، عِلْماً بما يُكابدون من جهل الشُّهود، وروَغَانهم من الحقيقة، وخَبْطِهم في المقالة، بما يُخْرِج القاضي أحياناً من سَكينته، ويُشَتِّت خواطره، ويَذْهَب بثمين وقته سُدًى.

ثم طلب القاضي من صاحب الحانة أن يَشْرح دَعواه؛ فتقدَّم رجلٌ أسمر اللَّون، صغير الهامة، رَقِيق العِنْق، قَبِيح الوجه؛ فسأله الحاكم: مَن أنت؟ قال: فلان الكاتب، يا مولاي، أَنابني صاحبُ الحانة عنه في تَقرير شَكواه، وشَرح دَعْواه. قال: إذن تكلَّم. فأقسم الرجلُ ثم شَرع يقول: دخل السيِّد الأُستاذ بنتاءور، وصديقُ مَلِك العالَم، حانَتنا التي بشارع الصناعة، يَصحبه فِتيان، فلَبِث ريثما شَرِبَ قَدَحاً من نَبيذ منفيس، ثم خرج فلم نَدْرِ به إلا وقد وَقف بباب الحانة فَمَنعه، واعترض للناس في طريقهم إليها فقَطعه، وخَطب في المارّة بعد ذلك فآستوقفهم، وجلب الزِّحامُ بعضُه بعضاً حتى خُيِّل للرائي أو الحانة قُتِل فيها قَتيل، أو حَدث فيها حادثٌ جليل، وكانت الخَمر موضوعَ خُطبته، أوّلها وآخرها؛ فوصفها بأَقبح الأوصاف، ونَهى عن شَربها،

وحَذَّر من عَواقبهـا، وذكـر مَضـارَّها، وبيَّن نَصيبَ كُـل طبقة من طبقـات الأُمة منها، وطالت خطبته حتى سَمِعها خَلْقٌ كثير، ومَن فاته أوَّلُها لَم يُفْته آخـرُها؛ ويَعلم القُضـاة من جهة أنّ تِجـارة الأهلين حُرَّة في بـلاد جـلالـة الملك، وأنّ قوانين جلالته لا تُحَرِّم الخمرَ ولا تَمنع من المُتـاجرة بهـا؛ ويَعلمون من جهـة ثـانية أنّ للخَـطابة مـواقفَ لم يكن ذلك المَـوقف منها؛ فلو قـال الأُستـاذ في الخمر ما قـال وهو في التَّعبُّـد بالهيكـل، أو في التعليم بالمـدرسة، مـا وجد لائمـاً ولا مُؤاخذاً؛ لكنـه عَمـد لِشَخْص مُعَيَّن فـأَزْرَى بـه وبتجـارتـه، بِمَـرْأًى ومَسمع من الكافَّة؛ ويَعلمون كذلك أن أُلَّاف الحانات بين النـاس هم العامّـة في الغـالب، وهؤلاء، يتأثـرون بذكـر آسم الأستاذ بنتـاءور، فكيف إذا سمعوا حديثَه، وكان مَدَاره ذمَّ الخمر في بيتها، وتَقبيح تجارتهـا بين أَعْيُن تُجَّارهـا؛ ويَعلمون أيضاً أنّ المارَّة في أي قِسم من أقسام المـدينة إنمـا يكون مُعـظمهم من أهله وسُكَّانه، وحانتُنا إنمـا جُعلت لأبناء تلك النـاحية التي خَـطب الأستاذ عليها، فكُلّ ضَرر يَنشأ عن خُطبته إنما يَلْحق بالحانة خاصّة، ويُصِيب صاحبَها بالذات.

هذه شَكوانا بَسطنـاها للحـاكم وأَعوانـه، آمِلين من عَدالتهم أن يُقَـدِّروا الخسارة التي سَبَّبها الأستاذ لنا بخُطْبته، وأن يَسُومُوه أداء العِوَض إلينا.

فحين فرغ الرجلُ من شَرْح الشَّكوى، لم يتمالـك بنتاءور أن ضَحـك، ثم قـال: أيها القُضـاة، أعْـطُوا الخَمَّـار من مـالي مـا شِئتم، ولا تُعـطوا هـذا الأحمقَ منه فَتِيلاً.

فسأله الحـاكم: وأيّ علاقـة بينكما، وليس هـو إلا مُحاميـاً عن صاحب الحانة؟

قال: علمتُ أَنهما آشترطا أن يكون له النِّصف مـمَّا تحكُمون به عليّ، وأن الخمّار عارضـه في ذلك بـادىءَ بَدْء، فكـان جوابـه أنّ التِّجارتَيْن سـواء، فكماأنّ الخمّار يَسْلُب النـاسَ أموالَهم، كذلك المُحامي يُشاطرهم أرزاقهم.

زعم الخَصم أن قـوانين جلالـة الملك لا تُحرِّم الخمـر، ولا تمنـع من

المُتاجرة بها؛ ونحن نقول: إنها تُبيح السُّمَّ أيضاً ولا تَحْظُر الاتّجار به، ما دام من العَقاقير، وكُلّ ما أُخذ بمقادير.

على أننا لم نُحَرّم الخمرَ ولم نَنْهَ عنها، وكيف وقد شَرِبْنا منها قَدَحاً بآعتراف الخَصم؛ لكن دَعَونْا الناسَ إلى الاعتدال في أَمرهم، وأَخذ القليل منها، إذا لم يَكُن من شُرْبها بُدّ؛ فَمَثلنا كمن يَقُول لهم: وهو على باب صيدليّة لا حانة: يا أيها الناس، لا تأخُذوا السُّم إلا بمقدار! فهل علينا إن قُلنا هذا من حَرَج؟ شتّان بين النَّوْعين من السم، هذا يأخذه المرء وهو يَعَافُه، وهذا يَتناوله وهو يَلَذُّه؛ هذا يَتَجَرَّعُه وهو يَدْري، وهذا يَتعاطاه وهو لا يَدْرِي؛ هذا إذا أخذ قَلِيلَه نَفع، وإذا أخذ كثيرَة أَراح؛ وهذا صِحَّةَ تَزول، وشُعور يَعْتَوِرُه ذُبول، وعِلةٌ تَطُول، ومِيتة عذابُها يَهُول.

وزَعم الخَصم أن للخطابة مَواقف، لم يكن ذلك الموقف منها؛ ونحن نقول: إن المَوقف لم يكن أُصلح منه للخطابة؛ لأنّ مُدْمِنَ الخمر لا يُرْثَى له إلا في الحانة، كما أنّ الميت لا يُؤَبَّن إلا في القبر.

وزعم الخصم أن خُطبتنا من شأنها أن تُؤَثِّر في العامّة الذين هم المشّاءون إلى الحانات، وهذا ما كُنَّا نَبغي، فإنا نلتقي بالخاصة في المجالس، ونَكتُب لهم ما تَصِل إليه أيديهم وأفهامهم، لكن لا يَجمعنا والعامةَ إلا الطريق، ونُصْحُهم دَيْنٌ علينا أينما لَقِيناهم.

وزَعم الخَصم أنّ البَلاء مَقْصُور على حانته، لأنها إنما جُعلت لأَبناء الناحية التي حارَبنا فيها الخمر، فأَصبح ينتظر من سُكّانها أن يُوَلُّوا الوُجوهَ عنها: وهذا يَسُوءنا بِقَدْر ما يَحْزن صاحب الحانة، فقد وَدِدْنا لو عَمَّ النفعُ بِقَدْر ما خَصّ الضُّرّ.

أيها القضاة، لا تَحكموا للخمّار فَتحْكُموا على الفضيلة، ولا تَقْضُوا له فتقضوا على التِّجارة الشريفة؛ لأن المُتَاجِر بالخمر قاسي القلب، لا يرحم صَرعاه، غَدّار لا يُشَيِّع جِنازة قَتلاه، غَشّاش لا يَقِف في الغِش عند حَدّ،

شرهٌ لا يَقْصُر في الكَسب عند غاية؛ فإذا لم يكن منك رَقِيب عليه، ولم يَضْرِب القضاء على يديه، عَظُم شَرُّه، وعَمَّ ضُره، وتَشبَّهَ به الكثيرون من أهل الكَسَل والشَّرَه.

ثم نَطق القاضي بهذا الحكم: نحن حاكم قسم الصناعة، من أسباب حُكمنا الذي نُصدره باسم جلالة الملك، مُقتبسين من أنوار عَدْله المُشرقة على العالَم، أن النيّات مَوازين الأعمال، لا غِنًى للقَضاء عن تقديرها، والتأمل فيها، والوقوف، حيث هي من صَلاح أو فساد في الحكم، على صلاح الأعمال أو فسادها؛ ونيّة الأستاذ بنتاءور يومَ خَطب في شارع الصناعة، كانت مَعقودة على أن ينفع الناس. ولا يضرّ بصاحب الحانة، وأيضاً إن الفضيلة هي روح الشرائع التي يحكم بها جلالة الملكَ رعاياه، فلا ينبغي لها أن تُنْصَر عليها الرذيلة في حال من الأحوال؛ والأستاذ بنتاؤور إنما نَهَى عن الإكثار من الخَمر وإدمانها الذي هو رأس الرذائل، ونرى كذلك أن الأستاذ بنتاءور هو من كبار أساتذة الأُمة وأهل الإرشاد فيها، وهذه الوظيفة العالية يُؤدِّيها أمثاله الحكماء في كل زمان ومكان، أينما وُجِدوا وكيفما آرْتَأوا، وكُلُّ تعرُّض لهم فيها تَعَرُّضٌ للفضيلة؛ وبناء على ذلك حكمنا ببطلان دعوى الخمّار، وأن يَدفع إلى الأستاذ بنتاءور عِشرين قطعة من الذهب، لأنه سَلَبه بعضَ وقته الثمين، وأَخَّره عن أشغاله النافعة، في دَعْوَى لم يكن من شأنها أن تُرْفَع إلى القضاء؛ ولهذا السَّبب نفسه حَكَمنا على الكاتب فلان المحامي عن الخّمار بخمسين جَلدة يُجْلَدها في صَحْن دار الحكومة هذه بمَشهد من الناس، عُقُوبة له على غِشّه صاحبه، ولكيلا يَجْترىء أمثالُه الكُتّاب على أَخذ أموال الناس بغير الحق!

قال الهدهد:

ثم تَثاءب النَّسر تَثَاؤُبه المَعهود، وفاه بكَلِمته المَأْلوفة: إذا جاء الليل ذَهبت الشياطين. وأَمرني أن ألقاه غد ذلك اليوم في دار الأمير «أوني».

المحادثة السابعة

قال الهُدهد:

فلمَّا كان أَصيل الغد، د خرجتُ إلى الموعد كالعـادة، وقد عِيـلَ صَبري لبُخْل النَّسر عليَّ بالكلام، وخَبْطِه في ضرب المواعيد، فـدخلتُ منفيس ضالاًّ حيـران لا أهتدي السبيـل، ولا أَجِد من دليـل؛ فجعلت أمُرُّ بـالدُّور العـالية، وأُطِيفُ بالقُصور الشـاهقة، لعلّي أجـد ريح النَّسـر، على ذلك القَصـر؛ حتى أَتعبني طِلابُه، وأَغضبني آحتجـابه، وبُغِّض إليّ اصـطحابُـه. فعَمَدْت لشبّـاك مفتـوح، في طبقة من دار، فـدخلتُها منـه، وقَرَرْتُ في رَفٍّ هنـاك، ثم نظرتُ تحتي، فرأيتُ غِلْمَاناً بضعة مُنتشـرين في المكان، مُتقـابلين على الأرض فيه، وقد جلسوا أرضـاً، وأقبلوا برؤوسهم على رُكَبهم، وبين أيـديهم شيءٌ كثير من وَرق البَـرْدِي، وسائـر أدوات الكتابـة، وهم في العمل، وكـان الصَّدْر لـرجل يُؤخـذ من سِنّه وهيئتـه، وآتخاذهِ مِنَصّـة للجلوس وأخرى لـلأوراق، أنه رَئيس هذه العُصبة، والمُسَيْطر على هؤلاء الكَتَبة، فخُيِّلَ إليَّ عندما رأيتهم على هذه الحال، أنّني في بعض الدوائـر المصريّـة القديمـة، حيث الباشكـاتب يتصدَّر والعُمَّال بجانبيه يَعْرِضُون عليه الحَرف والسَّطر والصحيفة.

قال:

وكـان دوني غلامـان مُتدانيـان في الجُلوس، وكانـا يتحـادثـان هَمْسـاً؛

فَٱسْتَرَقْتُ السَّمْعَ، فسمعتُ أحدهما يقول لـلآخر: نحن نكتب غيـرَ مَأْجُـورين ونَتْعب، وهذا الرئيس يأخذ المُرَتّب! فأجابه الثاني: ولَيْتَه يَتْرُكنا وشأنَنا، ومـا نحن فيه من حال تَحْنِي الظهورْ وتُدْمِي الرُّكَب، وتُقَرِّح الجفون، فقـد شكاني من أيام إلى والدي، وزَعم أني بطيء الفَهم، ثقيل الحركة! قال: وهل صَدّقه أبـوك؟ قال: تَـرَدَّد، ثم نقل الحـديث إلى أُمِّي فلم تُصـدِّقـه؛ وحَلَفَتْ بنعمـة الآلهة أنني أَحْضَرُ ذِهْناً، وأَصَحُّ فَهْماً منه ومن أولاده الثلاثة! قال: إنه صَـدِيق لأبيك ولوالدي، ولولا هذه الصداقة ما اتخذَنا تلميذين له، فليتها لم تكن ولم نـدخل هـذا القَبر على قيـد الحياة! قـال: لكن النـاس إجمـاع على أن هـذه الصناعة التي يُمارسها هي سُلَّم الارتقاء في خِدْمة الأمراء والأغنياء، وأن كثيراً من الكَتبة وَصَلُوا فيها إلى الجاه العظيم، وحَصَلوا معهـا على المال الجسيم؛ وقد حدَّثني أبي وأنت تعرف مكانته في العلم والفضل، أنه رَغِب في الاتصال بالأمير «أوني» أحـد أنجال المَلِك، وكـان في ديوان حُجّـابه عَمَـلٌ يَحتاج إلى عامل، فطلبه أبي بسفارة صديقه هذا الـذي سَئِمْنا من رُؤيتـه، وهو كمـا تعلم المأمور المتصـرِّف في ديوان أمـواله، فعـرض ٱسمه على الأميـر في جُملة ما عرض من الأسماء، فلم يَقـع ٱختياره إلا على واحـد من الكَتبة، لكن أبي لا يُبَرِّيء هذا الشيطان، ويَتَّهمه بكَوْنه يُـظهر مـا لا يُبطن، كـدَأْب جماعـة الكَتبة المُتفقين على أن يأخذ بعضهم بيد بعض في الأمر كُله؛ وهذا هو سبب قوَّتهم وسِرُّ نجاحهم!

قال الهدهد:

فعجبتُ لمصـر أُم العجائب، كيف صَبَـرَتْ آلافاً من السنين على حـال واحـد مع هؤلاء الكتبـة، فكانـوا على عهد الفـراعنة هم أنفسهم وَقْتَ دخـول العرب، إلى زمن المماليك، إلى أيام محمد علي، إلى حكم إسماعيل، إلى عصر الاحتلال؛ وفيه ظهرت الشهادة الابتدائية، وأُختها الثـانويـة، فمات بهـا الجهلُ وماتت الكتابة القديمة، لكن هلك كثير من طلبة الـرزق في الحكومـة بين طلبـة العلم عن غير شهـادة. . وجرْت في نفسي فلم أدرِ؛ أأبـكي ذلك

اليُسْر مع الجهـل، أم أَبْكي من هذا العُسـر مع العقـل؛ وكنت قد آستبشـرت عنـدما سمعت اسم الأميـر «أوني»، وعرفت من حـديث الغلامَين أن الـديوان له، وهؤلاء الكَتبة أتباع له؛ وأمَّلت أني أستـدلّ على القصر بـأحدهم، فتحقَّق أملي على الفَــوْر؛ إذ لم يَلبث الـرئيس أن نَهض، فـالتفت إلى مَن يَلِيـه من الغِلمـان وأخبره أنـه ذاهب إلى القَصر لمقـابلة الأميـر في بعض الشُّـؤون، ثم خرج من الباب، فسبقتُه من النافذة، وأنا أستغرب هذا الاتفـاق، وأتعجَّب من المصادفات كيف تَنساق: فما زال في سَيْره، وأنا في أثره، حتى احتوانا طريق ضيق، جَمَعَتْني العنـاية فيـه بالنَّسـر؛ وكـان يمشي مُمهِّـلاً كثيـر التلفُّت؛ فلم أتمـالك عن الـوقوع على كَتِفـه، فلما صِـرْت في عُشِّي المألـوف منه، التفتُ مُبتسماً مسروراً، وقال: لقد خِفْنا على الهُدهد الضَّلال!

قلت: ما زِلْتَ، يا مولاي تُضِلّه، وما بَرِحَتْ العِناية تَدُلّه!

ثم حدَّثته حديثي وما وَعَيْتُ من محاورة الغلامين، فآستضحك ثم قال: آنظرَ كيف يستفيد الغـريبُ من الضلال أضعافَ الفائـدةِ من الاستدلال! قلت: لقد أوشكتُ، يا مولاي، أن أَضِلَّ حِلْماً فيكم وفي شؤونكم الغريبة، وأحوالكم العجيبة؛ لأنكم تَهْزِلُون وتَجِدُّون، وتَصْغُرون وتَعْظُمـون، وتَجهلون وتَعقلون؛ كيف يكـون مثل ذلـك الكاتب على ديـوان أمـوال الأميـر، وفي المملكـة من يَصْلُح لهذا العمل وأمثاله، من طَلبة العلم بين شُبّان البلاد الأكفاء؟ قال: وأيّ كبيـر لا يَصْغُـر أحياناً، يـا بُنَيّ؟ إن لـلأُمـة الكبيـرة كمـا للفـرد الكبيـر زَلّات وجَهَالات، تَدُلُّ على الكَمال الكامـل للآلهـة وَحْدَهم، فـإذا دخلت على قوم ديارَهم فلا تَحْكُم على أشيائهم متفرِّقة، واحكم عليها مُجتمعة.

ثم أَفضَى بنـا المَسِيرُ إلى مَيـدان وسيع، فيـه قَصْر رَفِيـع، فمشى النَّسر نحوه، فسألتُه، لعلّها دارُ الأمير، يا مولاي؟ قال: نعم، وليس ما تَرى إلا قَصْراً من نحو مئة قصر، يُحيط بها سُور واحد، ويَـأْوِي إليها المَلِك ونسـاؤه وأولاده وأربابُ خِدمتـه، كلٌّ بِقَـدْر درجته في القـرابة، وحَسَب منـزلته في الصُّحبـة. وموقفه في الخِدمة.

قال الهُدهد:

فٱستغربتُ الأمر، وقلتُ للنَّسر: ما تَرَك الأول للآخِر، يا مولاي؟ فليست «يلدز»[1] بالشيء الذي يُذكر في جَنبِ هذه الأبنية الفِرعونية، والمساكن الرَّمسيسيّة! قال: ألم أُحَرِّم عليك أن تَقيس، وأن تذكر أحد الملوك برمسيس! قلت: لا أعود لها، يا مولاي!

ثم دخلنا القصر، فجعلنا نَلِج باباً ونستقبل آخر، ونخرج من ساحة ونَدْخُل في ساحة، ونطوي دِهْلِيزاً إلى دِهليز، بين حُرَّاس جملة، وجُنْد عِدّة، وخُدَّام لا تَنقضي لهم جَيئة ولا ذهاب، حتى ضَمَّتنا حديقةٌ من أبدع ما غَرَست الرَّاحات[2]، وأكرم ما أخرجت الأرضُ من النبات؛ فٱجتزناها إلى قصر له بَهْوٌ يتمشَّى فيه الأميرُ الشاب، بين ٱثنين من الأصحاب؛ فحين وقع نظرُه على الأستاذ، تهلَّل وٱهتزّ، وٱنثنى إلى ما وراء البَهو لِيَسْتَقْبِلَنا، وسار الغِلمان بين يدي النَّسر حتى أدخلوه على الأمير، فالتقاه أحسنَ التقاء، وأعلى مَحَلَّه، وأجلسه بجانبه، وأومأ إلى صاحبيه فجلسا دونه في الحَضرة؛ ثم خاطبه والابتسام مِلءُ فمه، فقال: لعلّ هذا هو الهُدهد السِّحْرِيّ، الذي لا يُفارق الأستاذَ في هذه الأيام! قال: هو بعينه، فمن حدّثك حديثَه، يا مولاي؟ قال: قَداسة هوررس (من ألقاب الفراعنة). قال: أَوَبَلغ حديثُ الهدهد إلى الباب العالي (من ألقاب الفراعنة)؟ قال: وهل تَخفى على جلالته خافِيَةٌ في الأرض أو في السماء، وهو المُضطلع وحدَه بالمُلك في الأُولى، وشريك الآلهة في مُلْك الثانية؟[3] قال: كذاك هو، يا مولاي، لكنّه لم يسألني عن أمر هذا الصاحب الجديد! قال: لعلّ شاغلاً شغله. قال: هذا الهُدهد، يا مولاي، خُلِق لمجالس الملوك والأمراء؛ لأنه أصَمُّ لا يملك السمع، أخرس لا يملك الخِطاب؛ اللهمَّ إلا أن يتنزّل فيه من رُوح المَلِك يومَ يُعرض عليه، فيَنْطِق بما يُدْهِشُ السامعين، ولا يُدْهش ذا القصرين (من ألقاب الفراعنة)، لأن سِرّه إذا حَلّ في

(١) يلدز: قصر الخلافة العثمانية بالأستانة. (٢) الراحات: أي الأيدي.
(٣) الأولى والثانية، أي الدنيا والآخرة.

نَبَـاتٍ مَشى، أو في طَيْر نَـطق؛ فلا يَجِـدَنّ مولاي من بـأس في تشـرُّفـه الآن بـالحضْرة؛ لأنـه يَكْتُم الأخبـار، ولا يُـذيـع الأسـرار. قـال: الكـريمُ يَصْحَب الكريم، أيها الأستاذ، ولو حَملت معـك البَبَّغاء، وهي النـاقلة الواشيـة من بين الطير، لائْتَمنّـاهـا كمـا نأتمنـك؛ والآن لعلَّك تدعـوني إلى الدَّرس؟ قـال: إن أَذِنْت، يا مولاي! فتبسَّم الأميـر ثم قـال: ألا تـراني كَبِـرْتُ عن الدرس، أيهـا الأستـاذ؟ قال: مـا عُلِم على بَشر أنـه كَبِر عن التعلُّم، يا مولاي، ولـو سـألت جلالة الملك، وهو المُوحِي إلى من في الأرض، المـوحَى إليه من السمـاء، لأجاب أنّ الكمال مَيسورٌ بلوغه إلا في العِلم. قال: فما بـاله أَعفى كثيـراً من إخوتي الأصغرين سنّاً من الدروس؟ قال: وما يُـدريك أنـه يَسْتَنْجِبُك، ويـرجو أن يَسْتثمر غَرْسَ عنايته بك؛ فقد سمعتُه في بعض الأيام يقول لمن حوله: إن (أوني) لَعَلَى بيـان، وإن البَيان لخيـرُ مـظاهـر الملوك والأُمـراء، يَسْتَـرقّ لهم الخواطر، ويَسعى لهم بالقلوب. قال: لو أنهم يختصرون معي من الدروس، فـلا يكلِّفونني منهـا ما يَمُجّـه ذوقي، وتأبـاه طِباعي، مثـل الرِّمـايـة، وركـوب الخيـل، ومُطاردة السبـاع في الصَّحَارَى والقِفـار، لأقبلتُ على سائـرها إقبـال الحَيَـارَى المُستفهمين على الهيـاكـل ينتـظرون جَـوَابَ الآلهـة في مُعضـلات المسـائل. قـال: مِنالناس، يا مولاي، مَن تُلْجِئه منزلتُـه في هـذا العـالَم إلى مُمارسة ما يكره، وركوب ما لا يَوَدّ، وأنت آبن المَلِك؛ وناهيك بها مِن نِسبـة يتلاقى فيها أبوك والشَّمس؛ وإنها لتجعلك حيثُ لا يكون سائر الناس؛ فـأنت ممن معك بين أصحاب مُوالين، لا تأمنهم أن ينقلبوا أعداء مُقـاتلين؛ بل أنت من قَصرك هذا في شِبه حِصْن تَحْرُسه الآن مهابتُك، ولا يَحميه عنـد الكَرِيهـة إلا ثَبـاتُك وشجـاعتك؛ وإذا خـرج فِتيان المَملكـة إلى قِتـال المُتـوَحّشـة بَني الخَـراب (كنية الأمم الخـارجين من حكم الفـراعنـة) ومَنْعِهم من الغـارة على البلاد، نُصْرَةً للآلهة ومَواطنهم المقدَّسة، خرجتَ أنت نـاصراً لـلآلهة، ذائـداً عن مُلك أبيك المؤيَّد بالشمس؛ فأنت إذن من جُنـود الصف الأول، الذين لا غِنًى لهم عن قُلوب تُقسِّيها مُلاقـاة الأسود، وجُسُـوم يُنشِّطهـا رُكوب الخيـل، وأَحْداق تُحَدّدها مُزاولةُ الرِّماية، وسَواعد يُقَوِّيها الضِّـرَاببالسُّيوف. وآعلم، يا

مولاي، أن هذه الدنيا لمن غَلب، وأن الغَلْبة فيها للقُوَّة، وأن الأُمم لا تحفظ الاستقلال موجوداً، ولا تستردّه مفقوداً، إلا بالقُوة؛ فيتعيّن إذن على كل إنسان يُحب بلادَه محبةً حقيقيّة، ويُريد بقاءها مُمْتَنِعة الجوانب، عزيزةَ المَنال على الأجانب، أن يُثبِّت نَفْسَه بالفضيلة، ويُقوِّي بَدَنه بقدر الإمكان، ويتعلّم فُنون الحرب في السِّلم، وأن يَشِيبَ على ذلك، ويَسُوم أولاده أن يَشِبُّوا على مِثله؛ حتى إذا دَهَم البلادَ يومٌ عَصِيب، آسْتَدْفَعَتْه بشُبّان من أبنائها وشِيب. إن الأسد إذا أَقعده الهَرَم، ناشته الذِّئابُ كإحدى الرِّمَم[1]؛ وإن البازَ إذا خَفَضت رأسَه الدُّهور، توثّب على مِنْسره[2] العُصفور؛ وهكذا الأُمة، لا تُغني عنها الفضائلُ جَمّة، إذا هي لم تَجعل الشجاعةَ رَأْسَها، ولم تَسْتَحضر في الحَرب والسِّلم قُوتها وبأسها. نشأ أبوك المَلِك، يا مولاي، ونشأنا معه، نحن رِفاق صباه، في التَّخَشُّن والتقشُّف، وأنواع الرِّياضة البدنيّة، من صَيد ومُطاردة، وقِتال صُوريّ، ولم يكن جَدُّك الملك سيتي يُقدِّمه على أَحدنا في المُعاملة، أو يُفَرِّق بين أحد مِنّا في المُجاملة؛ بالرَّغم من مُختلف الأنساب، ومُتفاوت الأحساب، فلم يبلغ الواحد منّا الخامسةَ عشرة من عُمره، إلا وهو كالشِّبْل النُّوبيّ، لا يَقَرُّ له قَرار، في الفَيافي والقِفار، وقد أُوتي والدُك الْمُلْكَ وهو يَحْبُو إلى العشرين، فآحتكم بِكَفٍّ كمِخْلَب الأسد، وقَلْب كقَلْبه أو أشدَّ؛ وكُنا نحن المُرشَّحين لمُشاركته في سياسة الأمور، وأعوانه الطبيعيين على مُداورة الشُّؤون؛ فوجد عندنا سَواعد قويّة البأس، وعزائم شديدة المِرَاس، وعُقولاً صَحيحة سليمة، في جُسوم قوية قَويمة؛ ولا أَكْتُمك، يا مَولاي، أني كنت كثيرَ الشَّكْوى مثلك، أضِيق ذَرْعاً بتلك النُّقَل، وأتعب بتلك المشاقّ، وأشتهي جَلسة على شاطىء النيل في ساعة الغروب، لكي آخُذ من مَحاسن الأكوان وأسرارها، وأشهد مُعْتَرك ظُلماتها وأنوارها، وأنظُر إلى الماء إذا قَعد، وإلى النبات إذا سجد، وإلى الطير إذا هَجد؛ وأسمع ذلك الخَرير، تُتاليه

---

(١) ناشته: تناولته بأنيابها.

(٢) المنسر، للطيور الجارحة كالمنقار لغيرها.

بأصواتها النَّوَاعِير، وقد آنفتح للكائنات هَيكل من خاطري فجمَّعها، فهي تُمَجِّد الآلهة فيه، وأنا أمجِّدهم معها؛ إلا أن والدتي كانت تَقُصُّ عليَّ قِصص الوحوش من الشعوب، الذين أغاروا على مصر في الزَّمن الأول، وتُمَثِّلهم لي في أفظع الصُّوَر، وتَصِفَهم بأقبح الأوصاف، فبينما هم الذِّئاب العارية، إذا هم الأسود الضَّارية، إذا هم الشياطين العاصية، فَرُّوا من الحامية[1]، ورُدُّوا إلى الدنيا ثانية؛ وكانت تَقول : إنهم لا يَفِرُّون إلا من السلاح، ولا يُعْصَم منهم إلا السواعد العَبْلة الصِّحاح؛ فكنتُ إذا سمعت ذلك منها، قَصَرْت الشكوى، وصَبرت على البَلْوى؛ حتى تمَّت لجسمي التربية، فانقطعتُ لتهذيب نفسي.

قال الأمير: ومَن لي، أيها الأستاذ، بأُمّ كالتي ذَكَرْت؟ إن والدتي أولى العاذلات لي على ما أنا فيه من إجهاد نفسي، وإتعاب جسمي، وهي تَزْعمُ أنه ما دام المُلْكُ من بعد أبي سيصير لأخي الأكبر، فلا حاجة بي إلى مثل هذا الكَدّ والكَدْح.

قال: ويح الأمهات! طالما جَنَيْن فمَهَّدَت الرَّحْمةُ عُذْرَهُنّ. أنت، يا مولاي، إن لم تكن وارث المُلْك فإنك وارثُ المَلِك، وهو على فضائل لا بُدَّ لك أن تكون عليها؛ لأنّ المسؤوليّة في هذا العالَم بِقَدْر منزلة الإنسان فيه؛ ومَن أَرْفَعُ منزلةً من ابن رمسيس؟ على أنّ محبة أخيك لك، وثِقته فيك يوم ينتقل إليه المُلْكُ، تكونان بقدر قِسْطك من المزايا، ونصيبك من الفضائل؛ فإن كانا موفورَيْن، وكان أخوك برّاً بك، مُقْبِلاً عليك، كنتَ ساعدَه في المُلْك، ومُساعدَه في الحُكم؛ فإنْ فاتك منه هذا لم يَفُتْك إجماعُ الناس على تَعظيم نَسبك، وتكريم حَسبك.

قال: أتظُن، أيها الأستاذ، أن يَخْرُجَ منّا معشرَ أبناء رمسيس، ونحن خمسون أو نزيد، مَن يُشْبِه أباه، ويَخْطُو في سَبل الفَخار خُطاه؟

---

(١) الحامية: أي جهنم.

قال: مِثل هذا السؤال، يا مولاي، يُلْقِيه أبناء الملوك ولا يُبالون؛ لكن الحَرج كُلَّ الحَرَج على من يُسألون؟

قال: نحن الآن صديقان نَتحادث ولا نختلف. قال: إنني أرجو أن تكونوا مِن بعده كِماء الوَرْد بَعْدَ الوَرْد: يَحفظ منه شيئاً، ومَعذورٌ أن تَفُوته أشياء: إن السعادة، يا مولاي، لم تكمل لِمَلِكٍ كما كَمُلت لأبيك في حياته، فهل نُكلِّفها أن تبقى عليه بعد مماته، ولئن صَحّ ما أَعْتَقدُ من أن الإنسان قد يَحيا في نَسله، ويَنْبَعِثُ في فَرْعه، كما يَنْبَعِث من أصله، فربّما حيي لدى أحدكم ما يَموت من فضله؛ لكنْ مَن لكم يومئذ بالمُلْكِ الجسيم يُظهر ذلك الفضلَ للعباد، وبالحظِّ العظيم يَنْشُره في البلاد؟

قال: صدقتَ، أيها الأستاذ؛ فهل تَدُلُّني على رَكْنٍ من السعادة أَلُوذ إليه فأَسْلُو ما لا يُدْرَك من مُحاكاة أبي في بلوغ السعادة الكاملة؟

قال: عليك بالشُّهرة، يا بُنَيَّ، فإنها مطلب الملوك والأمراء، وأفضل ما تُنال بالعِلمْ وأثبت ما تكون به؛ فاطلبه وجالس أصحابه، وآجهد وُسْعك أن يُقال عنك ابنُ نفسه، ثم ابنُ رمسيس؛ فهذه هي اللذة الحقيقية، والسعادة التي لا يَعْدِلها في هذا العالم إلا الصّحة. أبقتها الآلهة عليك.

قال الهُدهد:

وبينما أنا أنتظر أن يدعو الأمير إلى الدرس، ويأخذ في إلقائه عليه، إذا هو قد تثاءب كعادته، ثم آلتفت إليّ مملوءَ الجفنَيْن من النعاس. فقال: إذا جاء الليل ذهبت الشياطين؛ فالْقَنِي أصِيلَ الغَدِ على باب القصر. فانتبهتُ من حُلْمي، فإذا أنا في عُشّي بحُلوان.

المحادثة الثامنة

حدّثنا الهُدهد المَسحور، الدَّخيل في الطُّيور، كحال ذلك الناطقِ في النُّسور، السابقِ في المَنظوم والمَنثور، وما هو إلا بنتاءور، شاعر القِدَم المشهور، الخالدُ ذِكْرُه مع الدهور؛ أُنْشِر شَيطانُه، وبُعثَ بيانُه، وأُرْجِع للناس زمانُه؛ قال:

لما كان الغدّ وأَزِف الأصيل، خرجتُ إلى «منف» المُنبعثة بقوة الخيال، المُتمثِّلة كما كانت في العصر الخال، إذ المالكُ رمسيسُ المعظَّم ذو الجلال، وإذ المُلْك في ذِروة السَّعد وأَوْج الكمال؛ فبلغتُها وأنا حَيْران لا أدري على أيِّ أبواب القَصر ألقى النَّسر؛ لأنها مُتفرقةٌ كُثُر؛ وقد تقدّم القول بأن الدار الفرعونية تكاد تكون ثُلث المدينة من التناهي في السَّعة وكثرة المُشتملاتْ وتمدُّد الأطراف؛ لكل زوجة فيها أَخْبِيَة مَنْصوصة[1]، وأَفْنِية بها مخصوصة؛ وما أكثر الزوجات! ولكُل وَلدٍ غُرَف مُنفصلة، ومَقاصِير مُنعزلة؛ والمَلِك كثير البنين والبنات؛ ولا تَسَلْ عن الحاشية وكَثرتهم، وما يلزم لهم من مساكن تختلف باختلاف منازلهم في القَصر، وتتفاوت بتفاوت مواقفهم في الخِدمة؛ وفي الدار منهم آلاف يؤدُّون الخِدَم المتنوِّعة، ويُمارسون الصناعات

---

(١) الأخبية: بيوت من وبر أو شعر أو صوف. واحدها: خباء. ومنصوصة: مرفوعة.

المختلفة؛ وبالجُملة فالقَصر السلطاني من آمتداد البُنيان، وسَعة الجوانب والأركان، بحيثُ لا تحصى أبوابه ولا يُغْنِي أحدُها عن سائرها: فحين انتهيتُ إليه، ولَجْتُه من الباب الذي دَخلناه بالأمس، وحينئذ ذكرتُ أن الساعة ساعةُ الدَّرس، وأني ربما لَقِيتُ الأستاذ في مَقَرِّ الأمير «أوني»؛ فاحْتَلْتُ حتى دخلت على الأمير في غُرفة جلوسه، فلا، والله، ما عَلَّلْت النفس بِكِذَاب، ولا أوردْتُها السَّراب؛ بل إذا أنا بالأمير وجَمْع من إخوته وكبار الأتباع، قد داروا كالحلقة بالنّسر، وهو في بُهْرَتها[1] يتلطّف لهم في التعليم، ويَخْلِط المفاكهة والتدريس؛ فوَثَبْتُ إلى رَفرف هناك فَحَطَطت فوقه، وأنا مَسرور بما وجدت، قَرِيرٌ بما شَهِدت؛ ثم ألقيتَ السَّمْع، فسمعت الأستاذ يقول:

والذي يُمَيِّز علماء هذه الأُمة على غيرهم، وتَجْرِي بهم إلى الغايات، ويَكْفُل لهم السَّبْق، ويجعلهم أساتذة وَقْتهم، ومَصابيح عَصْرهم، أنهم يَطْلُبون العلم لذاته، ثم لأنفسهم، ثم للأحاديث من بَعدهم؛ وهذه الثلاثة ما قامت بنفس طالب عِلم ورُزِق الحِجَى والذكاء وفُسْحة الأجل، إلا نَبغ في حياته، ثم جاوَزَ ذلك إلى رُتبة الخلود بالذِّكْر بعد مماته؛ فيا أيها الأُمراء، ومن يلوذ بهم من الخَواص والكُبراء، من أَحَبَّ منكم العِلم حُبّاً صادقاً، وطلبه لذاتهِ، فَلْيَأْخذه منِّي؛ ومَن حَضر منكم مجلسي هذا وهو فارغ الفؤاد من حُب العلم: عينٌ ساهية، وأُذن لاهية، وجِسم في ناحيةٍ وقلبٌ في ناحية، فَلْيأخذ العلم من غيري.

قال الهُدهد:

فرأيت، وما أعجبَ ما رأيت! رأيتُ أكثر الحضور آنْسَلُّوا من المجلس؛ فدَهِشْتُ لهذا الصدق، وآستغربت من القوم هذا الرُّجوعَ في الضمير إلى الحق، وذكرتُ مجالسَ من هذا القبيل يَعقدها بعضُ الكبراء في مصر، تظاهُراً بمَحبّة العِلم، ويتصدّر فيها للتدريس عُبَّاد الشُّهرة من العُلماء،

---

(١) بهرتها: وسطها.

ويَحضرها البعض رِياءً وتَملُّقاً.

ثم آستمرّ النَّسر فقال:

مُحِبُّ العِلم يَطلبه لِذاته، وهذا أوّل التوفيق في طريق التحصيل، وسبب النجاح الأوثق؛ لأن النفس حيث رِضاها، وحيث يجعلها هواها، ومَن رَضِيت نفسُه بالعِلم قِسْماً من أول يوم، وآمتلأ فؤاده من حُبه، أقبل عليه، وضَنَّ به، وآنقطع له، وألْفَى التَّعبَ راحةً في تَحصيله، وآستوى عنده السَّلامة والعَطَب في سِبيله؛ ثم لا يَلْبَث العِلْم أن يُعَرِّفه قَدْرَ نَفسه، وأنه ما خُلِق في هذا الكَوْن سُدًى، ولا ساد نوعُه على هذا الوُجود عَبَثاً؛ فتأخذه عن ذلك عِزَّةٌ بالحق، وتَنْزِل نَفْسُه في عينه مَنزلتها الحقيقية، فيطلُب العِلْم لها، ويَستكثر منه لأجلها، ويَجري فيه إلى الغايات في سَبيلها، لِمَا آستقرَّ عنده من أنّ العِلم يُحْيِي النُّفوسَ ويُهذِّبها، ويُطْلِعُها على الحياة وأسرارها، ويُوصِلها إلى كُنه أغوارها، ويُسَهِّل لها مَحْيَاها، ويُهَوِّن عليها الفَوَاجع في دُنياها؛ وهذه هي المنزلة الثانية في العِلم، يَقِفُ عندها سَوَادُ العُلماء، ولا يُجاوزها إلا آحادٌ تُسخِّرهم الآلهة بهذا الوجود، فيعملون فيه العمل العظيم، ثم يَموتون عن تُراث في الفَضل جَسيم، من بُنيان يُخَلِّدون، أو حِكْمة يُؤَيِّدُون، أو مَجْدٍ يَشِيدون، أو فَنٍ يُجدّدون؛ وهذه هي رُتبة الامتياز بالاختراع، ولا يُقال عن أُمة إنها بحياةٍ ولها وَجدان، حتى يَبْلُغَ أفرادٌ مِن بَنيها هذه الرُّتبة؛ ولئن كان العُلماء في الأرض عَدَدَ ما عُرِف من النُّجوم في السماء، فهذا الفَرِيقُ منهم كالكواكب التي لم تُعرف بعدُ، يُكْشَف منها واحدٌ على رأس كُلّ مائة؛ وإنهم لأجلُّ منها، وأنفع في الوجود، وأهْدَى للناس؛ وما بَلغ بهؤلاء العُلماءِ إلى هذه الرُّتبة العُلْيا، والمنزلة العُظمى، إلا تَرَقِّيهم في عِرفان قيمة النفس. ومُغالاتُهم بها، وآعتقادهم أنها لا تَفْنى، وأنها أجَلُّ ماهية، وأعظم شأناً من أن تُحصر بأيام الحياة القلائل، ولئن تَحَتَّم أن تَخْرُج يوماً ما من هذا الهيكل الزائل، فلها من جَميل الذِّكر، ومَحامد الأحاديث هيكلٌ خالد فاخر، يَتَجَلَّى في الخواطر، ولا تراه النَّواظر، ولا يَستأثر به مكانٌ دون مكان، ويَتوارثه الدَّهْرُ زماناً عن زمان.

قال الهُدهد:

ثم ٱلتفتَ الأستاذُ إلى الأمير، وكان الدَّرْس قد طال، فأَذِن له في الإمساك؛ فأَمسك وتَحفَّز للقيام، فطِرْتُ إلى كَتِفه، فَنَهَضْت فيه وأنا حَسْران على ما فاتني من أوائل دَرسه؛ حتى إذا ٱنصرفنا مِن حَضرة الأمير، ٱلتفت إليّ وقال: كيف وجدتَ مَجْلِسَنا، أيها الهُدهد؟

قلت: اسْتَطَبْتُه، يا مولاي، وإن حَضَرتُ في آخره، وٱسْتَدْلَلْت بهذه الحَبَّة من العُنقود على سائره.

قال: لنا تِلْميذ في القَصر نتعلَّم منه أحياناً، ونَزداد كلما حدّثناه عِلْماً وبَياناً: فهل لك في زيارته الساعة؟

قلت: الأَمر إليك، يا مولاي.

فسار النَّسر بي يَخترق وَسيعات الدُّور، ويَجْتاز شاهقات القُصور، وهو يُعيِّنها لي واحداً بعد واحد، ويُسمِّي أهلها، ويَصف ما فيها، حتى أَفضينا إلى قصر لَا يَبْلُغ البصرُ ذِرْوَته، ولا يُدْرِك سَعته، فقال: هذه مَساكن الملك خاصّة، ونحن قادمون عليها.

ثم وصل سَيْرَه بين رِياض ناضرة، وحدائق زاهرة، وسُوحٍ وسيعة[1]، وأسوار رَفيعة، ومقاصير كالغِيد الحِسان، تَمُوج بالجواري والغِلمان، إلى أن بلغنا إحدى الغُرَف، وكان على بابها غلامان يحرُسانها، فوقف الأستاذُ ثم سأل أحدَهما: أين «تحوت»؟ فأجابه: في غُرفة الكتابة، يا مولاي. قال: ٱذهب فاستأذِن لنا عليه.

فدخل الغلام يؤدِّي الرسالة، والتفت النَّسرُ إليّ فقال: رأيتُ جميع الفَوَاجِىء فلم أَرَ أَثْقَلَ على الإنسان مِن مُفاجِىء في ساعة الكِتابة؛ وقد ٱستأذَنَّا، فلعلَّ تحوت يأذن لنا!

---

(١) سوح: جمع ساحة.

وما كاد يَستتمّ حتى خَرج إلينا فتًى، مليحُ الطَّلعة، حَسَنُ الزِّيّ، ترى دلائلَ الذَّكاء على جَبينه الوضّاء؛ فانحنى بين يدي الأُستاذ وقال: زارنا خَير من نُحبُّ ونُكْرِم، يا مولاي!

ثم أخذ بيده، فدخلا وهو يَنْظُر إليّ ويقول للنَّسر: لعله هُدهدك السِّحريّ الذي شاع ذِكْره في المدينة، يا مولاي؛ وليس بمُسْتَنكر على مَن سحر البَشر أن يسحر الهَداهد!

قال: كيف أنت والملك، يا تحوت؟

قال: أفضلُ مولى هو؛ فمن لي أن أكون أَصْدَقَ عَبْد؟ يُحِبّني كبعض ولده وَيَثق بي كبعض قُدماء أصحابه، ويُؤدّبني بالإشارة الخافية، والحِكمة العالية، والنَّصيحة الغالية.

قال: هكذا عَهِدْناه: إذا صادق أَعَزَّ، وإذا عادَى أَذَلّ، وإذا أحبَّ بلغت به المِقَةُ[1]، وإذا وَثِق لا يرجع عن الثِّقة!

ثم جلس الصاحبان، وطاف عليهما الغُلام بشيء من عَتِيق النَّبيذ، فسأل الأستاذُ صديقه الفتى من أيِّ الكُروم هذا المُعتَّق، يا تحوت؟

قال: مما يَضِنّ به الملك، يا مولايّ، ولا يُوجد إلا في خَوابيه[2]، وقد أمر صاحبَ شرابه أن يملأ دِنَانِي[3] منه كلما فَرغتْ؛ وسَبب ذلك أن جلالته نَزل مرةً إلى أن ناولني منه شيئاً بيده المُقدَّسة، فدعوتُ له، ثم قلت: أيها الملك المَعبود، كانت حَلَب العُنقود، فصارتِ بِسِرِّك حَلَبَ الخُلود، مَن يَذُقْ منها لا يخرج من الوجود؛ فَمَنْ لي بها تَنْجَلي، في كأس لا تفْنَى ولا تَمتلي[4]، أذوقها بلسان رَطْبٍ عليك ثناءً، وأشربها بفَمٍ مملوءٍ لك دَعاء!

---

(١) المقة: الحب.
(٢) الخوابي: الأوعية يحفظ فيها النبيذ، الواحدة: خابية.
(٣) الدنان: أوعية للخمر، الواحد: دن، بالفتح.

فسُرَّ المَلك بهذه الكلمة في شُكره، وكان ما كان من أَمره.

قال: هكذا المُلوك العُظماء، يَحتالون على الثناء، ويأخذونه من عبادهم الأُمناء، والآن ٱئْذَن لنا، يا تحوت، إن سألناك ماذا تكتب؟

قال: ولِمَ، يا مولاي، وما كتبتُ في عُمري حَرْفاً إلّا عرضتُه عليك؟

ثم مشى الفتى إلى مِنصّة الكتابة، وكانت عليها رسالة من إنشائه، جَفّ مِدادُها أو كاد؛ فأخذها، ثم دَفعها إلى النَّسر وهو يقول: هذه الرِّسالة منِّي إلى أخي، أَحدِ جُنود المَلِك في أسطول البحر الأحمر، أَشْكُو فيها من بُطء مَكاتيبه عَنِّي، وأُبَشِّره بمَنزلتي الجديدة في الخِدمة الشريفة، وأَصِفُ له بعض أخلاق المَلِك.

قال الأستاذ: ما قرأ الكلامَ مِثْلُ كاتبه؛ فخذ فأَسمعنا، يا تحوت.

فتناول الفتى الرسالةَ ثم قال: «يا أخي، ما شَغلك عنِّي وأنا المَشغول بك، أُعتني بأمرك، وأسأل عن خَبرك، وأذكرك في السِّرّ والعَلانية؛ أَأَفْزع بالشَّكْوى من هذا الجَفاء، إلى شِيمتك الوفاء؛ أم أعوذ بهوروس حامي حمى الثُّغور، ومُسَيِّرِ تلك الأساطيل كالجبال في البُحور، أن يكون بين جُنده من ينسى الصديقَ، وينام عن عهده، وقد عُرِفَتْ نفوسُهم بالوفاء، كما وُصِفَتْ بالنخوة والإباء؟ ولئن أخذتَ بقِسْط من العِزّة التي هي لجُنود الملك بالحقّ، فإنها لكم، جماعةَ الجند، ولنا مَعشرَ الحاشية، وما سِوانا من الناس فأشباه، إلّا من حُسب على رَفيع ذلك الجاه. ولعله نُمِي إليك أنِّي ٱزددت من حُظوة، وٱستفدت في سُبُل الفخار خطوة؛ فجُعلت على ملابس الملك أَنْشُرها وأطويها، وعلى جواهره أَسْهر على حِفظ غاليها؛ وقد أَشفقتُ من الأمر في أوله، وحَمَلْتُه وأنا أعلم أنه جَسيم، وأنِّي قادم على مَلِك تامِّ المَهابة عظيم، فلا، والآلهة ونُعمائهم، وآباءِ المَلِك وثنائهم، ما سَمِعْتُ كحديثه، ولا آنَسْتُ كبِشْرِهِ، ولا رأيتُ كحِلْمِه، ولا عَرفت أقلَّ ٱغتراراً بالدنيا منه، ولا أكثرَ ذِكْراً للآخرة؛ إذا دَخلتُ عليه بثياب الملك قال: ما هذي العَواري، يا تحوت، وإذا حَملتُ إليه التاج قال: ألبسني، يا تحوت، فلا تمسّ يَدي شيئاً تَخْرُج منها غداً.

وسألني جلالته مرة: ما أجملُ الثياب، يا تحوت؟ فقلت: ما تَجْمُل بالمَلِك! قال: كَذَبْتَ ربُّك! أجملُها ما لَبِس الفقيرُ بعد الغنيّ؛ وثيابي لا تَصْلُح لِفَقيرٍ بعدي؛ فمُرْ صُنَّاع لِبَاسِي ألا يَنْقُشُوا رموز المُلْك على جميعه، وأن يَقْصُروا ذلك على ما أَتَّخِذ منه في المحافل. وطَلب خاتَماً له من نحو ألف خاتم في الخزانة، فتَشابهت عليّ، فأبطأتُ ولم أَجْسُر على مُخاطبته؛ فلم أدر إلّا به عند رأسي وأنا في البحث عن طَلبه، فتبسَّم ثم قال: الخاتَم لك إن وجدتَه يا تحوت! فأَطْرَقْت هُنيهة ثم قلت: في البِحار، يا مولاي، مليكة اللُّؤلؤ التي لم يُهْدَ لها الملوك حتى الآن، وهي لجلالة الملك إن وجدها. فآستضحك ثم قَلّب طَرفه في الخزانة حتى عَرف الخاتم، فقال: هوذا الخاتَم فَخُذْه فهو لك يا تحوت! فقبّلت الأرض بين يديه شكراناً لأَنعُمِه؛ ثم تحوّل عنّي فسمعته يقول: أَيْ آمون، جنِّبْني الغضب، وأدِّبني أحسن الأدب، وآجعلني مَن يُثيب لِسَبب ويعاقب لِسَبب. وحَسَدني حاسد على منزلتي الجديدة في خدمة الملك، فَوَشَى بي عند جلالته، وقال عنّي إني أُذيع كلماتهَ وأنقل ما يَدُور بيننا من الحديث؛ فقال له المَلِكُ: أنا أعلم بما أقول، ولَيس في كَلِمي ما يُريب فأكره أن يَصِلِ إلى عبادي! ثم أَمر بالواشي فطُرِد من خِدمته؛ وقال: المُلوك آثنان: مَلِكٌ أُذنه للمظالم، وهذا سَيِّد الأكارم؛ وآخرُ أُذنه للنَّمائم، وهذا عَبْدُ الألائم![1] ورماني أحدهم عند جلالته بأني كَثير الحَلف بحياته؛ وهذا كما تَعلم مُحرَّم على العامة، مَكروه صُدورُه عن الخاصّة؛ فقال: رَجُلٌ عَيْشه بعَيْشي، ولا يَثِق بصفْو الحياة بَعدي، له ألفُ عُذْر أن يحلف بأيامي! ثم أردف بأن قال للوَاشي: ونحن معشرَ الملوك أَحْوَجُ إلى من تَخْلُصُ لنا سَرائِرهُ، منَّا إلى مَن يُرْضِينا ظاهره؛ نَلْقَى إجلال الناس حيث مِلْنا، ولا نَثِقُ بحُبهم لنا... هذا قليل من كثير من كَلِمات الملك التي آختصّه بها آباؤه، وبودِّي لو نَلتقي على خَلوة تَطُول، لأحدِّثك عن جلالته، فتقول زِدْني من حديثك، ولتَعلم أنه مَلِك الملوك يقيناً ولو نُظر إليه عاطلاً من أبهة الملك

(١) الألائم: اللؤماء.

وعظمة السلطان، وأن جُنوده ملوك الجنود؛ فَحَسْبُنا شرفاً ما أنت فيه، يا أخي من إعزاز لوائه، والاعتزاز به، وحماية سُفنه، والاحتماء بها، والحياة في ظِل مُلكه، والموت دون شرفه الرفيع».

قال الهُدهد:

وما كاد تحوت يَفْرَغ من قراءة رسالته، حتى تثاءب النَّسر، والتفت إليّ مُثْقَل الجفنَين بالنُّعاس، فقال: إذا جاء اللَّيل ذهبت الشياطين، فالْقَني غداً في دار الأَعمى «بسادر». فخرجت من صَفْو تلك الأحلام، إلى كدر اليقظة بين هذا الأنام.

المحادثة التاسعة

قال الهُدهد:

فلما كان اليوم التالي، قضيتُ النهار في كَدّ وكَدْح وتَعب حَياة، وأشغال دُنيا طالِبها حائم، على ماءٍ دائم، ولَيْته دائم، إلى أن كان أوان المَوعد، فثُرْتُ إلى منف، وأنا لا أستطيع للغيظ كَظْماً، ولا أَمْلِك في أمر النَّسر حِلماً، ولا أَظُن أن سأهتدي إلى ذلك الأعمى؛ فلما بلغتَ بِناء «منا» الدائم، وقَدِمْت أمّ المُدن القدائم، نَظرت إليها نظرةَ مُرْتاح، وقُمْتُ لديها على جناح، وقلت في نفسي: صَفحاً للنَّسر عن هَفواته، إذ كان هذا المَنظر من حسناته؛ وهكذا الإنسان: يَنْسى ويذكر، ويَكْفُر أحياناً ويَشْكُر.

ثم فكَّرت في الأعمى ودَاره، وما يَقتضيني النَّسر من مَزاره؛ فسألتُ نفسي: من يا تُرى الرَّجُل حتى يَزُوره النَّسر، وأيّ العِميان هو، فهُم كُثُر؟ تُراه «شمشون» في الهيكل آنبعث[1]، أم «المَعَرِّي» قام من الجَدَث[2]، أم «يَعقوب» آبيضَت عيناه، من الحُزن على فتاه[3]؛ أم «بَشّار بن بُرْد» قام من

---

(١) شمشون: قاض يهودي، عرف بالقوة الخارقة، وكان سر قوته في طول شعره، فاحتال خصومه وقصوا شعره، وفقأوا عينيه، فثارت ثائرته وهدم الهيكل.

(٢) المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان، شاعر فيلسوف، وكان أعمى توفي سنة (٤٤٩هـ).

(٣) يعقوب، هو ابن إسحاق بن إبراهيم، عليه السلام، وكان آبنه يوسف عليه السلام، قد بيَّت=

اللَّحـد[1]؛ أم «أبـو العبـاس» الأعمى[2]، أم «دُرَيْـد بن الصِّمَّـة»[3] أم الخليفـة «القـاهـر» في أيـام مِحنتـه[4]، أم «حَسَّان بن ثـابت» في آخـــر مُـدّتـه[5]، أم «الشاطبي»[6]. أم «طوبيـا» النبي، أم «هُوميـر» الشاعـر اليونـاني، أم «ملتـون» الشاعر الإنكليزي[7]، أم «مَرْصَفيّ»[8] هذا الزمان، صاحب «الوَسيلة» والكَلِم الثمـان، وأول من علم الهُدهـد البَيان[9]، أم «دَاود الأكمـه»[10]، أم «ابن سيده»[11]

= إخوته النية على إبعاده، وكـان لهم هذا، إذ ألقـوه في جب، وادعوا أن ذئبـاً افترسـه، وقصته معروفة، فبكاه أبوه يعقوب حتى ابيضت عيناه.

(١) بشار بن برد: شاعر ضرير، أدرك الدولتين الأموية والعباسية، وكانت وفاته سنة (٣٩٧هـ).

(٢) أبو العباس الأعمى: السائب بن فروخ، شاعر، وهجاء، وأكثر هجائه في آل الـزبير، إذ كـان من أنصار بني أمية، وكانت وفاته سنة (١٤٠هـ).
وثمة من يكنى: أبا العبـاس الأعمى، وهو أبـو العباس الأعمى التـطيلي، شاعـر أندلسي، لـه ديوان، توفي سنة (٥٢٥هـ).

(٣) دريد بن الصمة، من الأبطال الشعراء، المعمـرين، عمي في آخر حيـاته، وكـانت وفـاتـه سنة (٨هـ).

(٤) القاهر، هو ابن الخليفة المقتدر، ولي الخلافة بعد قتل أبيه المقتـدر سنة (٣٢٢هـ)، ثم خلع وسُمل بعد سنة واحدة وستة أشهر.

(٥) حسان بن ثابت، شاعر، وهو أحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عـاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، وعمي قبيل وفاته، وكان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي ﷺ في الإسلام، وكانت وفاته سنة (٥٤هـ).

(٦) الشاطبي، هو القاسم بن فيرة، مقرىء ضرير، تصدر للإقراء بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة، ولـه قصيدة في القراءات دالية في خمسمائة بيت، وكانت وفاته سنة (٣٥٨هـ).

(٧) هـومير، أو هـوميروس، شاعر يوناني، وملتون: شاعر إنجليزي، وكان كلاهما ضريراً.

(٨) المرصفي، هو حسين بن حسين (١٨٨٩م): أزهـري ضريـر، تولى التـدريس بالأزهـر، ثم بدار العلوم، وكان أستاذاً للأدب العربي، ومن كتبه:
أ ـ الوسيلة الأدبية في العلوم العربية. وهو مجموع محاضراته في دار العلوم.
ب ـ الكلم الثمان. في الأمة والوطن. والحكومة، والعدل، والظلم، والسياسـة، والحريـة، والتربية.
جـ ـ زهرة الرسائل.

(٩) الهدهد، يعني شوقي نفسه، فلقد كان المرصفي هو أستاذه الأول.

(١٠) داود، هـو داود بن عمـر الأنـطاكي، عـالم بـالـطب والأدب، وكـان ضـريـراً، تـوفي سنـة (١٠٠٨هـ). وثمـة داود آخر، وكـان ضريـراً، وهـو داود بن أحمـد بن يحيى، أديب قـارىء، كانت وفاته سنة (٦١٥هـ).

(١١) ابن سيده: أبو الحسن علي بن أحمد، لغوي أندلسي ضريـر، ومن أعرف كتبـه: الخصص، والمحكم. وكانت وفاته سنة (٤٥٨هـ).

أم «الـطُليـطُلي»[1]، أم أكمـه المَسيـح[2]، أم أعمى عَبْسَ[3]، أم الأعمى الذي قَتل البَصِير، في هذا الزمن الأخير[4]؟.

ولم يَبْق أعمى في الزمن الغابر، إلا مَرّ ذِكْرُه بالخاطر؛ ثم قلت: لعلها تَعْمِية شاعر، والرَّجُـل من عُمْي البَصائـر، فتَشابـه البَقر عليَّ عنـدئذ، وقلت: لعله أحـد الغُـزّ الـذين أمِنـوا لمحمـد علي، وانتـظمـوا في تلك الصُّفـوف، فـلاقَوا في القَلعـة الحُتـوف[5]؛ أم كُـروجـر في بلدان الغَـرْب، لا في ميـدان الحَـرب، يظن أن الأقـوام مُنقـذوه من الكَـرْب[6]؛ أو أحـد سُفـراء الـدُّول في بكين، منـذ اتفقوا على الثِّقـة بالصِّين[6]؛ أم من هؤلاء المُهـوّسين في البلاد، الـذين يَطْلُبـون حقَّ السلطان «مُراد»[7] وآونـة يبايعـون من شاءوا من العبـاد، ويُريدون من «عبـد الحميد»[8] وهـو الذي لا يجـري في مُلكه إلا مـا أراد، أن يُصبح كهذا الذي قال عن نفسه وأجاد:

أَلَـيْسَ مِن الـعَجَـائِـبِ أنّ مـثْـلي يَــرَى مــا قَــلَّ مُمْتَـنِعــاً عَـلَـيْـهِ
وتُـؤْخَـذُ بـأسْمِـهِ الـدُّنْيَـا جَمِيعــاً ومــا مِـنْ ذاكَ شَـيْءٌ فـي يَـدَيْــهِ[9]

قال الهُدهد:

ولـو أردت أن أُحصيَ عُميَ البصـائر، على ذكـر الأعمى - بسـادر - مـا

(١) يريد: التطيلي أبا العباس، وقد مر التعريف به.
(٢) المسيح: هو عيسى بن مريم عليه السلام، ومن معجزاته إبراء الأكمه.
(٣) عبس، أي سورة (عبس)، ومنها (عبس وتـولى أن جـاءه الأعمى) وهـذا الأعمى هـو ابن أم مكتوم عبدالله، وكان قد قصد النبي - ﷺ -، يسأله عن أمور دينه، وعند النبي، ﷺ، نفـر من سادات قريش، يرغبهم النبي ﷺ في الإسلام، فأرجأ ابن أم مكتوم شيئاً حتى يفرغ منهم.
(٤) يشير شوقي إلى حادثة وقعت قتل فيها أعمى بصيراً.
(٥) يشير إلى ما دبره محمد علي من مكيدة للمماليك في القلعة، وقضى فيها عليهم.
(٦) كروجر (١٨٢٥ - ١٩٠٤): زعيم وقـائد تـرنسفالي. وكـانت له جهـوده في حرب البوير، ثم كـانت له جهـوده الأخرى في أوروبـا، حين ضم الـدول إلى جـانبـه. فـانتهت تلك الجهـود بمعاهدة بين الترنسفال وانجلترا ردت على الترنسفال بعض حقوقه.
(٧) مراد: هو مراد الرابع سلطان عثماني، وبموته سنة (١٠٥٨هـ) فقدت تركيا آخر سلطان وتنازع الأمر بعده متنازعون.
(٨) عبد الحميد، هو عبد الحميد الثاني، خليفة عثماني، عرف بالاستبداد.
(٩) الشعر للمعتز أحمد بن جعفر بن خلفاء الدولة العباسية.

آستطعت أن أُحْصِيَ نِصْفَ الناس، على اختلاف الأصناف والأجناس؛ فبينما أنا مُفكِّر حائر، ماضٍ في الجَوِّ طائر، إذ طاف بي من الجَوارح طائف، فلم أَدْرِ إلا وأنا بين جناحَيْ خاطف، وهو ينظر إليّ مُبتسماً ويقول: لقد أتعبنا الهُدهد بالانتظار. قلت: وبذلك الأعمى في تلك الدار. قال: أما الأعمى فرمسيس[1] ربُّ هذا المُلْك، وباني هذه الدولة؛ عَمِي إذ بلغ به الكِبَر، فكانت هذه أبلغ العِبر؛ وأما «بسادر» فمن الأسماء الدائرة، وإنما رَمَيْتُ بآستعارته له إلى أنّ الدهر قد حكم فيه فصار كبعض الناس. قلت: يا أسفاً على ذلك الوَعد! ويا حَسرتا على تلك الأُمْنية! لقد أخطأني ما أَمّلتُ من القُدوم عليه، وفاتني ما رجوتُ من النظر إليه! قال: ستجده أَبصرَ في العَمَى، وأسمع في الصَّمم، وتُلْفِيه مُتلبِّساً بلباس الفُتوة في الهَرم؛ فتعلم أني آستأذنت لك عليه، وهو على عظمة من قوّة الوجدان، تَعْدِل ما بلغ إليه من عظمة المُلْك والسلطان.

وصاحِبٍ لِيَ أَعْمَى فِداؤُهُ المُبصِرونَا
يُرِيكَ في كُلِّ قَوْلٍ وكُلِّ فِعْلٍ عُيونَا

قال الهُدهد:

فقبلت حكْمَ النَّسر، ورَضِيتُ بهذا القِسم النَّزْر، وقلت: قد آن أن يُنْجِزَ مولاي وَعْدَه، فإني أخاف ألّا أرى رمسيس بعده؛ إذ ما بعد العَمى والصَمم، وتَبالُغ الهَرم، إلا مَحتوم العَدَم!

فاستضحك الأستاذ، ثم قال: الآن تُقْدِمُ عليه، فإذا أقامك في الخِطاب، فبالغ له في التحيّة، وشَبِّهه بكُل قَوِيّ في الأرض والسماء، عَظيم في الغَبراء والزَّرْقاء، وآتَّبع في مِدحته سُنَّتنا معشرَ الشُّعراء، من المصريّين القدماء؛ وقُل في قاهر الأُمم الأربعين، كما قلت في قاهر اليونانيّين:

---

(١) رمسيس، هو رمسيس الثاني (١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ ق.م) أكثر الفراعنة حروباً، وأكثرهم فتوحاً. وأكثرهم آثاراً.

أَمَـوْلاي غَنَّتْـك السُّيـوفُ فـأَطْـرَبَـتْ
فـهـل لِيَـراعِـي أن يُـغَـنِّـي ويُـطْرِبُ
فعِنْـدِي كمـا عِنْـدَ الظُّبَى لـك نَغْمَـةٌ
ومُـخْـتَـلِف الأنـغـام لـلأُنْس أَجْـلَبُ[1]

فـإن المَلِك وإن أشرق وَجه الأرض من ثنائـه، وآمتلأ فَمُ الـدنيـا من مِدْحته، وسَيَّرت ذِكرَه الأشعار، وبَـزَّت أعمالُه القائلين، وتكاثـرت مَناقِبُـه على الناظمين، فما زال يَهُزُّه المُدَّاح. وما آنْفكَّ يَطْرب للإطراء ويَرتاح.

قلت: ستجدني، يا مولاي، من المُحسنين:

وعندئذ حملني النَّسر إلى القصر، فـدخلنا حُجـرة ليس أجمل منهـا في النـاظر، ولا أجـلّ منها في الخـاطر، في وسـطها سـريرٌ فـاخـر، وهـو يَـزْهـو بالجواهر، مَنْضودة من الخشب النادر، آضطجع فيه رجل يُغْضَى من مهابتـه، ولا تَثْبُت النفس إزاء جـلالته، حَفِظَ الـزمنُ الغَضـاضـة على وَجهـه النقيِّ من الشَّعْر، وعلا التاجُ منه رأساً مِلءَ التاج، وهو كالتمثال له عَينان ولا يُبصر.

وكـان النَّسر قـد تَمثَّل بشـراً سَوِيّـاً، وآستأذن في الـوصول، فـآستقدمـه المَلِكُ، فحين نَقـل القَدَم في الحُجـرة العاليـة، آستقبل مـولاه مُسْتَجْمِعـاً من الخُشـوع، غاضّـاً من بصره من المَهـابة؛ ثم قـال: سلام من هـوروس إليه، سـلام الآباء والأجـداد عليه! أيهـا الشمس المُضطجعـة في سريـر مَجـدهـا، وضـوؤها يغشى البـلاد، ويـبعـث حياةً للعبـاد؛ هذا هُـدهد نـاطق، انفرد في الآخِـرين بتَقديس ذاتـك، والتمدُّح بصفـاتك، والبكـاءِ بعدك على رُفاتـك؛ فاستحقَّ أن يُحسب على التفاتك.

قال الملك: لعلّه هدهدك السحريّ، يا بنتاءور!

قال: كذلك لَقّبوه في المدينة، يا مولاي.

---

(١) الظبا: أي السيوف.

فالتفت رمسيس إليّ كأنه يراني، وقال: ماذا يُقال عنّا، أيها الهُدهد، في زمانكم النَّكِد، وأيامكم السُّود، وعهدكم النُّكْر، وسِنِيكم العِجَاف؟ وماذا يعلم عنا ذلك الجيلُ الصغير، والجَمْع المُتفرّق، والعِقْد المُتمزّق، والنَّسْل الذي سمونا بالبناء والحَجر، ولم نسمُ به في يوم ٍ مُفتخر؟

قال الهُدهد:

فعجبتُ من حِرص الملك على ذكرهِ مَن بَعده، وكيف أنه قدّم هذا الأمر على غيره في ابتداء الحديث؛ وعلمت أن حُبَّ تخليد الذكر، هو رأس المَطالب العالية، لا يتأسَّس بناء في المجد إلا به، ولا تقوم شُهرة ثابتة راسخة إلا عليه؛ وحِرْتُ فلم أَدِر كيف أُجيب، أأُصدِّق المَلِك فأقول له: إن القوم ضَيَّعوا عهدكم، وأغفلوا ذكركم. وجادوا للأجانب بكثير مما تركتم، وآتخذوا منهم النبّاشين، وآستخدموا منهم الكشّافين، وآستقدموا منهم العُلماء الباحثين؛ أم أُكْذِبه فأمدحه وأطريه، وأُعْلِي ذكره وأُغْلِيه؟

وكان الأستاذ قد نظر إليّ نظرة مُغْضَب، كأمنه ينهاني عن التردُّد، فأنشدت:

رَمْسِيس يا كُلَّ المُلو ... كِ ويا جميعَ العالَمِ
يَفْدِي سَلِيلَ الشَّمْسِ كـ ... ـلُّ مُسَلْسَلٍ من آدمِ

والتفتُّ إلى النَّسر فرأيتُه يتهلَّل، فعلمتُ أن قولى أرضاه، وأن الألفاظ جَرَتْ على هواه؛ فأَرْدَفْتُ بأن قلت: عَلِمَت الأرضُ، يا مولاي، أنك خَيْرُ مَن مَلكها، وأجْرَى مَن سَلكها، وأفضل مَن تركها؛ وعلم الأحياء أنك كنت كالفَلَك لا تَسْكُن، وكالمَنِيّة لا تُدْفع، وكالصَّخرة لا تُسْتَخف، وكالسماء لا تُطاوَل، وكالدَّهر لا تَنام، كالنجم لا يَعْيا، وكالسيف لا يَرْوَى، وكالدنيا لا تُكره، وكالحياة لا تُملّ، وكالصُّبح لا تَخفى، وكالشمس لا تُستزاد، وكالسهم لا تُردّ، وكالبحر لا تُزحم، وكالذهب لا تُراب[1]، وكاللَّيث لا تَهاب، وكالطيب

---

(١) لا تراب، من الريبة، وهي الشك.

لا تُكْتم، وكـالنار لا تُـدَنَّس، وكالعـارض لا تُعارَض، وكـالـريـح لا تُسـابَق، وكـالطَّود لا تُصـادَم، وكالمـاء لا تُعَوّض، وكـالهواء لا تُستبـدل، وكالحق لا تُغلب، وكـالسَّعادة لا تُعـادَل، وكالسـلامة لا تُفـاضَل، وكـالبَدْر لا تُـوَاسَم[1]، وكاللَّيل لا يُدرَى ما تأتي . . .

قال الهدهد:

وخَـالستُ المَلِكَ وجُلَسَاءَه النَّـظَرَ، فوجـدتُهم مُنصتين لمـا أُزَخْـرِفُ من الثنـاء، ورأيت النَّسـر يـزداد تهلُّلاً؛ فشَجّعني ذلـك على مُتـابعـة الخـطاب، فقلت: وعلموا، يا مولاي، عن صِباك أنك مَلَكْت الدنيا في رُؤْيا قبـل أن تُولـد وأن تحيا، ثم ما جاوزتَ العاشرةَ حتى كان الملكُ بيدك، والأيام من جُنـدك، والخير والشر من عنـدك؛ فكنتَ في ذاك الصبا الغَضّ والعُمـر النَّضِير، وهـذا الأمـرِ النافـذ والمُلْك الكبير، مثـالَ المُلوك المُحْتَذَى في كَـرم الخِلال وحُسن الأخـلاق، يأخـذ الكُهولُ منـك العِلم، ويتعلّم الشيـوخ منـك الحِلم، وتَغْلِب النفسَ على شِيمتها الظُّلم، وتَرْكَب الحربَ إلى السِّلم. . .

هُنا أَطْرَق المَلِكُ هُنيهة، ثم رفع رأسه وأشار بوجهه نحو أصحابه وقال: أتذكرون إذ أُزْجِي الجُيوشَ وأنا طِفل، وإذ مَثَّلوني، التاجُ فوق رأسي وإصبعي في فمي أُلُـوكها، كمـا يفعل الصِّبيـان؛ أتذكـرون إذ لَبِسْتُ التاج في الهَيكـل الـطِّيبيّ وأنا صَبِيّ، كـالشِّبل اللِّيبيّ؛ من رآني قـال: لن يَكْبُر هـذا ولن يَعْمَى ولن يَهْلِك أبداً؟ أتذكـرون إذ نحن صِغار نُصـارع بالنهـارُ وحوش القِفـار، وإذ تجمعنـا بالليـل والعُلماءَ المَسـامر، نـأخذ من عِلمهم وآدابهم، ونتلقّى عليهم الدروس النافعة؟ أتذكرون إذ أسير في الأرض في سبعمائة ألف مُقاتل، وآونةً أركب البحر في عَدَدِ أمواجِه من سُفن القتـال؛ فملكت المَعمور من أفـريقيا، وأَخضعت المَسكـون من آسيـا، ونَشـرت أعـلامي على الأُمم والشعـوب،

---

(١) لا تواسم: لا تغالب، بالبناء للبهوي فيهما.

وملأت من آثاري الشِّعاب والدُّروب؛ فلا جَبَل إلا لي فيه أَثَر، ولا بُقعة إلا لي عليها حَجَر؟

قال بتناءور: نَذكُر ذلك كُلَّه، ونَعلم أنه لم يَنَلْ مَلِكٌ ما نِلْتَ من صُنوف السعادة، ولا أُوتِي بَشَرٌ ما أُوتيت من بَسطة المُلْك وآمتداد السيادة.

قال: لكنْ وَدِدْتُ لو خُلِقْتُ ابن رَاعٍ، أو أَحدَ الزُّرَّاع، في بعض الضِّياع، وأَني لم أعرف المُلْك ولم أَنَلْ من معاليه ما نِلْت؛ ذلك من أَجْلِ حادثة وقعت في حَرب أمة الخيتاس، إذا ذكرتها وأنا في غاية السُّرور، آنقلب سُروري آنقباضاً وتَرْحَة، وإذا خَطرت على البال، وأنا في ذِرْوة المَجد وأَوْج العظمة، صَغُرت نفسي في عيني، واحتُقِرَتْ في خاطري، وآستحييتُ من الشمس أن ألقاها بوجهي، وهي المَلِك المُسَوِّي القِسَمَ بَين الأحياء، المُنْعِم لهم بالحياة على السَّواء. وحديثُ تلك الحادثة أنني أَخْرجت العَدُوَّ يومذاك، بعد أن أتمّ الآلهة لي النُّصْرة عليه، فآنساق بَيْنَ يديَّ شُيوخاً ونساء وأطفالاً، وأنا أُطاردهم وَحدي، فأُبِيدهم، بمَركبتي تارة، وبسهامي أُخرى، حتى صادفوا في طريقهم غابة، فآستعصموا بها، فوَلَجْتُها عليهم، وجعلتُ أصطادهم في أعالي الأشجار، كما تُصطاد الطير في الأوكار، غَيْرَ راثٍ لحالهم، ولا رَاحمٍ ضُعفاءهم، وكان فوق شجرة هناك رجلٌ شيخٌ أعمى قد تسلّقها، وجَذبه حُبُّ الحياة فعانقها، فَرَمَيْته بسهم فأصابه، فصرخ قائلاً: «أَعمى أصاب أعمى يا رمسيس!» ثم سقط يتخبّط في دمه، فآمتنعتُ من فوري عن مُتابعة الفتك ومُواصلة البَطْش، وكانت نَجاة البقيّة الباقية من أولئك الفارِّين الضُّعفاء، على لسان ذلك الشَّيخ الأعمى، الذي ما وَعظني منذ كنتُ غيرُه، ولا عَرَّفني قَدْرَ نفسي سواه؛ والآن أُحِسّ كأنّ السهم رُدَّ إلى مُرْسِله، وأن ذلك الأعمى أصاب هذا الأعمى؛ فيا أيها المُعَمّرون بعدي؛ لا تَغُرَّنكم الأيام، وآتَّقوا سِهام الانتقام.

ثم حَوَّل المَلِكَ وجهه إليّ وقال:

وأنت يا صاحب النَّسْر، وشيطانَ الشِّعر، في عصرٍ غير هذا العصر،

آعلم أن المجد والعِظَم في الـدول والأمم، ينتهيان إلى بُنـاة الفُسطاط، وأنهم خَيْـرُ مَن وَرِث النِّيلَ بعـدي: ظَلَمْتُ وعَدَلـوا، وتَـطَرَّفتُ وآعتـدلـوا، وأَسَرْتُ وأَطْلَقوا، وآستعبدتُ وأَعْتَقوا، وخَلَّدْتُ بعدي الحَجَر، وخَلَّفوا بعـدهم السِّيَر؛ ذَهبت الديانات، ودينُهم هو الدائم، وبادت اللُّغـات ولِسَانُهم في مصـر قائم؛ وأُرِيبتْ كُلُّ أُمةٍ في وادي النيـل، وذِكْرهُم فيـه سالمٌ جميـل؛ وشَقِي الغريبُ فيـه بغَيـرهم، وغُمِـر من أول يـوم بخَيـرهم، وآستـوى السـوقـة والمَلِكُ على عهـدهم، وما تسـاويا مِن قَبْلهم ولا من بَعـدهم؛ وتكـافـأ في مصـر الخليفـة والعـامل، حتى لا أَدري أيهمـا الرجـل العادل والإنسـان الكامـل. وإن الذي استنزل رُوحي من عالَم الراحة الكُبرى بعد ثلاثين قرنـاً أو تزيـد، وسَلَّط عليّ مِن رُوحه ما يُوجِد العديم. ويبعث الرَّمِيم، وحـاز لك الـدُّوَلَ منذ التـأسيس، والمُلوكَ من مِنا إلى أمازيس، في منفيس، على عهد رمسيس، لقادر على أن يُـرِيك الفُسـطاط وأهلهـا، ويُـشهـدك تِلْكَ الـدولـة وعَـدلهـا، وأُمَـة العـرب وفَضلها، حتى إذا قِسْتها بمن قَبلها، قَضَيْتَ عليها أو لـهـا.

قال الهُدهد:

فَخَشِيت أن تَنْقَضِيَ الرُّؤيا ولمّا أظفر من مَلِك المُلوك بموعظة؛ فقلت: أيهـا الملك، إن بَيننا لَـرَحِماً مَبْلُولـة لم تَيْبَسْ، وإنك لَمَجْـدُ هـذه الأمـة أولاً وأخيراً؛ فهل نَصِيحة عالية نسمعها منك، ومَوعظة غالية نَحْفظها عنك؟

قـال: عليكم بالإقـدام، فـإنـه مِفتـاح الغِنى، والـطريق المُختصـر إلى العَليـاء، والسلاح الأَمضى في مُعتـرك الأحياء، بـه سُدْتُ، وعليـه اعتمدت، فيما أسَّست وشِدْت؛ وإنه ليُخْرِج أصحـابه من غِمـار العامّـة إلى عُليا مَـراتب المُلوك، ومن هُون الخُمول، إلى العـزِّ والسؤدد والذكـر الجميل؛ ولـو لم أكن ابن «سيتي»، وعنه وَرِثْتُ مُلْك الدنيا، لملكتَها بالإقدام.

قلت: زِدْنا مُنْعِمـاً، يـا مـولاي؟

قال: قاوِموا الظَّالم ولا يَغُرَّنكم ما تَرَوْن من قُوَّته وبأسه، فمثله كالأَسد: لا يزال يَفترس حتى تَفْترِسَه نَهْمَتُه!

قلت: الثالثة، يا مولاي، ولا أَزيد!

قال: آحفظوا أنفسكم، وضَيِّعوا ما شِئتم!

قال الهُدهد:

وعندئذ تَثاءب النَّسر، فتثاءب المَلِك وأصحابُه على أثره، فالتفتّ إلى الأستاذ فرأيتُه يُغالب الكَرَى، وسَمِعْتُه يقول كَلِمَته المُعتادة: إذا جاء اللَّيْلُ ذَهبت الشياطين؛ فإذا كان أصيل الغَدِ فالْقَني على «المَعاهد».

وعند ذلك تبدّل الزمان والمكان، فخرجتُ من مَسْك[1] الشيطان ودخلتُ في صورة إنسان، وقد ضَمّني مَبيتي بحُلوان.

(١) المسك: الجلد.

المحادثة العاشرة

قال الهُدهـد جارُ الأَثـر، ونجيُّ الحَجر، يتـطلّبُ فيهما العِبَـر، ويأخُـذ الخَبر عَمَّن غَبَر:

ولمـا أصبحتُ أَعَدْتُ أمسِ في يـومي، كمـا يَفعـل قـومي؛ فبـاشَـرْتُ أشغالاً لا تَنفع، وأخذت بأعمال لا تَرْفع؛ وأكلت كأمسي، وشَرِبْتُ كالبارحة، ولقيتُ الوُجوه المألوفة، وجلست المَجالس المُعتادة، وقرأت جـرائد مَشْحُـونة الصفحات، أَفْكَهُ ما فيها الإعلانات:

إذا أَنْـتَ لـم تَـحْـيَ الـحَـيَـاةَ كَـبِـيـرَةً
ولـم تُبْـقِ ذِكْـراً في الـبَـرِيَّـةِ خَـالِـدا
. . . وعِشْتَ تُعِيدَ الأمْسِ في اليَوْمِ خَامِلاً
فقـد عِشْتَ يـومـاً في الحَقِيقَـةِ واحِـدا

إلى أن سَرى الأَصيل، فتنَّقلت من شاطيء إلى شاطىء، ولَفَظَتْني ضَفَّة إلى ضَفَّـة؛ وكنت أخذتُ من كلمـة النَّسر في صَـرْفِي، وما رَسَم لـه ربُّـه من الـوُقوف بي على الفُسـطاط، والإشـراف بي على مَعـالمهـا، وإِطْـلاَعي على مواكب دولة العَرب فيها، أنَّ بِساط الرُّؤْيَا قد آنطوى فيما يتعلّق بمَنف والدُّول الأُولى، وأَنَّا قادمان على الفُسطاط، مُستقبلان وُجوه العرب، وافدان على هذه الدَّولة التي وَصف الرشيـد ما كانت عليه من آنبساط الـظِّلّ، وآمتداد النفـوذ،

وٱتِّساع المُلْك والسلطان، في قولِهِ لغَمَامة ظلّلتـهُ ولم تُمْـطِر، وكان يـرجو أن يستدفع الحَرَّ بمطرِها: «أَمْطِري حيثُ شِئْتِ فإنْ خَرَاجـك سوف يُجْبَى إليّ».
وفي ضَوء هذا الفَخر سَرَى الإسبـانيـون في أيـام دولتهم، حيث زَعموا الشَّمس لا تَغِيبُ عن أمـلاكهم؛ ثم زالت هذه الكلمـة عنهم إلى الإنكليـز؛ فهي آيـة مُلكهم اليـوم؛ ثم تـرثهـا أُمـة غيـرهم؛ سُنـة الله في خلقـه، يـؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

قـال: فلمّا صِـرْت في «منف» رأيت الدَّهـر قد جعـل عالِيَهـا سـافِلَهـا، وصَيَّرها كبَعض القُرى، ولم يَبْقَ عليها من أنقاض ذلك البُنيـان الباذخ، وبقـايا تلك العِمارة الكُبرى، إلا آثارُها هنا وهنا؛ منها القائم وكـان قاعـداً، والقاعـد وكان قائماً، وبعضها مُشَوَّه في أحسن مَحاسنه، مَنْقُوص من أطرافه، أو مَفْقـود تُفَتِّش عن مكـانـه لا تجـده؛ فقَعـدَت أعجب للدَّهــر كيف طـال على ذلــك الطَّوْل[1]، وعلا فوق تلك العَلياء؛ وأَتَقَصَّى النظر فأرى قُصـور الرومـان مُوحِشَـةً مَهجورة، وكانت بالأمس آهلةً مَعمورة، أخْنَى عليهـا الذي أخنى على منـازل الفـراعنة من قبـل؛ وأَنظر أكـواخ الفلّاحين تَمُـوج بِنِسائهم وصِغـارهم كبيوت النمل، وقد سَكنوا إلى الدولة القائمة كما سَكنوا إلى الدُّولِ من قبلها؛ فأقول في نفسي: هكـذا الحُكَماء وإلاّ فـلا، فلو رُدَّ أميـرُ المؤمنين عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ إلى الحياة، وهو أزهد خلق الله في الـدُّنيا، مـا أَخذ حقيقـة الزُّهـد إلا عن هذه الأُمة.

وبينمـا أنا أَنـظر حولي بعَيْنٍ تَعتبـر، وأُخرَى تَسْتَعْبِـر، إذا صَوتُ النَّسـر يستثيرني إليه، فوافَيْتُه، وكـان عند قـدمي رمسيس، وهو من حَجـر، وعَهِدْتـه بالأمس عند رأسه، وهو بَشَرٌ مُحْتَضَر؛ فٱبتدر خـطابي يقول: مـا بال الهُـدهد يَستعبـر، أيُبْكيه من الأيـام أن تَتَصَرَّف بـالأنام، ورَحَـاها تَـطْحن على الدوام، وسَيْفُها على رِقاب الأقوام في الحَرْب والسَّلام؟

---

(١) الطول: الفضل والغنى واليسرى.

انظر، يا بُنيَّ، إلى الحَسَد كيف حمل الأُمم على الإزراء بالقوم بعد آندثارهم، والعَيْث في دِيارهم[1]، والعَبَث بآثارهم، وهَدْم البقية الباقية من منازلهم؛ فقاتلوا الحَجَر، وحارَبوا الأثر، وسَبَوا التَماثيل والصُّور، ودخلوا على الأموات الحُفَر؛ ولو آستطاعت إحداهن أن تَدَّعي صُنْعاً لبعض هذه الآثار لَفَعلت، ولامتلأت منها فارس، فأَتِينا، فرُوما؛ فقد صَدر عن الرومان أنهم كانوا يَستعيرون رؤوس التماثيل مما تَرك اليونان، لأجسامٍ مما صَنعت أيديهم، وبالعكس؛ ثم يُوهِمون أن الكُلَّ من عَملهم، وهذا عِند ذكر السرقة غاية. أَتى على شَيطاني يا بُنيّ عشرون قرناً يُجاوِر الآثار، ويَنْدب على طلول الديار. وهي نَهَبَ بِيَد البِلَى والدَّمار، فلم أَعهد أن أيدي العاثِين آنْتَفضت منها، وأَكُفَّ المُخَرِّبين آنكفَّت عنها، إلاّ منذ هَبط العربَ أرضَ مِصر.

قلت: إنك لتطري القوم يا مولاي!

قال: وإنهم لأهْلُه يا بُنيَّ، فما حَكَم بين الناس أَعْدَلُ من عُمر، ولا سادهم أَفْضَلُ منه؛ ولئن صَدق أنّ في القول شيئاً من القائل، فَعُمَر هو الإنسان الكامل، حيث يقول: «رأيت جَمِيعُ البر فلم أرَ بِرّاً أفضلَ من الرَّحمة!» والرَّحمة في اعتقادي أعلى مَراتب الأخلاق، وقد جازت بَعْضَ الأنبياء في بَعض الأمر ولم تَجُزْ عُمَرَ في شيءٍ منه.

قلت: إني إذن لَسَعِيد، يا مولاي، أنْ أعلم من أمرهم بالمُشاهدة والعِيان، ما أُضِيفه إلى معرفتي في التاريخ.

قال: لا تزال في إجلالهم ووقَارهم، والاعتناء بأمرهم، والنظر فيما يأتون ويَذَرُون، والسُّكون إلى ظلهم في مصر، حتى يقتلوا عثمان، ويَفْتِك المصريون منهم بالوَقُور في الصحابة، الكريم، في الأَصهار، السَّمْحِ في الخُلفاء، الكبيرِ في الشيوخ؛ فإذا فعلوا ودّعنا أيامهم، ونَبَذْنا جِوَارهم، ووَكَلْناهم إلى السماء تَأْخُذهم بِدَمِه، فَتصُبّ عليهم المَصائب، وتُنزل بهم

(١) العيث: الإفساد.

المِحَن، وتَغْمِسهم في الفِتَن، وتُبَـدِّلُهم من الخلافـة الحَقَّة بـالمُلْك الباطـل، وتَرُدُّهم إلى نعيم الدنيا الزائل.

قلت: لقـد رَضيتُ بما رَضيت لي يـا مولاي، وحَسْبِي أن أعيش يـوماً واحداً في خِلافة عُمر، ووِلاية عمرو.

قـال: الآن نتهيّأ للزيـارة، ونَسْتَعِدُّ للخـروج إلى مَقَرّ الإمـارة، فُسْـطاط الأمن والعِمارة؛ ضالّةِ عَمْرو التي طالما نَشدها، ولم يَأْلُها طَلَباً حتى وجدها.

قلت: أَشْبـه الناس بـه مَسْعَاةً يـا مـولاي في الـزمن الحـاضـر، «اللورد كتشنـر»، حاكم السـودان بالأمس، وسَيف انكلتـره العامـل في جنوب إفـريقيـا اليوم؛ فقد عَلِم الخاصّ والعامّ، عن هـذا الرجـل المِقْدام، أنـه نَظر في أمـر فَتـح السودان، وهـو ضابط ضَئِيـل الشأن، قَلِيـلُ المكان والإمكـان، ليس لـه بِمْثل هذا الأمـر العظيم يَـدَان؛ فجعل يعدُّ له الصبـر، ويَعمل لـه في السر، والأيام في هذه الأثناء تَرْفعه، والسَّعد إلى السَّعد يدفعه، حتى آنتهت إليه إِمْرَة الجيش في مصـر، وآلَتْ إليه السُّلطة العسكـرية في هـذا القُطر، وأَصبـح من رِفعة المَنْصِب بين رجال الاحتـلال، بحيث يُسْمَع صَـوْتُه في قـومه؛ ومن عُلُوِّ الكلمة في الحكومة المصريّة، بحيث لا يُمانَعُ في أمر يُحـاوله؛ فَثَبَت عنـدئذ في نفسـه أَمْر، وتَـدرَّج فيما يُحـاوَل من السِّرّ إلى الجَهـر، وكاشف الحكـومة الإنكليزية بما يُريد من فَتح السودان ونَشْر العَلَم البريطاني في أرجائه، فكانت مَشيئتهـا ما شـاء، كدَأبهـا بإزاء رِجـالها الأُمنـاء؛ وها قـد مضى على السُّودان عامان[1]، يَخْفِق على دُور الحكومة فيه العَلَمان، ويَخْفِق من الحَسْرَة عليه فُؤاد «مرشان»[2].

قال: كذلك زَيَّن عمْرو لِعُمَر فَتْحَ مصر، وكذلك فتحها؛ والتاريخ ـ كما قيل ـ مُكَرَّرُ مُعاد؛ وقد حَـدَّثك رمسيس عن الإقـدام، وذكر لـك فَضله وشَرح

---

(١) يشير إلى استرجاع السودان على يد هربرت كتشنر سنة (١٨٩٩م) وكان محمد علي قد استولى عليه سنة (١٨٢٠م).

(٢) مرشان، هو القائد الفرنسي، في حرب فاشودة التي كانت بين الفرنسيين والإنجليز.

لك مَزاياه، وهذان دليلان قاما عَرَضاً في الحديث على صِدْق قولـه، وصَواب رأيـه، وما كـان «رمسيس» ليعرف الشَّـوْقَ ولا الصَّبابـة، لـولا أنـه كـابـدهمـا وقـاسى، وكان في مُقـدِّمة رجـال الإقدام؛ فـإن أردتم ببَنيكم خَيْراً، وضَعُفت قلوبكم أن تتمـادَوا في الجنايـة عليهم، فَرَبُّـوهم منـذ الصِّغـر على الإقـدام؛ فإنه ـ كما قال رمسيس ـ سعادة الأفراد وحياة الأمم.

قلت: أَوْشك الأصيلُ، يا مولاي، أن يَفِيضَ ذهَبُه؛ فإن أَمَـرْتَ انتقلنا إلى الفُسطاط...

قال: تلك مُقدِّمـة لم يكن لنا عنهـا غِنى؛ والآن لك أن تـطير معي إلى حيث الإسلام يَحْكُم، والأخلاق تَسُود.

قلت: إن أَذِن مولاي بَدَّلنا هذا الزِّي بغيره، لنـأمن نَظر الـرُّماة، وزَجْـرَ الجماعات.

قال: الناس والطير وهذه الحجارة ـ وأومـأ إلى الآثار ـ في كَـلاَءة رَجُلٍ يتَّقـي الله في السمـاء، ويَخاف عُمَـرَ في الأرض؛ فلو نـالنـا أحـدٌ في حِمـاه بظُلامة، لَفَزِعْنا بالشَّكْوى إلى صاحب الإمامة، ولأنشدناه:

جاءت سُليمانَ الزمانِ حَمامة

على أنه لا بأس بتَغْيير الزِّيّ؛ فأيهما تختار: القِبطيّ، أم العربي؟

قلت: الثاني، يا مولاي: لأنه لِبَاسُ الفاتح، وشِعار الحاكم، يُنبىء عن عِـزِّ المُلْك، ويُخْبِر عن سَنـاء الدَّولـة، وقـد خَلَّفْتُ جُنُـودَ «الملك إدوارد» في مِصـرَ يَتَنَحَّى السَّـراة[1] لأحـدهم حتى يَعْبـر ـ كـأنـه في رِدَاء «ولنتـون»، أو مُطْرَف[2] «نابليون» وإن مَسَّت طَرَفَ ثوبه يَـدٌ مَسَّـهـا السيفُ!

قال: هذا ليس شأن عَمْرٍو وأصحـابه في مصـر، فهم المؤمنون: العِـزَّة

---

(١) السراة: علية القوة.

(٢) المطرف: رداء ذو أعلام.

لهم ولمن في ظِلّهم بالسواء؛ وقد كان الرومان قبلهم كمن ذكرت من الإدلال على هذه الأمة، والمَرَح في هذه الأرض، على ما بينهم وبين القِبط من مَوَدَّة في الدِّين ورَحْمة؛ فكان الصليبُ يعلو على الصليب، والناقوس يُخْرِس الناقوس، والكنيسة تُزْرِي بالكنيسة؛ وكان مذهب الرومان في عبارة المسيح هو الدِّين كلُّه، وما سواه فضَرْبٌ من الهَذَيان يُسْخَر من أهله، ويُعْتَدَى على أصحابه؛ وكان الأمير في القِبط يحكم فيه سُوقَةٌ من الرومان، وكانت الحكومة الكبرى في روما عَمياء عن هذا الظلم المبين، صَمّاء عن تظلُّم المصريين، إلى أن قَدِم العرب مصر، وتَمَّ لهم على الرومان النصر، واطمأنّ عمرو بالولاية، وسكن أولئك البؤساء إلى حُكومته السَّمحاء، ودخلوا في الإسلام أفواجاً، يُحَبِّبُه إليهم تَسمُّحُ العرب، وتَحلُّم زعيمهم، واجتماعهم على كلمة الإسلام، وتساويهم فيما جاء به من الأحكام، وكونه بينهم كالحقيقة لا تقبل الانقسام، ولا يُجادل فيها الخاص فكيف العام، وأنّ سِيرةَ العامل وأصحابه فيهم هي أقربُ مما أراد المسيح عليه السلام من الناس: أنَ يَتَساوَسُوا[1]، ويتصافحوا، ويتعاونوا، وأن يكونوا رُحماء بينهم؛ وأبعدُ عما أراد القُسوس بالناس منذ القدم، من شَغب التَّمَذْهب، وفِتنة الانقسام والتفرُّق إزاء الحقيقة الباهرة. العَرَبُ في مصر بضعة آلاف، وفيهم المُقَاتِلة؛ فكيف فَتحوا، ثم كيف أصلحوا، ثم كيف وطَّدوا فيها بُنيانهم، وعَلَّموا أهلها لسانهم؛ ثم كيف استأصلوا الوثنيّة من هذا الوادي، وزحزحوا منه النصرانية، وأَرْسَوا فيه الحنيفيّة؟ كل ذلك في أيامهم الأول، بل في حكومة ابن العاص. إذا أَضَفْتَ إلى ذلك أن الدعوة إلى الإسلام لا تَقُوم على الحَوْل[2] والحِيلة، علمت أن العرب تعلّموا حقيقته ثم عَلّموها الناس؛ فكانوا حيثما استعمروا من الأرض كالمصباح النَّقي، يحمل النُّور البهيّ.

---

(١) أن يتساوسوا: أي يسوسوا أمرهم بينهم.

(٢) الحول: القوة.

وإذا الـدِّيَـانَـةُ لَـمْ يَصُـنْـهَـا أَهْـلُهـا
خَـفِيَـتْ خَـفَـاءَ النُّـورِ بَـعْـدَ ظُهُـورِ

أَخْـفَـاهُ مِـصْـبَـاحُ حَـوَاهُ فـاسِـدُ
فـالـذَّنْـبُ لـلمِـصْـبَـاح لا لـلنُّـورِ

قلت: أرى الحديثَ فَتح بعضُه بعضاً، يا مولاي؛ فماذا آخترت لنا من الزِّيِّ؟

قال: قد آنتدبنا، يا بنيّ، للنظر والاختبار، وآستقراء أحوال العرب في هذه الدار: فما لنا لا نَتَلَبَّس بلباس المحكوم، ونَتَرَدَّى ثياب المُؤتمِر؛ لكي ننظر بعَيْنيه، ونَسمع بأُذنيه؛ فإن كان شَقِيّاً بدولة القوم، تَعِباً بحكومتهم، عرفنا ذلك بالخُبْرِ لا الخَبَر، وشَفعْنا له عند عَمْرٍو أو عُمَر؛ وإن كان ناعماً في ظُلمهم، راضِي العيشة على عَهدهم، أخذنا بِنَصيب من حاله، ووقفنا على حقيقة أمره.

قال الهُدهد:

وبينما نحن في الحديث لم نبرح المكان، هَتف هاتف بالأذان، ودقَّت بالناقوس يدان، فلم أَدْرِ إلا ونحن على الفُسطاط في زِيّ قسِيسين من الأقباط؛ فضَحِكْتُ من نفسي، وعجبت لاختلاف يومي وأمسي، والتفتُّ إلى النَّسر فرأيتُه يبتسم كذلك؛ فتمثَّل بهذا البيت من الشعر، وهو من قصيدة لي في مديح العبّاس:

قـد بَشَّـرَ النَّـاقُـوسُ بـالـمُـسْلِم الـ
ـعـادِلِ مـن قَـبْـلِ بَـشِـيـرِ الأذَانْ

قلتُ: هذا مما حَلَّيت به العبّاس، يا مولاي، فكيف نَزَعته عنه وكسوتَه عَمْراً؟ قال: بِضاعة عَمْرٍو رُدَّت إليه؛ فلا والنَّفسِ والخُلود، ودينِ الآباء والجُدود، ما فُتِح لأبُوَّة العبّاسِ في مصر إلا بِسِرِّ هذه الراية، ولا دَخلوها إلا ليعزُّوا هذه الآية؛ على أن الشُّعَراء كثيراً ما يَمدحون زَيْداً ويعنون عَمْراً؛ وقد

صَدق صاحبُنا من حيث كَذب، في قوله:

وإنْ جَـرَت الألْفَـاظُ يـومـاً بِمـدْحَـةٍ
لِغَيْـرِك إنْسَـانـاً فـأَنْتَ الـذي تَعْنِـي[1]

قلت: إنك لتُزْرِي بأصحابك، يا مولاي!

قال: ما كانوا لي أصحاباً وهم يَنزلون بالشِّعر عن رُتبته، ويَجعلونه حيث لا يرضاه الأدب، لا يَمدحون مُحمَّداً، ولا يهجون مُذَمماً، ولا يَنْظِمون في الطبيعة والتاريخ اللذَين هما أُمّ الشِّعر وأبوه؛ ويَخْلِطون كلمة باقية، وأُخرى فانية؛ هذا صاحبك الذي سَيَّر الأمثال حِكَماً والحِكَم أمثالاً، وجرى في الشعر إلى الغايات، فسبق السابقين وبَزّ القائلين، يقول هذه الحِكمة العالية، ويُرسل هذا المَثَل المُحْكَم:

بِـذا قَضَـتِ الأيّـامُ مـا بَيْـنَ أَهْـلِهَـا
مَصَـائِبُ قَـوْمٍ عِنْـدَ قَـوْمٍ فَـوَائِـدُ[2]

وتراه يقول بعد ذلك:

نَهبْتَ من الأعمار ما لَوْ حَوَيْتَهُ
لَهُنِّئَتِ الدُّنْيا بأنك خالِدُ

وما أحسن هذا الشعر! وما ألطف هذا التصوير، لو لم يتجرّد فيه الشاعر من رِقّة القلب، ورحمة النفس، وكرم الشِّيمة؛ فهو يُبيح مَمْدُوحه دماء العباد، ويُملِّكه أعمارهم، ويُنَوِّه بسفح الدماء وسفكها، ويَتَمَنّى له بعد ذلك الانفراد بالخُلد الذي كرهه أبو العلاء لنفسه حيث قال:

ولـو أنِّـي مُنِـحْتُ الـخُـلْدَ وَحْـدِي
لـمـا آثَـرْتُ فـي الـخُـلْدِ آنْـفِـرَاداً

فهلّا هَجر أبو الطيب الصناعة إلى الرُّوحانية التي هي حقيقة الشعر، ورجاحة الموزون، والمراد من المنظوم؛ والروحانية لا تقوم على مثل هذه

---

(١) الشعر للمتنبي. (٢) الشعر للمتنبي.

الجَفوة والقَسوة والغِلظة، لكن تكون بمثل ما قال في مثل هذا المَقام:

تَـرَفَّـق أيُـهـا الـمَـوْلَـى عَـلَيْـهِـمْ   فـإن الـرِّفْـقَ بـالجَـانـي عِقَـابُ

تأمل، يا بني، هذين البيتين، وآنظر كيف هَدمت الصناعة الأول، ورفعت الرُّوحانيـة الثاني؛ وأقبـح من بيت المتنبي في آستباحـة دم الأفـراد، بيتـه في آستباحةَ جماجم المُلوك:

وجـنَّبـني قُـرْبَ الـسَّــلاطيـنِ مَـقْـتُـهـا
وما يَقْتَضِيني مِن جَمَاجِمها النَّسْـرُ

فمـا قَتَلَة «كـارنـو» و«همبـرنـو» و«أليـزابيث»، و«مكنلي» ومـا آقتضتهم الفَوْضوية من صُدور الملوك والملِكات، وجُنوبهم وأحشائهم، بأشنع ولا أفظع ولا أبغض إلى السمـاوات ومـا أَظْلَلْن، والأرضـين ومـا أَقْلَلْن، مـن نَسْـر صـاحبك؛ وإنِّي لأعجب للفـوضـويين كيف لم يَهتـدوا لهـذا البيت فيتخـذوه شِعارهم، أو يَتَّخِذوا فيه قَرارهم!

قال الهدهد:

ورأيت الناس يَهْرَعون إلى صلاة المغـرب. فنَدِمْتُ على مـا فاتني من المُشاهدة والعيان في هذه الزَّورة الأولى، وقلت للنَّسر: قد كان لنا، يا مولاي غِنًى عن أبي الـطيب وحديثـه، والنظر في طَيِّبـه وخَبيثـه، لا سيمـا وهـذا أوّل أصيل قضيناه على الفُسطاط!

فـأخذ النَّسْـرَ من عِبـارتي الغَضب، وقـال: أُحـدِّثـك عن شعـر العـرب وشاعرهم، ونحن قادمون على دولتهم في آبتدائها بمصر. فتَزْعُم أنني حِـدْتُ عن الغَـرض، وخرَجت من المـوضوع! ومـا الشعر والبيـان إلا عُنـوان الأمم، يُسْتَدَلُّ بهما عليها.

ثم تثاءب النَّسر وقال: موعدنا غداً مَجْلِس عمرو؛ فمـا هي إلا إغماءة، ثم إذا أنا بحُلوان.

المحادثة الحادية عشرة

قال الهدهد: وكان موعدي مع النسر أن نلتقي في مجلس عمرو، فلما كان الأصيل، خرجتُ إلى الفُسطاط، في زيّ قِسِّيس من الأقباط، كما سَبق بذلك الاشتراط؛ فحين بلغت مذينةَ آبن العاص، التي فتحها للإسلام بالرأي قبل الفتح بالسيف، وافيتُ مَقرّ الإمارة؛ وهناك ما كان أسهل الوصول، وأيسَرَ الدُّخول؛ رُفعت الحُجُبُ بين عامل عمرو وبين الزُّمَر[1]؛ واقتدى به وجوهُ العرب في سلوكهم، والناس على دين ملوكهم؛ فاستقبلت مجلساً أَليَقَ بالوُعَّاظ والعلماء، منه بالملوك والأُمراء؛ وقَدِمْت على أميرٍ تاجُه العمامة، ومُطرفه القَبَاء[2]، وصَولجانه السيف، وكُرسيُّه التراب، وحاشيته الأصحاب، وقصره خَيمة ممدودة الأطناب[3] يُحيط به العربُ وكأنه أحدهم، وهو زعيمهم في مصر وسيّدهم، وكان النَّسر بين يديه، قد سبقني إليه، وهو يبالغ للعامل في الخِطاب، ويُلْقِي السؤال ويأخُذ الجواب؛ فسمعتُه يقول له: هذه دنياكم يا آبن العاص لا تغترُّون بها، ولا تَحْفِلُون بحُبّها؛ وإنها لدنيا العُقلاء، وطِلْبَةُ الحكماء[4]؛ فكيف دينكم؟

---

(١): الزمر: الجماعات.

(٢) المطرف: رداء ذو أعلام. والقباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

(٣) الأطناب: جمع طنب، وهو حبل يشد به الخباء.

(٤) الطلبة: المطلوب.

قال: أسهلُ وأيسر وأسْمَح: الشهادة وهي كلمة، والصلاة وهي عِصْمة، والزكاة وهي رَحمة، والحَجْ وهو حكمة؛ وما سوى ذلك فزيادة في العبادة، أو بِدَعٌ تأتي بها الأيام، وأعراض لا يَصْدأ بها جَوهر الإسلام.

قال: نِعْمت الدنيا لو لم تَزُل عن الخلفاء، وتَؤُول إلى الملوك والأمراء؛ وحَبَّذا الدين لو سَلِم من عَبَث الفقهاء، وعَيْث الجهلاء![1].

قال: وما يَمنعك أيها القِسِّيس أن تستقبل هذه الدنيا وتدخل في هذا الدِّين؟

قال: إني أتَّبع دِيناً يقال فيه في جُملة الدُّعاء: «إيزيس لو لم تتوَّحدي لما كانت الأشياء، ولن تَصِل إلى حواشي حِجابك يد الأَحياء!» فالمَعبود إذن واحد، وإن اختلفت الأسماء.

قال: أي الأديان هذا؟

قال: دِين المصريّين القدماء..

قال: عجباً! أفي مصر بقيّة من القوم؟

قال: ليس للظالم دِين، يا ابن العاص، والرومان قوم ظالمون، دخلوا هذه البلاد فأفسدوا فيها، وهدموا ما بنى أصحاب المَسِيح عليه السلام، بزُهدهم وتجرُّدهم وتسمُّحِهم، من بُنيان للنصرانية متين، ورُكن للمسيحية مَكين؛ وغادروا مصر لا تخلو من عاكِف في خاصّة سريرته على دين آبائه وأجداده؛ وأنا من هذا الفريق.

قال: الآن أنهاك عن عِبادة الأصنام، وآمُرك بالدخول في الإسلام؛ فإما أن تقبل، وإما أن تُقتل!

---

(١) العبث: الإفساد.

قال: القتل أحبُّ إليَّ، يا آبن العاص، ولكن لي كلمة أقولها، وأرجو أن تسمع لي . .

قال: هات.

قال: على التمسُّك بالدين قامت دولَتُنا القرون الطوال، ومن شدة التمسُّك به أدركها الزَّوال؛ فذهبت من أجل هِرَر[1] وأمست إحدى العِبَر، ولا أكره أنا أيضاً أن أذهب على الأثر.

قال الهُدهد:

فلم أدر بالأستاذ إلا وقد عاد سيرتَه الأُولى، فإذا هو نَسر يطير بين أَعْيُن القوم، وهم من أَمره في أعظم الدَّهَش؛ فلَحِقْتُ به؛ وما زلنا نَنْفُذ الأُفق حتى هبطنا ناحيةً من الفُسطاط، فتمثَّلنا كما كنّا قِسِّيسين من الأقباط، وهناك التفتَ إليّ، وقال: كيف وجدتني وصاحبك؟ قلت: أَلآنَ لك وجَه الأمر وخاشَنَ آخرَه. قال: بالحق ألان، وبالحق خاشَن؛ لأن مقاومة الوثنيّة فرض على نُصراء العَقل، وحُمَاة الحقيقة، وقد تكفَّل بها الإسلام لسائر المِلَل. قلتُ: قد كان لك غِنى، يا مولاي، عن التكشُّف له، وإطلاعه على حقيقة مُعتقدك. قال: أردت أن أُرِيَك كيف يحفظ القوم دينهم في الكَبيرة والصَّغيرة.

عجباً لكم، معشرَ المصريّين، أنتم أُمة التاريخ وليس لكم فيه كِتاب. هلا تشبَّهتُم بآبائكم الأوّلين؟ فلقد كان الواحد منّا أَحرصَ الناس على حديثٍ بعده، يؤبِّده في حَجَرٍ يُشيِّده؛ وذِكْرٍ مع الزمن يُخَلِّده، في أثرٍ يُنَضِّده[2]؛ وكان أحبُّ الأعمال إلى مُلوكنا وَضْعَ التاريخ، وتَدْوِينَ السِّيَر، لعِلْمهم بأن التاريخ دَلِيلُ الأُمم، ومُرْشِد الشُّعوب؛ وإن قوماً لا يعرفون ماضِيَهم، لا يكون لهم بحاضرهم آعتناء، ولا في آتيهم رَجاء؛ أليس عاراً عظيماً على الشرقيّين، وفيهم اليومُ العالم الذَّكِيّ، والكاتب الأَلْمَعِيَ، ألَّا يَعلموا من سِيرة الأمير عبد

(١) هرر: جمع هرة، وكانت تعبد.
(٢) ينضده: ينسقه.

الرحمن، المتوفَّى بالأمس[1]، غير ما تَنْقُله صحف الغَربيّين ومَجلاَّتهم.

وإني أسْتَـرْعِيـك[2] لقضيّـة لا تفـوت أهـل النـظر، في أحـوال البَشـر، والباحثين في طبائع الاجتماع.

قلت: وما تلك، يا مولاي؟

قال: يَدْهش الناظر المُتأمِّل، والباحث المُدقِّق، لما يرى من التفاوُت البيِّن في الأخلاق، والتبايُن الظاهر في الطِّباع. بينكم، معاشرَ النازلين هذا الوادي في شمال إفريقيا، وبين أُمة البوير[3] سُكَّانَ الجنوب؛ ويَحَار فلا يدري بأيّ الآراء الثلاثة يأخُذ، وإلى أي المذاهب الثلاثة يَرْجِع: أيذهب مع القائلين بفعل البِيئة في الأُمم، وتأثير الإقليم في الشُّعوب، وسُلطان المَقام على المُقيم؛ فيَحْكُم أنّ جارَ اللَّيث أَسَد، وجار العَيْرِ وَتِد[4]؛ أم يُجاري الذاهبين إلى أن آختلاف الطبائع ليس إلا نَتيجة اختلاف الأجناس؛ أم يَعتمد على رأي القائلين بأن العَقل البشريّ، وهو مَركز القِوَى المُدركة في الإنسان، والنَّفس، وهي مَهْبط الفضائل أو الرذائل فيه، ليسا إلا هِبَتَين يَشترك فيهما أصنافُ العباد، وإن تفرّقوا في أطراف البلاد، وإنما يَصِحّ العقلُ بالتعليم الصحيح، وتُقَوَّمُ النفس بالتربية الحقّة. على أنني إلى هذا الرأي الثالث أَمْيَل، وعليه في آعتقادي المُعَوَّل؛ فعليكم بالعِلْم، خذوه نافعاً دافعاً، وآهجروا منه ما يُميت إلى ما يُحيي، وآطْلُبوه لدُنْيا تعملون لها كأنكم تعيشون أبداً، أو لآخرة تَعملون لها كأنكم تموتون غداً؛ وعليكم كذلك بالتَّربية، فإنها بابُ مدينة العِلْم، لا تُدخَل إلا منه؛ خُذوا صحيحها ولا تأخذوا فاسدها، واطلبوها لأنفسكم؛ فإن كَبِرَتْ عنها فلأبنائكم؛ فإن لم تَكْمل لهم كَملت

---

(١) عبد الرحمن، هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، ويلقب بصقر قريش، ويعرف بالداخل، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس، وكانت وفاته سنة (١٧٢هـ - ٨٨١م).

(٢) أسترعيك: ألفتك.

(٣) البوير: سكان الترنسفال. وكانت بينهم وبين الإنجليز حروب.

(٤) العير: الحمار.

لأبنائهم من بعدهم؛ وكونوا الحَفَظة الذين تَكْرُم عليهم بلادهم في الشدة أضعافَ ما تَكْرُم عليهم في الرَّخاء، يبكونها بالدُّموع آونة، وفي القُلوب آونة، ولا يَغْفُلون لها عن حُرْمة، ولا يُقَصِّرون لها في الخِدمة، حَبَّبها لهم العشقُ، لا التفات فيه إلى مَلامة، ولا قيمة معه للسَّلامة.

أعمار الأفراد قِصَار، والأُمم طويلة الأعمار؛ وآمال الواحد الفَرد تَفُوت بموته وآمال الجماعة لا تَفُوت، وإنما هي لهم مثلُ الورق للشَّجر: يُنْزَعُه حيناً ويُكْسَاه حِيناً؛ وما بَنى قومٌ بناءهم في المجد ولا قامتَ سعادة أُمة، إلا على العِلم والتَّربية؛ وهما إنما يَحْصُلان في المدرسة، وليس ما يمنعكم من إنشائها؛ فإذا أنشأها غَنِيُّكم غيرَ مُسْرِف، ودخلها الكَهل بالليل غير مُستنكف، ولزمها الصبيُّ بالنهار غير متكلِّف، وأخذتم العِلم فيها كما يُريد زمانُكم الذي أنتم مخلوقون له أن يُؤْخَذ، فقد آستقبلتم الحياة من وجهها الحق، وأخذتم في التقدُّم العصريّ بالسبب الأوثق.

اللغةُ رأس مال الأُمة في العِلم والعِرفان، والدينُ رأسُ مالها في التربية والأخلاق؛ فاجعلوا المَحلَّ الأول في مدارسكم لهذين، فالثمرات إنما تأتي بقَدْرِهما. الإنسان إذا علم كان إنسانَ العَيْن[1]، وإذا جَهِل كان إنسان الغابة؛ والعِلْم إن لم يتأسَّس بالتربية كان لحامله مِحْنة، وللناس فِتنة؛ فاجمعوا بينهما في الدار، ثم في المدرسة، ثم في الحياة؛ تلك المدارس الثلاث الكُبَر؛ فأما الدار فالأستاذ فيها المرأة، وأما المدرسة فالمُعلِّم فيها الرجل، وأما الحياة فالمُربِّي فيها الزمن؛ فابْدأُوا بالنساء فَعلِّموهنّ في الصِّغر، يُعَلِّمنكم في الكِبَر؛ ورَبُّوهنّ في الطفولة. يُربينكم في الكُهولة، ولا تُنْشِئوا مدرسة واحدة للرجال، إلا وقد أنشأتم مدرستين اثنتين للنساء.

إذا اشتغل الحَلِيمُ بالسفيه شارف على السَّفاهة، وإذا اشتغل العالم بالجهول شارف على الجهالة؛ وأكثر ما ينتشر السُّفهاء والجُهلاء، وأشدّ ما

---

(١) إنسان العين: ناظرها.

يكون إفسادهم وإيذاؤهم، في الأُمم، وهي في بداية نَهضتها؛ فَمَثَلُها عندئذ كالأنهار الكبيرة في أَزمنة الفيضان: تَسُوق الأقذار فتُساق بتيّارها، ويختلط الخَبيث بالطَّيِّب، ثم لا تَلبث أن تَلْفِظَ الفاسد، وتَسْتبقي الصالح، فيَنْصلُح الماء، وتَفيض الخيرات على البلاد والعباد؛ فلا يُثْبِطَنَّ لِئامُكم كِرَامَكم، ولا تُلْقُوا للصِّغار مِمَّا يُحدثون بالاً، وآعملوا كُلٌّ بما تعلّم من علم أو صناعة، وأَتقنوا العمل، فإن إتقانه يُلْقِي عليه اليُمن والبركة، ويُولِّد بين العاملين المنافسة والمسابقة والمزاحمة، وعلى هذا تقوم حياة الأُمم، كما تقوم حياة الأفراد على دورة الدم، ليس بين دَبِيب الحياة في الأُمة وبين ظهورها كاملة الأدوات، تامّة الصفات، إلاّ مَثل ما يَخْفِق فؤاد الجَنين لأول وَهلة، ثم تُمْسِك الحياة فيه بعضُها بعضاً ويُنَمِّي بعضها بعضاً؛ فلا تزال به حتى تخرجه إلى الوجود فيؤدِّي فيه وظيفته؛ ويَستوفي فيه بُرْهته؛ ولا أجد مثلاً لما أَصِف إلا أُمَّة اليابان، وإنها لدليلُ حاضر، وشاهد مُعاصِر؛ على أن الحياة ربما كانت أسرع جَرْياً بالأُمم منها بالأفراد؛ فقد جاوز اليابانيون أطوارَها الأُول إلى هذا الشَّباب المرجوّ المُخايل، المبشِّر بأبرك أعمار في المدنية والحضارة، في نحو رُبع قرن من الزمن؛ وهي برهة قد لا تكفي الواحد من الأفراد ليبلغ في الصِّبا أملاً، أو يُحسن في الحياة عملاً...

قال الهُدهد:

كان النسر يتكلّم وكأنّ كلامه حديثُ الجَيبة، تأخذه الآذان، وهو يأخذ الوجدان؛ بَيْدَ أنه حِكَم غُرَر، وحقائق كُبْر، تستوجب النَّظَر؛ حتى أَمسك عن الكلام فوددت أنه لم يُمسك، وقلت له: لو خُيِّرتُ، يا مولاي، فيما أريد ما اخترتُ إلا أن يَبعثك الله فتمشي في القوم خَطيباً هادياً، وطبيباً مُداوياً، تتبع أقصى الداء، وتَصِف عزيز الدواء.

قال: ليكوننَّ لي ولكم شأن يومَ تجمعنا القاهرة.

قلت: ومتى تدخلها، يا مولاي؟

قال: يوم يُقتل عثمان[1]، ويَصِير أمرُ العرب من الخلافة إلى المُلْك: فهناك أنْفُض يدي من دولتهم، وأَصْدُر بك عن الفُسطاط وأرِد القاهرة، عاصمةَ مصر الحاضرة.

ثم أَخذت النَّسرُ الإغماءةُ المُعتادة، فتثاءب وقال كلمته المألوفة: إذا جاء الليل ذَهبت الشياطين، ومَوعدنا غداً دار العجوز.

وأصابني مثل ما أصابه؛ فما هي إلا غَمضة عَيْن ثم انتباهة، حتى رأيت الفُسطاط أطلالها، وحاذيت في القطارِ تِلاَلها؛ فعجبت للحال وتَحوُّلها، والرُّوح، وتنقُّلها؛ وأخذت في نفسي على النَّسر هذا الرُّجوع إلى الخَلْط في المواعيد، وإتعابي بدار العجوز، أَنْشُدها ولا أَنشدها:

أهلاً بدارٍ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا[2]

(١) عثمان: يعني عثمان بن عفان الخليفة الثالث، وقد مات مقتولاً.
(٢) الأغيد: الناعم المتثنى.

المحادثة الثانية عشرة

قال الهُدهد:

خرجتُ في أَصِيل الغد إلى الفُسطاط، في الحُلَّة التي قضاها الشيخُ لي وآختارها، وأنا لا أعرف العَجوز ولا دارها، ولا أدري كيف أُمْلِك مَـزَارها، أو أجـد من يُحدِّثني أخبـارها؛ وأنْكِـر على الأستاذ هـذه التَّعْمِيَة، وأَعْـذُلـه على آختيـاره النَّعْت على التَّسمية؛ فجعلت أمشي قَلِقـاً في هذا البلد، غـريبـاً في ثيابي، تزدحم شِفَاهُ العامة على يدي بالتَّقْبيل، ويَتَنَحَّى الخواصُّ حيث أسِير، وأنا أَغْبِط في نفسي رُؤساء الـديانـات بهذه المكـانة في النُّفـوس، وأَحْسُدهم على هـذه المنزلـة في القلوب، وأَنظر سلطان الـرَّغبـة كيف يَعْلُو على سلطان الرَّهبة، وأرى المُلْكَ الكبير لمالـك السَّريـرة لا السَّريـر؛ وقد راقني وأدهشني أني لم أرَ عـربيّاً ظهـر لقومـه، أو للمُسلمين من أهل البلد، في مـظهـر رئيس رُوحيّ، أو مُسيـطر دينيّ، وفي الفُسطاط كثيـر من صحابـة النبيّ الـذين يُتَعلَّم الدينُ في بدايته منهم، وتُؤخذ أُصوله على حقيقتها عنهم؛ بل وجدتهم كسائـر العـرب في مصـر: جُنـود الخـلافـة، وأنصـار الإمـامـة، وأعـوان الحُكـومـة الإسلاميّة، يُعِزُّون الإسلام آونةً بالجهـاد، وآونة بحُسن السِّيـرة في العباد، لا يلتمسون الكرامة، في تَكبير العمامة؛ ولا يُوسَم أحدُهم بولاية، وهم مصابيح الهـداية، وعلى عهـدهم ظهرت الآيـة؛ دائبُون في خـدمة الـدين لا يَـأْلُـونهـا

صَبْراً، يغتربون من أجله، ويقاطعون الدنيا في وَصْله، ويُعلِّقون بعض الأيادي، وكرائم الصنائع، في أعناق الأمم ممن يأتي بعدهم؛ قَدَم في الشام، وأخرى في العِراق، ولِوَاء في سماء النيل خفاق، ويَدٌ لها بالأمر في الرُّوم انطلاق، وحكومة تَنتظم سائر الآفاق؛ وهكذا العلماء لا يُغْنِي عنهم عِلْمهم، ولا تَثْبُت لهم هذه الصفة العالية في نظر الجماعة، حتى يجمعوا بين المَدارك والهِمم، وتنقاد بأَزِمّتهم الحياة العمليّة في الأُمم، يُرْشدون الناس بالعلم مرّة وبالعمل مِراراً، ويعرفونهم كيف تُطلب الدنيا بالعقل، وتُركب الحياة إلى المَحْيَا السَّهْل، وتَتْزوّد النفوس من المجد والفضل.

للعِلْم أهلٌ ليس يَأْلُونَهُ	أَخْذاً ورَدّاً في شُؤون العِبَادْ
لهمْ مُرَادٌ لا يَنالونُه	حتى يَنالوا غَايَتي الاجتهادْ
العِلْمُ في أنواعه كُلِّها	والعَمَل المَوْصول فيما أفادْ
في خُلفاء الله من قَبْلُ ما	يُنْبِيكَ أنّ العِلْمَ للخَلْق هادْ
كانت تَفِيضُ الأرضُ من عِلْمهم	في الحُكمأو في الوَعْظأو في الجِهَادْ

فما باله أصبح يَحْمِله، من لا يَبْذُله؛ وصار يَدَّعيه، من ليس يَعيه؛ وما للمُسليمن مختلفين فيه: فريقٌ يرى النافع الرافع منه ما كان مَقصوراً على الشَّريعة، مُنْحَصِراً في فِقهها؛ مَرْدُوداً إلى المذاهب الأربعة فيها؛ وٱلتَّقِيُّ النَّقِيُّ من هذه الفئة مَن عادَى لُغات الغربيِّين، وهي التي يُنْهَى بها فينا معاشَرَ الشرقيين ويُؤْمَر، وٱحتقر علومَهم وفُنونَهم، وهي التي نُفاضِل بها فَنَفْضُل، ونُقاوم بها فنخذل، وتَقتلنا كل يوم بلا قِتال؛ وفريق يَهْجُرون علوم الدين وآداب اللغة العربية إلى لغات لم تَجْر بها ألفاظ آبائهم، وآدابٍ لم تَقُمْ عليها حياة أجدادهم، ولم تُؤْلَف بعدُ في بلادهم؛ وإنّ أمةً لا تجتمع على لُغة، ولا ترجع إلى جامعة من الآداب القوميّة، ولا رابطة من الأخلاق المِلّيَة، ليست على شيء من الحياة، وإن جُمعت فيها معاني الفضائل:

أرى جَوَامِعَ الشُّعوبِ أرْبعَا	أَمْرُهُمُ بدونها لن يُجْمَعَا
الدِّينَ في آدابه مُتَّبَعا	والجِنْسَ لا حَتماً ولا مُضَيَّعا

ءالـعِلْم يَـهْـدِيـك إلى مـا نَـفَعَـا ولُـغَـةً يَـفْـهـمـهـا مـن سَـمِـعَـا

تكون في الغِالب والعِلم مَعَا

قال الهُدهد:

ومـا زلتُ في تَنقُّـل وآستقـراء، وتجـوُّل وآستجـلاء، ومَشْيٍ على قَلَق وعَناء، حتى أعْيَيت بضالّتي طلباً وسَعْياً، فصِحْتُ؛ لانشَدْتُ تلك العجوز ولـو أنهـا الدنيـا. وهناك مَـرَّت يدٌ على كتفي، فـالتفتُّ فرأيت النَّـسـر يَعْتذر عُـذْرَ البريء، وسمعتُه يقـول: نعم هي الدنيـا وأنت في الطَّلب، وستـراها وتسمـع حديثها من كَثب. فقضيتُ من مقالته العَجب، وقلت: إذاً أغفر لك إبـطاءك، ولا أَسْتنكرك آستهزاءك؛ ومن لي أن أجتمـع بفاتنـة الأَنام، التي مـا رُئيت إلا في الأوهام، ولا تمثَّلت إلا في الأحلام؟

قال: وهذه دارُها. وأشار إلى خَرِبة على الطريق من بقايا الرُّومان.

قلت: ومـا يُلْجِئهـا إلى هـذا الانعـزال والاستتـار، ولو شـاءت لسكنت الأسماع والأبصار؟

قـال: ليس لها إلا مـا تَسْتَرِدّ، وشِيمَتُهـا أن تسترد النِّعم، حتى تُحَـوِّلها إلى نِقَم، تُعطي القصورَ عالية، وتأخذها أطلالاً بالية.

قلت: ونحن نتقدَّم إليها؛ الآن، يا مولاي؟

قال: أُدخل عليها هذا الأثر، وأنا على الأثـر؛ وَتَدلَّل عليها في الخطاب، ولا تَخشها أنها في سجن ابن الخطّاب.

قال الهُدهد:

فتقدّمت وَحدي حتى جئتُ باباً صغيراً، فلم أَطْرُقه بل عالجتُه، فـآنفتح من نفسه، فإذا أنـا لدى عجـوز أكل الـدهرُ لحمهـا، وأَدَقَّ عَظْمهـا[1]، وجَمع

(١) أدق عظمها: صيره دقيقاً.

كالقوس جِسْمها، وشَيَّب كُلَّ شَعرة في بدنهـا، حتى شَعَرات في أُذنهـا، وهي تَنُوء بسلاسل الحديد، وتَرْزَح في أسْرٍ شَديد، فضحكتُ من منظرها، وبادأتها بالخطاب، فقلت: أيتهـا الأَمة المُضـطهدة، والعجـوز المُقَيَّدة، كيف حـالك وعُمَر؟ لقد آنتقم منك للزُّمَر، ونَهى عليك بعد النبي وأَمَر؛ لئن حَبَسك فطالما حَبَسْت رزقَ الـرجل الفـاضل، وقَيَّـدتِ نفس الحُرّ العـاقل، ومَلَّكْتِ النـاقص رِزْقَ الكامل.

فاستضحكت العَجوز ثم قالت: من هذا الذي شَمِت بجَدَّة الناس، وأُم الكُل في الأجناس، إلا آثنين: آبن الخطّاب صاحب هذا الأمر[1]، وآبن عبـد العزيز[2] عَذَر بني أُمية لو قام لهم عُذْر؟

قلت: ولا ناسٌ إلاّ من ذَكرْتِ، ولا أناسِيّ إلا من سَمَّيت!

قـالت: لا يَغُرَّنك، أيها الفتى، أن الذُّلَّ شِعاري، وأني عـاجزة عن فَـكِّ إسـاري؛ فوالـذي سَلَّطني على عبـاده لِيَبْلُوَهم أيّهم أصـدق عـزمـاً، وأجمـل صبراً، وأقصد إليه سِرّاً وجَهراً، ما ملك عُمـر إلا الظواهـر، ولِي التَّسلُّطُ على السـرائـر، والسَّيـطرة على الضمـائـر؛ وليس هـذا الـذي تَـرى في مُلك آبن الخطـاب من زُهْدٍ فيّ، وتَجنٍّ عليّ، وإسـاءة إليّ، إلاّ غايـة وتَنْقَضي، وحال من أُكرِه لا مَن رَضِي؛ عُمَّال في مُداراة الخليفة، يُوجسون منه خيفة؛ ورجال يَلبَسـونَ لكل دولـة لَبُوسها، يـأخذون نَعِيمهـا ويذرون بُوسَهـا؛ زهَّاد في دولـة الزاهد، شياطين في زمان الفاسد.

وبينمـا نحن في الكـلام، دخـل النَّسـر فـوقف بين المهـابـة للعَجـوز والإكبـار؛ ثم خاطبهـا فقال: أيتهـا الحـاكمـة في البشـر، مَن غَبَـر منهم ومن حَضر، والآتي منهم والمُنتظر، ما لقيت من عُمَرَ في ظُلمات هذا الأسر؟

---

(١) ابن الخطاب، هو عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء، وكان معروفاً بالزهد والعدل.
(٢) ابن عبـد العزيـز: هو عمـر بن عبد العـزيز، خليفـة أموي، وكـان يقـال لـه خـامس الخلفـاء الراشدين، تشبيهاً له بهم في الصلاح والعدل.

قالت: أَضْيَق الأمر، وأعظم الأَسر؛ لكنها حال تَحُول، ونازلة عمّا قريبٍ تَزول؛ ثم أَفْتِك في هذه الأمة فتكاً، وأُصَيِّر هذا الأمر مُلكاً، تَقتتل عليه القبائل، وتتلاعن من أجله البُطون، وتتفانى في طلبه الشُّعوب؛ ولا أزال كذلك حتى أشقى مرةً أخرى في زمن آبن عبد العزيز، ثم يخلو لي الجوُّ إلى الأبد، وأحكم في المُسلمين على الأَمد.

قال: بحقِّ عُمَرَ عليك إلا ما وصفت لي الأربعة الخلفاء.

قالت: أما أبو بكر فأخذني كما تُؤخذ الإماء، وخرج مني خروج الأنبياء، ضرب على يَدَيَّ أن أفسد هذا الأمر حين الفُرصة سانحة، والصَّفقة رابحة، والأُمة جامحة إلى الفتنة جانحة. وأما هذا الذي أُعَذَّب في أسره، وأبلو المُرَّ مِن مُعاملته، فأشدهم إعراضاً عنِّي، وأكثرهم فِراراً مني، لم يرضَني أَمَة تُشْرَى، ولا قَبِل بي طريقاً إلى الأُخرى، ولا يزال حتى يخرج مني خُروج الأنبياء. وأما آبن عفَّان فأتقرّب إليه بقرابته، وأُمَهِّد للفتنة تمهيداً في خلافته؛ ولا أزال به أُتنازعه أنا ودِينه حتى أزول عنه إلى عليّ، أَزْهَدِ الناس فيّ؛ وأكثرهم إساءة إليّ، يَفْضحني في كَلِمه، ويُقبِّحني في حِكَمه، ولا يرضى بي لنفسه قِسْماً، ولا للغير غُنْماً، يُنافس فيّ معاوية، ونفسه عنِّي راغبة سالية؛ ولا يزال يجعل هَمَّه في جمع أمر الأُمة، وحِفظ أمرة المُسلمين في بَيت النبوة، وأنا أروغ بالنفوس منه، وأحِيد بالقلوب عنه، حتى يَخْرج مني وليس في يده مني هَباء، كما خرج من قَبْلُ الأنبياء.

قال النَّسر: فكيف أنت بمعاوية؟

قالت:

فَطِن داهية، مُختلف في السِّر والعلانية، لا يزال يهجرني إلى الدين، ويهجر الدين إليّ، وهو في خاصّة نفسه أحرصُ الناس عليّ، يَتَّسع من نعيمي لنفسه، ولذُرِّيته من بعده، ويَتخذ الآخرة طريقاً إليّ، وكنت طريقَ السَّلف إليها، حتى أجتمع له ولآله وأعوانه، ثم أزول عنه، وقد آسْتَرقَّني لبني

أمية، يُصيبون بي خيراً كثيراً. ويتوارثونني مُلْكاً في الأرض كبيراً.

قال: وأنت ظِلُّ الملك حيث كان كُنْتِ، وأين سَكن سَكنتِ.

قالت: أنا الملك والملك أنا، وما نَهض به في الأرض من آذاني بشامل عَدْله، وساءني بحُسن سِيرته، إلا زُلْتُ عنه على عَهده،أو قاطعت ذُرِّيته من بعده؛ وهذا هو السر في كون المُلوك الصالحين العادلين في التاريخ لم تَسْتقم لأكثرهم الحال في أواخر حُكمهم،ولم يَقُم من عَقِبهم مَن أحسن السلوك، أو سار سيرة تَلِيق بالملوك.

قال الهُدهد:

ثم التفت النَّسر إليّ وقال:دونك، أيها الهدهد،هذه الصحيفة الناطقة، وهذا التاريخَ المتكلِّم؛ فسل ما شئت، وآستفسر عما شِئت، من فائدة تَسْتَجْلِبها، أو حِكْمة تأخذها.

فاستقبلتُ العجوز وأنا أعجب من حَفاوة الأستاذ بها، وأستغرب منه هذه المُبالغة في خطابها، ثم قلت: صفحاً، أيتها الدنيا،عن هَفْوتي، وانسَيْ لي جَفْوتي؛ وخَبِّريني أي الناس أحبّ إليك وأيّهم أبغض عليك؟

قالت: أحبُّ الناس إليّ أبغضُهم إلى الله، وأبغض الناس إليّ أحبهم إلى الله!

قلت: ومن أبغضُهم إلى الله ومن أحبُّهم إليه؟

قالت: أبغضهم إلى الله العالِم المفتون، وذو الصُّنع المَمْنُون، ومُؤْتَمن يخون؛ وأحبُّهم إليه العامل عن عِلم، المتواضع في رِفعة، العافي على مَقدرة، الذاكر الموت المُستعد له؛ فهذا الذي يُرْجَى لعظيم الأعمال في الدنيا، ولصالحها في الآخرة.

قلت: عِظيني، أيتها العَجوز.

قالت: خُلِقْتُ أُضِلّ ولا أَدُلُ، وأُفْسِد ولا أُرْشِد؛ وما مَثَلي إلا كالنار

تَهْدِي الناظرَ من بُعد إليها، وتحرق المُتهافت عليها.

قلت: أيّ الأُمم بك أعلم، وأيّ الحكماء في وَصفك أحكم؟

قالت: الأُمة التي جاء في كتابها المُنَزَّل بلسانها في جُملةَ وَصْفي «إنما الحياة الدنيا لَعِب ولهو» والتي يقول فيَّ شاعرُها:

وما النَّاسُ إلاّ هَالِكٌ وابنُ هالِكٍ
وذو نَسَبٍ في الهالِكينَ عَرِيقِ
إذا آمْتَحَنَ الدُّنيا لَبيبٌ تَكَشَّفَت
لَه عن عَدُوٍّ في ثِيابِ صَدِيقِ[1]

قلت: عَرِّفيني بعض صفاتك، وصِفي لي شيئاً من آفاتك.

قالت: أنا المانحة المانعة، الواصلة القاطعة؛ أُقْبِل لا شاملة ولا كاملة، وأُدْبِر لا مُنذرة ولا مُعذِرة؛ صَفْوِي عند كَدَرِي، وكَدَري عند صَفْوِي؛ أُونِس المَلِك فيَشْقَى، وأُمَنِّي السُّوقة فترضى، وآتِي الآمن المطمئنّ من حيث لا يَتَّقي، وأُصيب اللاهي الناعم فيما يُؤْنسه في خاصّة نفسه، لا ما يُظهر للناس من أُنْسِه؛ أَلسنة الناس في سَبِّي، وقلوبهم مملوءة من حُبِّي، يُغَالط بعضهم فيَّ بَعْضاً، وما أَضْمر أحدُكم لي كراهة ولا بَغضاء؛ مَن زُلْت عنه آستعاد، ومن آتَّسع منِّي استزاد، ولا حَيَّ إلا له فيّ مُراد؛ العاقل مَن أخذني أَخْذاً، أو نَبذني نَبذاً، ولم يَقِف في طلبي بين التقنُّع والجهاد؛ فمن أخذني فبالمُراد الغزير، والجهاد الكثير؛ ومن نبذني فبالاعتقاد المُستقرّ، والسُّلوان المُستمرّ، لا يرغب مع الآخرة في ثمين؛ ولا يُؤْثِر عليها المال والبنين، ومتى كان ذلك فله لا للمُتنبِّي أن يقول:

كذا أنا يا دُنْيَا إذا شِئْتِ فاذْهَبي
ويا نَفْسُ زِيدِي في كَرائهها قُدْماً

قال الهدهد:

---

(١) الشعر لأبي نواس.

وكنت أُصوِّب النظر في العجوز وأُصعِّده، فأراها تَلبس حالاً عن حال، وتَصير من غايات القُبح إلى نهاية الجمال؛ ثم نَهضت من السَّلاسل والأغلال، وتمثَّلت لي وللنَّسر غادةً كالمِثال؛ فلما رآها الأستاذ دَقَّ يداً على يد، وقال: قُضِي الأمر، وقُتِلَ عُمَر، وآستقبل العرب الدنيا وآقتتلوا على المُلْك، وجاءتهم الفِتنة من كُل مكان. قالت: كذلك هم مُذ الآن، ولا أزال حتى أَجمعهم على سَبِّ بَيْتٍ منه خرَجوا، وفي ظله دبُّوا ودَرَجُوا، وبه ظهر عِزُّهم، وعليه بُنِي مُلْكهم؛ ثم لا أزال حتى يَحكم فيهم من يَزْرِي بالقرآن، ثم لا أزال حتى يَغلبهم الهمل من العجم على أمرهم، ويَسْلُبوهم ما بأيديهم؛ ثم لا أزال حتى يتفرَّقوا في البلاد، ثم لا أزال حتى يُمْسُوا كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ويبقى قرآنهم ولسانُهم خالدَيْن على الأمد، مَنْشُورَيْن إلى الأبد.

قال الهُدهد:

ثم آنطلقتُ الدنيا من أَسرها، وتركتنا نَقضي العَجَب من أمرها؛ فالتفت النَّسرُ إليَّ وقال: لا خَيْرَ في هذا الأمر بعد عُمَر، ولا مُقام لنا في مُلْك هذا الذي يموت عن عَبيد وإماء، وضِياع وثَراء، وأثاث وكِساء، بعدما ظلمَ أبا الزَّهراء، وآثر على الخَلِيفة الخُلفاء، وأراق ما شاء من دماء، ثم ألقى المعذرة والدُنيا مُدْبرة، وطلب المَغفرة حال الغَرْغرة.

قلت: ومن تعني، يا مولاي؟

قال: آبن العاص.

قلت: ذاك الذي أبلى بالأمس في الجهاد، وجلس للحُكم بين الناس مَجلس الزهّاد.

قال: كانت نفسه إلى الدنيا مَغلولة إلى حين، ثم فُكَّت بموت أمير المؤمنين[1].

---

(١) يشير إلى الصراع بين معاوية وعلي على الخلافة، وما كان من أمر الحكمين: أبي موسى الأشعري، عن علي، وعمرو بن العاص، عن معاوية، وما كان من خداع الثاني للأول، وإثبات الحق لمعاوية لا لعلي.

وتثاءب النَّسر عند ذلك، فخَشِيتُ أن تكون هذه النومة الكُبْرَى، وأن لا أراه مـرةً أخرى؛ فسـألته عن المُلتقى، فقـال: بمصر بين الجـزيرة والجِسْـر، فسُـرِرْتُ بالمـوعد، وبَشَّـرت نفسي بآصـال مُستعادة، أقْضِيهـا مـع النسـر في آستقراء واستفادة.

المحادثة الثالثة عشرة

قال الهُدهد:

لما كان الغد، خرجتُ إلى الموعد ألاقي النَّسر في مصر، بين الجـزيرة والجِسر؛ وأنا مَسرور بلقائـه في وطني، والاجتماع بـه بين قومي؛ لعلّه ينفعني بالتنبيه والإرشـاد، ويُفيدني المـلاحظة والانتقـاد، فيما خَفي عليَّ من خـلائق الـرجـال، ومـا غـاب عنّي من حقـائق الأَحـوال؛ لأن الغـريب حَـرِيصٌ على الصغيرة والكبيرة، يرى من كُل بلد يَحُلُّه، ما لا يـراه أهله، كالتمساح لا يُبصر في المـاء، وهو مـوطنه الـذي يعيش فيه، فـإذا خرج منـه كان أحـدَّ الحيـوان لِحَاظاً؛ فكيف به مِثْل الأستاذ واسعَ العلم والدراية، متقادم العهد على صُحبة الزمان وأهله؛ فبلغتُ النهر، وكان الأصيل على سمائه ذهباً، والرِّيح على مائه لَعِباً، والمَنظر على فضـائه عَجبـاً؛ وكان النـاس يخرجـون إليه مـوكباً مـوكباً، تجري بهم المَركبات من كل طِراز وشَكل، فمن (بسكليت) كبساط الريـح لا تَـراها، وتنـظر مَن أجراهـا؛ تَمْرُق كـالسهم مُروقـاً، وتَخْفِق كالـرِّيح خُفـوقاً، وتَنسـاب فـوق طـريق النـاس، فتصـوِّت كـالأفـاعي ذات الأجـراس؛ ومن (أتوموبيل) كجِنِّيّ عَنيف، ذي هُبوب وعَزِيف، صوتُهـا أَنْكَرُ الأصـوات، وفيها جُمِعت المُزْعِجات، وراكبها لا في الأحياء ولا الأموات؛ ومن (تراموای) تَنْقُل الأقوام من شاطىء النهر إلى الأهرام، وهي تمضي بصاحبها ثم تمضي عليه،

بخلاف الأيام فيما ذهب الشاعر إليه:

مـا أسْـرَعَ الأيـامَ فـي طَـيِّـنـا تَـمْضِـي علينـا ثم تَـمْـضِـي بِنَـا

ومن مَرْكَبات تنقاد بأعِنة الجِياد، منها ما لا تَسمع لها حِسّـاً ولا جَرْسـاً، كأنما يَهْمِس في أذن الأرض هَمْساً؛ وبعضها كالدَّارِ طبقات، تتبوَّأ مقاعـدها فيه الجماعات؛ وبعضها قليـل الحَجم يَجُرّه فَـرْد ويركب فيـه فَرد؛ وبـالجملة وجـدت مَنَازِهَ الجـزيرة والجيـزة، حافِلة بصُنـوف المُحْدَثـات، جامعـة لأنواع المخترعات، كأنها غـاب «بولـونيا» الشهيـر في باريس، لـولا أن القوم عليهـا كَشْكُـول[1] مِلَل ونِحَـل وأجنـاس وأزيـاء وألـوان، وقـد ذهبت أيـام الحَمِيـر، وتَصـرَّمت دولة البغـال، فنسي الشيخ في مَـركبته ذِكْـر بغلتـه، وكـانت مَجْلَى زينته، في ذهابه وجِيئَته؛ وهَجر السيد الحمار، إلى (الدُّوكار)، وبَرز الكبـراء للنـاس في (الأتومـوبيل)، وكـانوا يَنْكمشـون وقاراً في (الكـوبَيـل)[3]، وأَلهت (البسكليت) الخَصِيّ، عن جَوَاده العربيّ، وسَرجه الفِضّي وكـانا زينته بـالغداة والعَشِيّ، وركبت السيـدات في مكشـوف المَـركبـات، تجـري بهن بين أَعْيُن الجماعات، وكُنّ في مثل هذه الأحوال لا يَمِلْنَ حيث يَمِيلُ الـرجال؛ عـادات بُـدِّلت، وأحوال تحـوَّلت، وآيـة للغـرب في الشرق عَلَت، وألقـابُ حضارة ومدنيّة، لا شرقية ولا غربية.

قـال: فلما صِـرْتُ على الجزيـرة، تقصَّيت النظر أَنْشُـد النَّسـر عليهـا، فرأيت من بُعدٍ درويشـاً قد خـلا بنفسه في نـاحية، وهـو يستقبل النِّيـل ويُديم النظر إليه. فوجدتُ ريـح النَّسر لأول وَهلة، وتقـدَّمت إليه فقلت: سَعِـد النيلُ بشاعره في الـزمان الأول، يا مولاي. قـال: وسَعِدنا به، يـا بُنَـيّ، إنه سَمَـوأل الأنهـار[4]، الوافي على الأدهـار، الجاري بـالليل والنهـار؛ عُبِد قـديماً وأُلِّـه،

(١) الكشكول: الكراسة الكبيرة لمختلف الأغراض.

(٢) الدوكار: عربة تتسع لواحد أو اثنين، يجرها حصان، وكانت مركب الأعيان.

(٣) الكوبيل: عربة مغلقة يجرها حصانان، وكانت أكثر ما تكون للسيدات المحجبات.

(٤) السموأل: هـو ابن غريض، شـاعر جـاهلي حكيم، وقصة وفـائه مـع آمـرىء القيس مضـرب الأمثال.

وقُدِّس وجهَ الدهر ونُزِّه، وآوى النبيِّين في المهد صبِيَّيَن، فجرى التابوت فيه بموسى، وبلغ الفِطامَ لديه عيسى؛ ولا يعلم إلا مُجرِيه كيف آنفجر، ثم جَرى وآنحدر، ثم كفلته الشمسُ والمطر، وكم قَرْيَةٍ عَمَّر، وأخرى دَمَّر، وهيكلٍ نَشَر، وديانةٍ قَبَر؛ وكم أفنى من زُمَر، ممن نَهى وأَمر، وتكهَّن وسَحر، وفَتح وآنتصر؛ ألا وإنه المَنهل العَذْب، اقتتل عليه القاهرون فوق البَشر، فانتهى إليه قَمبيز بغاراته[1]. فالإسكندر بفتوحاته[2]، فقيصر بانتصاراته[3]، فابن الخطاب بغزواته[4]، فَسليم بحَملته[5]، فنابليون بتَجْريدته[6]؛ هذا يابُنيّ، حظّه من التاريخ، لا يُنافسه فيه نهر، ولا يُزاحمه عليه بَحر؛ على أن حظه من الطبيعة أوفر، وقِسْطه من نَعمائها أكبر، شمس تُزْهِر. وأُفق أنضر، ووادٍ أخضر؛ وجَوّ لا يَسْتَعِر ولا يَخصر[7]، ونسيم يَخْطِر، ومطر يَنْدُر، ورِزق بأيسر السعي يَحْضُر، وسَهل صعب على العدوّ، ولُجّة تَستعصي عليه، على ما بها من هُدوّ، لو وَجد من يَمنعه من الدُّنوّ، وفوق هذا وذاك هو القائم على هذا الناس بالأقوات، إذا فاض أَحْيَا، وإذا غاض أمات؛ ولا يزال يأخذ من البحر للبرّ[8] البَرّ للبَحر، فتتسع مصر بفضله من سهل وواد، وقُرَى وبلاد.

قال الهدهد:

فشَفتني هذه الكلمة في النيل ووَدِدْتُ لو لم يَختصر النَّسر من هذا البحث الجليل، وإن يك أتى بالكَثير في القليل؛ وكان قد التفت فرأى المراكب تَمُوج، على تلك المُروج؛ فسألني؛ لعلّ هذه مصر القديمة، ونحن على «نقراطيس».

---

(١) قمبيز: ملك فارس، وقد دخل مصر غازياً.

(٢) الإسكندر: هو الإسكندر المقدوني، وكان عليه طرد الفرس من مصر.

(٣) قيصر: يعني يوليوس قيصر روما، وقد دخل مصر غازياً.

(٤) ابن الخطاب: هو عمر بن الخطاب، وفي أيامه كان الفتح العربي لمصر على يد عمرو بن العاص.

(٥) سليم: هو سليم الأول، الخليفة العثماني، وعلى عهده كان دخول العثمانيين مصر.

(٦) نابليون: هو القائد الفرنسي نابليون بونابرت، وهو الذي قاد حملة لغزو مصر.

(٧) لا يستعر: لا تشتد حرارته. ويخصر: يبرد.

(٨) يشير إلى ما تزيده رواسب النيل في البحر من أرض.

قلت: وما نقراطيس، يـا مولاي؟

قـال: ثَغر كـان لنا على البحـر، قامت، «فـوة» مكـانـه اليـوم، وكـانت للأجانب، لا يُؤذن لهم أن يسكنوا سِوَاه، ولا يُسـامَحون في الخـروج منه إلى غيره من نواحي القطر.

قلت: بل نحن في عاصمة البـلاد، يـامـولاي، وهؤلاء مُتْرَفُوهـا من أهلين وأجانب.

قال: وما هذه المطايا التي لا تجوع ولا تظمأ، وكيف تُسَمُّونها؟

قلت: هذه مُحْدَثات الغربيّين، تُجْلَب إلى مصـر فيتهافت الأغنيـاء على آقتنائها، ولـم يتَّفق علمـاء اللغة على تسميتهـا حتى الآن، ولعلّهم لا يتفقون، فإن القوم آخترعوا (الأتوموبيل) من كل حَجم وشَكل، وآتخذوا منها ذَوَارع في البَر[1]، ونحن لا نَرضى عمّن سمّاها السيّارة، ولا عمّن دعاها بالجَوَّالة.

قـال النَّسر: اللِّسان، يا بُني، من حيث هو مُضغـة، مِـرْآة الصِّحـة؛ ومن حيث هـو لُغة، مـرآة الأُمة؛ ولا غـرابة في أن تَقْعُـد بكم اللغة وتَخُـونَكم في مَيْسور الأمر وعَسِيـره؛ فهي إنما تـأخذ بنَصِيب من هـذا النَّقص العام، وتتـأثَّر بهذا العَجز الشامل، لأنها للعِلْم مثل الظِّل للشَّبَح، يتضاءل بتضاؤُلـه، ويطول بطُوله؛ والعِلْم في التجارة وفي الصناعة وفي الزراعة، مثل ما هو في الشُّروح والمُتون، وفيما يُسمُّونه الفنون الجميلة؛ فكلما ظهرت آثاره على هـذه الأشياء في مجمـوعهـا، آتسعت اللُّغـة من مـادة، وازدادت من حيـاة، وتهـذَّبت على الـزمن، وحُسِبت على نامـوس الارتقاء، يَقْتادهـا بـأَزِمَّته، ويجـري بهـا في أعِنَّته[2]. هذه بُنَيّ، هي الحياة الحقيقية لِلُّغات، ومـا سواهـا فَتَوهُّم، ووُجـود أشبه بوجود الأجسام المُحنَّطة؛ يُظن بها حِفْظ، وهي وإن طال المَدى ستَبِيد.

---

(١) الذوارع: التي تذرع الأرض، أي تقطعها سيراً.

(٢) الأزمة: جمع زمام، وهو خيط من المقود. والعنان: سير اللجام.

قلت: إنك لَتَنْعى، يا مولاي[1].

قال: ومن أَنْعى؟

قلت: اللغة العربية؛ فقد حِيلَ في التَّعليم بينها وبين العِلْم الـذي تزعم أنه للُّغات كالرُّوح للجِسم.

قال: وماذا يَحُول بينهما؟

قلت: الحُكـومة في مـدارسها، والكُتَّـاب في مُنْشـآتهم، والعُلمـاء في مؤلَّفاتهم، والجرائد فيما تَنْشُر كُلَّ يوم؛ فأما الحكومة فقد ٱستقرَّ عند القابضين على أزِمَّـة التَّعْلِيم من رجالهـا في السنين الأخيـرة، أن اللغـة العـربيـة لَحِقت باللغات الغابرة، وأنها في وادٍ وعُلوم هذا العصر في واد، ولا يزالون على هذا الـرأي، وفي هذا السَّعي، حتى يَيْبَس مـا بين اللغـة العربية وبين العِلم، ولا يكون بَعِيدٌ حتى تَعْدِم مَن يعلِّم قواعد الحِسـاب فيها، أو يعلِّمها النـاس بها؛ وأمـا الكُتّاب فقَـلَّ مَن جمع منهم بين العِلم والبَيـان، وهَمُّ المشهـورين منهم بالإجادة في الوصف والتصوير، ٱنتقاء اللَّفظ، والاحتيال على المعنى، وٱتِّباع الشعراء في الهُيَام، ومُزاحمتهم على الخَيَال؛ حتى ضاع محلّ الكتابة العلميّة بين مُنشآت الكتاب، وخلا أكثرها من حقيقة التـاريخ ورُوح الفلسفـة، ونُبِذت فيه العلوم الطبيعية؛ وهُجر الطِّب والفلك، وغير ذلك مما له في اللغة العـربية آساس[2] طال عليهـا الأبد، وغيَّـرها التَّـرك والإغفال؛ وأمـا العُلماء في مصـر فأبعد الناس عن مَعرفـةٍ في اللغة، أو تَمَكُّنٍ من أدبهـا، يمتلىء دماغ أحـدهم من العِلم، ويتغرَّب في سبيله، ويُنفق الأيام في تحصيله؛ وإذا أَلَّف بعد ذلك لم يُؤلِّف فيما يَعْرِض على أبناء العربية بين صحة التقرير، وسـلامة التحـرير؛ ولا أستحي، يا مولاي، أن أختصّ بالذكـر في هذا المقـام أولئك الألـوف ممن خرج أو يخرج من الأزهر، وهم عُلماء الـدين المتفقِّهون فيـه، أحْوَج مـا كان

---

(١) تنعي: تخبر بموتها.

(٢) آساس: من جموع أس، بالضم، وهو الأساس.

الخواصّ والعوام إلى كُتّاب منهم مجيدين، يُبَيِّنون للأمة مواضع الحِكمة في أحكام الدين، ليُقِرُّوها في أذهان الخاصة، ويقرِّبوها من عقول العامة؛ ومع ذلك لم يَقُم من بينهم حتى الآن إلا ثلاثة أو أربعة يُرْجَوْن لمثل هذا النفع، ومن البَلِيَّة أنهم بهذا الفضل مَحسودون، ومن أجله مَمقوتون. رُبَّ مُدَرِّسٍ يا مولاي تقلَّب على أعمدة الأزهر، وأفنى الطلبة طَبقةً بعد طبقة، وإذا أراد أن يكتب إلى ولده في بعض الشؤون خانهُ القلم، وكتب ما لا يُفهم، وكان في رسالته أنْكَرَ خطّاً وأكثر خَطَأً من شابٍّ أُرْسِل إلى الغرب في أوّل الصِّبا، كلّما دعاه داعٍ ليكتب إلى أبيه بالعربيّة؛ وأما الجرائد، يا مولاي، فمشغولة في الغالب بسَفاسف السياسة عن كل شُغل، مُنصرفة عن وجوه الخِدمة الحقيقية، لا يهمها إحياء اللغة، ولا يَعْنِيها نَشر العلم باللُّغة؛ وشتّان ما بينها في ذلك وبين الصُّحف الغربية، التي هي من التمكُّن وكثرة الانتشار بحيث تَلحظ أحوالَ الزمن كل يوم، وتنظر في سياسة العِلم بأسره، ومع ذلك فالأَهَمُّ عندها، المُقَدَّم من واجبات الصحافة، إنما هو تَرقية الآداب، ونَشر العِلم بين الجماعة، والبحث فيما يُجِدّ منه ويُكْتشف فيه، بحثاً مدقَّقاً، ربما كانت فيه من قُرَّائها بمنزلة الأساتذة من تلاميذهم.

قال: الآن علمت أن الفأس في الأساس. ثم التفتَ والتفتُّ، فبدا له وراء النهر قصرٌ عليه بَهاء ورَونق، وإن لم يكن بالسَّدِير ولا الخَورنق[1]، فأوما إليه وسألني؛ لمن الدار؟ قلت: لزعيم الاحتلال، والرَّقيب على جماعة الرِّجال يَعُدّه الإنكليز في جُملة عظمائهم، ويختلفون إلاّ فيه، ويرمقون بناءً لهم في الاستعمار يَبْنيه؛ تخيَّر هذه البُقعة ثم بنى فوقها تلك الدار، فَبنى الكثيرون على الآثار، حتى جاورها من ليس لها بجار، وكَثُر عليها في الزيارة من كان يُجادل فيها الزوَّار، وأصبحت هذه الناحية وفيها آعتبار؛ ههنا الفلاح المصريّ وهنا المستشار!

فلم يكن من النَّسر إلا أن تبسم ثم قال: لا آحتلال!

---

(١) السدير والخورنق: قصران كانا بالحيرة للنعمان، يضرب بهما المثل في عظمتهما.

فـدهشتُ من هذا الجـواب. وقلت: أمازح، يا مولاي، أم أنت لم تفهم مَقالي؟

قال: بل أنت الذي لم تفهم، فلا تُجادلني حتى تعلم.

وفي هذه الأثناء مَرَّت مركبة صغيرة، يَجُرّها جواد واحد، يُمسك عِنانه شابٌّ من الإنكليز، لا أبَّهة على رِكابه، ولا زُخرف على ثيابه، فيه حِشمة ووقار، وعليه للتواضع آثار، حَمل على إحدى عينيه زُجاجة فأبرقت تحتها، وترك الأخرى تتمثّل بقول المتنبي:

* هو الجِدُّ حتى تَفْضَلُ العَيْنُ أُخْتَها *[1]

فجعلت أنظر إليه، فسألني النَّسر: من هذا الذي شَغلتك رُؤيته؟

قلت: هذا مستشار المالية، يا مولاي، له المحلُّ الثاني في الاحتلال، وهو على خزائن مصر يدبِّر المال، ويُشرف على الجليل والحقير من الأعمال.

فتبسَّم النَّسر ثم قال: لا آحتلال!

فقضيتُ العجبَ من هذا الإصرار على الإنكار، وقلت: أتريد، يا مولاي أن آتيك بدليل على النهار؟

قال: لا، بل أُريد أن تَصبر معي.

وهناك اقتربتْ منّا مركبة فيها ضابطان، كأنهما ساريتان، عليهما حُلتان حمراوان، وهما يُشيران بوجهيهما نحو السماء تعاظماً وعِزة؛ فسألني النَّسر: ممن الجند؟

قلت: وما آنتفاعك، يا مولاي، بسؤال إذا كان الجواب لا يُقنعك؟

---

(١) عجزه: وحتى يصير اليوم لليوم سيدا.
يشير إلى اختلاف حظوظ أهل الدنيا، فقد يبلغ من الجد. وهو الخطب، أن تفضل العين أختها، وإن كانتا سواء، ويفضل اليوم اليوم، وكلاهما ضوء الشمس.

قال: لعلهما من جيش غَريب!

قلت: وهو جيش الاحتلال، له في كل ناحية من القاهرة مُعسكر، وكل واحد من جُنوده عَلَمُ آنكلترا الذي لا يُمَسّ، وسَيْفها الذي لا يُجَسّ، وقد بُولغ لهم في الرعاية والحِيطة، فجُعِلُوا فوق القوانين كلها في البلاد، وأُنشئت من أجلهم محكمةٌ مخصوصة يحاكم المعتدون عليهم أمامها.

فتبسّم النَّسر كعادته، ثم قال: لا احتلال!

فكتمتُ غيظي، وغَلبت النفس على غَضبها، وقلت: لا سبيلَ، يا مولاي إلى الجُحود، بعدما رأيتَ الجنود.

قال: مثل البلاد تراها أنت بعين، وأنظرها أنا بعين، كالمريض بين العائد والطبيب: ينظر الأول إلى جسمه الناحل، وقُوَّته الواهنة، وعَينه الغائرة، وشَفته الذابلة، وعَرَقه المتصبِّب، ويسمع زفراته المُتصاعدة، وأنّاته المُتتابعة؛ فيَرِقُّ له ويَرْثَى ويتوجّع، ثم يَخرج من عنده. وليس المرض في آعتقاده إلا ما رأى بعينه وسمع بأُذنه، فإذا سأله سائل: ماذا بصاحبك؟ قال: بجسمه نُحول، وبشَفته ذُبول. ووصف سائر ما شاهد من الأَعْراض؛ ويكون الطبيب في هذه الأثناء قد نظر لسانَ المريض، ثم جَسَّ نبضه، ثم قعد يَقْرع ويتسمّع، ثم انصرف يقول في نفسه: داؤه كذا، ودواؤه كذا؛ وقد كنّا، يا بُنَيّ أُمَّةً تسعد يوماً وتشقى يوماً، وكانت لنا دولة تَعلو حيناً وتَسْفُل حيناً؛ حَكَم الأجانب فيها مراراً، فلا أذكر أنهم حَكمونا يوماً ونحن أُمة، كَمُلت فيها أدوات الحياة، أو سَلبونا دولتنا، وهي في مَنَعة وإمكان، قائمة على حقيقة المُلْك والسلطان؛ فعِلَلُ الأُمم إذاً باطنية، لا يُرْجَى فيها الشفاء حتى تُعالج في مواطنها؛ وما قام هذا العالَمُ منذ قام إلا على هذه القاعدة «كُلُّ ضعيفِ الرُّكن مضطهد» وهي تَسري على الجماد والنبات، كما تَسْرِي على الإنسان والحيوان؛ فالجَبَلْ يجذب إليه الذَّرَّ ولا يجذب هذا إليه الجَبَل، والسَّرْحَة تَزْهَق الحشائش ولا تَزْهَقُها هذه، والذئب يفترس الحَمَل ولن يكون له فريسة؛ وكذلك الناس، جهلاؤهم لعُقلائهم تَبَع، وضُعفاءهم لأقويائهم خَدَم؛

سُنَّة الدهر في بنيه، وشِيمة قديمة فيه، فالأولى بالذين يتصدَّون لفَكِّ الأُمم المُسْتَرَقَّة، وتحرير الشعوب المَمْلوكة، أن يُعلِّموها أن قيود الحديد لا تُعالج إلا بمبارد الحديد، فالعقل لا يُقاوم إلا بالعقل، والقوة لا تُسْتَدْفع إلا بالقوة، والناس مُذْ وُجِدوا رأسٌ وذَنَب، والدنيا مذ كانت لمن غَلب.

قلت: أفدتَ، يا مولاي، وأرشدت، ولكن هذا كلَّه لا يَنْفِي وجود آحتلال أجنبيّ في البلاد، أَرَيْتُك آثاره فأنكرتَها، ولم تذكر السبب في الإنكار.

قال الهُدهد:

فجعل الأستاذ يتثاءب ويدخل في السُّنّة المعهودة، ثم قال كلمته المألوفة: إذا جاء الليل ذهبت الشياطين. وسألني بعد ذلك: أين الملتقى غداً؟ قلت: على الأزبكية، يا مولاي. قال: الآن لك وَكْر ولي وَكْر، فلن يجمع الليلُ الهُدهدَ والنَّسر. ثم آحتجب عِيانه، وذهب شيطانه، فآنثنيت فيمن آنثنى من الجزيرة، وأنا أذكر ما كان، وأخشى أن يكون في البلاد آحتلالٌ ثانٍ من رُوس أو ألمان، أو صِين أو يابان؛ وهي بحمد الله مُذ كانت لا تَضِيق بنازل، ولا تبكي على راحل؛ ولكن قلتُ في نفسي: ليس بعد خَفِيِّ الإشارة، إلا جَلِيُّ العِبارة؛ وما تجاهل النَّسر إلا وفي نفسه أَمر، فقد عَوَّدني منذ آنعقدت بين شيطانَيْنا الأُلفة، أن يَجِدَّ فأَحْسَبه يَهْزِل، ويَهْزِل فأخاله يَجِدّ؛ وأن يتوضَّح آونةً ويتكتَّم آونة، ويَقتضب تارة، ويَسترسل تارة، ويَعلم حيناً، ويتجاهل حيناً؛ وأنا إنما أتأدّب بأدبه، وأذهب بالمحادثة في مَذهبه، وأصبر على مُرافقته ومُوافقته، لأنه عالِم يُصْحَب على عِلَّاته، وحكيم يُحَبُّ في جميع حالاته؛ وإذا نقلتُ إلى الناس أحاديثَه فإنما أَنْقُلها كما هي، ليأخذوا الدُّرَّ ويَذَرُوا المَخْشَلب[1]، ولا يُدْخِلوا ظُلمات المَعدن على الذهب، على أني أُنبِّه من تَهمُّهم هذه المُحادثات من القُرّاء إلى أيام النَّسر في مصر، لأنها إنما تتناول الحالة الحاضرة، ولا مُستقبل لقوم لا يَهمهم حاضرهم.

---

(١) المخشلب: بفتح فسكون ثم فتح وفتح: حلى يتخذ من ليف وخرز.

المحادثة الرابعة عشرة

قال الهُدهد:

لمّا كان الغد قَصدتُ الأزبكية لمُلاقاة النَّسر، وإذا هي كما عَهِدْتُ بَهْجَةَ هذا البلد، لها المحلُّ الأول فيه، ولا تُنَاظَر بناحيةٍ من نواحيه، ٱبْتسمت أرجاؤها بالمَنظر الضاحِي(١)، وٱنْتَضَدت عليها الدُّور العالية(٢)، تحتها بيوتُ التجارة من الطِّراز الأول، تتخلّلها الأندية العمومية تَمُوج بالخَلْق الكثير؛ وكانت قد أخذت كعادتها لليل أُهْبته، وبَرزت لأهل وُدِّها مَرموقة بعين الرضا، كريمة الثَّناء في الخواطر؛ فبعد أن كانت دار الماجن والخَليع، وقَرارة المُدْمن الصَّريعْ، ومَسْلَك المُتَّهم في ٱعتقاد الجميع؛ وكانت مَراح الفاخر ومَغداه، ومُصبح المُقامر ومُمساه، وسامِرَ المُنَكِّت(٣) ومَن راعاه؛ وبعد أن كان الخروج إليها خُروجاً من الحِشمة والوَقار، حتى مات أناس من أهل الكمال ما عَرفوها، وبَقِيتْ منهم بقيّة لم يَنظروها، أمست مَسْحَب ذَيْل الوزير، ومُسْتقر أتومويبل الأمير، ومجلس القاضي والمُدير، وسامِرَ الكُتّاب والشُّعراء، ومُنْتَدى العُلماء والفقهاء؛ وأصبحت مَقعد المُتقاعدين، ومُستودع المستودعين،

(١) الضاحي: البارز للشمس.
(٢) انتضدت: تراصت متناسقة.
(٣) المنكِّت: من يأتي بالطرف.

ومدرسةَ الناشئين، ورُوَاق المُجاورين، وديوان الموظَفْين؛ تجمع الكبير والصغير، وتَخْلِط الرفيع والوضيع، وتَحُلّ مَحَلَّ (المَندرة)[1]، وتقوم مقام (السَّلاملك)[2]، وتُغني عن (الديوان)[3]، وتَغَصّ الأندية العمومية فيها بالجموع من كل الطبقات، وكافة الأجناس؛ فترى عليها كِبار الموظفين، عند (الذوات)[4] المتقاعدين، يَليهم أُلَّاف الجرائد يَنتهبونها كما اليتيم، ويقرأونها عارية[5] بالملِّيم، فالزَّاجرون الشاة، الآكلون الفيل، من عُشّاق الشِّطْرنج[6]، فأصحاب النارجيلة[7] تُفنيهم على الزمن كما يُفنونها، نَفَساً في نَفَس؛ وتمر هناك على أركان الغِيبة والاعتراض، من أهل الفراغ والبطالة، وبجماعة المُقاولين من كل ذي لَقب، أو عاطل يَذُمّ الرُّتب، وتُلْوِي على عُصبة المحرِّرين والمُكاتبين في الجرائد اليومية، أدرك أصحابُها النَّشب[8]، وأدركت أصحابَنا حرفةُ الأدب؛ وتَعْثُر فيها كذلك على أعضاء الجمعية العمومية، ومجلس الشُّورى، آتين من أقاصي البلاد لزيارة المُستشارين، وبِعُمَدِ الأقاليم وأعيانها[9]، كَثُروا على الأزبكية في هذه السنين الأخيرة زيارةً وآنتياباً، وجِيئة وذهاباً، وكانوا إذا ظَفِر أهلُ الكَسبِ فيها بواحدٍ منهم أحلُّوه بين السَّمع والبصر، وأجلُّوه كأنه المهديّ المُنتظر؛ وبالجملة يتعاقب على هذه الناحية ما بين حاشيتي النهار وطرفي الليل، عدا هؤلاء، خَلْق كثير من حُسَاة الرَّاح، وعُبَّادِ المَيْسر، والأغرار من أهل الثروة المَوروثة، والناصبين لهم الحَبائل من أهل عِشرتهم. ومما يُبْكَى منه ويُضْحك، ولا يُرَى له مثيل في مدينة من مدائن الأرض، أن هذا العالَم المُنْصَبْ في الأزبكية بالليل والنهار، الباذل

---

(١) المندرة: غرفة فسيحة. كانت في الطابق الأول، معدة لاستقبال الضيوف.
(٢) السلاملك: أشبه شيء بالإيوان يجتمع فيه الزائرون.
(٣) الديوان: مكان العمل الحكومي.
(٤) الذوات: الطبقة المترفة.
(٥) عارية: آستعارة.
(٦) الشاه: والفيل: من قطع الشطرنج.
(٧) النارجيلة: الشيشة.
(٨) النشب: المال والعقار.
(٩) العمد: رؤساء القرى، واحدهم: عمدة.

فيها قليلَ المال وكثيره كل يوم، إنما يُلْقِي أساس الثروة، ويَرفع عماد البيوت، لهذه الأُمة الصغيرة الكبيرة، المجتهدة المقتصدة، أُمّةِ اليونان في مصر، لا في تجارة تحتاج إلى عظيم مَهارة، ولا في صناعة تستلزم كبير بَراعة، لكن في تجارة للَّهْو والطرب.

قال: وكان النَّسر قد سبقني إليها، فاعترضني في هيئة وزِيّ ٍهو فيهما أشبه بسائح أمريكاني، أو إنكليزي؛ قامة طويلة، لكنها ضئيلة، وعارضان كثيفان، لكن لا يلتقيان، وثياب لا يُشتكى منها طُول ولا قِصر، ولا ضِيقٌ ولا سَعة، وهو يتشمَّخ بأنفه، ويختال في مِشيته؛ فضحكت حالَ رؤيته، وقلت بعد تحيَّته: قد كان غِنًى عن هذا الزي، يا مولاي.

قال: ولِمْ ذا؟

قلت: لأن في طِباعِي النِّفَار من صُحبة أهله، لا عن حقارة ولا كراهية، ولكن أَرْبأ بنفسي أن أُحْتَقَر، وأن أصحب من لا يَعُدُّني من البشر.

قال: ومتى آحترم القويُّ الضعيفَ؟ إنك، يا بُنَيّ، تُحاول من النفس غير شِيمتها، وتكلِّفها ضِدَّ طباعها؛ وأنا ما اتخذت هذا الشِّعار إلا لعلمي أنّ فيه السَّلامة، ومعه الكرامة، في بَلَدٍ ليس لي بدارِ إقامة. ثم التفتَ حوله وسألني: بأيّ مكان نحن؟

قلت: على الأزبكية، يا مولاي، وهي قِسم من القاهرة. ليس كسائر الأقسام؛ كان وَجْهَ القرن الماضي مَجَرَّ عوالي الحوادث، ومَجْرَى سوابقها؛ أقام به نابليون ومن معه، ولا يزال منزله عليه قائمَ الجدار، مَعدوداً في جُملة الآثار؛ وفيه أُلْبِس محمد عليّ ثِيَابَ الولاية، وآتَّخذ عليه بعد ذلك مَسْكناً يتردد إليه في تَرَاوُحِهِ بين شَبْرا إيوانه[1]، والقلعة ديوانه؛ وما زال الأجانب يُكثرون على الأزبكية في السُّكنى، وهي تأخذ من سُعودهم، وتشاطرهم دنياهم المُقبلة، حتى أكرمها فيهم الخديوي إسماعيل في زمن آهتمامه بهذه

(١) التراوح: التعاقب. وشبرا: حي جنوبي القاهرة.

العاصمة. واعتنائه بأمر إصلاحها وتحسينها؛ ففتح فيها الشوارع، وأنشأ فيها الميادين، وآثرها بالأوبرا الخديوية، دار التمثيل الكُبرى في البلاد؛ ثم ما زالت حتى أصبحت كما تراها تُضارع كثيراً من مشهورات النواحي في الغَرب، حركة وتجارة، ورونقاً ونَضارة، وعمارة ويَسارة.

قال: وما هذا السُّوق القائم، والدُّولاب الدائر؟ ولمن هذه التجارة الواسعة، وتلك الدُّور الرفيعة؟ ومَن هؤلاء الشامخون بالأُنُوف فوق سُلَّم النزل، كأنهم الفراعنة في بَهْو الإمارة، وعند رَفْرَف المُلْك؟

قلت: أبديتَ لك يا مولاي أن هذه الناحية من القاهرة تكاد تكون للأجانب بأرضها وسَمائها، فهذا السُّوق القائم سُوقهم، وهذا الدُّولاب إنما يَدُور بهم، وهذه التجارة الرابحة لهم، وتلك الدُّور الرفيعة مساكنهم وعَقارهم؛ وهؤلاء المُدِلُّون المختالون هم السُّيَّاح من الأوروبيِّين، يأتون مصر رِحْلَةً الشتاء في كل عام، فيَقْضُون بها ما شاءوا من أيام، مِثل الملوك في مَشاتيهم من ممالكهم وبلادهم، بين إجلال الخاصّة، ومهابة العامة. إستأثر الأجانب بفوائد التجارة، واختصّوا بمنافعها، وقَبضوا على أزِمّتها، حتى أصبحت هذه الحوانيت الكبيرة، وتلك المخازن المشحونة، ولا مُنْصَرف عنها لمصريّ يحيا حياة سهلة، من أقصى الريف إلى أقصى الصعيد؛ فما من بيت في الأرياف، أهلُه على شيء من الثروة، إلا من الأزبكية، زَيتُهم ودَقِيقُهم، وكَأْسُهم ورَحِيقُهم، وطَسْتُهم وإبريقُهم؛ وإذا بَنى أحدُهم بالغ في البُنيان، ومَثَّل في القَرية الحقيرة الإيوان، لكي يُقال: أتى بما لم يستطعه فلان؛ ثم لا تَسَلْ عن الأثاث والرِّياش، وما يُجلَب منه من القاهرة لائقاً لشاهقة القُصور، ضافِياً على وَسيع الدُّور، صالحاً لجلوس المُدير والمأمور؛ حتى لِيَجِدُ الإنسانُ في كثير من مدائن الأقاليم وقُرَاها، من هذه المساكن من الطِّراز الأول، ما لا يجد له مَثِيلاً في ضِيَاع أصحاب الملايين من الفَرنساويّين، بالرَّغم ممّا عهدتُ القومَ عليه في تلك البلاد، خصوصاً كبارَ الزُّرّاع منهم، من المَيْل إلى المعيشة السَّهلة في المكان الطيِّب، ولكنّهم لا يُسرفون في

البنـاء إذا بَنَوْا، ويَختصـرون من الأثاث والـرِّيـاش إذا ٱقْتَنَـوْا، ويَعتمـدون في تَشييد الدُّور وتزيينها على سلامة الـذَّوق وحُسن الاختيار، بحيث تـرى المَغْنَى الصغيـر[1] فتأخـذه عيناك على قِلّة حَجمـه، كـأنـه بيتٌ من الشِّعْـر أو بَيت من الشَّعَر، وليس ذلك إلا من حُب الاقتصاد الذي لا تقوم حياة الـزُّرّاع إلا عليه؛ وقد تَدَرَّج الأجانب، يا مولاي، في الاستئثار بتجارة القُطر، ما جَلَّ منها وما قَلَّ، والانفراد بالصناعة فيـه، ما عَـلا منها ومـا سَفَل، إلى مُـزاحمة الـوطنيّين على تجـارات وحِرَف، لم يكن يَخْـطُر على بال أنهـا تخرج من أيـديهم يومـاً؛ ولا أستحي أن يضرب لك مثـلاً هؤلاء الأطفال من اليـونان والأرمن، مُنتشـرين في الشوارع والأندية العموميّة، يُسابقون فقراء الغِلمان من المصريّين والبرابرة إلى النِّعَالِ يَمسحونها، والأحذيـة يُنظِّفـونها، ثم أَرْتَقي عن هـذا المَثَل الأَدنى إلى آخَـر أعلى، فأُبْـدِي لك أنـه لا يُقام في مصـر عظيمُ ٱحتفـال، ولا تُحْيَا فيهـا بالأفراح ليـالٍ، إلا رأيت المَحَلَّ الأول لـلأجانب، ووجـدت الرِّبـح من وراء ذلـك لهم، فـالآنيـة من «جيمس»، والـطعـام من «فلوران»، والشـراب من «ووكر»، والحَلْوى من «ماتيو»، والغلمان من «الكونتيننتال» والنُّـور من معامـل الكهرباء، والصَّدْرُ في المِهْرجان لمن حضر من القوم ولو بغيـر دعوة، والقَـدَم السابقة إلى المائدة قَدَمُهم، والغِناء مُناوبة ومُـطارحة، تَحْت لهم وتَحْت لنـا، ومُغَنِّيـة منهم ومغنٍّ منّا، يُـزْهِقون صنعـة الطاهي، ويُبيـرون تجـارة الفـراش، ويُرْخِصون أسعـار المغني؛ وقد عـاشت هذه الحـرف الأهلية زمنـاً طويـلاً في مأمن من منافسة المنافسين، ومـزاحمة المـزاحمين، إلى أن قتلها سَـراة مصر في هذه الأيام، وأصبحـنـا نخشى أن يتكفل لنـا القوم بـالمآتم والأتـراح، كما دخلوا علينا البيوتَ في الأعـراس والأفراح؛ والقوم، يا مولاي، فوق هذه البقعة وغيـرها من نـواحي القُطر، في شَعْبٍ من حِمَى كُلَيْب[2] عِـزّاً ومَنَعـة، تَسهـر المحـاكمُ المختلـطـة على حفظ حقـوقهم، وتـلاحظ عُيُـونُ الامـتيـازات

(١) المغنى: النزل يغني به أهله.

(٢) كليب: هو ابن ربيعة الوائلي، سيد الحيين: بكر وتغلب في الجاهلية، وكان يضرب به المثل في العزة.

كرامتهم[1]، ويُشْفق القناصل عليهم في المَهمّات؛ فكأنهم وراء هذه المعاقل والحصون أُسود الغاب في الغاب، لم يَكْفِها تلك القوة وذلك الإقدام، فٱستعصمت بالآجام[2]؛ وفوق هذا وذاك تراهم قد أُلْقِي عليهم للخواص مَحبّة، ومُلِيء العوامُ منهم مَهابة، وصَحّ في الأذهان أن العقل لا يَجُوزهم، والذكاء لا يحُلُّ دونهم، والهِمّة لا تتعداهم؛ وٱستقر عند الذين يُرجَوْن للنهوض بهذه الأُمة من عَثرتها، ويُطْلَب منهم أن يَنْفُخُوا فيها من كل رُوح جديد، من أهل الحَلِّ والعَقد، وناسِ الأَحْلام والأقلام[3]، أنّ أوان العمل قد فات فلا يُستدرك، وبُرهة الأمل قد وَلَّت فلا تعود، وأنه لم يبق للمصريّين إلا أن يُودِّعوا أيام الحياة وَداعاً. ومِن عجيب أمر هذا الفريق العالي في الأُمة يا مولاي، أنهم مُتحزِّبون مُتفرِّقون، يَعتقدون ذلك في أنفسهم، ويقولونه بألسنتهم، ثم يُنْتَدبون لقيادة الأفكار مُتباغضين متحاسدين متخاذلين، كلٌّ له أملٌ يَسعى ليدركه، من وراء سَكْرة الخاصّة. وغَفلة العامة، في هذا البلد الأسيف؛ أولئك هم القُوّاد فيما زعموا، لكن لا تراهم إلا في ظِلّ القُصور الشاهقة، ولدَى الأبواب العالية؛ ولا تلتقي بهم إلا في مجالس اللغو والغُرور، والنِّفاق والرِّياء، لا يجولون في الصفوف جَولة، ولا يُعيرون الجُنود نظرة؛ وإذا مرّ أحدهم على جَيشه الموهوم، وفَيْلقه المزعوم، كان في خُيَلائه وكبريائه كالمَلِك الصغير المُتَوَّج، وَرِث لقب القائد العام فيما وَرِث من ألقاب المَملكة، فتكلّف طلعة على جيوش لا تَعرف له فضلاً، ولا تَذكر له بلاء، وإن هَتفت بتحيّته، وٱصطفّت بين المهابة فيه والإعظام.

قال الهُدهد:

كنت أتكلم والنَّسر مُطرق يُصغي لما أقول؛ فلما ٱنتهيتُ رَفَع رأسه ثم قال: هذا يا بُنَي هو الاحتلال.

---

(١) يشير إلى ما كان للأجانب في مصر من ٱمتيازات.
(٢) استعصمت: لاذت، والآجام: جمع أجمة، وهي الشجر الكثير الملتف.
(٣) الأحلام: العقول.

ففَهِمْتُ عندئذ معنى إشارته، في سالف عبارته؛ وقلت: لكنَّ، معشرَ النُّسور كيدٌ لا يَبُور، ونَظر بَعِيد في الأُمور.

قال: دَعْ عنك، يا بُنَيّ، ما تُسمِّيه المحاكم المُختلطة، وما تدعوه الامتيازات؛ ودَع القناصل وما تَزْعُم لهم مِن حَوْل وطَوْل، وآسْحَب ذلك على أولئك القُوَّاد من أهل العَبث وطَلَبة المظهر الكاذب والشُّهرة الباطلة؛ وهَبْ أن الملك إدوارد وقيصر، والملوك الآخرين، مَلَكوا عليكم البحر بالأساطيل، ثم مَلَكوا عليكم البَرّ بالجيوش زاحفة، أكانوا قادرين على إذلالكم، إن كان لكم من أنفسكم عِزة، أو تفريق كلمتكم إن كان لها منكم جامع، أو تَضْييع حَقِّكم إن كان له منكم طالب؛ أم كانوا ضاربين على أيديكم أن لا تَتداولوا أشياءكم فيما بينكم، تُنَشِّطون الصانع منكم بالإقبال، وتُشَجِّعون التاجر بالتهافُت على بضاعته، إن عَلِمْتم على أهل الصناعات منكم نَقصاً، فتجمَّلوا بنَقْصهم حتى يزول فتَتجمَّلوا بكمالهم؛ فإنكم لا تزالون عُرَاةً حتى تلبسوا مما حِكْتم وخِطْتم، ولا تزالون حُفاة حتى تَنْعَل[1] أيديكم أرجلَكم، ولا تزالون مُشاةً حتى تركبوا فيما صَنعتم، ولا تزالون تتوسّدون الثَّرى حتى تسكنوا ما بنيتم؛ وليس هذا الذي ترى، يا بُني، من ثياب تَزهو بها الجماعة، ومواكب يَختالون بها، وقُصور يَنعمون فيها، وما هي من صناعة البلاد في شيء، إلا مَقابِحَ تُرَى على الأُمة في مجموعها وإن تَوهَّمها بعض الأفراد محاسن؛ إذ جملة ما يُقال عنها؛ أُمة عارية، كل أشيائها عارية![2].

وآعْلم، يا بُنَيّ، أن الاحتلال الذي تَستعظم أمره، وتقول وجوده حقيقة، وأقول وجوده توهُّم، لا يَضيق ذَرْعاً بمن ذكرت من قادة الأفكار، ولا يتأثر بِسَحْبان[3] لو رُدَّ إلى الحياة فخطب، ولا بعَبْد الحميد[4] لو بُعث بعد ممات

(١) نعله: ألبسه النعل.
(٢) عارية: مستعارة.
(٣) سحبان: خطيب جاهلي عرف بالبلاغة.
(٤) عبد الحميد: كاتب عرف بالفصاحة.

فكتب: ولا يَتَعب بِمُعارضٍ قَوّال، ولا يَشْقَى بمُعاكس فعَّال، مُعْشر مِعشار ما يُقيمه ويُقعده، ويُضايقه ويُحرجه، أَخْذُكم بالصناعة والتجارة أَخْذ الأمم الناهضة الراقية؛ لأن الإنكليز وغيرهم من أُمم الحضارة الحاضرة، يذهبون من التملُّك والاستعمار في غير المَذهب القديم، فلا يدخلون البلاد فاتحين يَقْبِضُون نفوس أهلها، ويَسْلُبون من ذوي الأملاك أملاكهم، لكن كما يدخل التُّجّار الأسواق، هَمُّهم الاستكثار من الثروة، والاتساع في التجارة، والتقدُّم على سائر الأُمم في هذا السبيل، بحَقّ الحُكم وفَضل الاستعمار؛ فكل بِلادٍ يَحْكُمها الأجنبيّ في هذا الزمن إنما يَحكمها في الحقيقة بذِراع مُرتفعة من الصناعة، ويَدٍ قوية من التجارة، بحيث يصح أن يقال عن عصركم هذا: لو كان رَجُلاً لكان تاجراً.

قلت: أَفَدْتَ، يا مولاي، وإن لم تَزِدْني عِلْماً بِزَمَنِي وأشيائه، لكن من أين لك هذه النَّظرات، وأنت غريب في هذا الزمن، أَجْنَبُ عن أهله، نَكِرَةٌ في هذه الثياب؟

قال النَّسر، وهو يبتسم: ما غَرَّك بشيطان بنتاءور، فأنكرت عليه بُعد النَّظرة، واستغربت منه صِدق الخطرة؟ وقد كُنّا يا بُنيَّ نمشي في البلاد المحكومة، ونَخْطِر بين الأمم المقهورة، فلا نرى إلا مُعسكرات مَشحونة، ولا نَنْظر من مظاهر الدولة الحاكمة، ودَلائل الحكومة القائمة، غَيْر الجُنود الفاتحة، يحمل الناسُ كِبرياءهم في كل مكان، ويصبرون لاعتدائهم في كل آونة؛ أما اليوم فليست المُعسكرات إلا هذه الحوانيت، وليس الجند إلا هؤلاء التّجار؛ فإن قالوا: إن الهند مثلاً يحكمها سبعون ألفاً من جُنود المَلِك إدوارد، فقل: إنما ناصِيَتُها بيد سبعة من مُلوك التجارة في لُندره. ولقد أتى لكم، معشرَ المصريّين أن تؤمنوا فيمن آمن بهذه الآية، وتعتقدوا أنّ العِزّ في هذا الزمن قُبّة لا تُضرب على قوم حتى يَمدُّوا لها الطُّنبين[1]: الصناعة والتجارة، ويَرفعوا لها عموداً من الهِمّة والإقدام.

---

(١) الطنب: حبل يشد به الخباء.

قلت: كل ذلك قِيل للأمة يا مولاي، ودُعِيت إليه بألسنة قائلة، وأصوات مُرتفعة؛ ولكنها لم تَرَ فيه رأياً، ولم تُدَبِّر لها أمراً حتى الآن؛ على أن ذلك لا يَثْنِي مولاي عن الاشتراك مع الناصحين في مَقالةٍ يقولها، ربما نَجحت في رَجُل واحد ممن تَصِل إليهم، فتكون قد غَنِمْتَ أجراً، وبَلَغت عُذراً.

قال: لا رأي لي، يا بُنَيّ، حتى أرى، ولا حُكْمَ لي حتى أَنْظُر وأَخْبُر، وستكون لي معك خُطبة وَداع حافلة بالنصائح والعِظَات.

قال الهُدهد:

ثم تثاءب النَّسر كعادته، وقال كلمته المَعهودة: إذا جاء الليل ذهبت الشياطين. فسألته: وأين المُلْتقى غداً، يا مولاي؟ فأشار إلى الكونتيننتال[1]، وقال: في هذا النُّزل.

(١) الكونتيننتال: فندق مشهور في القاهرة وكان ولا زال له بهو عظيم.

المحادثة الخامسة عشرة

قال الهُدهد:

لما كان اليوم التالي، أتيت نُزُلَ الكونتيننتال، فجلست فوق ذلك البَهْو العظيم، أَرْقُب طَلعة النَّسر من بين صفوف المارّة؛ وكان السُّيّاح قد خرجوا إليه من غُرفهم، فجلسوا كلٌّ جماعة في ناحية، يَستمتعون بالشتاء تحت سماء القاهرة، وينظرون الحديقة وهي تتحلَّى بذهب الأَصِيل، وتتجلَّى بالمنظر الجميل؛ وكان يُخالطهم هناك نَفر من شُبّان أبناء الكُبراء في العاصمة، تَدُلّ عليهم طرابيشُهم، وما سواها من الأشياء فهم والقومُ فيه سواء؛ وما هو إلا أن آطمأنّ بي المجلسُ، حتى تراءى النَّسر يصعد السُّلَّم مُبْدِياً عِزّة شَمّاء، ومُشيراً بأنفه نحو السماء، كأنه روزفلت[1]، يَستعرض في البحر، أو غليوم[2] يستعرض في البر، أو هو المُتنبّي في هذا البيت من الشعر:

تَغَرَّبَ لا مُسْتعظِماً غَيْرَ نَفْسِهِ
ولا قابلاً إلا لِخالِقِهِ حُكْمَا

فلما لَمحني أقبل نحوي بتهلُّل، وأنا أضحك من هيئته، وأستعظم كَيد

(١) روزفلت: من رؤساء أمريكا.
(٢) غليوم: من أباطرة ألمانيا.

شيطانه، فقدّمت له كرسيّاً، فجلس جِلسة آستكبار واستخفـاف، كأن لم يَقْدَم على أحد؛ فازددت ضحكاً من سِيرته، وقلت: هلاّ تَـواضع الحكيم! وتأدَّب الرجلُ العليم!

قال: وهـلاّ تلطَّفْتَ في الخطاب! فما كنت أستوجب هذا العتـاب! انظر إلى القوم، هل جلستَ إلا كما يجلسون، أو فعلت غير ما يفعلون؟

قلت: صدقت، يا مولاي، ولكن القوم في مـوقف آحتقار لمـا حولهم، ومَن آحتقـر آستهتر، فهم لا يعلمـون من أمر هـذه الأُمـة إلا أنهـا أشبـه شيء بهؤلاء الحِمارة!

قال: إذن فما عَمَلُ هؤلاء الشبان؟ وهم فيما أظن من المصريّين؟

قلت: هؤلاء أبناء كُبراء القطر يا مولاي، صار لهم عادة في هذه الأيام، أن يتنافسوا في معرفة السيّاح، ويتهافتوا على صُحبتهم، ويَستبقوا مَرْضاتهم.

قال: فما بالهم لا يُشـرِّفون أقداركم عند أصحابهم؟

قلت: وكيف وهم إنمـا يتعرّفـون إليهم بالتُّبـرؤ منـا، ثم لا يُـرُونهم من أشيائنا إلا ما يَغُرّهم بهذه الأُمة، ويُخرجهم من وقارها؛ فإذا كان النهار أنشأوا لهم النزهة، حوالى الأهرام يـوماً، وعلى النيـل يومـاً، من مثل مـا اعتادوا في بلادهم، وأَلِفُوا في ديارهم، من مَركب ومَأكل، ولَهو وقَصْف؛ وإذا كان الليل دَلُّـوهم على عَوْرة العـاصمة، وخـرجوا بهم إلى كُـل مكان، يُصَـان عن ذِكْره اللِّسان؛ ولو كانوا على شيء من الأدب، أو قليل من العقل، لوجدوا في هذا البلد القديم العظيم، من محاسن الآداب، وغُرَرِ المنـاقب، وكرائم الأشيـاء، ونفـائس المآثـر، وكثيراً من الحيـاة الشرقيّـة تجلّى بهـا في أحسن صـورهـا، وأجمل معانيها، مما تَسُرّ السُّيّاحَ رؤيته، وتَهمهم معرفته، وتنفي به التُّهمـة عن أدب المصريين، ويحمل هؤلاء الأجانب على العُدول عن البغض والحَقـارة، إلى الحب والكرامة. أُنظر يا مولاي إلى هذه القُبَّعة بين تلك الطرابيش؛ هـذا شاب من نوابغ الفرنساويّين في الأدب، قَدِم مصر في هذا العام سائحـاً، وهو

يُـراسل الصُّحُفَ السيّـارة في بلاده. ويُنشىء لقـومه الـروايـات التي لا تَفْـرغ المـلاعبُ من تمثيلها. عـرَّفني به أحـد هؤلاء الشبـان عَفْواً في هـذا النُّزُل، فجلستُ معه بُرهة، ثم تركتهُ ولقيتُ صاحبي بعد ذلك، فقلتُ لـه: ألا تَجمع هذا الشاب الفرنساوي بأبيك الباشا في مَعاهد عِزّه ويَسارِه، ومجـالس جلالـه ووَقاره؛ فإنه أحوجُ إلى الوقوف على شيء من مظاهر الحياة الشرقية، منه إلى إنكليزيتك وفرنساويتك وأتوموبيلك؟ فاستضحـك ثم لم يَزِدْ في الجـواب على أن قال: وماذا في أبي مما يَرُوق أو يَسُرّ؟ أتريد أن تُضحك الإفـرنج منّـا؟ مع أن الباشا المُشار إليه ممن آمْتَـدّ بهم الزمنُ في خـدمة هـذا المَلِك، ومُعاشـرة كِبـار الموظفين من الأجـانب، ومخالـطة السُّفراء سفيـراً بعد سَفيـر؛ وبَيْتُه في مصر رَفِيعُ العِماد، يَصْلُح لِيَتْصِدَه الملوكَ في جملة القُصّاد.

قال الهُدهد:

فمـا كِدْتُ أستَتِمّ حتى نَهض النَّسـر مُغْضَباً. ثم قـال: هذا، يا بُنيّ، هو الاحتلال، فاخرج بنا من هـذا المكان، فللضُّـرّ أهونُ منـظراً عندي من هؤلاء الشبان.

فبَـرِحْنا النُّـزُل على هذه الصـورة، وجعلنا نَتمشّى حتى مـررنـا بتجـارة واسعـة على الأزبكية، لمصـريّ من ذوي اليَسار، عـظيم القـدر بين التُّجّـار، فـدَللت النَّسر عليهـا، وحدّثتـه حـديث صـاحبهـا، فتهلّل وآهتـزّ، ورَغِب في الدخول فدَخلنا؛ وكان ربّ هذا البيت التجاريّ العظيم جـالساً في نـاحية، لا يُلْقِي بـالاً لمن دخـل، ولا يَهمّـه مَن خـرج، آتكـالاً على من معـه من ذويـه وغِلمانه؛ فحوّلتُ نظر النَّسر إليه، فغَضِب غَضبة فِرعـونيّة، وقـال: متى جلس التاجر لأهل الرغبة في بِضاعته جُلُوسَ المَلِك، والحاشيةُ قِيَام؟

قلت: لعلّ له على هؤلاء الشبّان آتكالاً، يا مولاي.

قـال: بـل هـو يَـدعـوهم بهـذا الـرُّبـوض إلى الكسـل، ويُعْـدِيهم منـه الخُمـول؛ ألا ترى المَحَـلّ على سَعة أطـرافـه، وكثـرةِ مشتمـلاتـه، خِلْواً من الحركة العظيمة، عُطْلاً من الحياة الكبيرة؟

قلت: لا أزال أُمَهِّد عُذراً للرجل يا مولاي؛ فقد كان محله صغيراً فكَبَّره، وكان ماله قليلاً فكثَّره، وكان ذِكْره خاملاً فأَظهره؛ ثم أَقْصَر دون التَّناهي؛ وهكذا تَعوّد المصريون من دَهرهم: يكتفي أحدُهم بسَبَبٍ من الغِنى عن سائر الأسباب، ويُهَيِّىء السعادة له داراً فيَقِف دون الباب؛ وليس ما ترى في صاحبنا من الانقباض والانكماش، والتثاقل عن إظهار تجارته، وإدارة هذا المحلّ العظيم حقَّ إدارته، إلا دلائل الإقْصار، وعلامات الاستغناء؛ وتلك خَلَّة يُشاركه فيها سائر المُوَفَّقين السُّعداء من المصريّين في الزمن الحاضر.

قال: بِئْست الخَلّة، ولا بُدَّ لي أن أتقدَّم إلى الرجل ببعض النُّصح والإرشاد في هذا ومثله من شُؤونِ عمله.

قلت: وأين تعلّمت التجارة، يا مولاي، حتى تُعلِّمها رجالها؟

قال: التاجر يا بُنّي تلميذ في محلّه، كلّ الواردين أساتذته، تعلّمه المرأة البلهاء إذا تقدَّمت إليه في شِراء إبرة، ويُؤدِّبه الطِّفل الصغير إذا تعلق به في طَلب لُعْبة؛ فكيف لا يُرشده الرجال، وهم في شُغُل مع التجار بالليل والنهار، يَرَوْن من أحوالهم وسِيرتهم في محالّهم ما لا يرى التاجر من أخيه، ولو كان جارَه الذي يليه.

قلت: إن كان لا بُدَّ، يا مولاي، فهذا الشاب المُتوقِّد ذكاء، المُتَدفِّق حياة، المُمتلىء من حُب التجارة، أولى بغالِي نُصحك، وأحقُّ بثمين إرشادك؛ لأنه من جهة في أول الشَّباب، وإنما يُستثمر غَرْس التعليم في هذا العُمر النَّضير، ومن جهة أخرى هو مخلوق لزمنٍ خُلِق هذا الشيخ لما قَبله.

قال: صدقْتَ، فتوجّهْ بي إليه، وأَعِدْ ما أقوله لك بلسان الشياطين عليه.

قال الهدهد:

فقصدنا قَصْد الفتى، وكان جالساً فنهض نَشِطاً ينتظر الإشارة، فقال له النَّسر بلساني وهو هَشٌّ به بَشّ: آعلم يا بُني أن التاجر الحقّ يدخل الحانوت

ليُباشر عمله، فلا يزال فيه على قَدَم حتى يخرج منه ليرتدي لِباسَ اللَّيل؛ لأنه في هذا الموقف بين يَدي الرازق، وهو يُحب المتأدِّبين، ويَنْفُخ من روحه في الناشطين؛ فإن كان المُشتغل بالتجارة صاحبها، وَجده المُعامل حاضراً، ووجده العاملُ ساهراً، ووجد نفسه صابراً على العمل قادراً؛ وإن كان من الأُجراء فيها، بلغ عند رئيسه منزلة في الحُب والثقة، وتَحبَّب إلى الناس بأدبه، وتقرَّب إليهم بنشاطه؛ فإذا وُفِّق يوماً ما لإنشاء محلّ، وتأسيس تجارة، مال الناسُ إليه، وأقبلوا عليه، وكانت سِيرَتُه المَعلومة عندهم، وأخلاقه المَعروفة لديهم، خَيْرَ ما يُعْلَنُ به أَمْرُه، مهما كَثُرت أساليب الإعلان في هذا الزمان.

قال الفتى: أعتذر إليك، يا سيد، وأشكرك على هذه النصيحة؛ والآن ماذا تأمر؟

قال النَّسر: أريد دَوَاةً، ولا أَكْتُمك أنني كثير الكتابة، فلا أصبر على دواة واحدة.

فجاءه الفتى بها غالية، من صنعة عالية؛ فقلَّبها ثم ردَّها إليه وتبسَّم فقال: لو آستوصفتني يا بُني، كيف أريدها؟ بأي ثمن؟ لكفيتُ نفسك تَعب الرُّجوع بها من حيث جئت؛ وإنه لأَجْلَبُ لراحة المُشتري أن يُكثر عليه التاجر في الأسئلة حالَ الطلب، من أن يملأ الحانوت بين يديه بضاعة، ويضيع عليه جانباً عظيماً من زمنه في بَحْث وتنقيب، وتأمُّل وتقليب؛ على أنني عرَّفتك بخفّي الإشارة ماذا أريد، إذ قلت لك: إني كثير الكتابة لا أصبر على دواة واحدة؛ ومن كان كذلك لا يَقتني هذه الأداة من ذَهب ولا فِضة، بل ربما آستكثرها لنفسه من الخشب والنحاس.

قال الفتى: أشكرك، يا سيدي، على هذه النصيحة بعد النصيحة. ثم إنه عَرض على الأستاذ دَواةً كبيرةَ الحجم، قليلةَ الثمن، فَرَغِب عنها، فجاءه بأُخرى أقلَّ حجماً وثمناً، فقلَّبها ثم دفعها، فأتاه بثالثة فردَّها كذلك، ثم ما زال حتى بدا عليه المَلل، وظهر عليه الغضب؛ وأحسَّ الأُستاذ ذلك منه،

فقال يخاطبه: لعلّك من الملائكة يا بُنَيّ، فقد صبرتَ لنصيحتين، وأراك على استعداد لقبول الثالثة، بالرغم مما بدا عليك من دلائل الضجر؛ وقَلَّ مَن صبر من الناس لنصيحة واحدة. فآعلم، يا بُنَيّ، أن بيوت التجارة لا تَعْمُر ولا يُرْفَع لها عماد، حتى تكون أوسعَ من صدر الحليم، وأرحبَ من فِناء الكريم، تَخِفُّ بالثقلاء، ويُدَارَى فيها السفهاء، ويُعالَج البخلاء، ويُصْبَر للأغبياء، ويُتهافَت على الغلظاء، ويُحْمَل فيها الكبرياء؛ والتاجر، يا بُنَيّ، قد يُسَاوَم ساعة في الخَرَزة ثم لا يبيع، وقد لا يُسَاوَم لحظة في دُرّة يبيعها؛ وفي هذه الحالة يكون قد خَسِر في الأولى أضعافَ ما رَبح في الثانية؛ إذ جُملة ما يقال عنه: ليس في حانوته خَرَزة تُشْتَرى! ثم يُنَاقِش هو نَفْسَه فيقول في خاصَّتها: عَجَزْت عن بَيع خَرْزة. أَلَذّ الجِدَال، با بُني. وأطيبُ المناقشة، وأشهى المغالطة، ما كان بين البائع والشاري؛ لأنهما في الحقيقة خِداعٌ تُجَاه خِداع، يُصْدَم الحِرْصُ بينهما بالحِرْص، ويُحارَب الطمع بالطمع، ويُقاتَل الغِشّ بالغش؛ ولا يَنفع التاجر في هذا الموقف، ولا يُظْهِرُه على قِرْنه إلا الصبر؛ فلعلّك بعد هذه النصيحة من التُّجار الصابرين.

قال: سأصبر، يا مولاي، حتى تَراني أُرْضِي المَرِيضَ والأَفِين(١) والشحيح الضَّنين.

قال: بُورك فيك، يا بُنّي؛ والآن عندي نَصائحُ أُخَر ربما نَفعتك في عملك هذا؛ فهل لك فيها؟

قال الفتى: هاتِ يا مولاي، فإني مُستمعٌ إن شاء الله مُتَّبع.

قال: التِّجارة، يا بُنَيّ، آيةُ عَصركم هذا الكُبرى، أعلى الممالك ما قام عليها، وأوسعُ الدول ما اتَّسع منها، وما مِن مَلِكٍ ولا أمير، ولا حاكم ولا وزيرْ عَرف الغِنَى في هذا الزمن إلا عَرفه من طريق التجارة؛ فهي صَيْدٌ يَطْلُبه الجميع، غَيْرَ أنّ الشِّبَاك مُختلفات. أغنياء هذا العالم يُتاجرون بمالِهم في

---

(١) الأفين: الناقص العقل.

السِّـر، وأنتم، معـاشـرَ العُمّال، تتـاجـرون بعملكم في الجَهـر؛ أنت تَعمـل لمُستـأجرك هـذا، وهو يعمـل لأُناس هم أوسـع منـه تِجـارةً، وهؤلاء يعملون لبيوت التجارة من الـطِّرَاز الأول في العالم، وتلك تَعمـل لأصحاب المـلايين من بيوت المُلْك والإمارة، وأُسَر المجد والشـرف، وجماعـة الساسـة والقواد، وسائر عظماء الرجال، سواء ٱشْتُهر عنهم أنَّهم من أصحـاب الأموال، أو خَفِي أمرهم على الناس؛ إذا عَمِلْتَ ذلك، يا بُنيّ، عَرفَتْ نفسُك قَدْرَها، إذ يَرْسُخ في ٱعتقادك أن المَلِك والتاجر ربما كـان شريكين في تجـارة، ولا يعلم أحدُهمـا بالآخر، هذا يُؤسِّس الشركـة بمالـه وسلطانه في الخَفـاء، وهذا يُقيمهـا بِعَمله وأمـانته في الجَهـر؛ ومتى ٱحترم الإنسـان عَمَله تولّـد عن هذا الاحتـرام حُبُّ العمل، وهو سِرُّ النجاح؛ فأَحْبِبْ، يا بنيّ، التارة تَجِد عناءها مع الحُبّ راحة، وتُلْفِ صَعْبَها معه سَهْلاً؛ وٱجْعل الأمـانة فيهـا رَأْسَ مالـك، ولو كـان لك شُمُّ الجبـال من رُؤوس الأموال؛ لأن دُولاب التجـارة يَـدور بـالمـال مـرة، ويـدور بالأمانة والذِّمة ألف مرة؛ وكُنْ، يا بُنَيّ، في هذا المَحل كأنـه لك في ٱعتقـاد، وكـأنك تَمُـرَّ به مـرّاً في ٱعتقاد آخـر، وبعبارة أصـرح: كُن كثيرَ العمـل، كبيرَ الأمل، لا تَقِفْ في الغِنَى عند نهاية، ولا تتمهل في المجد عِند غايـة؛ وٱعلم أن كل ما يَفِيض عن قَدْر الإنسان وشَخصـه، من سَعة الثَّـروة، ورِفعة الـذكر، إنمـا يَفِيض على وطنه وقـومه؛ وإنْ طـالبْتَني بمثال حـاضر، فهـذا «كارنجي» الأمـريكي، جَمع بـالأمس سُفن التجارة في لُجـج الغَـرب، وبحـار الشَّـرق، تحت راية أمريكا التجارية، وإذا ذُكر التوفيق يا بُنَيّ، أو خَـطرت السعادة على بالك، أوحَـدَّثوك عن قيـام الجَدّ، ويُمن الأمـر، وإقبال الـدنيا، فقـل: ذلك فضل السماء تُؤتيه من تشاء؛ وكن كرُبّان الباخرة: ملأها فَحْمـاً. وٱستوثق من ٱستقامة إبرتها، وسلامة آلاتها، وكمال أدواتها، ثم خرج بها إلى عالم المـاء، غَيْرَ آخِذٍ مَوْثِقاً على الرياح والأنواء، ولا في يَدِه صَكٌّ بالوصول من القضاء.

قال الهُدهد:

وبينما الأستاذ يَنْثُر من حَلْي نصائحه، ودُرر وصاياه، على سَمع الغلام،

وهو يُصْغِي لما يقول، ويَفهمه فَهْمَ ذكيّ في طباعه، أحبّ الاستفادة، آنسلخ ربُّ التجارة من كرسيّه، ثم تقدَّم نحونا وسأل الغلام: من هذا الذي شَغلك ساعةً زمان؟ وماذا يريد؟ قال: يريد دواةً ولا يكاد يَجد طَلِبته. فآستحوذ على التاجر الغضب، وقال يُعنِّف الفتى: أمِن أجل دواة تُؤخِّر شغلك ساعة؟ وتَنقطع لهذين دون الجماعة؟ فَعَبَس الأستاذ وتولَّى، وهَمس في أذني بأن قال: هذا، يا بُنَيّ، هو الاحتلال!

ثم خرجنا فاندفعنا نمشي، حتى مَرَرْنا بمُجَلِّد كُتُب على الأزبكية أيضاً، فاستوقف النَّسر حقارةُ حانوته، ومَنظرُه الزريّ؛ فسألني: لمن الحانوت؟ قلت: لرجُلٍ منّا، يا مولاي. قال: ما يصنع فيها؟ قلت: تَجليد الكُتب وتغليف الرَّسائل، لكي تحفظ زمناً طويلاً، وتكون للمكاتب زينة. قال: هل لك في الدخول؟ قلتُ: انْظُر ماذا تأمر، يا مولاي.

قال: آنظر إلى الشمس كيف مالت؟ وإلى دولة النهار كيف زالت؟ ثم تمطَّى كعادته وتثاءب، وقال كلمته المألوفة: إذا جاء الليل ذهبت الشياطين؛ فإذا كان الغدُ فآلْقَني في أصيله على باب هذا الحانوت.

* * *

قال الهُدهد:

ثم لم أَرَ لذلك الشبح أثراً، فمضيتُ في سبيلي وأنا أذكر التاجرَ والغُلام، ورُوحانية ذلك الكلام، وأَشتهي على العناية أن تُسَخِّر لعوامّ هذه الأُمة من خواصّها مُرشدين، وتبعث لجهلائها المصابيح من العلماء الهادين، وأسأل الله أن يُخْرج عِبادَه من الظُّلمات إلى النور.

تـمّ

عَلي بَكِ الكبير

أو

دَولَة المَماليك

تَمثيليَّة شِعْرِيَّة



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بعد مقتل توران شاه، آخر ملوك الدولة الأيوبية سنة (١٣٨٣م)، كانت نهاية الدولة الأيوبية، وأيلولة سلطان مصر إلى مماليك هذه الدولة الأيوبية.

فلقد درج خلفاء الدولة العباسية في أن يجمعوا حولهم نفراً من المماليك، يتخذونهم جنداً وحراساً، ليأمنوا بهم شر قبائل العرب، لا سيما من كان منهم من أنصار العلويِّين والأمويين. وليضمنوا بهم بَقاء حُكّام الأقاليم على الولاء لهم.

وإذا نفوذ هؤلاء المماليك يَقوى شيئاً فشيئاً، وإذا هم يَلُون الأمور دون الخلفاء. وإذا الخلفاء يصبحون كالدُّمَى. وخيوطها التي تحركها في أيدي هؤلاء المماليك.

وكما فعل العباسيون فَعَلَ الأيوبيون، حتى إذا ما كان عهد الصالح أيوب، ضَمَّ إليه من المماليك جملة، وجعل لهم من قلعة الرَّوضة تُكْنَةً.

وإذا هم يشتدّ بأسُهم، حتى إذا ما كان عهد توران شاه، غاضبوه وغاضبهم، فإذا هم يقتلونه، ويُصبح الملك لهم خالصاً، وإذا لهم دولة، هي دولة المماليك البحرية، التي امتدت حياتها ثلاثين ومائة عام (١٣٠) منذ سنة (١٢٥٠) إلى سنة (١٣٨٢) كتب لهم فيها أن ينتزعوا من أيدي الصليبيّين ما بقي لهم في الشام.

وكـان المنصور قـلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠) أحد الملوك الأيـوبيين، قـد أغرم بأن يَخُصّ نفسه بمماليك يختلفون جنسـاً عن المماليـك البحريـة، فلقد كان مَن اختارهم قلاوون من الجراكسـة، على حين كان هؤلاء البحـريون من الترك.

وكمـا أسكن الصالـح أيوب ممـاليكه في قلعـة الروضـة. فَسُمّـوا لهـذا المماليـك البحـرية، أسكن قـلاوون مماليـك الجراكسـة أبراج القلعـة، ولهذا سمُّوا المماليك البُرجية.

وكان لهؤلاء هم الآخرون دولة، امتدت نحواً من ستة وثلاثين ومائة عام (١٣٦)، فلقـد آل إليهم الأمـر بعــد أن أفلت من أيـدي سلفهم المـمـاليـك البحرية سنة (١٣٨٢م) وبقي في أيديهم إلى سنة (١٥١٧م).

وفي أيام آخر سـلاطينهم الغوري، أخـذ السلطان العثماني سليم خـان الأول سنـة (١٥١٢م) في بسط سلطانه على مصـر، واحتـال لهـذه بـأن آتهم الغـوري مُمالأة الفـرس عليه، وكـانت بينـه وبين الغـوري وقعـة بمَـرْج دابق، شمالي حلب سنة (١٥١٦م) قُتل فيها الغوري، وآل ملك الشام إلى سليم.

وأخذ سليم بعدها يقصد قَصد مصر، وكان المماليك البُرجية قد جمعوا أمرهم، وأقاموا طومان باي سلطاناً عليهم.

ويلتقي سليم بطومان باي بالريدانية (العباسية) فيفرّ طومان باي، غير أن السلطان العثماني سليم خان يقبض عليه، ثم يصلبه على باب زويلة.

وكانت هذه نهاية حكم المماليك البُرجية، وصيرورة مصر ولاية عثمانيـة سنة (١٥١٧م). وآمتد هـذا الحكم العثماني نحـواً من قرون ثـلاثة (١٥١٧ ـ ١٧٩٨م).

وعلى آمتداد هذا الحكم العثماني لم تَسلم مصر من فِتَنٍ كثيـرة، كانت بين ذراريّ المماليك مرة، وبينهم وبين الولاة العثمانيين أُخرى.

وأخذ نفوذ المماليك يَقـوى من جديـد حين بدأ نفـوذ الولاة العثمـانيين

يَضعف، وإذا هؤلاء المماليك تجتمع لهم كلمتهم. وإذا لهم زعيم من بينهم يختارونه حاكماً للقاهرة يلقّبونه شيخ البلد.

وكان هؤلاء المماليك قد دأبوا منذ أن كانوا، على الإتيان بمماليك أحداث، يكونون لهم أعواناً إذا ما شبُّوا من أجل هذا كانوا يأخذونهم بألوان من التدريب.

ثم كان أن أصبح في مصر حِزبان من المماليك، يرأس إبراهيم بك حِزْباً، ورأس رضوان بك حِزْباً.

ويتفق هذان الزعيمان، أو الرئيسان، على أن يتناوبا بينهما مشيخة البلد، وإمارة الحَجّ، يَليهما هذا عاماً ويليهما الآخر عاماً.

وما زالت الحال على هذا إلى أن أفلح أن يجمع الأمور في يديه علي بك الكبير.

وكان علي بك الكبير أول ما كان مملوكاً لإبراهيم بك، وكان شابّاً موهوباً، حَظِيَ عند مولاه إبراهيم بك، فأنعم عليه برتبة البكوية، وإذا هو علي بك.

ويموت مولاه إبراهيم بك مقتولاً، ويَلِي هو مشيخة البلد مكانَه. وما إن كان له هذا حتى قَتل قاتلي مولاه.

غير أن هذا لم يَرُقْ المماليك فثارُوا به، ففرَّ إلى بيت المقدس. وأخذَ المماليكُ يُوغرن صدر السلطان العثماني عليه، وإذا السلطان العثماني يطلبه إليه في الآستانة، وكان علي بك لا يخفى عليه ما وراء هذا الطَّلب، فاستنجد بأمير عكّا، الذي سَعى سَعْيَه لدى السلطان العثماني.

ويرضى السلطان العثماني عن علي بك، ويعيده إلى مشيخة القاهرة، شيخ بلد كما كان.

واستيقظت في علي بك أطماعه، فإذا هو يُدَبِّر للاستقلال بحكم مصر سراً، ويتحيَّن الفرصة لهذا.

وتَشُبّ الحربُ بين العثمانيين والروس سنة (١٧٦٨م)، ويطلب العثمانيون من مصر أن تُمِدَّها باثني عشر ألف مقاتل.

ويأخذ علي بك في جمع هذا الجيش، غير أن السلطان العثماني ساوره الشكُّ في أن علي بك يجمع هذا الجيش ليُمِدَّ به الروس، تلقاء أن يُعينوه على الاستقلال بمصر. وإذا السلطان العثماني يُرسل إلى الوالي العثماني بمصر أن يَقْتُلَ علي بك.

وكان لعلي بك عيونه بالآستانة، فأَنْهَوْا إليه ما بَيَّتَهُ له السلطان، وخَبر هذا الرسول الذي أرسله إلى مصر بهذا الأمر.

فتربّص علي بك بهذا الرسول وقتله، قبل أن يصل إلى الوالي العثماني، وأخذ يُثير المماليك على السلطان العثماني، ويُشِيع فيهم أن السلطان العثماني بَعث إلى الوالي يأمره بقتلهم جميعاً.

وكان علي بك خطيباً، فألهب حماسَ المماليك، وإذا هم يُجمعون على خلع الوالي، وإخراجه من مصر لساعته.

وينتهزها علي بك فرصة، ويُعلن آستقلال مصر. ويمتنع عن دفع الجزية للسلطان العثماني، وكان ذلك سنة (١٧٦٩م).

ويرى علي بك في الحرب الدائرة بين العثمانيين والروس فُرصة ثانية، فيُوَطِّد ملكه بمصر. ويُثَنِّي فيرسل جيشاً لغزو الجزيرة العربية، وإذا هو يستولي على جُدة، ثم يستولي بعدها على الجزيرة العربية كلها، ويضع يده على الحرمين الشريفين.

ثم أخذ يولِّي وجهه إلى الشام. فبعث بجيش على رأسه محمد بك أبو الذهب، فَتَمَّ له الاستيلاء على كثير من مدن الشام.

وإذا محمد بك أبو الذهب يَنْفِسُ على صاحبه ما آل إليه، وإذا هو يَخْطُب وُدَّ السلطان العثماني، ثم إذا هو بعد أن استوثق من هذا يعود إلى مصر غازياً، على رأس الجيش الذي خرج به لغزو الشام.

وإذا علي بك يَفِرُّ مرةً أخرى إلى عكا، وهناك يجد أسطولاً للروس، وإذا هذاالأسطول يعينه على استرجاع مدن الشام، التي كان أبو الذهب قد فتحها، وينتهي إلى علي بك، وهو بالشام، أن المصريين بَرِمُوا بحكم أبي الذهب، وأنهم يتوقون إلى قدومه ليُخَلِّصهم من حُكمه.

ويَخِفّ علي بك إلى مصر على رأس قوة صغيرة، وإذا هو يلقى أبا الذهب بالصالحيّة، فيُكْتَب له النصر أولاً، ولكن ما لبث رجاله أن انقلبوا عليه، وإذا الكرّة تكون عليه، وإذا هو يقع أسيراً في يد أبي الذهب، وإذا هو يُحْمَلُ إلى القاهرة، ليموت بها بعد أيام، لما ناله من جراح.

ويُنعم السلطان العثماني على أبي الذهب فيمنحه لقبَ باشا، ويولّيه حُكم مصر سنة (١٧٧٢م) غير أنه لم يهنأ بهذا غير عامين مات بعدهما.

وإذا زمام الحكم يُمسك به آثنان من المماليك هما: إبراهيم بك، ومراد بك، وإذا هما يتولّيان شياخة البلد وإمارة الحج بالتناوب، كما كانت الحال بين إبراهيم بك، ورضوان بك.

وبَقِيا كذلك، إلى أن كانت سنة (١٧٨٦م)، فإذا الحكومة العثمانية تُرسل جيشاً لإخماد نار الفِتَن التي اشتعلت في مصر، وإذا القتال يَنْشَب بين الجند الأتراك، وبين المماليك، وإذا المماليك لا يَصْمِدون، وإذا إبراهيم بك ومراد بك يَفِرّان إلى الصعيد.

وعهد العثمانيون إلى واحد من المماليك، هو إسماعيل بك، ليكون شيخ البلد.

ويَعُمُّ البلاد وباءٌ سنة (١٧٩٠م) قَضى فيما قضى على إسماعيل بك وأسرته، فانتهزها إبراهيم بك ومراد بك فرصة وعادا إلى القاهرة يَلِيَان مشيخة البلد وإمارة الحج، كما كانا قبل. إلى أن كانت غارة الفرنسيّين على مصر سنة (١٧٩٨م)، التي لم يَقْوَ لها إبراهيم بك ومراد بك. وفرّ مراد بك إلى

الصعيـد، كما فـر إبراهيم بـك إلى الشرقيـة، فتعقبهمـا نـابليـون إلى أن أمن عودتهما.

ثم كان القضاء الأخير على المماليـك على يد محمـد علي، فلقد دبّـر للخلاص منهم مذبحة، هي مذبحة القلعة سنة (١٨١١م).

وبعد هذا التقديم الذي أردت بـه أن أُجمل لـك تاريـخ المماليـك منذ بـدأوا على مسرح الحيـاة إلى أن أُسْدِل عليهم السِّتـار. ولقد قـدم لنا شـوقي فصلاً من فصول الرواية. أعني رواية المماليك. وأردت أنا أن تكـون الروايـة بين يديك كاملة.

ولقد طبعت هذه التمثيلية الشعرية طبعتين ، ثانيتهما صورة من الأولى، مهملة الضبط إلا في القليـل الـذي لا نَفْـعَ وراءه، غيـر مستـويـة التقـطيـع الشعـري في مواضـع كثيـرة، ينقصهـا الكثيـر من شروح لجـلاء مـا غَمض، فحققت لهـذه الطبعـة هذا كلَّه، وزِدْت هـذا التقـديم الـذي قـدمت بـه لهـذه التمثيلية.

أما عن تاريخ وضع هذه التمثيلية، فيبدو أنها كانت في الرُّبـع الأول من القرن المتم العشرين.

وبعد، فأرجو أن أكون قد وفقت فيما صنعت.

والله ولي التوفيق،،

إبراهيم الأبياري

ذو القعدة ١٤١٢ هـ/يوليه ١٩٩٢ م

تمهيد

زمن الرواية : حوالى سنة ١٧٧٠ ميلادية.

مكانها : الفسطاط والصالحية وعكا.

المشاركون والمشاركات في الرواية

علي بك الكبير: حاكم مصر، ويلقب بشيخ البلد.

محمد بك أبو الذهب: متبنّي علي بك والخارج عليه ومن أمراء المماليك.

مراد بك : من أتباع علي بك وأولاده.

ضاهر العمر : صاحب حصن عكا وحليف علي بك.

مصطفى اليسرجي : «الجلاب»

آمال :

شمس : إماء معروضات للبيع

زكية :

عشاق : شاب شركسي مع الجلاب

أم محمود : الماشطة والواسطة في بيع الجواري.

رزق الله الوكيل: وكيل علي بك.

بشير بك : من أصحاب علي بك.

عثمان بك : من أصحاب محمد بك.

قائد الأسطول الروسي في عكا.

أمراء

جواسيس

قواد

جند

فتيات

أغوات

خدم

الفصل الأول
في قصر علي بك الكبير

[حجرة من القصر واسعة فخمة على الطراز الشرقي مفروشة بنفيس الطنافس قد نثرت فيها الوسائد والصفف وزين سقفها بثريات الزجاج الملوَّن المشكل وركزت في زوايا أرضها الشمعدانات الكبيرة. . .].

[جلس هناك في انتظار علي بك الكبير، مصطفى اليسرجي (الجلاب) ومعه ثلاث فتيات شركسيات (آمال) و(شمس) و(زكية) وشاب شركسي اسمه عشاق من جنسهن وقرابتهن وأم محمود «الماشطة»].

زكية :

يــا أُمَّ مَـحْمُــودَ تِـلْكَ دُنْيَــا ... وهَـكَــذَا فَلْتَــكُ الـقُـصُــورُ
وَهَكَــذا شَمْسُ في اللَّيَــالِـي ... تَنْــزِلُ هــالَاتِهــا الـبُــدُورُ[1]
قَصْــرٌ سَمَــاوَاتُــهُ الـثُّـرَيَّــا ... وأَرْضُــهُ الـوَشْيُ والحَــرِيــرُ

أم محمود :

ونَحْنُ، يا شَمْسُ، نَحْنُ بُؤْسٌ ... بُيُــوتُنــا الـجِصُّ والحَـصِيــرُ
نُـنْقَــلُ مِـنْ حُـفْــرَةٍ لِـلَحْــدٍ ... تَـسَــاوَت الــدُّورُ والـقُـبُــورُ

شمس :

يــا أُمَّ مَـحْمُــودَ خَـبِّـرِيـنِـي ... أَهَــهُـنَــا يَــنْـزِلُ الأَمِــيــرُ

---

(١) الهالة: دائرة من الضوء تحيط بجرم سمائي.

أم محمود : أَجَلْ

شمس : ومَنْ ذَا ومَا يُسَمَّى؟

أم محمود : سُلْطَانُ مِصْرٍ عَلِي الكَبِيرُ

شمس :

والـطِّيبُ يـا أُمُّ لم تَـشُمِّي   الـنَـدُّ والمِسْـكُ والعَبِـيـرُ

مصطفى :

لا تَعْجَبِي هُـمْ مُلُوكُ مِـصْـرٍ   دُنْيَـاهُمُ الـطِّيبُ والبَـخُـورُ

زكية :

ومَـا الأَمـيـرُ يَـسْـرَجِـيُ   مـا لَـهُ مِـن الـعُـمُـرْ؟

مصطفى :

قـد جَـاوَزَ الـشَّـبـابَ إلاّ أَنَّـه كَـهْـلٌ نَـضِـرْ

أم محمود الماشطة :

مـا بَـلَدُ العِـزّ غَـيْـرَ مِصْـرٍ   كَـيْفَ طَعِمْتُـنَّ يـا بَـنَـاتُ

شمس :

طَعَـامُ شَـاهٍ طَعَـامُ عُـرْسٍ   لـم يَـرْوِ أمثاله الـرُّوَاةُ

مـا الـقَصْـرُ مـا الـفَـرْشُ مـا الأَوَانِي

مـا الأَكْـلُ مـا الشُّـرْبُ مـا الـطُّهَـاةُ

مصطفى :

هـذا هـو المُلْكُ مُلْكُ مِصْـرٍ   وهَـكَـذَا الـحَظُّ والـهِـبَـاتُ

وأَنْتِ آمالُ

آمال :

خَلِّيَانِي   مـا تِـلْكَ إلَّا خُـزَعْـبَـلَاتُ

القَصْرُ كُوخِي عَلَى جِبَـالٍ   جَـلَّلَهـا الـثَّلْجُ والـنَّـبَـاتُ

إذا عَـوَى الذئب مِنْ مَكَـانٍ أَجَـابَـهُ الـكَـلْبُ والـرُّعَـاةُ

زكية :

أَجَـلْ حَننَّـا لِلْجِبَـالِ الشِّيبِ وللشِّتَـاءِ القَـارِسِ العَصِيب
وكُـلِّ رَاعٍ وَاقِـفٍ لـلذِّيـبِ أَمَّنَ خَوْفَ الحَمل الـرَّعِيبِ[1]
تَلْمَحُـهُ كـالعَلَمِ المَنْصُـوبِ والوَعْلِ في الجِيئَةِ والذُّهُـوبِ
والدَّيْدبَانْ في فَمِ الدُّرُوبِ[2]

مصطفى :

بَـخٍ بَـخٍ مَـرْحَـى يـا كَـوْمَـةَ الـشَّحْـمِ
يـا جَـزْرَ بَـلُّوطٍ لَـكِنْ مِـن الـلَّحْـمِ[3]

أم محمود :

أَعَـرَفْتَ يـا جَـلَّابُ أَنَّـ ـكَ جِئْتَ بالحِمْلِ الثَّقِيلْ
عَنْ تِلْكَ كَـانَ لَنَـا غنًـى مـا تِلْكَ إلَّا سَقْطُ فِيـلْ

مصطفى :

يـا أُمَّ مَحمُـودَ آقْصِـدِي لِـكُـلِّ سِـلْعَـةٍ ثَـمَـنْ
إنَّ سَـرَاةَ الـنَّـاسِ فـي مِـصْـرَ يُحِـبُّـونَ السِّمَنْ
وهَـذِهِ الـكَـوْمَـةُ فِيـ ـهَـا سِمَنٌ لَكِنْ حَسَنْ

[يسمع أذان العصر بصوت شجي من محراب في دار الإمارة فتلتفت شمس بأم محمود وتقول]:

شمس :

مـا هَـذِهِ الـرَّنَّـه فـي قُـبَّـةِ الـقَـصْـرِ

زكية :

صَـوْتٌ مِـن الـجَـنَّـهْ يِـهْـتِـفُ بـالْـعَـصْـرِ

---

(١) الرعيب: الجبان الذي لا يبصر شيئاً إلا فزع منه.
(٢) الديدبان: الحارس. والدروب: جمع درب، بالفتح: وهو الطريق يؤدي إلى ظاهر البلد.
(٣) الجزر: النحر.

أم محمود :

مَــا زَالــت الــسُّنَّــه والــبِــرُّ فــي مِــصْــرِ
يَــا رَبُّ أيِّــدْهَــا بــالــعِــزِّ والــنَّــصْــرِ

شمس لعشاق :

قُــمْ غَــنِّ يــا عُــشَّــاقْ أُغْــنِــيَــةَ الــمــعَّــازْ[1]
ونَــاجِ بــالأشْــوَاقْ أَحِــبَّــةَ الــقُــوقَــاز

عشاق يغني :

كُــوخٌ وَرَاءَ الــجِــبَــالِ مُــكَــلَّــسٌ بــالــجَــلِــيــدِ
فَــدَيْــتُــهُ لا أُبَــالِــي بِــكُــلِّ قَــصْــرٍ مَــشِــيــدِ
مَــا مَــرَّ يَــوْمــاً بِــبَــالِــي إلاّ بَــلَلْــتُ خُــدُودِي

* * *

يَــا مَــنْــزِلَ الــقُــوقَــازِ عِــمْ مِــنْ بَــعِــيــدٍ صَــبَــاحَــا
لَــمَــعْــتَ لَــمْــعَــةَ بَــازِي فِي الــجَــوِّ سَــلَّ الــجَنَــاحَــا[2]
سَــلِّــمْ عَــلَــى الــمَــعَّــازِ إذا غَــدَا أو رَاحَــا

* * *

وقُــلْ لَــهُ يَــا رَاعِــي فِي الــنَّــايِ هَــاتِ الأنِــيــنَــا
إسْــمَــعْ على الْــبُــعْــدِ، رَاعِ صَــوْتــاً مِــن الــغَــائِــبِــيــنَــا[3]
هَــلْ أنْــتَ لــلــعَــهْــدِ رَاعِ أمْ قَــدْ تَــرَكْــتَ الــحَــنِــيــنَــا[4]

[بعد صمت وإطراق من الجميع]

أم محمود للبنات :

تَــعَــالَــيْــنَ، بَــنَــاتِ الــشَّــرْكَسِ الــغِــيــدَ، تَــعَــالَــيْــنَــا

زكية : ولِمْ؟ ماذا؟

---

(١) المعاز: صاحب المعز.
(٢) البازي: جنس من الصقور.
(٣) راعِ: راقب. الأمر من راعى.
(٤) راعِ: حافظ.

أم محمود :

تَعالَيْنَ تَــزِدْكُنَّ يَــدِي زَيْــنَــا
فَــلاَ أَتْــرُكُ لا شَــعْــرَا ولا خَــداً ولا عَــيْــنَــا

أم محمود لشمس :

تَـعَــالَـيْ أيُّــهَــا الـشَّــقْــرَا وهَــاتِـي شَعْــرَكِ التِّــبْــرِي
هَــلُمِّــي اَقْــتَــرِبي مِــنِّــي وأَلْقِي الــرَّأْسَ في حِجْــرِي
غَــدًا يــأْخُــذُكِ الــشَّــارِي ومــا تَــدْرِيـنَ مَـنْ يَشْــرِي

أم محمود لآمال :

تَـعَــالَـيْ أيُّــهَــا الـسَّــمْــرَا فــإنَّ الـخَيْــرَ فـي الـسُّــمْــرِ
أَشَــعْــرٌ ذاكَ آمَــالُ أَمْ الــلَّيْــلُ إذَا يَــسْــرِي
قَــضَــاكِ الله لــلوَالِــي أو الــحَــاكِــمِ فــي مِـصْــرِ

آمال في غضب :

دَعِــيــنِــي ، مَــرْأَةَ الــسُّــوْءِ دَعِــيــنِــي ، بُــومَــةَ الــشَّــرِّ
قَــضَــاكِ الله لــلجُــوعِ ولــلسِّــجْــنِ ولــلقَــبْــرِ

أم محمود لمصطفى :

يا سَيِّدِي النَّخَّـاسَ هَذِهِ ضَبُـعُ فَارْجِعْ بِهَـا لا تَشْرِهَـا ولاَ تَبِعْ
إلاَّ إذَا ساوَمنَا فِيهَا سَبُعْ

آمال إلى صاحبتيها :

قُومَا إلَيْهَا

شمس : تَعالَيْ

آمال : لا ، لا أُحِبُّ الفُضُولاَ
عَــلَيَّ ثَــوْبُ جُــمَــالُ مــا آحْتَــاجَ يَــوْمــاً ذُيُــولاَ[1]

---

(١) جمال بضم ففتح ، الغاية في الجمال.

شمس : ما الخَطْبُ مِمّ غَضِبَتْ آمَالُ؟

زكية : ما بَالُها ساخِطَةً، ما بَالُ؟

أم محمود : غَبِيَّةٌ ما عَرَفَتْ ما المالُ

مصطفى همساً لشمس: يا شَمْسُ

شمس : يسرجِي

مصطفى :

آنْظُرِي آمَالُ ماذا غَمَّهَا
مِيلِي إلَيْهَا وخُذِي فيما يُسَرِّي هَمَّهَا

آمال :

بَلِ الحَقُّ مَعِي وَحْدِي وأَنْتُنَّ الغَبِيَّاتُ
سَوَامٌ نَحْنُ أَمْ نَحْنُ نُفُوسٌ آدمِيَّاتُ[1]

أم محمود لزكية:

وأَنْتِ، يا ضَخْمَةُ، يا بَدِينَهْ يا مَحْمَلاً يَخْطِرُ بالمَدِينَهْ[2]
قُومِي إليَّ، أَقْبِلي للزِّينَهْ رُزِقْتِ عُمْدَةً بِلاَ قَرِينَهْ
ثَرْوَتُهُ في دَارِهِ دَفِينَهْ يَطْلُبُ مِنَّا آمْرَأَةً سَمِينَهْ

مصطفى :

يا أُمَّ مَحْمُودَ أرَى آمالَ جِدَّ مُغْضَبَهْ
هائِجَةً صاخِبَةً ثَائِرَةً مُقَطِّبَهْ
في وَجْهِهَا تَكَادُ تَبْدُو نَفْسُهَا المُعَذَّبَهْ

مصطفى لآمال:

آمالُ، بِنْتي آسْتَرِيحِي وقَلِّلِي التَّفْكِيرَا

---

(١) سوام: أي سوائم: وهي كل إبل أو ماشية ترسل في الرعي ولا تُعلف.
(٢) المحمل: الهودج.

لا تَحْمِلِي هَمَّ شَيْءٍ دَعِي لِيَ التَّدْبِيرَا
عَسَايَ أَغْنَمُ مُلْكاً أَوْ أَسْتَفِيدُ أَمِيرَا
فَتَحْكُمِينَ بِمِصْرٍ وتَنْزِلِينَ القُصُورَا
مُلْكُ الجَمَالِ كَبِيرٌ زِيدِيه مُلْكاً كَبِيرَا
صُونِي جَمَالَكِ هَذَا عَنْ أنْ يَعِيشَ فَقِيرَا

آمال :

يا أَبِي ما تُرِيدُ بِي أَنْتَ تَلْهُو وتَلْعَبُ
مَلْكَةٌ أوْ أَمِيرَةٌ أَبِهَذَا أُلَقَّبُ
حُلُمٌ ثُمَّ يَنْقَضِي وأَمَانِيُّ تَكْذِبُ
كَيْفَ تَسْمُو إِلَى العُلَى آبْنَةٌ بَاعَهَا الأَبُ

ثم مستمرة :

أبي .. تاجِرْ كَمَا شِئْتَ وكَيْفَ أَرَدْتَ فاحْتَرِفِ
ولَكِنْ لا تَرُمْ ثَمَنِي ولاَ فِي هَذِهِ الغُرَفِ
فَبَيْعُ الجِنْسِ فاحِشَةٌ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ آعْتَرِفِ
أبِي، شَرَفٌ عَلَى فَقْرٍ ولا فَقْرٌ إلى الشَّرَفِ

مصطفى لنفسه :

يا مَالُ ما فِيكَ مِنْ سِحْرٍ ومِنْ خَطَرٍ
لَقَدْ نَزَلْتَ بِنَا عَنْ رُتْبَةِ البَشَرِ
تاجَرْتَ بالجِنْسِ حَتَّى صَارَ مُحْتَقَراً
عِنْدَ الشُّعُوبِ ومَا جِنْسِي بِمُحْتَقَرِ
ذَهَبْتُ بالشَّرْكَسِ الآسَادِ أَعْرِضُهُمْ
عَرْضَ الرُّعَاةِ صِغَارَ الشَّاءِ والبَقَرِ
لَوْلاَكَ ما بِعْتُ أَطْفَالِي، فَمَا كَبِدِي
مِنَ الحَدِيدِ ولا قَلْبِي من الحَجَرِ

مصطفى يقبل على آمال:

طِـفْـلَةٌ آمَـالُ أَنْـتِ ... أَنْـتِ مـا تَـدْرِيـنَ شَـيَّـا
هَـهُـنَـا الـدُّنْـيَـا ومُـلْكُ ... لَـكِ في الـدُّنْـيَا تَـهـيَّـا

آمال :

خَـلِّ عَنْـكِ المُلْكَ والقَصْـ ... ـرَ ولاَ تَـذْكُـرْ عَـلِيَّـا
إنَّ مـا تَـصْـنَـعُ بـيَ قَـدْ ... بَـغَّضَ الـدُّنْـيَـا إلَـيَّـا

ثم لنفسها :

رَبِّ جَنِّبْنِي شَبابـاً في البَلَدْ ... لا يُصِبْنِي مِنْهُمُ، رَبِّ، أَحَـدْ
لي أخٌ في أرْضِ مِصْر باعَـهُ ... والدي لم يخش مِنْ بَيْعِ الوَلَدْ
رَكِبَ الآفَـاقَ فَـرْخـاً ما لَـهُ ... مِنْ جَنَاحِ الأبِ، والأمِّ سَنَدْ
فَجَـعَ القَـرْيَـةَ فِيـهِ وسَقَى ... أُمَّه الثُّكْلَ فمـاتَتْ بـالكَمَـدْ
لَـسْتُ أَنْـسَى عَـبَـرَاتٍ إثْـرَهُ ... قَـدْ جَرت شَيَّعْنَـهُ حتَّى ٱبْتَعَدْ
وهُـوَ يُـومِي بِيَـدٍ مِنْ رِقَّـةٍ ... وأبِي مِنْ غَضَبٍ يُـومِي بِيَـدْ
رَبِّ، مـا صَارَ إلـى أين ٱنْتَهَى ... أهْو في الخَيْلِ لِـوَاءٌ أمْ وَتَدْ
يُوسُفُ المَسْجُودُ في مِصْـرَ لَهُ ... أَمْ مِن الجُوعِ لِيُوسُفٍ سَجَـدْ

زكية :

وأيْـنَ بَـنُـو الـسُّلْطَانِ؟ لِـمْ لا نَـراهُـمُ
أَلَـيْسَ لَـهُ ٱبْـنٌ يَـغْـتَـدِي ويَـرُوحُ
يَـرِفُّ الشَّبَـابَ الـغَضُّ مِنْ طَيْلَسَـانِـهِ
ويَـنْـفَـحُ رَيْـحَـانُ الـصِّبَـا ويَـفُـوحُ[1]

شمس :

فَـلاَ خَـيْـرَ في دَارٍ إذا لـم يَـطُفْ بِهَـا
نَـسِيـمُ شَـبَـابٍ أو شُـعَـاعُ جَـمَـالِ

---

(١) الطيلسان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف. وينفح ريحان الصبا: تنتشر رائحته.

ولا خَيْـرَ في رَوْضٍ بِـغَيْـرِ بَـهَـارَةٍ
ولا خَيْـرَ في قَـاعٍ بِـغَيْـرِ غَـزَالِ[1]

مصطفى : أَجَلْ لَهُ آبْنٌ

شمس : ما آسْمُهُ؟

مصطفى : مُحَمَّدُ العَالِي النَّسَبْ

شمس : لَعَلَّه أَبو الذَّهَبْ؟

زكية : لله ما أَحْلَى اللَّقَبْ
فَفِيهِ رَنَّةُ الذَّهَبْ

مصطفى :

مُـتَبَّـني الأَمِـيـرِ والمُـتَـبنّـوْ نَ بِهَـذي البِـلَادِ كـالأَبْنَـاء
نَعَتُـوهْ لَنـا فَقَـالُـوا أَمِيـرٌ أَرْيحِيٌّ مِنْ صَفْـوَةِ الأُمَـرَاءِ[2]
تُغْدِقُ الأَلْسُـنُ المَدِيحَ عَلَيْهِ وتَفِيضُ الشِّفَـاهُ حُسْنَ الثَّنَاءِ
مَلِكٌ سابِقٌ إلى كُـلِّ فَضْـلٍ نـابِغُ الغَـرْسِ عَبْقَـرِيُّ البِنَـاءِ

ثم مستمراً :

وأَنْـتِ يـا أُمَّ مَـحْـمُـو دَ مـا الَّـذِي تَـعْلَمِينَـا؟

أم محمود :

مُـحَـمَّـدُ لَـيْسَ بَـرًّا ولَا وَفِـيّـاً أَمِـيـنَـا
بـالأَمْسِ عَـقَّ أَبـاهُ فَـكَـانَ شَـرَّ الـبَنِـيـنَـا
والـيَـوْمَ يُشْهِـرُ حَـرْبـاً عــلى الأَمِـيـرِ زَبُـونَـا
وأَمَّا أَخُوهُ

زكية : كَيْفَ؟ مَنْ؟ هَلْ لَهُ أَخٌ؟

---

(١) البهارة: واحدة البهار: وهو نبات طيب الريح. والقاع: أرض مستوية مطمئنة عما يحيطها.
(٢) الأريحي: الذي يهن المعروف.

أم محمود : أَجَلْ، وهْوَ أَيْضاً لَمْ يَلِدْهُ أَبُوهُ

زكية :

إذَنْ فَـعَـلِيٌّ والِـدُ الـنَّـاسِ كُـلِّهِـمْ
وكُـلُّ شَـبَـابِ الـضَّـفَّـتَـيـنِ بَـنُـوهُ
وكَيْفَ الفَتَى يـا أُمَّ مَحْمُـودٍ؟ مـا آسْمُـهُ؟

أم محمود : غُلَامٌ وَضِيءُ المَفْرِقَيْنِ جَوَادُ
رَأَيْتُنَّـهُ مِثْلِي تَـذَكَّـرْنَ سَـاعَـةً رَأَيْنَـاهُ

شمس : مَنْ؟ ما آسْمُ الأَمِيرِ؟

أم محمود : مُرَادُ

أم محمود لآمال:

هَـنَـاكِ آمَـالُ آبْـنَـتِـي هَـنَـاكِ

آمال : مـا ذَاكِ يـا أُمُّ آذْكُـرِي مـا ذَاكِ؟

أم محمود : الحَظُّ يا بِنْتَاهُ قَدْ أَعْطَاكِ
عُشِقْتِ عِشْقاً سَوْفَ يُرْوَى في السِّيَرْ
عِشْقٌ لَهُ في مِصْرَ والشَّرْقِ خَطَرْ
وعاشِقٌ عالي السَّنَاءِ كالقَمَرْ

آمال : يا أُمَّ مَحْمُودٍ هُدِيتِ.. ما الخَبَرْ؟

أم محمود : لَقِيتُ مُرَاداً أَمْسِ

آمال : ماذا يُهِمُّنِي؟

أم محمود : عَجِيبٌ ألَا يَعْنِي النِّساءَ مُرَادُ؟
فَتًى عَلَمٌ في مِصْـرَ.. في الـشَّـرْقِ كُلِّهِ
نَـبِـيـلٌ كـأَبْـنَـاءِ الـمُـلُوكِ جَـوَادُ

يُحِبُّ عَلِيّاً جُهْدَهُ ويُحِبُّه
عَلِيٌّ فَبَيْنَ السَّيِّدَيْنِ وِدَادُ
كأنِّي بِهِ نالَ الوِلَايَةَ وآنْتَهَتْ
إليه أُمُورٌ في غَدٍ وبِلَادُ
يُحبُّكِ، يا آمَالُ، حُبّاً مُبَرِّحاً
عَلَى مِثْلِهِ ما آنْضمَّ قطُّ فُؤَادُ

زكية : عَرَفْتُهُ

آمال : ومَنْ؟

زكية : فتًى أمْسِ إلى السُّوقِ حَضَرْ
ذاكَ الخَفِيفُ كالقَنَا ةِ والوَضِيءُ كالقَمَرْ
أتى إلينا أمْسِ، ما آخْـ ـتَصَّ سِوَاكِ بالنَّظَرْ

آمال :
عَرَفْتُهُ ذَاكَ الوَقَاحُ في دعابة الهَذَرْ[1]
ذاكَ الَّذِي قَلَّبَنَا أمْسِ كتَقْلِيبِ الحُصُرْ

شمس :
وكُنْتِ أَنْتِ قِبْلَةَ الْـ ـلَحْظ ومَوْضِعَ الفِكَرْ

أم محمود :
وأَنْتِ كُنْتِ وزَكِيّـ ـةُ الحَصِيرَ المُحْتَقَرْ

آمال : أوَ ذَاكَ الَّذِي تَقُولِينَ يَهْوانِي؟

أم محمود : أجَلْ وهُوَ أرْفَعُ النَّاسِ قَدْرَا
هُسِّي صَهٍ هُسَّ آنْظُرَا ها هُوَ ذا قَدْ حَضَرَا

[يدخل مراد بك]

---

(١) الوقاح: القليل الحياء.

مراد بك عند الباب لنفسه:

وَيْحَ لِيْ، رَبِّ، ما أَرَى: أُمُّ محمـ ـودَ إِلَـهِـي وهَـذِهِ آمَـالُ
هِـيَ في الـقَصْـرِ كَـيْفَ جَـاءَتْ إِلَـيْـهِ
كَـيْفَ وافَـاهُ مُـصْـطَفَـى الـمُـحْـتَـالُ؟
أَتُـرَاهَـا قَـد حَـازَهَـا لِعَلِيٍّ جَبَرَ الجَاهُ واَحْتَـواهَـا المَـالُ
كِـيْفَ هَـلْ، بَـعْـدُ، فـي فُـؤَادِ عَـلِيٍّ
مَـوْضِـعٌ يَـحْـتَـوِي عَـلَيْـهِ الـجَـمَـالُ
رَبِّ،مـا لِي أَهَـابُهـا كُلَّمَـا قُمْتُ ومـالِي يـرُدُّنِي الإجْـلالُ
وأنَـا الـذِّئْبُ لَـمْ تُـسَلطْ عَـلَى قَـلْبِي
مَـهَـاةٌ ولَـمْ يُـسَـيْـطِرْ غَـزَالُ

ثم لأم محمود ومن معها:

سَـلاَمٌ أُمَّ مَـحْـمُـودٍ سَـلاَمٌ يـا بُـنَـيَّـاتِـي

أم محمود : سَلاَمٌ لَكَ، مَوْلاَيَ

زكية : وعُلْوِيُّ التَّحِيَّاتِ

مراد بك ويشير إلى آمال:

أُمَّ مَـحْـمُـودَ مـا لَـهَـا مـا لِـتِـلْكَ الـمُـحَـبَّـبَـهْ

أم محمود : ما لَها سَيِّدِي

مراد بك :

انـظُـري كَـيْـفَ تَـبْـدُو مُـقَـطِّبَـهْ
لَـقِـيَـتْـنـي فَـلَمْ تَـقُـمْ بِـلِقَـائِـي مُـرحِّـبَـهْ
ما لَهَا اليَومَ مِثْلَ عَهْدِي بِهَا، أَمْسِ ، مُغْضَبَهْ

أم محمود :

سَـيِّـدِي قَـدْ ظَـلَمْـتَـهَـا إِنَّ بِـنْـتِـي مُـهَـذَّبَـهْ
غَـيْـرَ أَنِّـي وَجَـدْتُـهَـا مُـذْ بَـدَا الصُّبْـحُ مُتْعَبَـهْ

شمس :

مَـعْـذِرةً، يـا سَـيِّـدِي لأُخْـتِـيَ الـمُـعَـذَّبَـهْ
نَـحْـنُ، الـنَّـهـارَ كُـلَّهُ كـالـسِّـلَعِ الـمُـقَـلَّبَـهْ

مراد بك : مُصْطَفَى

مصطفى في ناحية وحده: سَيِّدِي

[لنفسه]: أهَذَا مُرَادُ؟

وَيْحَهُ! ما أَضَلَّهُ! فِيْمَ جاءَ؟

مراد بك : مُصْطَفَى هَلْ نَسِيتَ أنّا ٱلْتَقَيْنَا

عِنْدَ سُوقِ الرَّقِيقِ، أَمْسِ، مَسَاءَ

مصطفى : سَيِّدِي ما نَسِيتُ واليَوْمَ نَسْتَأ

نِفُ في حُجْرَةِ الأميرِ اللِّقَاءَ

مراد بك : والَّتِي ٱخْتَرْتَ مِنْ ظِبَائِكَ

مصطفى : نُرْجِيَها إلى أَنْ يَرَى الأَمِيرُ الظِّبآءَ[1]

مراد بك : أَتُرَى ما تَزَالُ تَأْبَى

مصطفى : أَجَلْ

مراد بك : وَيْحَكَ هَلْ يَمْلِكُ الرَّقِيقُ الإِبَاءَ

آمال : سَيِّدِي مَنْ عَنَيْتَ؟ قُلْ لِي بِمَنْ عَرَّضْتَ؟

مراد بك : أَعْنِي المَلِيحَةَ الحَسْنَاءَ

آمال : سَيِّدِي إنَّنا حَرَائِرُ ما زِلْنَا

مراد بك : ولَكِنْ غداً تَصِرْنَ إمَاءَ

---

(١) نرجيها: أي نرجئها ونؤخرها.

آمال : وغَدُ سَيِّدي عَلَيْهِ غِطَاءٌ أتُرَى عَنْ غَدٍ كَشَفْتَ الغِطَاءَ

مراد بك :

قُمْ مُصْطَفَى، هَذِهِ الحَسنَاءُ تُعْجِبُنِي
أَلَيْسَ يَكْفِيكَ فِيهَا أَلْفُ دِينَارِ؟

مصطفى : أَلْفٌ! قَبِلْتُ.

مراد بك : إذَنْ تَأْتِيكَ كامِلَةً
فاخْرُجْ بِبِنْتِكَ واحْمِلْهَا إلى دَارِي

آمال : أَبِي أَبِي أَنْتَ تَمْضِي بي وتَحْمِلُنِي
كالشَّاةِ! هَذَا لَعَمْرِي أَعْظَمُ العَارِ

مصطفى : آمَالُ

آمال :

قِفْ، أَنْتَ عَبْدُ المَالِ يا أَبَتِي
تُلْقِي البَرِيءَ لأَجْلِ المَالِ في النَّارِ
لا، سَيِّدي، لا، أَبِي، لا تذكرا ثَمَناً
فَلَسْتُ مَخْلُوقَةً للبائِعِ الشَّارِي

مصطفى لنفسه :

رَبَّاهُ أَعْظَمُ مِنْ وَجْدِي ومِنْ شَفَقِي
عَلَى ٱبْنَتِي اليَومَ إعْجَابِي وإكْبَارِي
وأَنْتَ تَعْلَمُ والأَفْعَالُ شاهِدَةٌ
أَنَّ ٱبْنَتِي حُرَّةٌ مِنْ نَسْلِ أَحْرَارِ
يا ألفُ، سُحْقاً، ويا مالُ ٱمْضِ مِنْ سُبُلي
تَقَطَّعَتْ مِنْكَ أَسْبَابِي وأَوْطَارِي[1]

ثم لآمال : آمالُ، هَيَّ ٱذْكُري لِي كَيْفَ أَدْفَعُهُ

(١) السبل: الطرق، واحدها سبيل. والأوطار: المآرب.

ثم لنفسه : ماذا أَقُولُ فإنِّي لَسْتُ بالدَّارِي

آمال :

أَبِـي أمَــا نَحْـنُ في دَارِ الأَمِـيــر «عَـلِي»
إنِّــي لَــجَــارَةُ حُــرٍّ مــانِــعِ الــجَــارِ
لا أَبْــرَحُ الـقَـصْــرَ إلاّ عَـنْ مَـشِــيئَـتِـهِ
فـحُكْـمُــهُ هُــوَ فيّ الـنَّــافِـذُ الجَــارِي

مراد بك :

وَيْــحَ لِــي قَــدْ رُدِدْتُ أَقَــبَــحَ رَدٍّ
وأبَــتْ أنْ تُـجِـيبَـنِي الــحَــسْــنَــاءُ

لمصطفى : سَنَرَى مَنْ يَفُوزُ بـالبِنْتِ، يـاوَغْدُ

لآمال : ومَنْ يَقْتَنِيك، يا حَمْقَاءُ

[ويخرج مراد بك]

آمال لنفسها :

مــا بــالُ قَــلْبِـي بِـمُـرَادٍ مُـذْ تَـلاقَـيْـنَـا آشْـتَـغَـلْ
لَــعَــلّنِــي أحْــبَـبْـتُــه لاَ، لاَ، فَـمَـالِي والـرَّجُــلْ
عَــسَــايَ قَــدْ هِـمْــتُ بِـهِ هَــذَا لَــعَـمْــرِيَ الــخَـبَــلْ

خَـيَــالُــهُ فــي فِـكْــرَتِــي فــي كُــلِّ سَــاعَــةٍ مَــثَــلْ
مــا لِــي أُحِسُّ لاعِــجــاً بَيْنَ الجَــوَانِــحِ آشْتَـعَــلْ[1]
إنْ فُــتِــحَ الــبَــابُ يُــرَى أَوَّلَ إنْــسَــانٍ دَخَــلْ
أوْ جِــيءَ بــالــزَّادِ وَجَــدْتَــهُ بِــجَــانِــبِــي أَكَــلْ
وإنْ شَــرِبْــتُ خَــضِــرَ الْـ ـمَــاءَ فَــعَــلَّ ونَــهَــلْ
قَــدْ أَخَــذَتْ صُــورَتُــهُ عَــلَى مَشَــاعِــرِي الــسُّبُــلْ
وحَــيْــثُ سِــرْتُ طَــافَ بِــي وأيْــنَــمَــا حَــلَلْتُ حَــلْ

(١) اللاعج: الهوى المحرق.

أم محمود تنظر إلى الباب وتقول:

أرى الأَبْــوَابَ قَــدْ فُـتِـحَـتْ وأَسْــمَــعُ وَقْــعَ أَقْــدَامِ

مصطفى :

عَــلِيٌّ جَـاءَ، قُــمْــنَ لَــهُ بــإجْــلاَلٍ وإعْــظَامِ

[يدخل علي بـك وفي حاشيتـه رزق الوكيـل. . الأغا مـرجان. بعض الخدم].

علي بك :

أَضَعْنَـا نَهارَكَ، يــا مُصْـطَفَى أَطَلْنَـا آنْتِـظَارَكَ لا عَنْ جَفَـا

مصطفى :

بِـبَــابِ الأَمِيــرِ وَلِـيِّ النِّـعَـمْ يَـطِيبُ الوُقُـوفُ لأَوفَى الخَدَمْ

علي بك [همساً لمصطفى]:

يــا مُـصْــطَفَى قَــدْ بِـعْـتَـنـي مِــنْ سَــنَــوَاتٍ وَلَــدَا

مصطفى :

أَجَــلْ صَــبِــيٌّ كَــانَ مِــنْ أَذْكَـى الـصِّـغَــارِ مَـحْــتِـدَا

علي بك :

مــا آرْتَـبْـتُ فِــيــهِ سَــاعَــةً أنْ سَــيَــكُــونُ سَــيِّــدَا

مصطفى :

عــاشَ أَبُــوهُ لا أَرَى أَبَــاهُ إلاّ أَسَــدَا

علي بك :

ولَكِنَّــه لم يَـعـدُرْ في الـبِــلاَدِ ولَمْ يَعْـرِفْ النَّاسَ حَتَّى فَسـدْ

فَسَــلَّ الحُسَـامَ وهَــزَّ القَنَــاةَ وأَصْبَـحَ عِزْرِيـلَ هَـذَا البَلَدْ[1]

---

(١) عزريل: أي عزرائيل ملك الموت.

مصطفى :

ذَاكَ ذِئْبٌ لَمْ أَبِعْهُ حَنَشٌ غَيْرِيَ بَاعَهْ
بِئْسَ ما بَاعُوكَ، يا مَوْ لَايَ، يا شُؤْمَ البِضَاعَهْ

علي بك : وأيْنَ البُنَيَّاتُ؟

مصطفى :

ها هُنَّ قُمْنَ وقاراً لِمَوْلَايَ في المَجْلِس

علي بك :

تَخَيَّرَ الحُسْنُ قَبْلِي فَكَيْفَ كَيْفَ آخْتِيَارِي

علي بك [لرزق]: يارِزْقُ، ماأَنْتَ راءٍ

رزق الوكيل : كَذَا تَكُونُ الجَوارِي

أم محمود :

بَلْ قُلْ ثَلَاثُ شُمُوسٍ تَنَزَّلَتْ في نَهَارِ

علي بك [ممازحاً]:

مَنْ أَنْتِ، يا شَرَّ وَجْهٍ ومَنْ أَحَلَّكِ دَارِي؟

أم محمود :

أنَا، يا مَوْلَايَ، حُسْنُ المَاشِطَةْ أنا في أمر البَنَاتِ الوَاسِطَةْ

ثم لنفسها :

آهِ مَنْ لِي بِحَيَاةٍ ثانِيَهْ لَيْتَني أَرْجِعُ يَوْماً غانِيَهْ
لَيْتَنِي، يا لَيْتَنِي، يا لَيْتَنِي آهِ لو ينفعُ قَوْلِي: لَيْتَني!

[أم محمود. تأخذ يد شمس وتأتي بها]:

فَهَذِي كَآسْمِهَا شَمْسٌ ولَكِنْ حُسْنُها أَحْسَنْ

علي بك :

تَعَالَى الله، ما أَبْهَى تَعَالَى الله، ما أفْتَنْ

[ثم ترجع شمس وتأتي بزكية]:

أم محمود : وهذه زَكِيَّهْ.

علي بك [معرضاً عنها ومشيراً إلى آمال]:
وهَذِهِ الحُوريَّهْ؟

أم محمود :

مَهَــاةٌ فَـدَاهــا الغِيــدُ مِنْ شَــرْكَسِيَّــةٍ
لَـهَــا سِيــرَةٌ عِـنْـدَ الـمُــلُوكِ تُــدَارُ
إذا بَــرَزَتْ وَدَّ الـنَّــهــارُ قَـمِـيـصَـهَــا
يُـغِـيـرُ بِــهِ شَـمْسَ الـضُّـحَى فَـتَـغَــارُ
وإنْ نَـهَـضْـتَ لـلمَــشْـي وَدّ قَــوامَــهَــا
نِـسَــاءٌ طِـوَالٌ حَــوْلَـهَــا وقِـصَــارُ
لَـهَــا مَـبْسِمٌ عَــاشَ الـخَلِيــجُ لأَهْـلِهِ
وعَــاشَــتْ لآلٍ فـي الـخَلِيـج صِـغَــارُ

علي بك : ما آسْمُ هَذِي الفَتَاةِ؟

أم محمود : آمالُ الحَسْنَاءُ

علي بك لآمال : آمالُ كَيْفَ أَلْفَيْتِ قَصْرِي

آمال :

جَنَّةُ الله، يا أَمِيرُ، عَلى الأَرْضِ ولِــمْ لا؟ أَلَسْتَ سُلْطَانَ مِصْرِ

علي بك :

وهَــذَا الــوَشْــيُ والــدِّيـبَــا جُ مــا مَــوْقِـعُــهُ مِــنْــكِ؟
وهــاتِيــكَ الـمَـصَـابِـيــحُ مِــن الــبِـلَّورِ والــسِّــلْكِ
وهَــذا الـخَشَـبُ المَـصْـنُــو عُ بــالـصَّـنْـدَلِ والـمِـسْـكِ
لَــقَــدْ طُـفْـتِ عَــلَى فــارِ سَ والـقُــوقَــازِ والـتُّــرْكِ
وأُدْخِــلْتِ قُـصُــورَ الـعِــزِّ والـثَّــرْوَةِ والـمُــلْكِ

فَهَـلْ أَبْصَـرْتِ مـا يُـشْبِـهُ   هَـذَا الـصُّنْـعَ أو يَـحْكِـي؟

ثم مستمرّاً :

وكُـلَّ مـا أَبْـصَـرْتِ فـي   قَـصْـرِيَ مِنْ صُنْـعِ البَـلَدْ
فَـلَيْسَ يَعْـلُو الـصَّـانِـعَ الـ   ـمِصْـرِيَّ في الـذَّوْقِ أَحَـدْ

آمال :

لا عَجَبٌ مَـوْلاَيَ يـا طَـالَمَـا   قَـدْ بَلَغَ الفَنُّ بِمِصْـرَ الكَمَـالْ

علي بك :

لَكِنْ أَرَى القُـوقَـازَ أَعْلَى يَـداً   مَنْ غَيْرُهُ يَصْنَعُ هَذَا الجَمَالْ؟

آمال : سَيِّدِي

مصطفى [همساً]:

حَـاذِرِي آبْنَتِي قَـدِّري المَـوْ   قِفَ لاَ يَخْطِرِ العُقُوفُ بِبالكْ

آمال :

لا، أبِي، خَلِّني أَبحْ أَشْكُ بَثِّي   خَـذَلَ الصَّبْرُ قَلْبِيَ المُتَمَـالِكْ

آمال [لعلي بك]: سَيدي

علي بك :

مـا أرى؟ دُمُـوعَ لآلٍ   ذَهَبَتْ في الخُدُودِ شَتَّى المَسَالِكْ
مِمَّ تَشْكِينَ يا آبْنَتي ما وَرَاءَ الدَّمْعِ؟

آمال : لا شَيْءَ

علي بك : بَيِّني ما هُنَالِكْ!

آمال :

سَيِّـدِي، غَـيْـرُ شَـأْنِـنَـا بِـكَ أَوْلَـى
هَـذِهِ الـسُّـوقُ لم تَـلِقْ بِـجَـلاَلِـكْ

تُشْتَرى النَّفْسُ أو تُباعُ عَلَى الأَرْ
ضِ ولَمْ يَرْضَ في السَّمَاءِ المالِكْ

مصطفى :
قَلِّلي الهَمَّ يا ٱبْنَتِي والتَّشَكِّي
وٱنْظُري الحَالِ وٱفْكِري بمآلِكْ
هَذِهِ السُّوقُ بِعَمَةُ الوَطَنِ البا ئِسِ مِنْهَا

علي بك : ونَحْنُ نَعْلَمُ ذَلِكْ
أنا أَيْضاً مَرَرْتُ بالسُّوقِ يا آمَا
لُ، حالِي، يا بِنْتُ، مِنْ مِثْلِ حَالِكْ
قَدْ وَقَفْنَا بهذه السُّوقِ نَبْغِي دُوَلاً مِنْ وَرَائِها ومَمَالِكْ
وقَدِيماً كانَتْ سَبِيلَ المَعَالِي للمَمَالِيكِ أو سَبِيلَ المَهَالِكْ

علي بك [مستمراً]: لكِ الله، يا آمَالُ، أنْتِ كَبِيرَةٌ
وكُلُّ كَبِيرِ النَّفْسِ سَوْفَ يَسُودُ
فِدَاؤُكِ نَفْسِي، هَذِهِ نَفْسُ حُرَّة
وهَذَا إباءٌ ما عَلَيْهِ مَزِيدُ
أَتَيْتِ بِمَا لَمْ يَأْتِ فِيمَا مَضَى لَهُمْ
مُلُوكٌ عَلَى عَرْشِ الكِنَانَةِ صِيدُ[1]
شَرَوْنَا وباعُونَا صِغَاراً وفِتْيَةً
كَمَا بِيعَ سُودَانٌ بِمِصْرَ عَبِيدُ
فَمَا كانَ مِنَّا مَنْ رَأى الرِّقَّ سُبَّةً
ومَنْ قَالَ عِنْدَ البَيْعِ لَسْتُ أُرِيدُ

ثم مستمراً :
الخَطْبُ غَيْرُ عَظِيمٍ لا تَحْزَنِي يا فَتَاةْ

---

(١) صيد: جمع أصيد، وهو المائل العنق زهواً وكبراً.

وكُـلُّ جُـرْحٍ يُـدَاوَى إنْ عَـالَـجَـتْـهُ الأُسَـاةُ

آمال :

مَـوْلاَيَ قـالُـوا رُزِقْتَ نَفْسـاً فَضَـائِـلُ الصَّـالِحينَ فِيهَـا

بـأيٍّ دِيـنٍ تَـحُـوزُ رِقّـي وتَشْتَـرِي البِنْتَ مِنْ أَبِيهَـا

علي بك : أَبُوك!

آمال : أَجَلْ وَالِدي

علي بك :

مُصْطَفَى أَأَنْتَ أَبُوهَا؟

مصطفى : أجَلْ سَيِّدي

علي بك : فماذا تَرَى؟

مصطفى : في يَدَيْك الفَتَاةُ

تَصرَّفْ لَقَدْ خَرَجَتْ مِنْ يَدِي

علي بك : دَعِ البَيْعَ يا مُصْطَفَى والشِّرَاءَ

وزَوِّجْ فـتَاتك أو فارْدُدِ

مصطفى : بِمَنْ؟

علي بك : بِي

مصطفى : إلٰهي!

علي بك : أجـل بي أنَا

مصطفى : سَمِعْتِ، فَتَاتِي، اَشْكُرِيهِ، اَحْمدِي

آمال : علام أَجَرَّبته بَعدُ؟ لاَ سأَعْلَمُ ما صَاحِبي في غَدِ

---

(١) الأساة: الأطباء.

علي بك :

لَمْ تَقْبَلي الـرِّقَّ مُنْـذُ حِيـنٍ يـا لَـكِ مِنْ حُـرَّةٍ نَبـيـلَهْ
والآنَ تَـخْـشَـيْـنَ مِـنْ زَوَاجٍ تَـمْشِيـنَ فـي ظِـلِّـهِ ذَلـيـلَهْ

آمـالُ

آمال : مَوْلاَي

علي بك :

هاكِ قَصْري سُـوسِيه بـالنُّبْـلِ والفَضِيلَهْ

أم محمود :

تَـحِـيَّـةٌ لـلـمـلِـكَـهْ مِـن أمـةٍ في الـمَمْـلَكَـهْ

مصطفى : أُقَبِّلُ سِتْرَ مَوْلاَتي

آمال : أبي ! أَسْتَغْفِرُ الله !

علي بك :

وأنْـتِ الـمَـلْـكَـةُ الـيَـوْمَ مُـري وانَـهْـي عـلى الـدَّارِ
وحُـلِّيـهـا حُـلُولَ الـشَّـمْـ ـس فـي أَرْجَـاءِ آذَارِ
وكُـونـي قُـفْـلَ أَمْـوَالِـي وأَذْخَـارِي وأَسْـرَارِي[1]
ولا يَـهْـمُـمْـكِ تَـرْحَـالـي ولا تَـشْـغَـلْك أَسْـفَـارِي
فَلِلْغُنْمِ وللصَّيْدِ خُفُـوفُ الأَسَـدِ الضَّـارِي[2]
ولِـلرِّفْـعَـةِ والـمَـجْـدِ سِـفَـارُ الـقَـمَـرِ الـسَّـارِي

آمال :

مَـوْلاَيَ هـاتِـهَـا يَـداً قَـدْ طَـوَّقَـتْنِـي خَـيْـرَ يَـدْ
هـاتِ أَضَـعْ فـي رَاحَـتَـيْـكَ قُـبَـلاً بِـلاَ عَـدَدْ

---

(١) الأذخار: ما يدخر. واحدها: ذخر بالضم.
(٢) خفوف: أي كفوف، الواحد: خف بالضم.

مصطفى :

يـا لِـلْجَـلالِ والْـخَـطَرْ ويـا لِـتَـوْفِـيـقِ الـقَـدَرْ
مَـن البَـشِـيـرُ بـالـخَبَـرْ إلـى الـبُـيُـوتِ والأُسَـرْ
حَظٌّ لَـعَـمـرِي قَـد كَـمَـلْ فَـمَـنْ يُـبَـلِّغُ الـجَـبَـلْ
وكُـلَّ دَارِعٍ نَـزَلْ عَـلَى الـشِّـعَـابِ والـقُـلَلْ[1]
أنَّا ظَفِرْنَا بالأَمَلْ

أم محمود :

قُمْنَ، بَنَاتِ الشَّرْكَسِ لِلَّهو والتَّأَنُّسِ
زِدْنَ سُـرُورَ الـمَـجْـلِسِ بِـرَقْـصِـكُـنَّ الـكَـيِّسِ

شمس :

عُـشَّـاقُ مـاذَا أَخَّـرَكْ لِـمْ لَـمْ تُـجَـرِّدْ خِـنْـجَـرَكْ
قُـمْ لاعِـبِ الـغِـيـدَ نَـرَكْ كَـيْفَ تَـخُـوضُ المُـعْـتَـرَكْ

عشاق :

غَـداً يُـعْـقَـدُ لِـلوَالِـي عَـلى الـحَـسْـنَـاءِ آمَـالِ
جِبَـالَ الشَّـرْكَسِ آخْـتَـالِي بِـهَـذَا الـنَّـسَـبِ الـعَـالِي
هَـلُمُّـوا الـفَـرَحَ الأَكْـبَـرْ هَـلُمُّـوا رَقْـصَـةَ الـخِـنْـجَـرْ
غَـداً يَـمْـتَـلِكُ الـوَادِي مِـن الـحَـاضِـرِ والـبَـادِي
فَـمِـنْ طَـالِـبِ أَفْـرَاحٍ ومِـنْ شَـاهِـدِ أَعْـيَـادِ
هَـلُمُّـوا الـفَـرَحَ الأَكْـبَـرْ هَـلُمُّـوا رَقْـصَـةَ الـخِـنْـجَـرْ
غَـداً يَـبْـتَـهِـجُ الـعَـصْـرُ وتُـمْـسِي فَـرَحـاً مِـصْـرُ
وتُـجْـلَى الـشَّـمْـسُ والـبَـدْرُ ويَـزْهُـو بِـهِـمَـا الـقَـصْـرُ
هَـلُمُّـوا الـفَـرَحَ الأَكْـبَـرْ هَـلُمُّـوا رَقْـصَـةَ الـخِـنْـجَـرْ

---

(١) القلل: رؤوس الجبال.

هتاف خارج القصر:

لا زِلْتَ مَنْصُورَ القَنَا يا أَسَدَ المَعَارِكْ
أطْعَمْتَنَا سَقَيْتَنَا يا رَبِّ زِدْ وبَارِكْ

علي بك : إسْمَعُوا

رزق : ضَجَّةٌ

الأغا مرجان :

أجَلْ، وآبْتهَالٌ ورِجَالٌ بِسَيِّدِي يَهْتِفُونَا

علي بك : منْ تُرَى الهاتِفُونَ، رِزْقُ ويا مَرْجَانُ أُخْرُجْ، فانظر مَن الصَّاخِبُونا.

الأغا :

عَادَةٌ تِلْكَ كُلَّ يَوْمِ خَمِيسٍ عِنْدَنَا أَلْفُ جائِعٍ يُطْعَمُونَا

علي بك :

إمْضِ فَاجْعَلْ في كَفِّ كُلِّ فَقِيرٍ
ذَهَباً يُطْعِمُون مِنْهُ البَنِينَا
نَفْحَةٌ مِنْ أَمِيرَةِ النِّيلِ مَوْلاَتِكِ

آمال : بَلْ مِنْكَ، سَيِّدَ المُحْسِنِينَا

رزق : مَوْلَايَ

علي بك : مَنْ؟ أوَرِزْقُ ذَا؟

رزق : كَمْ ذَا تَجودُ وكَمْ تَهَبْ

إنَّ الخِزَانَة أصْبَحتْ بِنَداكَ كالجُحر الخرِبْ
الفِضّةُ آنْفَضّتْ، ومَا قد كان من ذهبٍ ذَهَبْ
رَمَضَانُ رَاحَ بِنِصْفِهِ والنِّصف راح به رَجَبْ

علي بك :

أَجَـلْ نَحْنُ أَطْعَمْنَـا الفَـقِيـرَ ولَـمْ يَكُـنْ
لَـهُ فـي قُـصُـورِ الـمُـتْـرَفِـيـنَ طَـعَـامُ
ونَحْنُ سَقَيْـنَـا آبْنَ الـسَّبِيــلِ ولَمْ يَـكُنْ
يُـبَـلُّ لَـهُ فَـوْقَ الـطَّرِيـقِ أُوَامُ[1]
ونَـحْنُ حَـضَنَّـا الـيُتْـمَ نَمْسَـحُ دَمْـعَـهُ
وآوَاهُ مِـنَّـا مُـحْـسِـنُـونَ كِـرَامُ
تَـرَى الـزَّادَ مَبْـذُولاً وفي مُـلِّ سَـاحَـةٍ
يَـتَـامَـى قُـعُـودٌ حَـوْلَـهُ وقِـيَـامُ
ونَبْيٍ فَرُكْنٌ للشَّقَافَةِ والحِجَى
يُشَادُ، ورُكْنٌ للصَّلاَةِ يُقَامُ
ودَارٌ يُـوَاسَـى البُـؤْسُ فِـيـهَـا ومَـنْـزِلٌ
تُـدَاوَى جِـرَاحَـاتٌ بِـهَـا وسَـقَـامُ
ونَرْفُقُ بالعَجْماءَ نَأْسُو جِرَاحَهَا تُقَـاتُ على سَاحَـاتِنَا وتَنَـامُ[2]

علي بك للأغا مرجان وهو بالباب:

مَرْجَانُ، خَيْرٌ

مرجان : سَيِّدي «بَشِيرٌ»

علي بك : أَدْخِلْهُ لَيْسَ دُونَه سُتُورُ

[لآمال] : أَمِـيـرَتِـي لا تُـرَاعَـيْ بَـشِـيـرُ مِـنْ أَولاَدِي

آمال لأم محمود:

إِنَّ مَـوْلاَيَ شُـغْـلُه بـالـمَهـمَّـاتِ قَـدْ كَثُـرْ
أُمُّ مَحْمُود

(١) الأوام: العطش.
(٢) العجماء: أي الحيوان.

أم محمود :

مَلْكَتِي ما تُرِيدِينَ؟ ما الخَبَرْ؟

آمال : شَمْسُ

شمس :

لَبَّيْكِ، مَلْكَتِي دُونَـكِ الشَّمْسُ والـقَمَـرْ

آمال لزكية : أُخْتُ

زكية :

أَفْدِيك مَلْكَتِي زَادَ فـي شَـأْنِـكِ القَـدَرْ

آمال :

جُـلْنَ في الـقَـصْـرِ جَـوْلَـةً وتَـنَـقَّـلْنَ فـي الـحُـجَـرْ
نَـحْـنُ فـي الـوُدِّ والـصَّـفَـا ءِ كـأَمْسِ الَّـذِي غَـبَـرْ
عِـشْنَ ضَـيْفـاً عَـلَيّ فـي الـ ـقَصْـرِ مـا آمْتَـدَّ بِي العُمُـرْ

[يخرجن مع مصطفى وعشاق.. ويدخل بشير بك فتنتحي آمال ناحية من الحجرة تشرف من نافذة فيها على ساحة الدار]

علي بك : ماذَا وَرَاءَكَ يا بَشِيرْ

بشير بك : شَأْنٌ سأَعْرِضُهُ خَطِيْر

علي بك : قُلْ

بشير بك :

لا أَقُولُ لأَنَّهُ شَـأْنٌ يُسَـرُّ إلـى الأَمِـيـرْ

[علي بك يذهب ببشير إلى ناحية أخرى من الحجرة]:

علي بك :

عَـجِّـل وكـاشِـفْـنِـي بِـمَـا بَلَغَـتْ، مِـن الـجِـدّ الأُمُـورْ
والبَوُّ

بشير بك : مَنْ؟

علي بك : أبو الدَّهَبْ

بشير بك : يَأْخُذُ للشرِّ الأُهَبْ[1]

حــازَ الأَقَــالِيمَ إِلَيْــهِ وتَــأَلَّفَ الـعَــرَبْ

والـغُــزُّ فــي رِكَــابِــهِ والشَّعْبُ جَـذْلَانُ طَـرِبْ

فَــلْنَــرْتَـحِــلْ فَــرُبَّــمَــا جُـنَّ فَـعَــجِّـل الـطَّلَبْ

علي بك : أَرَى الأزْمةَ آشْتَدَتْوأَبْــطَاآنْفِرَاجُهَا

بشير بك : فَصَبْراً عَسَاهَا آذنــت بِذَهَابِ

علي بك :

صَبَرْتُ طَوِيلاً، يا بَشِيرُ، فما جَلاَ
ولاَ ذَلَّــلَ الـصَّبْــرُ الـجَمِيــلُ مُصَــابِـي

ولَــو أَنَّ رُزْئِــي بــالغَــرِيـبِ آحْتَمَـلْتُــهُ
ولَـكِـنْ بــأَهْــلِي نَـكْــبَتــي وعَــذَابِـي

يُــطَارِدُنِي في الأَرْضِ مَنْ دَبَّ في يَـدِي
ورُبِّــيَ فــي حِــجْــرِي وشَــبَّ بِـبَــابِـي

ومَنْ طَلَبَ الــدُّنْيــا بِبَــأْسي وسَــطْوَتِي
فَـلَمَّــا حَــوَاهَــا في يَــدَيْــهِ سَــطَا بِـي

ومَـنْ عِـشْــتُ أَبْـنِـيــهِ وأَعْـمُــرُ رُكْــنَــهُ
فَــصَــيَّــرَ هَــدْمِــي شُـغْــلَهُ وخَــرَابِــي

لَــقَــدْ آنَ أَنْ أَسْـعَــى وأَنْ أَدْفَــعَ الأَذَى
بَـشِيــرُ آمْضِ هيِّءْ للرَّحِيــلِ رِكَــابِي

إلَـى كَمْ قُـعُــودِي عَنْ عَــدُوِّي وكَـيــدِهِ
وهَــذَا عَــدُوِّي لا يَــمَــلُّ طِــلَابِــي

---

(١) البو: جلد الحيوان يُحشى تبناً ويقرب من أمه لتدرَّ عليه.

سـأَخْـرُجُ نَحْـوَ الشَّـامِ في فَـلٍّ شِيعَتِي
فَهِيِّىءْ جِيَـادِي وآدْعُ خَيْـرَ صِـحَـابي[1]

بشير بك : وماذا وراء الشام؟

علي بك : أُسْدٌ ضَرَاغِمٌ
أُلَفُّهُمُ حَوْلِي لِنُصْرةِ غَابِي

يَـزِيـدُ بِهِمْ جَيْشِي وتَقْـوَى عَـشِيـرَتِـي
ويَـشْـتَـدُّ ظُـفْـرِي في الـقِتَـالِ ونَـابِـي

ألانَ فَرَغْنَا

بشير بك :
أَجَلْ سَيِّدي أأَمْضِي؟

علي بك : بَلْ آبْقَ، آنْتَظِرْ، يا بَشِيرْ
إذا أنـا قَضَّيْتُ هـذا المَسَـاءَ بِقُـرْبِ الأَمِيـرَةِ مـاذا يَصِيـرْ

بشير بك :
ولَـيْـلَ غَـدٍ والَّـذِي بَـعْـدَهُ
وإنْ شِئْتَ فـابْـقَ الـلَّيَـالِي الـكَثِـيـرْ
ونَـحْـنُ فـنَـمْـضِـي فَـنَـأْتِي الـعَـرِيشْ
ونَـبْـقَـى بِـهَـا بـآنْـتِـظَارِ الأَمِـيـرْ
نُـرِيـغُ الـجَـوَاسِيسَ طُـولَ الـطَّرِيـقِ
ونَـهْـرُبُ مِـنْ مُـنْـكَـرٍ أو نَـكِـيـرْ
وتُـذْرِكُـنَـا أَنْـتَ مُـسْـتَـمْـهِـلاً
كَـثِـيـرَ الـتَّـوَارِي قَـلِيـلَ الـظُّهُـورْ

---

(١) فل: أي بقية.

علي بك :

بَلِ امْضِ بِنا، سِرْ بِنَا، سِرْ بِنَا

فَـمَـا جَـلَـبَ الـخَـيْـرَ مِـثْـلُ الـبُـكُـورْ

ثم لآمال :

لا تَـجْـزَعي، أَمِـيـرَتِـي لا بُـدَّ لِـي مِـن الـسَّـفَـرْ

لَـقَـدْ دَعَـتْ حـادِثَـةٌ مِـنْ الـحَـوَادِثِ الـكُـبَـرْ

آمال : كَيْفَ زَوَاجٌ وسَفَرْ

علي بك : مُزَاحَةٌ من القَدَرْ

أَغِـيـبُ شَـهْـراً واحِـداً فَانْتَظِرِي

آمال : سأَنْتَظِرْ

علي بك :

مـا أَنْـتِ إلاّ مَـلَـكُ نَـهَـى بِـقَـصْـرِي وأَمَـرْ

فـي ذِمَّـةِ الله يـا رَبَّـةَ الـقَـصْـرِ

آمال :

وأَنْـتَ مَـوْلاَيَ شُـيِّـعْـتَ بـالـنَّـصْـرِ

علي بك لرزق :

سأَصْعَدُ، يارِزْقُ، نَحْوَالصَّعِيـدِلِشُغْـلٍ

رزق : ولِمْ لا صُعُودَ القَمَرْ

ثم لنفسه :

صُعُـودَ الـدُّخَـان إلى ذِرْوَةٍ إذا صَارَ فيها امحَّى وانْـدَثَـرْ

علي بك :

وما فِي الخِزَانَةِ أوْ في القُصُورِ بـأَمْـرِ الأمِيـرَة فيـه اتْتَمَـرْ

لآمال :

هَكَذَا مِصْرُ كُلَّ يَوْم شُؤُونٌ   شَغَلَتْ مِصْرُ بالشُّؤُونِ النَّاسَا
وكأَنَّ البِلادَ خَيْلُ جِهادٍ   كُلَّ يومٍ تُبَدِّل السُّوَّاسا

رزق الوكيل لنفسه :

لا رِحْلةٌ، لا سَفَرٌ   هَذَا لَعَمْرِيَ الهَرَبْ
وما الصَّعِيدَ يَقْصِدُونَ   بَلْ إلى الشَّامِ الطَّلَبْ
أمَّا أنا فَقَدْ مَلأتُ   الْيَدَ مِنْ أبي الذَّهَبْ
إذا الزمان بِعَليّ   بَعْدَ حِينٍ آنقلبْ
يَجْعَلُني مُحَمَّدُ   عَلَى خَزَائِنِ الذَّهَبْ

علي بك :

سَلامٌ على قَصْرِ الإمارة والغِنَى
وإيوانِ سُلْطَانِي ودَسْتِ جَلاَلِي
ووالله ما فارَقْتُ مَغْنَاكَ عَنْ قِلىً
ولا خَطَرَتْ سَلْوَى الأُمُورِ بِبَالِي
وأَعْلَمُ أنِّي عَنْكَ لا بُدّ زَائِلٌ
وأنَّك مِنِّي لا مَحَالَةَ خَالِ
ولَكِنْ أُمُورٌ قَدْ جَرَتْ وحَوَادِثٌ
بِنَقْلَةِ دُنْيَا أوْ تَبَدُّل حَالِ
فَخَالَفَنِي مَنْ كانَ عِنْدَ إشَارَتِي
يَصُولُ بِجَاهِي أو يَعِيشُ بمَالِي
وعَقَّ الَّذِي ربَّيْتُ في حِجْرِ نِعْمَتي
ووَطَّأْتُ أكْنَافِي لَه وظِلاَلِي
تَألَّفَ أصْحَابِي وأَلَّب شِيعَتِي
عَلَيّ وأغْرَى بالخُرُوج رِجَالِي
لَقَدْ جِئْتُ بآبْنٍ لَيْسَ لِي فكَأَنَّمَا
أَتَيْتُ بأَفْعَى مِنْ سَحِيقِ تِلاَلِ

تَــفَــرَّق عَــنِّــي الــنَّــاسُ إلاَّ بِــطَانَــتــي
ولم يَبْـقَ حَـوْلِي الـيَـوْمَ غَيْـرُ عِيَـالِي
سـأَمْضِي ومـا عِنْـدِي لَهُمْ إنْ تَـرَكْتُهُمْ
سِـوَى قُـوتِ أيَّـامٍ وخُـبـزِ لَـيَـالـي
وعقـد زَعَمَ النَّـاسُ الغِنَى في خِـزَانَتِي
أتَـى مِـنْ حَـرَامٍ تَـارَةً وحَـلاَلِ
وأقْسِمُ لـم تُـحْـرِزْ يَـمِـيـنِـيَ دِرْهَـمـاً
مِـن الـمَـالِ إلاَّ أنْـفَـقَـتْـهُ شِـمَـالِـي
أسِيـرُ، أجَـلْ أمْضِي نَعمْ فَعَسى السُّـرَى
تَـرُوحُ بِـنَـجْـمِـي أو تَـجِـي بِـهِـلاَلِي
فمـا الـدَّهْـرُ إلاَّ حـالَـةٌ ثُمَّ ضِـدُّهـا
وإلاَّ لَـيَـالٍ بَـعْـدَهُـنَّ لَـيَـالـي
وتِـلْكَ الَّـتـي أحْـبَـبْـتُ أوَّلَ وَهْـلَةٍ
وأشْـرَكْـتُ فـي مُـلْكٍ وَشِـيـكِ زَوَالِ
أعُـودُ إلَـيْـهَـا فـي الـمَـوَاكِـبِ ظَـافِـراً
وحـالـي بـالـنَّـصْـرِ الـمُـؤَزَّرِ حَـالِـي
وأرْجِـعُ حُـرّاً تَـحْـتِـيَ الـنِّـيـلُ كُـلُّهُ
ومـا مِـنْ بَـنِـي عُـثْـمَـانَ فَـوْقِـي وَالـي

[يخرج علي بك ومعه بشير بـك ورزق الوكيـل ويبقى مرجـان بالبـاب تسمع ضجة وصرخة من امرأة أمام القصر تقول]:

يـا رَبَّـةَ الـقَـصْـرِ لا مَـسَّـكِ الـضُّـرُّ
هَـلْ عِـنْـدَكُـمْ غَـوْثٌ هَـلْ عِـنْـدَكُـم نَـصْـرُ
لِـحُـرَّةٍ فـي وَادْ لَـيْـسَ بِـهِ حُـرُّ

آمال:
مَـرْجَـانُ ويْحِي هَـذِهِ صَيْحَـة وآمـرأة صـارِخَـةٌ بـاكِيَـهْ
مَرْجَانُ أنْظُرْ

مرجان :

هِيَ ذِي أَقْبَلَتْ مُعْـولِـةً صـاخِبَـةً شـاكِيَـهْ

[تدخل امرأة مقطوعة الأذن وصارخة]

آمال :

مـاذا دَهَـى يـا خَـالَـهْ أنْـتِ بِـشَـرٍّ حَـالَـهْ

ذا الدَّمُ مَنْ أسالَهْ

المرأة :

جُنُـودُ وَرَاء كَبِـيـرٍ لَـهُـمْ من الـدِّينِ قد جُـرِّدُوا والخُلُقْ

أتَـوْا دارَنَـا فَمَضَى نِصْفُهُمْ أَزَالَ العَفَـاف ونِصْفُ سَرَقْ

ومَـالَ عَـلَى أُذُنَيْ بَـعْضِـهِمْ بِسِكِّينِـهِ طَمَعـاً فـي الحَـلَقْ

آمال تدفع إلى مرجان صرة:

مَرْجَانُ خُذْ ناوِلْ

مرجان : تعالَيْ خُذِي

آمال : لا بَأْسَ يا خَالَةُ لا بَأْسُ

إنْـتَـظِرِي عَـوْدَ عَـلِيٍّ غَـداً فَفِي غَـدٍ يَـرْتَـدِعُ الـنَّـاسُ

[المرأة تأخذ الصرَّة وتصيح مولولة]

وأُذْنِـي أَيْـنَ أَلْـقَـاهَـا مَـضَـتْ آهـاً لـهـا آهَـا

ويـا مَـنْ عِـنْـدَه أُذْنِـي أمَـا يَـكْـفِـيـكَ قُـرْطَـاهَـا

[تسمع ضجة ثم تدخل فتاة مذعورة]

الفتاة : سَيِّدَتي

آمال : وأَنْتِ أَيْضَاً

الفتاة : رَحْمَةً سَيِّدَتِي

آمال : ما تَشْتَكِينَ؟ ما دَهَى؟

الفتاة : أَلآنَ، يا سَيِّدَتي
يُـذَبِّـحُـونَ إخْـوَتِـي فـي سَـاحَـةِ الـرُمَـيْـلَةِ

آمال : وَيحَ لَهُمْ ماذَا جَنَوْا؟

الفتاة : لا شَيْءَ

آمال : لَا. لا بُدَّ مِنْ دَاعٍ دعَا
النَّفسُ لا تُقتَلُ، يا أُخْتُ، سُدًى

الفتاة : صَدَقْتِ، يا أَمِيرَتي، إلَّا هُنَا
لا يَـنْـزِلُ الـرَّأْسُ بِـمِـصْـرَ جَـسَـداً
إلَّا نُـزُولَ الـمَـرْءِ فـي بَـيْـتِ الـكَـرَى

آمال : تَذَكَّرِي قُولِي لِيَ الحَقَّ آصْدُقِي

الفتاة في حياء : قَدْ سَرقَ الإخْوَةُ جَحْشَ الكتُخْدَا

آمال : سِرْ آمْضِ، مَرْجَانُ، مَعَ الفَتَاةِ
وآشْـفَـعْ لَـدَى الـحَـاكِـمِ لـلجُـنَـاةِ

[ينصرف مرجان مع الفتاة]

يدخل آغا آخر ويقول:
سَيِّدَتِي

آمال : وأَنْتَ ما عِنْدَكَ قُلْ

الآغا : إبْنُ الأمِيرِ سَيِّدِي مُرَادُ

آمال : إبْنُ الأمِيرِ! هَيِّ عَجِّلْ جِيْءِ بِهِ
أَكُلُّهُمْ لِسَيِّدِي أَوْلَادُ؟
أُدْخِلَ مُرَاداً وائْتنـي بمُصْطَفى

آمال لنفسها : أخَافُ إنْ قُلْتُ أبي أنْ يَعْرِفَا

[يظهر مراد بك]

آمال لنفسها :

وَيْـحِـي وويـحٌ لِـعَـلِيٍّ مـا أَرَى
إنِّـي أَرَى الـغَـدْرَ عَـلَى هَـذَا الـفَـتَى

مراد بك :

تَـحِـيَّـةً، سَـيِّـدَتـي أَتَـذْكُـرِيـنَ مَـنْ أَنَـا؟

آمال :

كُـلُّ الَّـذِي أَعْـرِفُـهُ آبْـنُ الأَمـيـرِ هَـهُـنَـا

مراد بك :

أَمِيـرَتِي قَـدْ خَـدَعُـوكِ مـا عَـلِيٌّ لـي أَبَـا
مـا أنَـا إلاّ صـاحِـبٌ قَـدَّمَـهُ وقَـرَّبَـا

آمال : يا عَجَباً!

مراد بك :

ومِـمَّ يَـا مَـالِكَـةَ القَـلْبِ العَـجَبْ
وكُـلُّ مـا فِـي الأَمْـرِ أنْ لَـيْسَ عَـلِيٌّ لِـي بِـأَبْ
ولَـيْسَ مـا يَـمْـنَـعُـنـي مِـنْ أنْ أُحِـبَّ وأُحَـبْ

آمال :

تُـحِـبُّ أَوْ تُـحَـبُّ قَـوْ لٌ لاَ يَـلِيـقُ بـالأَدَبْ
نَـسِيـتَ لـلقَـصْـرِ ولِـي ولأَبِـيـكَ مـا وَجَـبْ

مراد بك : قَدْ عَرَفْنَاكِ يا أميرةُ، بالأَمْسِ آلْتَقَيْنا في مَعْرِض الجَلاَّبِ

مراد مستمراً :

ذَهَبْتُ لأَشْـرِي فـآشْـتَـرَانِي وبَـاعَـنِي
غَـزَالٌ بِـسَـهْـمِ الـمُـقْـلَتَـيْـن رَمَـانِـي
هَمَمْـتُ ولَكِـنْ صـاحِبُ الـصَّيْـدِ رَدَّنِـي
وصَـيَّـرَ سُـلْطَانَ الـبِـلاَدِ مَـكَـانِـي

ولَـمْ يَـدْرِ أنِّي فـوق شَـأْنِ مُحَمَّـدٍ
وشَـأْن عَـلِيٍّ فـي الـرِّيَـاسَـةِ شَـانـي
إذا مـا حَـوَتْـنِـي كِـفَّـةٌ رَجـحَ الَّـذِي
رَمَـى بِـيَ فـي مـيـزانـه فَـحَـوَانِـي
وجَاءَ عَلِيٌّ فَاَشْتَرَى

آمال : لَسْتَ صادِقاً بَنَى بِي أَمِيـرُ للمَكَـارِمِ بـانِي

مراد بك : وطَارَ عَن الوَادِي
وماذا يَعِيبُهُ أَلَمْ يُخْلَقِ العِقْبَـانُ للطَّيَـرَانِ(1)

مراد بك يقترب منها:
آمَـالُ لَـوْ تَـعْـرِفِـيـنَـا آمـالُ لَـوْ تَـعْـطِفـيـنَـا

مصطفى بالباب وقد سمع كلامهما [لنفسه]:
أَرَى شَبَـحَ الجَـرِيـمَـةِ حَـامَ حَـوْلِي
كَـمَـا نَـاشَ الـغَـرِيـمَ الأَفْـعُـوَانُ(2)

آمال لمراد بك:
لا تَـدعُني بِـاَسْمِي ولَكِنْ نَـادِنِـي بِـالـلَّقَـبِ
مُـرَادُ هَـذَا هَـوَسٌ قِـفْ عِـنْـدَ حَـدِّ الأَدَبِ
مُـرَادُ مـا مَـقْـصُـورَتِـي بِـمَـجْـلِسٍ لأَجْـنَـبِـي
أُخْرُجْ

مراد بك : عَلَى رِسْلِكِ، مَوْلَاتِي

آمال : دَعْنِي أَذْهَبِ

مراد بك : بِحَقِّ الحُبِّ مَوْلَاتِي

---

(1) العقبان: جمع عقاب، وهو طائر من كواسر الطير.
(2) ناش: أخذ.

آمال : ظَلَمْتَ الحُبَّ يا غادِرْ

فَـمَـا الـحُـبُّ فُـضُـولِـيٌّ ولاَ لِصٌّ ولا فـاجِـرْ
ولَـكِـنْ مَـعْـدِنُ الـنُّـبْـلِ وكَـنْـزُ الـخُـلُقِ الـطَّاهِـرْ

[تنحسر العمامة عن جبهة مراد بك فيظهر أثر جرح قديم على جبينه كان قد أصيب به في صغره]

مصطفى بعد أن يرى أثر الجرح وهو بالباب :

إِلَـهِـيَ هَـذَا جُـرْحُـهُ ذا مَـكَـانُـهُ
أمَـا كَـانَ طُـولَ الـدَّهْـرِ للجُـرْحِ لائِمَـا
إِلَـهِـيَ هَـذَا الـجُـرْحُ فَـوْقَ جَـبِـيـنِـهِ
مَضَتْ سَنَـوَاتٌ مـا مَحَـوْنَ العَـلاَئِمَـا
لَقَـدْ بـارَزَ الصِّبْيَـانَ بـالسَّيْفِ نـاشِئـاً
فَصَـادَفَ سَيْفـاً خَـدَّشَ الـرَّأْسَ صـارِمَـا
إِلَـهِـي أَرَى أَشْـيَـاءَ ثَـمَّ مَـهُـولَـةً
وأُشْـفِقُ فِـيهَـا مِـنْ عِقَـابِـكَ صـارِمَـا
إِلَـهِـيَ لا تَـجْـعَـلْهُ حَـقّـاً ومُـرْ أَكُـنْ
بِـمَـا أنَـا رَاءٍ مِنْ عَـذَابِـكَ حـالِـمَـا
كَفَى غَضَبـاً، يـا رَبُّ، حَسْبِي عُقُـوبَـةً
وحَـاشَـاكَ لَـمْ تَـظْلِم ولَمْ تَـكُ ظَـالِمَـا
إِلَـهِـيَ كـانَـت هَـفْـوَتِـي عَـنْ غَـوَايَـةٍ
فَتُبتُ فكُـنْ لِي فـيهـمـا اليَـوْمَ راحِـمَـا

آمال لمصطفى : واأَبَتَا

آمال : إليّ يا أَبي

مصطفى :

أَحْـبِـبْ بـهـذا الـصَّـوْتِ أَحْـبِـبْ بـالـنِّـدَاءِ أَحْـبِـبِ

مصطفى : لَبَّيْكِ، آمَالُ

آمال : أبي

مصطفى : آبْنَتي أنتِ هُنا؟

آمال : تَعالَ قِفْ بِجَانِبي

مصطفى :

لا بَـأسَ يـا آبْـنَـتِـي عَـلَيْـ ـكِ دُونَ نـادِيـكِ دَمِـي

آمال :

أبِـي لَـقَـدْ دِيسَ الـعَـرِيـنُ فـي غِـيَـابِ الـضَّـيْـغَـمِ

مصطفى :

مَـنْ فـي مَـقَـاصِـيـرِ الأَمِـيـرِ؟ مـا أَرَى مَـن الـفَـتَـى؟

آمال :

ذِئْـبٌ بِـشَـكْـلِ آدَمٍ لـلصَّيْـدِ في الـغَـابِ أَتَـى

مصطفى [مهمهماً]:

خِـنْجَـرِي أيْـنَ خِـنْجَـرِي اليَـوْمَ مِـنِّي
يَـغْـسِـلِ الـعَـارَ والـدَّنـيَّـةَ عَـنِّـي
فَـعَـسَـى أنْ يُـريـحَـنِي مِـنْ صَـبِـيٍّ
عـابِـث، أو يُـرِيـحُـهُ هُـوَ مِـنِّـي
هُـوَ يَـطْغَـى بِـسِـنِّـهِ سـاُرِيـهِ
أنَّـني الـلَّيْثُ سـاعِـدِي هـو سِـنِّـي

إمال : أبَتِي ما تَقُول؟ ماذا تَلَمَّسْتَ؟

مصطفى : سِلاحي

آمال : لا، لا، أبي، لا تَرُعْنِي

آمال [لمراد بك]:

بِـرَبِّـكَ إلَّا حَـقَـنْـتَ الـدِّمَـاءَ

مراد بك : دِمَائي أنا أَمْ دِمَاءُ اللَّعِينْ؟

مصطفى :

أَتَــلْعَـنُـنِـي، يــا أَضَــلَّ الــشَّـبَــابِ
أَتَــلْعَـنُـنِــي يــا أَعَــقّ الــبَـنِــيْــن

مراد بك : ولِمْ لَا ومَا لَكَ مِنْ حُرْمَةٍ؟

مصطفى : سَتَعْلَمُ ما حُرْمَتِي بَعْدَ حِينْ

ســأَقْــلَعُ عَــيْــنــاً سَــمَــتْ لــلَّبَــاةِ
وأَقْــطَعُ رِجــلاً مَـشَـتْ فـي الـعَــرِيـنْ[1]

آمال : كَفَى هَوَساً أَيُّهَذَا الأَمِيرُ

مراد بك : أبي هَوَسٌ، مَلْكَتِي!

آمال : بَلْ جُنُونْ

كَفَى جُرْأَةً

مراد بك : وعلَامَ آجْتَرَأْتُ؟

آمال : عَلَى آمْرَأةٍ تَحْفَظُ الغائِبِينْ

مصطفى :

مُـرَادُ لَـكَ الـوَيْـلُ مِنْ ســادِرٍ — وَقَاحِ اللِّسَانِ وَقَـاحِ الجَبِينِ[2]
هَتَكْتَ على الحُـزْنِ مِحْـرَابَـهُ — ودُسْتَ على عَبَـرَاتِ الحَـزِينْ
ولم تَحْتَشِمْ في خِطَابِ الشُّيُوخ — ولم تَــرْجُ فِيهِمْ وَقَـارَ السِّنِينْ

مصطفى [لنفسه وهو يبحث عن خنجره]:

رَبِّ، ضَــلِّلْ يَــدِي وحَــطِّمْ سِــلَاحِــي
رَبِّ، لا تَـقْضِ أَنَّـنِــي أَقْــتُــلُ آبْــنِــي

---

(١) اللباة: اللبؤة، والعرين: مأوى الأسد .

(٢) السادر: الذي لا يبالي ما يصنع. والوقاح: الذي لا حياء عنده.

مراد بك : سَيَسْبِقُ سَيْفِي خِنْجَرُ الشَّيْخِ

مصطفى : مَرْحَباً

بِسَيْفِـكَ مِن مـاضِي الحَـدِيـد يَمَـانِي

فَـهَـاتِ مُـرَادُ السَّيْفَ هـاتِ مَنِيَّتِي

أَرِحْ مِـنْ عَـذَابِ الحـادِثـاتِ جَنَـانِي

مراد بك [وقد شهر سيفه]:

إلـهيَ مـالِي قَـدْ غُـلِبْتُ عَـلَي يَـدِي

ومـا بَـالُ سَيْفِي إذ هَمَمْتُ عَـصَـانِي

ومـا بَالُ نَفْسِي بَعْـدَ طُـول جُمُـودِهَـا

قَـدِ آنْـفَـجَـرَتْ مِـنْ رَحْـمَـةٍ وحَـنَـانِ

عَفَـوْتُ فَمِـلْ يـا شَيْخُ مِـلْ عَنِّيَ آنْـطَلِقْ

وعِشْ نـاعِـمـاً فـي غِـبْـطَةٍ وأَمَـانِ

مصطفى : أَمِيرِيَ، ذارَأْسِي، فَخُذْهُ بضَرْبَةٍ [يخرج مراد بك]

عَسَانِي أَرَى هَذْءَ الضَّمِيرِ عَسَانِي

مصطفى [لنفسه، ويتبع مراد بك]:

أأُنْبِيـهِ؟ لِمْ لا؟ لا. بَـلْ آسْتَـأْنِ مُصْـطَفَى

أأَذْكُـرُ لابـنـي كَـيْـفَ خِـسَّـةُ شـانِي

آمال لنفسها :

وَيْـحَ لِـي وَيْـحَ قـد قَـسَـوْتُ عَـلَيْـهِ

وتَـجَـاوَزْتُ فـي الـعُـقُـوبَـةِ حَـدِّي

مـا الَّـذِي آسْتَـوْجَبَ الأَمِيـرَ ومـا أَذْنَبَ حَتَّى رَدَدْتُـهُ شَـرَّ رَدِّ

وَيْـحَ قـلبي يُـحِبُّـهُ، كَـذَبَ الـقَلْبُ

وبُـعْـداً لِـحُـبِّـهِ أَلْـفَ بُـعْـدِ

هُـو مُـسْـتَـهْـتـرٌ عَـلَى حُـجَـرَاتِـي

وتَـنَـاسَـى أَمـانَـةَ الـزَّوْجِ عِـنْـدِي

لا . بَل القَلْبَ شُغْلُه بِمُرَادٍ هو شُغْلِي من الحَيَاةِ وقَصْدِي

رَبِّ مـالِـي أُحِسُّ نَـحْـوَ مُـرَادٍ

شَـفَـقـاً زَائِـداً ولَـوْعَـةَ وَجْـدِ

وحَنَاناً كأنَّه رِقَّةُ العِشْقِ جَرَى في دَمِي ولَحْمِي وجِلْدِي

صَـدَقَ الأَوّلُـون، ألآنَ أَدْرِي

كَـيْـفَ تجـزي الـقُـلُوبُ وُداً بِـوُدٍّ

كَـيْفَ قَـلْبِي تُـحِبُّـهُ كَـيْـفَ تَـهْـوَاهُ

بُـودِّي لَـوْ تَـسْـتَـفِـيـقُ بِـوُدِّي

عَـبَـثـاً آمُـرُ الـفُـؤَادَ وأَنْـهَـى

وسُـدًى أَسْـتَـرِدُّ عَـقْـلِي ورُشْـدِي

كُـلُّ نُصْـحٍ يُقَـالُ لـلقَلْبِ في التَّـركِ

وفِي سَلْوَةِ الـهَـوَى غَـيْـرُ مُـجْـدِي

لِـمَ لاَ أَشْـتَـهِـي مُـرَاداً وأَهْـوَاهُ

ومَا لِي أُغَالِبُ الشَّوْقَ جُهْدِي

ومُـرَادُ أَلَـذُّ فـي الـعَـيْـنِ لَـمْـحـاً

مِنْ سَنَـا الـصُّبْـحِ بَـعْـدَ لَيْـلَةِ سُـهْـدِ

مَـلَكٌ جَـاءَ حُجْـرَتِـي يَشْـرَحُ الـحُـبَّ

أفِـي الـحَـقِّ أن يُـجَـازَى بِـطَرْدِ

لِـمَ لَـمْ أَتَّـخِـذْهُ في حـادِثِ الـدَّهْـرِ

نَـصِـيـراً يَـرُدُّ عَـنِّـي الـتَّـعَـدِّي

لِـمَ لَـمْ أَتَّـخِـذْهُ بَـعْـدَ عَـلِيٍّ

رُكْـنُ دُنْـيَـايَ أو دِعَـامَـةَ مَـجْـدي

لا ، وَرَبِّ الـجَـلاَلِ والـحَـقّ، آمَـالُ

آرْجِـعـي لـلصَّـوَابِ، آمَـالُ، جِـدِّي

أَنْـتِ مِنْ أُمَّـةٍ تَـصُـونُ حِـمَـى الـزَّوْجِ

وتَـقْـضِـي حُـقُـوقَـهُ وتُـؤَدِّي

رَبِّ، لا تَـجْـعَـلْ الـعَـلاَقـةَ إلاّ
مِـنْ سَـلاَمٍ إذا ٱلْـتَـقَـيْـنَـا ورَدٍّ
رَبِّ إنَّ الـبَـلاَءَ مِـنِّـي قَـرِيـبٌ
وأرى حُـفْـرَةً وأَخْـشَـى الـتَّـرَدِّي
رَبِّ، لا تَـقْضِ أنْ أخُـونَ عَـلِيّـاً
وأعِـنِّـي عَـلَى الـوَفَـاءِ بِـعَـهْـدِي
أنـا حَـيْـرَى وأنْتَ تَـهْـدِي الحَـيَـارَى
كَيْفَ أهْـوَى عَلَى هَـوَى الـزَّوْجِ عِنْدِي

ثم مستمرة :

لاَ، لا، رُوَيْدَاكِ، يا آمَالُ لا تَثِبي
عَـلى الأَمِيـرِ ولا تَـجْـزِيـهِ طُـغْـيَـانَـا
وٱحْمِي حِمَى الـلَّيْثِ فـي أيَّـامِ غَيْبَتِـهِ
إنَّ الـلَّبَـاةَ تَـحُـوطُ الـغـابَ أحْـيَـانَـا
هَبِيهِ لَمْ يَحخلَ الدُّنْيا عَلَيْكِ، ولَمْ
يُلْبِسْـكِ تـاجـاً، ولَمْ يُنْـزِلْـكِ إيـوانَـا
هِـبِيـهِ لـم يَنْـفَجِـرْ قَـبْـلَ الـزَّوَاجِ ولاَ
بَـعْـدَ الـزَّوَاجِ ولَمْ يَـنْـهَـلَّ إحْـسَـانَـا
هِـبِيـهِ سـافَـرَ فـي شَـأْنٍ لَـهُ جَـلَلٍ
يَـبْنِي لِـدَوْلَـتِـهِ فـي الأَرْضِ أرْكَـانَـا
أمَـا هـو الـزَّوْجُ يُـرْعَـى حَقُّ غَـيْبَـتِـهِ
وتَـجْـعَـلُ الـحُـرَّةُ الفُـضْلَى لَـهُ شَـانَـا
لَـقْـدَ أقَـامَـكِ في مِـحْـرَابِـهِ مَـلَكَـاً
لا تَجْعَـلِي المَـلِكَ المَـهْـدِيَّ شَيْـطَانَـا

ســتــار

الفصل الثاني
في قلعة ضاهر العمر صاحب عكا

[فناء قليل الضوء مبني من الحجر انتشرت المصاطب في جوانبه يطل من بعض جهاته على الميناء حيث يرسو الأسطول الروسي. في ناحية من فناء الدار بعض الجند يتحدثون]

أحد الجند : سَمِعْتُمُ الرَّعْدَ؟

آخر : سَمِعْنَا القَعْقَعَهْ

بِـرَبِّكُمْ هَـلْ في السَّمَـاءِ مَسْبَعَـهْ؟[1]

أَمْ فـي الـسَّمَـاء وَقْعَـةٌ ومَـعْـمَـعَـهْ

الأول : كَجَبَلٍ مِن الرُّخَامِ آنْشَقَّا

أو كالنُّحَاسِ بالنُّحَاسِ دُقَّا

الثاني :

والبَـرقُ لَـمْحَـةُ الـقَـبَسْ أو زَفْـرَةٌ حَـرَّى الـنَّـفَسْ

أو كالدَّمِ القانِي آنبَجَسْ

شَـقَّ الـظَّلَامَ وخَـفَـقْ عـلى مُـلَاءَةِ الأُفُـقْ

كَأَنَّهُ خَيْطُ الشَّفَقْ

حبيش : ضِرْغَامُ

---

(١) المسبعة: الأرض الكثيرة السباع.

ضرغام : ماذا يا حُبَيْشُ؟

حبيش : العَمَى لَكَ العَمَى
البَرْدُ زادَ

ضرغام :
صَهْ أمَا في طُـوبَـةٍ نَـحْـنُ أمَـا؟

حبيش :
ضِـرْغَامُ إنِّي قَـدْ حسدت الْـ ـقَـوْمَ فـي جَـهَـنَّـمَـا

ضرغام : إصْعَدْ إلَيْهِمُ إنْ أرَدْتَ

حبيش : كَيْفَ؟

ضرغام : هاكَ سُلَّمَا
وأنْشُـدْ حَمَـاتي بَيْـنَهُـمْ وطُـفْ بِـهَـا مُـسَـلِّمَـا

جيش لملاط : مَلَّاطُ

ملاط : لَبَّيْكَ حُبَيْشُ

حبيش : قُمْ أخِي لَكَ العَطَبْ

ملاط : وما الَّذِي أصْنَعُ يا حُبَيْشُ

حبيش : جِئنـا بِحَطَبْ

ملاط : مِنْ أيْنَ؟

حبيش :
قُمْ خُذْ كُلَّمَا لاقَـتْ يَـدَاكَ مِـنْ خَـشَـبْ

ملاط : كيف أجُرُّ السَّـاقَ والـبَـرْدُ بـأطْـرَافِـي ذَهَـبْ
كـأنَّـنـي مَـيْـتُ الـيَـهُـو دِ نُـزِعَـتْ مِـنْـهُ الـرُّكَـبْ

حبيش :

يَـا لَـكَ بَـرْداً قـارسـاً وزَمْـهَـرِيـراً لاذِعَـا
لا الـصُّـوفُ فِيـه وَاقِـيـاً ولا الـحَـرِيـرُ نـافِـعَـا

ضرغام : حُبَيْشُ ما الصُّوفُ وما الحَرِيرُ لا، لا، أَعْطِنَا بَرَادِعاً

حبيش :

أَنْـظُرْ قَـفَـا صاحِـبِـنَـا كـأَنَّـهُ بَـغْـلٌ ذُبِـحْ
وانْـظُرْ أهـاتـيـكَ أُنُـوفُ فـي الـوُجُـوهِ أم بَـلَحْ؟
كـأنَّ كُـلَّ رَجُـلٍ فـي أُذُنَـيْـهِ قَـدْ جُـرِحْ

[تسمع فرقعة]

آخر : صَوْتٌ؟!

ضرغام : أَجَلْ!

الأول : ما الصَّوْتُ؟

ضرغام : تِلْكَ فَرْقَعَهْ

الأول : وأَيْنَ؟

ضرغام :

عِنْدَ التُّرْكِ هَـلْ مِـنْ مَـوْقَـعَـهْ؟

[تسمع فرقعة ثانية]

حبيش : وذَاكَ؟

الأول : مِدْفَعٌ وتِلْكَ بُنْدُقَهْ

إسْمَعْ!

ضرغام : وما ذَلِكَ!

الأول : تِلْكَ طَقْطَقَهْ

أَقْـدَامُ خَـيْـلٍ فـي الـفَـضَـاءِ مُـطْلَقَـهْ

ملاط :

رَبِّي، مَتَى يَنْقَضِي البَلاَءُ وتَنْقَضِي الحَرْبُ والشِّتَاءُ؟

حبيش :

رَبِّي، مَتَى نَنْعَمْ بالسِّلْمِ، مَتَى
كَمْ ذا إلى كَم نحنُ حَرْبٌ وشِتَا؟

آخر :

كَمْ أنَا كالفَارِ شَقِي مِنْ خَنْدَقٍ لِخَنْدَقِ
أَصْحُو عَلَى المِدْفَعِ أوْ على صَفِيرِ البُنْدُقِ

حبيش :

قُلْ لَنَا، يا خَرَابُ، ما هَذِه الحَالُ مَتَى تَنْتَهِي وأَيْنَ المَصِيرُ؟
قَدْ سَئِمْنَا القِتَالَ وآشْتَاقَتِ الزَّوْجُ إلى زَوْجِهَا وحَنَّ الصَّغِيرُ
وتَرَكْنَا وَرَاءَنَا الدُّورَ، عَزَّ القَمْحُ فيها، وقَلَّ فيها الشَّعِيرُ
وبَنُو ضاهِرٍ شَرَابُهُمُ العُنَّابُ، والشَّهْدُ قُوتُهُمْ والفَطِيرُ

آخر :

كُلَّ حِينٍ يَجِيءُ مِنْ مِصْرَ جَيْشٌ
يَنْزِلُ القُدْسَ أو يَحُلُّ الشَّآمَا
وأمِيرٌ يُقَاتِلُ التُّرْكَ في مِصْـ
ـرَ أَتَى شاهِراً عَلَيْنَا الحُسَامَا
نَحْنُ ما بَيْنَ مِصْرَ والتُّرْكِ ضِغْنَا
وسَئِمْنَا الحَيَاةَ والأَيَّامَا
غَنَمٌ نَحْنُ بَيْنَ رَاعٍ وذِئْبٍ
أيُّ هَذَيْنِ جَاعَ كُنَّا طَعَامَا

آخر : وغداً...

حبيش : ما غَدٌ؟

الأول : بَلاَءٌ عَظِيمٌ

جيش وآخرون: كَيْف! ما ذَاكَ؟

الأول : إسْأَلُوا ضِرْغَامَا

ضرغام : العَمَى للرِّجَـالِ مـا تُبْصِـرُونَ الفُـلْكَ في البَحْرِ تُشْبِهُ الأَعْلاَمَا

آخر : فُلْكُ مَنْ؟

فُلْكُ قَيْصَـرِ الـرُّوسِ في البَحْـرِ تَصُبُّ الـرَّدَى وتَـرْمِي الحِمَـامَـا
قِـطَعٌ مِـنْ جَهَـنَّمَ راسِـيَـاتٌ قَعَـدَ الشَّـرُّ حَـوْلَهُنَّ وَقَـامَـا
وغَـداً ينْـزِلُ الجُنُـودَ فَيْـحَـ ـتَلُونَ هَذِي القِلاَعَ والآجَـامَا

ملاط :

إذَنْ فَـأَهْـلاً بِـغَـدٍ إنَّ غَـداً قَـدْ آقْـتَـرَبْ

آخر : كَيْفَ! وماذا في غَدٍ؟

ملاط : فِيهِ كَرَائِمُ السَّلَبْ

غَـداً نَـفُـوزُ بـالـسِّـلاَ حِ والمَـلاَبِسِ القُشُبْ[1]

آخر :

ومَـا عـلى الصُّـدُورِ مِـنْ قَـلاَئـدٍ ومِـنْ صُـلُبْ
وعَـادَةُ الـرُّوسِ يَـنُـوءُونَ بِـصُـلْبَـانِ الـذَّهَـبْ

[يدخل ضاهر العمر ومعه حسين المصري]

ضاهر : وكَيْفَ حالُ الدَّارِ؟

حسين : غابَةُ الأَسَلْ

أو هِيَ وَكْرُ النَّسْرِ في رَأْسِ الجَبَلْ[2]

ضاهر : وسَهَرُ الدَّارِ على الضَّيْفِ الأَجَلْ

---

(١) القشب: الجديدة.
(٢) الأسل: الرماح.

حسين : تَحْفَظُهُ حِفْظَ الجُفُونِ للمُقَلْ

ضاهر : والشَّامُ، كَيْفَ تَجِدُ الشَّامَ؟

كحسين : نُزُلْ

يَلِيقُ في جَنَّةِ عَدْنٍ للرُّسُلْ

أَنْهَارُهَا مِنْ لَبَنٍ ومِنْ عَسَلْ لا شَيْءَ إلَّا في ذَرَا الشَّمِ كَمُلْ[1]

إنْ تَخْلُ مِنْ شَيْءٍ فمِنْ لَحمِ الحَمَلْ

ضاهر [ويصفق]:

غَضْبانُ صَعْبُ، يا عَبُوسُ، يا نَكِدْ

صعب وغضبان: لَبَّيْكَ، مَوْلَايَ، اقْتَرِحْ، أَشِرْ، تَجِدْ

ضاهر :

إمْضُوا اجْمَعُوا الحُمْلَانَ مِنْ سُوقِ البَلَدْ

وقدِّموها للضُّيوفِ مُنْذُ غَدْ

[ينسحب حسين والخادمان]

يدخل خادم ويقول: مَوْلَايَ

ضاهر : ماذَا.. زائِرٌ آخَرُ؟

الخادم : لا، سَيِّدِي، بَلْ هَذِهِ زَائِرَهْ

ضاهر : إمْرَأَةٌ أُنْثَى؟

الخادم : أَجَلْ سَيِّدي

ضاهر : وما اسْمُهَا؟

الخادم : لَمْ تَرْضَ أَنْ تَذْكُرَهْ

ضاهر : هَلْ صَرَّحَتْ مِنْ أَيْنَ جاءَتْ؟

---

(١) الذرا: الكنف.

الخادم : أجَلْ مِنْ مِصْرَ، مَوْلَايَ ، مِنْ القَاهِرَهْ

ضاهر : وما سِنُّهَا؟

الخادم : غَادةٌ في الصِّبَا تُشَبِّهُهـا الـزَّنْبَق الـطَّيِّبَـا

وقَـدْ لَـبِـسَـتْ حُـلَّةً لـلسِّـفَـارِ

وشَـالاً كَـوَشْـيِ الضُّـحَى مُـذْهَـبَـا[1]

تُـرِيـدُ تُـقَـابِـلُ ضَـيْـفَ الأَمِـيـرِ

ضاهر : تُرِيدُ عَلِيّاً إذَنْ مَرْحَبَا

ثم لنفسه :

إلهِيَ ، أُنْثَى لِـدَارِيَ سَـعَـتْ تُـرِيـدُ عَلِيّـاً فَمَـا تَـطْلُبُ

تُـرَى آمْـرَأَةٌ هـيَ أَمَ حَـيَّـةٌ تُـرِيـدُ صَـدِيقِي أَمْ عَقْـرَبُ

[يخرج ثم يعود بشمس]

شمس : سَـلامٌ لَكَ ، مَوْلَايَ

ضاهر : سَلَامٌ ، جَارَةَ الدَّارِ

فَمَا أَنْتِ، وما تَبْغِيـ ـنَ مِنْ ضَيْفِي ومِنْ جَارِي؟

شمس :

رَسُـولٌ أنَـا، يـا مَـوْلَايَ قَـدْ جِئْـتُ بـأَخْـبَـارِ

جَـرَى في مـصـرٍ الـدَّهْـرُ بـأَحْـوَالِ وأَقْـدَارِ

ضاهر : وما ذَلِكَ؟

شمس : لا أُعْطِي سِـوَى مَـوْلَايَ أَسْـرَارِي

ضاهر : هَيَّ تَقَدَّمْ فَتِّشْ السَّيِّدَهْ

ضاهر للخادم شمس : لا ، سَيِّدِي ، يَحْسُنُ أَنْ تُبْعِدَهْ

مُرْ لا يَمُدَّ الوَحْشُ نَحوِي يَدَهْ

---

(١) السفار: السفر.

الخادم ويتقدم نحوها:

مَـا ضَـرَّ لَـوْ زَحْـزَحْتِ الْـ ـغَـادَةُ فَـضْـلَ الـبُـرْقُـعِ

شمس :

مالَكَ، يا وَغْدَ ولِلْـ ـبُرْقُعِ دَعْ عَنْكَ دَعِ

الخادم :

عَمًى لَكَ يا عُمَرُ ما ذِي غَدَا ئِـرُ لَـكِنَّهَـا أُفْعُـوَانٌ قَـبَـعْ

وتِلْكَ الجُفُـونُ سِـلاَحٌ مَضَى وسَهْمٌ أَصَـابَ وسَيْفٌ قَـطَعْ

وفي الصَّـدْرِ غَـدَّارَةٌ هَـهُنَـا وأُخْـرَى إلى جَـانِبَيْهَـا تَقَـعْ

وهَـذَا القَـوَامُ كـرُمحِ الأَمِيـرِ إذا آهْتَـزَّ في كَفِّـهِ أو لَمَـعْ

أَمِيـرِي أَأَنْـزِعُ مِنْهَـا السِّلاَحَ

[يدخل علي بك]

علي بك بعد أن يسمع : سِلاَحُ المَلاَحَةَ لا يُنْتَزَعُ

[ينسل ضاهر]

علي بك لـشـمس:

أَهْـلاً بِشَمْسٍ بـالـرَّسُـولِ ومَـرْحَبـاً

بِنَسِيـمِ مِـصْـرَ ونَـفْـحَـةِ الأَحْـبَـابِ

كَيْفَ الأَحِبَّةُ، شَمْسُ، هاتِي، خَبِّرِي

قَـدْ طَـالَ بُـعْـدِي عَـنْـهُـمُ وغِـيَـابِي

كَيْفَ الـدِّيَـارُ وكَيْفَ قَصْـرِي هَـلْ تُـرَى

تَـرَكَ الـقَـوَاصِـدُ والصَّـنَـائِـعُ بـابِـي

أَتُـرَاهُمُ قَدْ رَدَّهُمْ خَـدَمِي وقَدْ مَنَعُـوا طَعَامِي عَنْهُمُ وشَـرَابِي

ومَوَائِدِي، يا شَمْسُ، كَيْفَ مَوَائِدِي

والـطَّاعِـمُـونَ بِهَـا وكَـيْـفَ رِحَـابِي؟

شمس :

مَـوْلاَيَ طِبْ نَفْسـاً فَبِـرُّكَ لَـمْ يَـزَلْ

يَجْرِي، وخَيْرُكَ في يَدِ الطُّلاَّبِ

علي بك : والنَّاسُ شَمْسُ؟

شمس :

مَـعَ الأَمِـيـرِ قُـلُوبُـهُـمْ لَكِنْ سُيُـوفُهُمْ مَـعَ الكَـذَّابِ

الـغُـزُّ والأُمَـرَاءُ حَـوْلَ رِكَـابِـهِ

وكَـذَاكَ كـانُوا، أَمْسِ، حَـوْلَ رِكَـابِـي

علي بك : والأَزْهَرُ المَعْمُورُ؟

شمس : صَادَ مُحَمَّدُ فيه الشُّيُوخَ، وعـادَ بـالـطُّلاَّبِ

علي بك : والشَّعْبُ؟

شمس :

سَالٍ، يا أَمِيرُ، كَعَهْدِهِ قَدْ مالَ عَنْ بَابٍ، وقامَ بِبَابِ

والتُّـرْكُ قَدْ نَصَبُـوْه بَعْدَكَ هِـرَّةً يَتَصَيَّـدُونَ بِـظُفْـرِهَـا والنَّـابِ

علي بك :

والقَصْـرُ كَيْفَ القَصْـرُ كَيْفَ صَـدِيقَتِـي

وشَـرِيـكَتِـي فـي شِـدَّتِـي ومُـصَـابِـي؟

أَرَأَيْـتِ آمَـالاً، وكَـيْـفَ وَجَـدْتِـهَـا؟

شمس : لَمْ نَفْتَرِقْ، مَوْلاَيَ

علي بك : مُنْذُ ذَهَابِي؟

شمس :

عَـزَمَـتْ عَلَيْـنَـا أنْ نُقِيـمَ بِـقَـصْـرِهَـا

وتَـعَـطَّفَـتْ وحَـنَـتْ عـلى الأَتْـرَابِ

علي بك : فَوَجَدْتَهَا، يا شَمْسُ

شمس :

خَيْرَ عَقِيلَةٍ وأَجَـلَّ رَبَّـةِ مَنْـزِلٍ وحِجَـابِ

مَـلأَتْ مَـكَـانَـكَ عِـزَّةً ومَـهَـابَـةً
وكَـسَتْ حِـمَـاكَ جَـلاَلَـةَ الـمِـحْـرَابِ
سَـهِـرْتَ عَلَى ذِكْـرَى الأَمِـيـرِ وعَهْـدِهِ
سَـهَـرَ الـلَّبَـاةِ عَـلَى حَـرِيـمِ الـغَـابِ
لَـوْ كُنْتَ، أَمْسِ، تَـرَى رَأَيْـتَ أَبِـيَّـةً
غَـضْبَـى مُـحَـامِيَـةً عـن الأَحْـسَـابِ

علي بك : غَضْبَى؟ ومِمَّ وما جَرَى؟ ما رَاعَهَا؟

شمس : مِنْ سَافِلٍ مُتَهَافِتٍ دَبَّابِ

علي بك : ما ذاكَ شَمْسُ؟ مَن الوَقاحُ؟ مَنْ الَّذِي
نَـقلَ الخُطَى بِمَنازِلِ الغُيَّابِ

شمس لنفسها : رَبّاهُ ماذا قُلْتُ؟ لِمْ خَبّرْتُهُ؟

علي بك : قُولِي، أَجِيبِي

شمس لنفسها : رَبِّ، كَيْفَ جَوَابِي؟

شمس لعلي بك:
ذَنَـبٌ فَـلا تَـجْـعَـلْهُ شُـغْلَكَ، سَـيِّـدِي
إِنَّ الـقَـذَارَةَ شِـيـمَـةُ الأَذْنَـابِ

علي بك : مَنْ ذاكَ شَمْسُ؟

شمس : مُـرَادُ

علي بك :
وَيْحَ له ولي وَيْحِي من الأَتْبَاعِ والأَصْحَابِ
أَمُـرَادُ يَصْنَعُ ذاكَ مـاذا غَـرَّهُ بِخِـزَانَتِي مـا غَـرَّهُ بِثِيَـابِي
والزَّوْجُ شَمْسُ؟

شمس : آسْتَعْصَمَتْ في دِيْنِهَا
ورَمَتْ بِزَائرِها وَرَاءَ البَابِ

علي بك لنفسه:

يـا نَفْسُ، قَـدْ خَـانَ مَنْ قَـلَّدتُـهُ ثِقَتي
وكـانَ حَـوْلِي لِـوَاءَ الـصَّحْبِ والآلِ
هـذا أبـو الـدَّهَبِ آسْتَـوْلَى على شِيَعِي
وحـازَ دُونِـيَ جَـاهِي وآحْتَـوَى مـالِي
والـيـومَ هَـذَا مُـرادُ نـالَ مِنْ شَـرَفِي
مـا لَا يَـمُـرُّ لأَعْـدَائِـي عـلى بَـالِ

علي بك لشمس:

تَعَـالَيْ نَجُـلْ، يـا شَمْسُ، في دارِ ضَـاهِـرٍ
تَعَـالَيْ نَـرَى الجَيْشَ الحَلِيـفَ تَعَـالِي
فَنَحْـنُ آقْتَسَمْنَـا الحِصْنَ ثَـمَّ عِيَـالُـهُ
عـلى كـثـرة الـلَّاجِي وثَـمَّ عِـيَـالِـي

[يدخل حسين من باب ويدخل سعيد من باب آخر]

سعيد : حُسَيْنٌ هُنَا؟

حسين : مَنْ أَرَى مَنْ سَعِيدْ؟

سعيد : سَلَامٌ حُسَيْنُ

حسين : سَلَامٌ سَعِيدْ

سعيد :

أأَنْتَ هُنَـا لَمْ تَـزَلْ يَـا أَخِي تُرَاقِبُ في الشَّامِ حَالَ الطَّرِيدْ؟

حسين : وكَيْفَ آقْتَحَمْتَ فِنَاءَ العَرِينِ
وجَاوَزْتَ هذا الحِصَارَ الشَّدِيدْ؟

سعيد :

بِمَـالٍ بَـذَلْتُ هُنَـا وهُنَـاكَ   وبالمَالِ يُعْطَى الفَتَى ما يُرِيدْ

حسين : مَتَى جِئْتَ مِنْ مِصْرَ؟

سعيد : هَذا الصَّبَاحَ

حسين : ومَنْ كانَ مَعْكَ؟

سعيد : بِغَالُ البَرِيدْ

حسين :

ومـاذَا بِـمِـصْـرَ مِـن الـحَـادِثَـاتِ؟
وهَـلْ جَدّ في أَرْضِ مِصْـرٍ جَـدِيـدْ؟

سعيد :

حَـوَادِثُ مِـصْـرَ عَـلَى حـالِـهَـا
وأَمْسِ الـقَـرِيـبُ كـأَمْسِ الـبَـعِـيـدْ

حسين : وكَيْفَ مُحَـمَّـدُ؟

سعيد :

خَلَّفْتُهُ   كَمَـا يَشْتَهِي وعَلَى مـا نُـرِيـدْ
قَبُـولٌ يُحْـرِّقُ قَلْبَ الحَسُـودِ   ودُنْيَـا تَفِيضُ وشَـأْنٌ يَـزِيـدْ
لَقَـدْ نَزَلَ الـرِّيفُ في رَاحَتَيْـهِ   وحَـجَّ إلى قَـدَمَيْـهِ الصَّعِيـدْ
تَـرَى الأُمَـرَاءَ عـلى بـابِـهِ   يَقُـومُـونَ فِيـهِ قِيَـامَ العَبِيـدْ
ولِـلفُـقَـهَـاءِ عَـلى دَارِهِ   صَبَاحَ مَسَاءَ زِحَامٌ شَـدِيـدْ

حسين : إذْنْ قُضِيَ الأمْرُ، مِصْرُ لَنَا

سعيد : أجـل مُلْكُنَا اليَوْمَ فيها وَطِيدْ

حسين : وكُتْبِي سَعِيدُ؟ تَجِيءُ الأَمِيرَ؟

سعيد : أَجَلْ، وهْيَ مَوْضِعُ إعْجَابِهِ

يُشِيـرُ بـهـا في أحْـادِيثِـهِ ويَنْشُـرُهَـا بَيْنَ أصْحَـابِـهِ
ونَحْنُ كِـلاَنَـا عـلى بَـالِـهِ غَـداً نَتَـلاَقَى على بَـابِـهِ
ونَـطْعَـمُ أطْيَـبَ إحْسَـانِـهِ ونَـلْبَسُ أسْـبَـغَ أثْـوَابِـهِ

حسين :
ومـا أتَـيْـتَ يـا أخِـي تَـصْنَـعُ فـي هـذا الـبَـلَدْ

سعيد :
ذَلِـكَ سِـرّي يـا حُـسَـيْـ ـنَ لا يُقَـالَـنْ لأحَـدْ

حسين :
حَـذَارِ أنْ تَـقُـولَ أوْ تَـفْـعَـلَ شَـيْئـاً يُنْـتَـقَـدْ
نَـحْـنُ بِـدَارِ ضَـاهِـرِ دارِ الـعَـدِيـدِ والـعُـدَدْ
الـجَـمْـعُ يَـقْـظَانُ بِـهَـا وإنْ ظَـنَـنْـتَـهُ رَقَـدْ
وكُـلُّ جَـاسُـوسٍ هُـنَـا عَـلَيْـهِ عَـيْـنٌ ورَصَـدْ
وقَـدْ تَـظُنُّ ضَـاهِـراً مُـبْـتَـعِـداً ومـا بَـعُـدْ
وضَـاهِـرٌ لَـيْـلَ نَـهَـارَ فـي الـسِّـلاَحِ والـزَّرَدْ
قَـدْ جَـعَـلَ الشَّـامَ هِـيَ الـ ـغَـابُ وطَـافَ كـالأسَـدْ

[ثم بعد فترة سكون]

سعيد : حُسَيْنُ!

حسين : ماذا، يا سَعِيدُ، قُلْ، سَلِ

سعيد : أينَ تُرَى أُصَادِفُ الآنَ عَلِي؟

[يقبل علي بك]

حسين :
سَـعِـيـدُ آنْـظُرِ آلْـتَـفِـتْ هَـذَا الأمِـيـرُ مُـقْـبِـلاَ
يَمْشِي الهُـوَيْنَا ويُـخَالُ الأسَـدَ المُسْتَمْهِـلاَ

سعيد :
حُسَيْـنُ مـا لَـهُ آنْـحَـنَـى مـا بـالُـهُ تَـرَهَّـلاَ

لأَمْشِيَنَّ نَحْوَهُ

حسين : لا ، يا أَخِي ، بَلْ آبْقَ

سعيد : لَا

حسين :

إِيَّـاكَ أن تَـقُـولَ مَـا يُـغْـضِـبُـهُ أو تَـفْـعَـلَا
فَـهْـوَ مَـهِـيـبٌ هَـهُـنَـا كَـاللَّيْثِ في جَـوْزِ الفَـلَا[1]

سعيد :

لا تَـخْشَ، لا أَكُـونُ إِلَّا مُـحْـسِـنـاً ومُـجْـمِـلَا
أَلَـمْ يَـكُـنْ أَمْسِ أَمِـيـرَ الـبَـلَدِ الـمُـبَـجَّـلَا

علي بك لسعيد:

مَنْ المَـرْءُ؟ مِنْ أينَ؟ مِنْ أَرْضِ مِصْـرَ؟
فَـهَـذَا الـلِّبَـاسُ لِـبَـاسُ الـوَطَـنْ

سعيد : أَجَلْ مَلِكِي مِنْ رَعَايَاكُمُ

علي بك : ومِنْ مِصْرَ هذا اللِّسَانُ الحَسَنْ
وما آسْمُكَ؟

سعيد لنفسه : ما هَمَّهُ آسْمِي!

سعيد لعلي بك: سَعِيدُ

علي بك : سَعِيدُ تَذَكَّرتُ مَنْ أَنْتَ مَنْ؟

سعيد لنفسه:

تَـذَكَّـرَنِـي عَـجَـبٌ كَـيْـفَ ذاكَ!
ولَـمْ نَـجْـتَـمِـعْ مَـرَّةً فـي الـزَّمَـنْ

---

(١) الجوز: الفلا. والفلا: الأراضي الواسعة القفرة.

تُـراهُ بـي آرْتَـابَ ظَـنَّ الـظُّنُـونَ
تُـراهُ لِـمَـا كَـلَّفُـونـي فَـطِنْ

علي بك : وكيـف تَرَكْتَ بِمِصْرَ الأُمُورْ؟

سعيد : عَواصِفَ حـول مَرَاسِي السُّفُنْ
وجَـوُّ الأُمُـورِ مِن الحَـادِثَـاتِ كَثِيـرُ الغُيُـومِ كَثِيـرُ الـدُّجَنْ

علي بك : وكَيْفَ تَرَكْتَ الأَمِيرَ الجَدِيدَ؟

سعيد : سَقِيمَ الوِلاَيَةِ نَكْدَ الزَّمَنْ

علي بك :
ولِـمْ، يـا فَتَـى، هَـلْ تَـوَلَّى الـوَلِيُّ
وخـانَ مِـنَ الـشِّـيعَـةِ الـمُـؤْتَـمـنْ؟

سعيد :
أَجَـلْ، يـا أَمِـيـرُ، ودَبَّ الـخِـلاَفُ
وثـارَتْ هُـنَـا وهُـنَـاكَ الـفِـتَـنْ

علي بك :
حَـدِيثُـكَ يـا صَـاحِبِـي، لا يُسَـاغُ
ولا تَـطْمَئِـنَّ إلَـيْـهِ الأُذُنْ
عَسَـاكَ تُبَالِـغُ فيما تَقُـولُ لَـعلَّكَ تَـخْلُقُ مـا لَـمْ يَكُـنْ
إِذَنْ لَم يَخُنْ عَهْدِيَ الأُمَـرَاءُ ولم يَقْلِبْ التُّرْكُ ظَهْرَ المِجَنْ[1]
ولَمْ يَـنْسَ أَصْحَابِيَ الفُقَهَاءُ أَيَـادِيَّ عِـنْـدَهُـمُ والـمِـنَـنْ
ولا الـشَّـعْـبُ مَـلَّ الأَمِـيـرَ الـقَـدِيمَ
ولا بـالأَمِـيـرِ الـجَـدِيـدِ آفْـتَـتَـنْ
بَلَغْتَ المَـدَى أَيُّهَـذَا الفَتَى رُوَيْـدَ تَـأَنَّ، رُوَيْـدَ تَأَوْنْ

---

(١) المجن: الترس. وقلب ظهره كناية عن المبادرة بالشر.

فَمَـا نَحْنُ في فَلَوَاتِ الحِجَـازِ ولا نَحْنُ في رَبَــوَاتِ اليَـمَنْ
ولَـكِـنْ عـلى الـشَّــامِ فَــوْقَ الـطَّرِيــقِ
تَــمُــرُّ الــرِّكَــابُ بِــنَــا والــسُّــفَــنْ
وأَخْبَــارُ مِصْــرَ وأَحْــوَالُـهــا هُنَــا سَمَـرٌ للقُــرَى والمُـدُنْ

سعيد : وكُتْبُ الثِّقَاتِ إلى سَيِّدِي

علي بك : وما هِيَ مَنْ أَرْسَلَ الكُتْبَ مَنْ؟

سعيد : كِتَابَانِ مِنْ عُمَرَ الجَرْكَسِي ، ومِنْ حَسَنٍ

علي بك : مَنْ؟ صَدِيقي حَسَنْ؟
كِتَابَانِ مِنْ مِصْرَ مِنْ صاحِبيّ؟

سعيد : أَجَلْ سَيِّدِي

علي بك : سَوْفَ أُغْلِي الثَّمَنْ
وأَيْنَ الكِتَابَانِ؟

سعيد : خُذْ، سَيِّدِي
خُذِ النَّعْشَ خُذْ مِنْ يَدَيّ الكَفَنْ

[وينقض عليه بخنجره فيقبض علي بك على ساعده]

حسين لنفسه :
أسفــاهُ على سعيــدٍ فمــا أَدْ رِي إلى أَيْنَ يَنْتَهِي أَيْنَ يُمْسِي
نَحْنُ سِيَّـانِ في البَـلاءِ وأَيْــدٍ طَلَبَتْ رأسَهُ سَتَــطْلُبُ رَأْسِي
هُـوَ في قَبْضَةِ الأَمِيْـرَيْن لِمْ لَا أَتَــوَارَى أَنْسَـلُّ أَنْجُـوبِنَفْسِي؟

[ثم ينسل هارباً]

علي بك :
كَــيْـفَ تَــرَى يــا مُــعتدي؟ لَــقَــدْ وَقَـعْــتَ فــي يَــدِي

يدخل ضاهر ويقول: أُتركه لِيَ ، سَيِّدِي

أتْــرُكْـهُ لي فــإنَّـه في دارِي ســطَا بِضَيْفِي وَسَـطَا بِجَـارِي

علي بك : مَنْ؟ ضاهِر؟ بالنَّفْسِ أفْدِي ضَاهِراً
أكُنْتَ مَعْنَا يا أَمِيرُ حاضِرَا

ضاهر : كُنْتُ عَلَيْكَ، يا صَدِيقي ، ساهِراً
والآنَ أذْهبُ يا أَمِيرُ بِصَاحِبِي

علي بك : أتُرِيدُ تَذْهَبُ بالأَثِيمِ العَادِي؟

ضاهر :

لِمْ لا وفي دَارِي وبَيْنَ عَشِيــرَتِي شَهَـرَ السِّلَاحَ على أَمِيـر الـوَادِي
دَعْنِي أُحِـلّ بـه العِقَــابَ وخَلِّنِي أَمْنَعْ حِمَى شَرَفِي وحَوْضَ وِدَادِي

سعيد في ضراعة:

مَوْلَايَ !

علي بك : ما بِكَ قُلْ؟

سعيد : بمصْرَ وحَقِّها
لا تُلْقِ رَأْسِي في يَدِ الجَلَّادِ
مَـوْلَايَ، سَـيْـفُـكَ بِــي أَبَــرُّ فَـسُـلَّهُ
إنْ شِئْـتَ فــاقْـتُـلْنِي بِسَـيْـفِ بِـلَادِي

ضاهر :
حَـسَنُ قُـمِ آنْهَضْ يــا بُـنَـيَّ قُـمْ آنْــطَلِقْ
فَـلَقَــدْ طَـلَبْـتَ الـخَـيْـرَ عِـنْـدَ جَـوَادِ
أنَــا قَــدْ وَهَبْتُـكَ للأميــر وقَــدْ عَفَــا
إنَّ الأَمِــيــرَ بــكُــلِّ فَــضْــلٍ بــادِي

علي بك ألان سَعِيدٌ

سعيد : أمِيرِيَ قُلْ؟

علي بك : تَكَلَّمْ أَبِنْ نَبِّنِي مَنْ أَمَرْ

وَمَنْ بَـذَلَ المَـالَ بِي مُغْـرِيـاً وكَيْفَ أَتَـاكَ جَـوَازُ الـسَّفَـرْ

تَكَلَّمْ أَبِنْ

سعيد :

سَيِّدِي أَعْفِنِي فَـلاَ خَيْرَ فِي أَنْ يَـذِيعَ الخَبَـرْ

علي بك :

قِلِ السِّرَّ لا تُخْفِهِ، لا تَخَفْ فَسِـرُّكَ عِنْـدَ صَـدِيقِ العُمُـرْ

أَلَيْسَ مُحَـمَـدُ المُـجْتَـرِي؟ قُلِ الصِّدْقَ تَأْمَنْ بِهِ كُلَّ شَرْ

سعيد :

مُـرادُ أَشَـارَ بِقَتْـلِ الأَمِيـرِ وغَيْـرُ مُـرَادٍ بِـهِ لَمْ يُـشِـرْ

علي بك : مُرَادُ؟

سعيد :

أَجَـلْ إنَّـه الـمُـعْـتَـدِي ومَـا أَنَـا إلاَّ سِـلاَحُ شُـهِـرْ

علي بك [ملتفتاً بضاهر العمر]:

سَمِعْتَ أخِي ما يَقُولُ الغُـلاَمُ عَـدُوٌّ مِن الأَهْـلِ ثَـانٍ ظَهَـرْ

إذا مـا بَغَـــى الأَهْـلُ والأَقْـرَبُـونَ

فَـكَـيْـفَ مِـن الـعَـالَـمِـينْ الـحَـذَرْ

[يخرج الضاهر فيتغيب لحظة ثم يعود فيقول]

ضاهر : أَمِيريَ

علي بك : مَنْ صَاحِبي ضَاهِرُ؟

ضاهر : هُنَالِكَ، مَوْلاَيَ، ضَيْفٌ حَضَرْ

علي بك : ومَنْ؟

ضاهر : قـائِدُ الـرُّوسِ في عَكَّةٍ أيدخل، مولاي، أم ينتظرْ؟

علي بك : أَمِيرٌ على البَحْرِ ماذا يَقُودُ؟

ضاهر : بَـوارِجَ لـلـرُّوسِ مِـثْـلَ الـجُـزُرْ

علي بك : وماذا تَرَى أَنْتَ، مُرْنِي، أَشِرْ

ضاهر : تُلاَقِيهِ فَهُوَ جَلِيلُ الخَطَرْ

علي بك : أَلاَقِيهِ؟

ضاهر :

لِـمْ لاَ ومَـا فـي الـلِّقَـاءِ إذا مـا سَمحْتَ بِـهِ مِنْ ضَـرَرْ

[يصفق الشيخ ضاهر فيدخل القائد الروسي محاطاً برجال الشيخ.. ويخرج ضاهر وسعيد ورجال الشيخ]

القائد : التَّحِيّاتُ للأَمِيرِ

علي بك :

تَحِيَّاتٌ وأَهْـلاً بِـسَـيِّـدي الـرُّبّـانِ

أدْنُ خُـذْ مَـجْلِسـاً بِـجَـنْـبِـي تَـفْـضَّـلْ

القائد : عِشْتَ مَوْلاَيَ مُولِيَ الإحْسَانِ

نَحْنُ جاران، يا أَمِيرُ، ولَكِنْ نَحْنُ في مَنْـزِلَيْن يَخْتَـلِفَـانِ

أَنْتَ كـالـلَّيْـثِ رابِضـاً فـي الـصَّـحـارَي

وأنـا الـحُـوتُ في الـعُبَـاب مَـكَـانِـي

علي بك :

غَيْـرَ أَنِّي مُـقَيَّـدٌ بـخُـطُوبٍ حَبَستْ هِمَّتي وَرَدَّتْ عِنَـانِي

القائد :

لا تَضِقْ، يا أَمِيرُ، ذَلِكَ أُسْطُو لي جلاَلُ البِحَارِ نُـورُ المَوَانِي

سُفُنُ القَيْصَـرِ العَـظِيم قُصُـورٌ لَـكَ إنْ شِئْتَ زُيِّنتْ ومغاني[1]

---

(١) المغاني: جمع مغنى، وهو المنزل يغنى به أهله.

علي بك :

أَشْكُرُ القائِدَ النَّبِيلَ، وإنْ لَمْ   يَخْفَ ما فِي خِطَابِهِ مِنْ مَعَاني

مستمراً :

أنا في دارِ ضَاهِرٍ وهْيَ دَارِي   مَعَ أَعْوَانِه وهُمْ أَعْوَانِي

أَنَا في دارِ مُسْلِمٍ عَرَبِيٍّ   مانِعِ الجَارِ مُكْرِمِ الضِّيفَانِ

أَنَا في الدَّارِ أَوَّلٌ مُنْذُ هاجَرْتُ إِلَيْهَا، وصاحِبُ الجارِ ثاني

القائد :

سَيِّدِي، أَلْقِ ضاهِراً، وتَقَلَّدْ   نَجْدَةَ القَيْصَرِ العَظِيمِ الشَّانِ

لا تَرُومَنَّ بالعَصَا مُلْكَ مصْرٍ   واطْلُبْ المُلْكَ بالحُسَامِ اليَمانِي

كَيْفَ تَبْغي سَرِيرَ مِصْرَ بِشَيْخٍ

بَدَوِيٍّ بِصَارِمٍ وحِصَانِ

علي بك :

بِكَرِيمٍ من الرِّجَالِ أَبِيٍّ   عَبْقَرِيِّ الوَفَاءِ والإِحْسَانِ

فَزِنْ القَوْلَ، يا نَبِيلُ، وأَمْسِكْ   لا تَنَلْ ذِكْرَ صاحِبي بِهَوَانِ

القائد :

ما أَهَنْتُ الصَّدِيقَ، مَوْلَايَ، لَكِنْ

قُلْتُ أَحْسِنْ تَخَيُّرَ الأَعْوَانِ

علي بك :

لَيْسَتِ النَّجْدَةُ البَوَارِجَ كالأَعْلامِ

تطوي اللُّجَاجَ كالطُّوفَانِ[1]

لَيْسَتْ النَّجْدَةُ الحَدِيدَ ولا النَّارَ

بِأَيْدِي المُشَاةِ والفُرْسَانِ

---

(١) اللجاج: جمع لجة بالضم، وهي معظم البحر.

لَيْسَتِ النَّجْـدَةُ آصْـطِفَـافَ العَـوَالِـي

وآلْتِـفَـافَ الـعُـرُوشِ والـتِّـيـجَـانِ[1]

مـا النَّجْـدَةُ الـحَقُّ إلَّا صَـاحِـبٌ دَمُـهُ

عِـنْـدَ الـبَـلاَءِ دَمِـي أو مَـالُـهُ مـالِـي

أَخٌ قَـدِيـمٌ كـعِـرْقِ الـتِّـبْـرِ خُـلّتُـهُ

لَـمْ أُسْـقَ مِـنْ وُدِّهِ إلاّ بِـسَـلْسَـالِ

وعِـرْضُـهُ عِـنْـدِيَ الغـالِي، وإنْ بَعُـدَتْ

بِـهِ الـدِّيَـارُ، وعِـرْضِي عِنْـدَه الغـالِي

القائد : كَصَاحِبِ الدَّارِ؟

علي بك : لِمْ لا؟ ضَاهِرٌ رَجَلٌ

مِن المُرَوءَةِ لا عُطْلٌ ولا خالي

[تقبل شمس]

القائد : والمُلْكُ، مَوْلاَيَ، مُلْكُ الضَّفَتَيْنِ

علي بك : أَجَلْ

المُلْكُ يا قائِدَ الأُسْطُولِ آمَالِي

القائد :

إذَنْ فتِلْكَ سَفينُ القَـيْـصَـرِ آضْـطَجَـعَتْ

عـلى فَـرَاسِـخَ مِـنْ عَـكَّـا وأَمْـيَـالِ

فآرْكَبْ، أَمِيرِي، فِيهـا وآئْتِ مِصْـرَ غَـداً

فـي الـدَّارِعِيـنَ وفي الـفُـولاَذِ والمَـالِ

لعَلَّنَـا نَـدْخُـلُ الـوَادِي مَـعـاً وعَسَى

عَـلَى لِـوَائِـكَ يَغْـزُو الـتُّـرْكَ أَبْـطَالِي

---

(١) العوالي: الرماح.

علي بك :

نَمْضِي فَنَفْتَحُ مِصْراً ثُمَّ نَدْخُلُهَا
أُمْنِيَّةُ الدَّهْرِ تَأْتِي لِي وتَسْعَى لِي

غَداً أَحِلُّ بِأَعْدَائِي العِقَابَ عَلى
ما آسْتَمْرَؤوا، أَمْس، مِنْ قَهْرِي وإذْلاَلِي

[يدخل ضاهر]

علي بك لنفسه :

رَبَّاهُ، مَاذَا يَقُولُ المُسْلِمُونَ غَداً
إنْ خُنْتُ قَوْمِي وأَعْمَامِي وأَخْوَالِي

يُقَالُ في مَشْرِقِ الدُّنْيَا ومَغْرِبِهَا
فَعَلْتُ فَعْلَةَ نَذْلٍ وآبْنِ أَنْذَالِ

علي بك [للقائد]:

أَجَلَ سَمَوْتُ لِمُلْكِ النِّيلِ أَطْلُبُهُ
بِهِمَّتِي وبِإقْدَامِي وأَفْعَالِي

لا أَسْتَعِينُ على الأَهْلِ الغَرِيبَ، ولاَ
أَرْمِي الذِّئَابَ على غَابِي وأَشْبَالِي

القائد :

مَوْلاَيَ، تِلْكَ مَعَانٍ تَحْتَهَا كَرَمٌ
لَيْسَتْ لِمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِأَشْغَالِ

علي بك :

بُعْداً وسَحْقاً لِعَلْيَاءِ الأُمُورِ إذا
لَمْ أَلْتَمِسْهَا بِخُلْقٍ فاضِلٍ عالِي

المَوْتُ في ثَمَرٍ تَرْقَى لِتُجْنِيَهُ
في سُلَّمٍ مِنْ ثَعَابِينٍ وأَصْلاَلِ(١)

---

(١) الأصلال: جمع صل بالكسر، وهي الحية من أخبث الحيات.

القائد : إذَنْ، أَمِيـرِيَ فـالأُسْـطُولُ مُنْتَـظِرِي
والـبَحْـرُ يَسْـأَلُ عَنْ شَـأْنِ الأَمِيـرَالِ

علي بك بصوت منخفض:
إذْهَـبَ فَمَـا أَنْـتَ دارٍ مـا غَـدٌ، فَعَسَـى
يُـغَـيِّـرُ الله مِـنْ حـالٍ إلـى حـالِ

[ينصرف القائد ويشيعه ضاهر وأتباعه]

علي بك لنفسه:
رَبّاه، مـا بالي؟ أَبَعْـدَ مُحَمَّـدٍ   وعُقُـوقِهِ أَشْقَى بكَيْـدِ مُـرَادِ
أنَـا صَخْـرَةُ الـوادي يُـرَاوِحُ عـاصِفٌ
رُكْـنِي ويُـبْكِـرُ عـاصِـفٌ فـيُـغَـادِي
حَمَلتْ كَـوَاهِلِيَ الخُطُوبَ كَمَـا حَوَتْ
هُـوْجَ الـرِّيَـاحِ مَـنَـاكِبُ الأَطْـوَادِ[1]
ولَـقَـدْ تَـرَكْـتُ وَرَائِـيَ الـوَادِي ومَـا
بـالـضَّـفَّـتَيْـنِ فـتًـى يَـحُـوطُ الـوَادِي
لَـمْ يَبْـقَ فـي مِـصْـرٍ، ومِـصْـرُ عَـزِيـزَةٌ
مِـنْ قـائِـلٍ : هَـذِي الـبِـلَادُ بِـلَادِي
الـذِّئْبُ يَـرْتَـعُ فـي الـدِّيَـارِ ويَـرْتَـعِي
والشِّعْبُ يَسْـرَحُ كـالقَـطِيـعِ الهـادِي[2]
نَقَلَ الزَّمَانُ زِمَامَهُ، ورَمَى بِـهِ   مِنْ فَـاتِحٍ بـاغٍ لآخَـرَ عـادِي
وَيْحِي فَمَـا وَقَفَ الـرِّجَـالُ كَـمَـوقِفِي
مِـنْ ظُـلْمِ أَحْـبَـابٍ وكَـيْـدِ أَعَـادِي
فَـهُنَـاكَ فـي فُسْـطَاطِ مِـصْـرَ مُحَـمَّـدٌ
جَـشِـعُ الـعَـدَاوَةِ لا يَـمَـلُّ طِـرادِي

---

(١) الأطواد: جمع طود بالفتح، وهو الجبل العظيم.
(٢) الهادي أي الهادىء بالهمز فسهل.

حَتَّى حَوَى بِيَدٍ مَوَاكِبَ دَوْلَتِي
وحَوَى بِأُخْرَى طَارِفِي وتِلاَدِي
مَالِي مُحَمَّدُ الأَثِيمُ يَكِيدُ لِي
ومُرادٌ البَاغِي يَدُوسُ وِسَادِي
عَجَبُ العَجَائِبِ مِصْرُ صَارَتْ ضَيْعَةً
لِمُحَمَّدٍ ورِفَاقِهِ الأَوْغَادِ
ذِئْبٌ أَتَى الأَتْرَاكُ فِي الوَادِي بِهِ
خَلَعُوا عَلَيْهِ إِمَارَةَ الآسَادِ
وبَقِيتُ فِي أَرْضِ الشَّآمِ مُشَرَّداً
حَيْرَانَ لَيْسَ لِحَيْرَتِي مِنْ هَادِي
قَدْ نِمْتُ عَنْ حَقِّي وتَارِكُ حَقِّهِ
لاقِي الخَسَارِ على النَّدَامَةِ غَادي
مَا لِي قَعَدْتُ، وتُرْكِيَا مَقْهُورَةٌ
والرُّوسُ حَوْلِي يَخْطُبُونَ وِدَادِي
أَسْطُولُهُمْ بِيَدِي، وقَائِدُهُمْ مَعِي
سَأُصِيبُ جُنْدِي عِنْدَهُ وعَتَادِي
لا، يا عَلِيُّ، رُوَيْدَ في الغَضَبِ اتَّئِدْ
مَا تِلْكَ خُطَّةُ حِكْمَةٍ ورَشَادِ
مَاذ جَنَتْ مِصْرٌ عَلَيَّ وأَهْلُهَا
إِنَّ الجُنَاةَ عَلَيَّ هُمْ أَوْلاَدِي
مَا ضَرَّ مِصْرَ وضَرَّنِي إنْ لَم تكُنْ
مَهْدِي وكَانَ بِغَيْرِهَا مِيلاَدِي
بَلَدٌ رَعَانِي في الصِّبَا وأَحَلَّنِي بَعْدَ الشَّبَابِ مَرَاتِبَ القُوَّادِ
ودَخَلْتُهُ عَبْداً كَيُوسُفَ مُشْتَرًى
فَٱعْتَضْتُ تِيجَاناً عن الأَصْفَادِ[1]

(١) الأصفاد: القيود. يشير إلى قصة يوسف عليه السلام في مصر إذ دخلها غلاماً اشتراه حاكم=

لا ، يا عَلِيُّ ، آسْمَعْ نُهَاكَ ولا تُصِخْ
لِوَسَاوِسِ الشَّهَوَاتِ والأَحْقَادِ
لا تَرْمِ بالرُّوسِ الشِّدَادِ جَمَاعَةً
ضُعَفَاءَ مَهْزُولِينَ غَيْرَ شِدَادِ
لا تَنْسَ موضع مِصْرَ وآذْكُرْ مالَهَا
مِنْ أَنْعُمٍ سَلَفَتْ وبِيضَ أَيَادي
لا تَنْسَ ماذَا أَلَّفَتْ مِنْ سَامِرٍ
لَكَ في الشَّبَابِ وهَيَّأَتْ مِنْ نَادي

شمس : أَمِيرَيَ

علي بك : شَمْسُ سَمِعْتِ النَّجِيَّ؟

شمس : أجل، سَيِّدي، وعَلِمْتُ الخَبَرْ

علي بك : فماذا تَرَيْنَ؟

شمس :

أَرَى الخَطْبَ جَلَّ وأَنْتَ عَلَيْهِ جَلِيلُ الصَّبَرِ
وما زِدْتُ عِلْماً بِحِلْمِ الأَمِيرِ ولا خُلْقِهُ الأَرْيَحِيّ العَطِرْ
دَعِ الرُّوسَ لا تَنْتَصِرْ بالغَرِيبِ وبالله، بالأَقْرَبِينَ آنْتَصِرْ

علي بك : وأَيْنَ هُمُ، شَمْسُ؟

شمس :

هُمْ في يَدَيْكَ وتَحْتَ لِوَائِكَ مُرْ، قُلْ، أَشِرْ
أَصِخْ لِسَجَايَاكَ فالخَيْرُ فِيكَ

علي بك : ولَيْسَ يُقابَلُ إلاَّ بِشَرْ

= من الحكام، ثم إذا هو أن سُمي على بيت المال.

أبــو الــدَّهَــبِ الــغِــرُّ بــالــتُّـرْكِ لاذَ
وفـي مِصْـرَ فـي غَـدِهَـا مـا ٱفْـتَكَـرْ
وكَمْ قَـدْ غَـزَاهَـا على رَايَتِي وكَمْ مِنْ سِـلاحٍ عَلَيْهِمْ شَهَـرْ
وكُـنَّـا خَـطَطْنَـا ٱنْـتِـشَـالَ الـبِـلَادِ
وإنْـقَـاذَهَـا مِـنْ عُـتُـوِّ الـتَّـتَـرْ
وأنْ نَـسْـتَـقِـلَّ بـسُـلْطَانِـهَـا ونُنْهِضُـهَـا في النَّوَاحِي الأُخَـرْ

شمس :
تَـرَكْـتُ وَرَائِيَ مـا تَـبْتَـغِي مـن العَـوْنِ والمَـدَدِ المُنْتَـظَرْ

علي بك : جُمُوعٌ؟

شمس :
هُنَـاكَ على الـصَّـالِحِيَّـةِ جَمْـعٌ كَسِـرْبِ الجَـرَادِ ٱنْـتَشَـرْ[1]
ويَنْتَـظِرُونَ رِكَـابَ الأَمِـيـرِ كمِثْـلِ ٱنْتِظَارِ النَّبَـاتِ المَـطَرْ

[يعود ضاهر]

ضاهر : ضاهِرٌ عِنْدَ ظَنِّ مَوْلَايَ فِيهِ

علي بك : مَنْ؟ صَدِيقِي أخِي حَلِيفِـيَ ضاهِرْ؟

ضاهر : قـد سمعت الذي جـرى ولمست الفضل والنبـل والسجـايـا الطواهر
عِزْوَتي[2]، سَيِّدِي، ونَفْسِي، ومالِي
فِي الَّـذِي شِئْتَ مـا الَّـذِي أَنْتَ آمِـرْ؟
نَحْنُ إلْفَانِ، يا أميري، على الأرْضِ
وإلْـفَـانِ فـي مُـتُـونِ الـضَّـوامِـرْ[3]

(١) الصالحية: قرية من قرى محافظة الشرقية بمصر.
(٢) عزوتي: أي عشيرتي التي انتسب إليها.
(٣) المتون: جمع متن بالفتح، وهو الظهر. والضوامر: جمع ضامر، وهـو الذي خفّ لحمـه من الدواب.

ومَعِي مِدْفَعَانِ مِنْ سَلَبِ التُّرْكِ
وتَلٌّ من السُّيُوفِ البَوَاتِرْ
والمَوَاشِي كَثِيرَةٌ في ضِيَاعِي
والطَّرِيقُ الطَّوِيلُ بالخَيْرِ عامِرْ
كُلُّ شَيْءٍ كَمَا تُحِبُّ مُهَيَّا فَمَتَى الظَّعْنُ، سَيِّدي، مُرْ نُسَافِرْ

علي بك :
غداً الظَّعْنُ، يا أخِي، قُمْ تَأَهَّبْ
إنَّمَا الغُنْمُ للخَفِيفِ المُبَادِرْ
ضاهِرُ، آسْمَعْ، هُنَاكَ في مِصْرَ

ضاهر : ماذا؟

علي بك : أُهْبَةٌ، يا أَخِي، وجَيْشٌ مُنَاصِرْ
مِنْ صِحَابِي المُشَرَّدِينَ وأتْبَاعي ومِنْ كُلِّ حافِظٍ العَهْدِ ذاكِرْ
إنْ جَمَعْنَا إليه جَيْشَكَ سِرْنَا وأَخذْنَا مُحَمَّداً أَخْذَ قادِرْ
وآنْتَزَعْنَا البِلَادَ مِنْ قَبْضَةِ التُّرْ
كِ ومِنْ كُلِّ فاسِقِ الحُكْمِ سادِرْ[1]
آنَ أنْ نُنْقِذَ البِلَادَ، فماذا أَنْتَ راءٍ

ضاهر : هَلُمَّ، والجَيْشُ حاضِرْ

علي بك : حاضِرٌ؟ فَلْنَسِرْ إذَنْ

ضاهر : بِعُيُونِ الله في حِفْظِهِ بأَيْمَنِ طائِرْ

ثم يصيح : عَرَبَ الشَّامِ، تِلْكَ مِصْرُ دَعَتْكُمْ

جماعة من عرب الشام: ألف لَبَّيْكِ، مصرُ، لَبَّيْكَ ضاهِرْ

ستــار

---

(١) سادر: أي مسترسل في غيه.

الفصل الثالث

[الوقت بعد الغروب ـ في سرادق محمد بك أبو الذهب بالصالحية حيث دارت رحى الحرب بينه وبين علي بك. في الوجه محمد بك راقد على سرير وعثمان الجاسوس التركي يكبس قدميه. في أحد جوانب السرادق جماعة من البكوات يتحدثون ويلعبون الشطرنج. في الجانب الآخر خادمان مصريان مشغولان بتنظيف ملابس محمد بك أبو الذهب. . .]

أحد الخادمين للآخر:

وَلَدِي زَعْزُوعُ أَنْصِتْ   أَصْغِ لِلحَقِّ المُبِينْ
نَحْنُ فِي أَيَّامِ جَهْلٍ   وبَلَاءٍ وجُنُونْ
نَحْنُ فَوَضَى مِنْ مُرَاحِ   الشَّاةِ لِلخِدْرِ المَصُونْ
في زَبُونٍ مِنْ حُرُوبِ الْـ   أَهلِ في إثْرِ زَبُونْ[1]
ورُؤُوسٌ في الصَّوَانِي   نُزِعَتْ مِنْهَا العُيُونْ
وعَزِيزٌ هانَ ما كَانَ   بِبَالٍ أنْ يَهُونْ
أَصْبَحَ النَّاسُ عَلَى الْوَا   دِي بِلَا دُنْيَا ودِينْ
حَرَكَاتٌ كالسُّكُونْ   وحَيَاةٌ كالمَنُونْ

---

(١) الزبون: الحرب التي تصدم الناس.

وَقَفَ الحاكِمُ مِنْ كُلٍّ رَخِيصٍ وثَمِينْ
مِثْلَ ما قَدْ وَقَفَ الدَّائِنُ مِنْ مالِ المَدِينْ
وشَرِيكَ الشَّعْبِ في كَدِّ يَدَيْهِ والجَبِينْ
وشَرِيكاً في الأَوَانِي وشَرِيكاً في الصُّحُونْ

الآخر :

يا شَيْخُ، هذا بَلَدُ أَحْمَالُهُ بِلاَ عَدَدْ
مِنْ سُلَفٍ وكُلَفٍ ومِنْ مُكُوسٍ وفِرَدْ[1]
وكُلَّ يَوْمٍ مَطَرٌ من الضَّرَائِبِ الجُدُدْ
وتَلِدُ الفِرْدَةُ مَا لاَ يَعْلَمُونَ مِنْ وَلَدْ
على الحِمَارِ فِرْدَةٌ وفِرْدَةٌ على الوَتَدْ
وفِرْدَةٌ على اللِّجَامِ وهُوَ حَبْلٌ مِنْ مَسَدْ[2]
وفِرْدَةٌ عَلَى بَرَادِعِ الحَصِيرِ واللِّبَدْ[3]

مستمراً :

يا شَيْخُ، لِي نَعْجَةٌ غَرَامِي وخاطري شَدَّني إليها

الأول : ما صَنَعَتْ ما الَّذِي دَهَاهَا

الثاني : قَدْ ضَرَبُوا فِرْدَةً عَلَيْهَا
فَضِقْتُ ذَرْعاً بِذَاكَ حَتَّى ذَبَحْتُ شَاتِي وطِفْلَتَيْهَا

الأول :

ما قَدْ دَهَاكَ دَهَانِي ومِثْلُ شَأْنِكَ شَانِي
أَتَيْتُ طَنْطَا لِشُغْلِي وكَانَ تَحْتِي أَتَانِي[4]
خَرَجْتُ مِنْهَا مَعَ اللَّيْلِ مُسْبِلاً طَيْلَسَانِي

---

(١) مكوس: ضرائب. وفرد يعني الفردة بالكسر: وهي نوع قديم من الضرائب كان يفرض على الرؤوس والأشياء.
(٢) المسد: السيف.
(٣) اللبد: الصوف.
(٤) طنطا: عاصمة محافظة الغربية بمصر. والأتان: الحمار.

فَـمَـرَّ فَـوْقَ طَـرِيـقـي مَـنْ لا أَرَى ويَـرَانِـي
أَغَـا عَـلَيْـهِ سِـلاَحٌ فـي صُـورَةِ الـشَّـيْـطَانِ
فَـصَـاحَ بِي قِـفْ تَـرَجَّـلْ لَـقَـدْ سَـرَقْـتَ أَتَـانِـي

الثاني : وما جَرَى؟

الأول :

قُلْتُ لَهُ بَـلْ الأَتَـانُ لِـي أَنَـا
فَـقَـالَ ذاكَ أَمْسِ إِلَّا أَنَّـهَـا الـيَـوْمَ لَـنَـا
بَلْ هِيَ لِي وَحْدِي فَدَعْها لِيَ وآمْضِ مِنْ هُنَا
ثُـمَّ رَمَـانِـي بِـيَـدٍ كَـأَنَّـهَـا كَـفُّ الـنِـمَّـرْ
ثـم آعْـتَـلَى ظَـهْـرَ الأَتَـان

الثاني : ثُمَّ؟

الأول : لَكِنْ لَمْ يَسِرْ
حَـتَّـى سَـمِـعْـتُ هَـدَّةً وصَـرْخَـةً مِـن الـنَّـهَـرْ
وابـصـرت عـيـنِـي وَرَا ءَ الـلَّـيْـلِ آيَـةَ الـقَـدَرْ
حِـمَـارَتِـي تَـجَـبَّـرَتْ مِـثْـلَ تَـجَـبُّـرِ الـبَـشَـرْ
فـأَغْـرَقَـتْ رَاكِـبَـهَـا وغَـرِقَـتْ عـلى الأَثَـرْ

مميش بك لعثمان بك [في تهكم واستهزاء]:

لـقـد رَأَيْـنَـاكَ ضُـحَـى الْـيَـوْمِ تَـجِـي مِـن الـجَـبَـلْ
فَـوْقَ حِـصَـانٍ كـالْـغَـزَالِ رِقَّـةً وكَـالْـحَـمَـلْ

عثمان بك [في غضب]:

كَـذَبْـتُـمُ قَـدْ كَـانَ تَـحْـتِـي سَـيِّـدُ الـخَـيْـلِ «بَـطَلْ»
لا حَـمَـلٌ ولا غَـزَالٌ هُـوَ لَـكِـنِ الـوَعِـلْ
كـالأُفْـعُـوَانِ فـي الـشِّـعَـابِ والـشِّـهَـابِ فـي الـقُـلَلْ[1]

---

(١) الشهاب: الشعلة الساطعة من النار. والقلل: رؤوس الجبال.

مميش بك :

وقَـدْ تَـمَـايَلْتَ عـلى السَّـرْ ج تَـمَـايُـلَ الـثَّـمِـلْ
وقَـدْ تَـدلَّـى بَـطْنُـكَ الْضَّـ ـخْـمُ عَـلَيْـهِ وآنْـسَـدَلْ
كـأنَّـكَ المَحْمِـلُ والحِصَـانُ تَحْتَـكَ الجَمَـلْ

عثمان بك :

مَـمِيشُ عِبْتَ حِـصَـانِي ولَـمْ تَـدَعْ لِي آعْـتِـبَـارَا
هَـذَا جَـزَاؤُكَ عِـنْـدِي خُـذْ هَـاكَ مِـنِّي عِـيَـارَا

[ويطلق عليه غدارته]

محمد بك : عُثْمَانُ

عثمان بك : مَلْكِي

محمد بك :

لا تُرَعْ قَـدْ كَـانَ مِـنْ حِـزْبِ عَلِي
كَـفَـيْـتَـنِـيـهِ فَـتَـوَلّ الْـ ـيَـوْمَ مـا كـان يَـلِي
هَـيَّ آحْـمِـلُوا جُـثَّـتَـهُ هَـيَّ آذْهَـبُـوا بـالـرَّجُـلِ

[يخرج به البكوات والخدم]

[عثمان الجاسوس وهو يكبس قدم محمد بك]

عثمان لنفسه :

خَـدَمْـتُـهُ والله مـا خَـدَمْـتُ إلاَّ دُولَـتِـي
كَـبَّـسْـتُـهُ والله مَـا كَـبَّـسْـتُ إلاَّ حـاجَـتِـي[1]
خَـادِمُ تُـرْكِـيَـا أنَـا مـا أنَـا خـادِمَ الـغَـبِـي
كَـمْ مِـنْ حَـرِيـرٍ فـي نَـوَا حِـي صُـدْرَتِـي وذَهَـبِ
هـاتِـيـكَ أَلْقَـابِي وتِلْك شُـرُطِي ورُتَبِي[2]

---

(١) التكبيس: تدليك الجسم باليد.

(٢) شرط: جمع شريط، وهو ما يكون على ذراع الجندي ليميز رتبته.

مِـمّـا بَلَغْـتُ في رِضَـا اللهِ وطَـاعَـةِ الـنَّبِي
وتَـحْـتَ أعْـلَامِ الـسَّـلَا طِينِ الـسُّيُـوفُ الـقُضُـبِ[1]
أقَـمْتُ فـي مِصْـرَ سِنِيـنَ أنْـزَوِي وأخْـتَـبِـي

وأنَـا حِـيـنـاً مـاهِـنٌ وأنْـتَ أحْـيَـانـاً صَـبِـي[2]
أرْمِـي أخـاً عَـلَى أخٍ وأصْـدِمُ آبْـنَـاً بِـأبِ
لَـم أُولِ حُـكْـم الـغُـزِّ جُـهْـدَ البَـاحِـثِ المُـنَـقِّـبِ

[يفيق محمد بك ويتمطى ويتثاءب]

محمد بك :
مـاذا يَـقُـولُـونَ عَـنَّـا في مِصْـرَ، يـا عُـثْـمَـانُ؟

عثمان :
عَـهْـدُ الأمِـيـرِ رُخَـاءٌ وغِـبْـطَـةٌ وأمَـانُ
فَـمِـصْـرُ راضٍ بَـنُـوهَـا والـنَّـاسُ فِـيـهـا لِـسَـانُ
يَـقُـولُ إنَّ أمِـيـري يُـحِـبُّـهُ الـسُّـلْطَانُ

محمد بك :
والأمَـرا مِـنْـهُـمْ مُـخَـالِـفٌ غَـضْـبَـانُ؟

عثمان : الأمَـرَا جَـمِـيـعُـهُـمْ بِـبَـابِـكُـمْ أعْـوَانُ
لا يَـذْكُـرُونَ خَصْمَكُـمْ وبَـيْـتَـهُ مُـذْ بـانُـوا
لا صَيتَ إلَّا صِيتُكُمْ وغَيْرُكُمْ لا شانُ

محمد بك : صَـدَقْتَ هُمْ حَيْثُ كـانَ الجَـدِيـدُ في مِصْـرَ كَـانُـوا

يقبل جندي ويقول لمحمد بك:
مَـوْلَايَ عِنْـدِي أخْبَـارُ سُـوءٍ وقَفْنَ فِـي فِيَّ فَـهْـوَ حـائِـرْ

(١) القضب: القاطعة.
(٢) ماهن: صاحب المهنة.

محمد بك : أَنْتَ رَسُولٌ؟

الجندي : أَجَلْ

محمد بك :

فَخَبِّرْ بَيِّنْ إِلَامَ القِتَالُ صائِرْ؟

الرُّسْلُ لا يُسْأَلُونَ عَمَّا بَعْدَ المَنَاعِي ولا البَشَائِرْ[1]

الجندي : مَوْلَايَ

محمد بك : ماذَا؟ عَجِّلْ. تَكَلَّمْ

الجندي : دَارَتْ على جَيْشِنَا الدَّوَائِرْ

محمد بك : وما الَّذِي كانَ مِنْ عَليٍّ؟

الجندي : أُعِينَ في أَمْرِهِ بضَاهِرْ

محمد بك : وفَازَ؟

الجندي :

في أَوَّلِ التَّلَاقِي بِقُوَّةِ الشَّامِ والعَشَائِرْ

محمد بك : إِذَنْ هَلَكْنَا؟

جندي آخر وهو داخل:

لا، يا أَمِيرِي بَلْ أَنْتَ ناجٍ، بَلْ أَنْتَ ظافِرْ

محمد بك : مَنْ قَالَ ذا؟

الجندي : شاهِدًا عِيَانٍ

محمد بك : مِنْ أَيْنَ؟ مِمَّنْ؟

---

(١) المناعي: الإخبار بخبر الموتى.

الجندي : مِنْ العَسَاكِرْ

[يدخل الجنديان ويتبعهما خدم يحملون صينية كبيرة]

الجندي : ها هُمَا

محمد بك : مَرْحَباً

الجنديان : عَوَافٍ حَيَاةٌ

محمد بك : أَوْجِزَا

الجنديان : نَحْنُ مُوجِزَانِ المَقَالاَ

هُــزِمَ الــجَيْشُ صُــبْــحَ أَمْسِ ولَـكِــنْ
عــادَ نَــجْـمُ الــعَــدُوِّ ظُـهْــراً فَــمَــالاَ
فَحَمَلْنَــا عَلَيْـهِ حَمْلَةَ صِــدْقٍ وحَــوَيْنَــا الــرِّجَـالَ والأَمْــوَالاَ

محمد بك لأحدهما:

زِدْ، أَبِنْ

الجندي : ما قَصَّرَ الجَيْشَانِ ضَرْباً وطِعَانَا

[يقبل البكوات]

محمد بك للجندي:

وأبو مَيْلَة؟[1]

الجندي :

غَشَّى سَــاحَــةَ الحَــرْبِ دُخَــانَــا

أحد البكوات :

قَــدْ رَأَيْــنَــا مِــنْ هُــنَــا ظُــلَّتَــهُ والــلَّمَــعَــانَــا
وسَــمِــعْــنَــا مِــنْ هُــنَــا رَجَّــتُــه والــدَّوَرَانَــا

(١) مدفع من صنع واختراعه محمد بك أبو الدهب.

محمد بك :

آخْتِرَاعِي مِدْفَعِي قَدْ ظَهَرَ اليَوْمَ وبَانَا ومُرادٌ؟

الجندي :

كان كاللَّيْثِ لِحَاظاً وجَنَانَا

شدّ بالزأرة والوثبة في الحرب قُوَانا

كُلَّما آنْهَارَ حِصَانٌ تَحْتَهُ آحْتَلَّ حِصَانَا

محمد بك : ثُمَّ؟

الجندي : رَمَى بِنَفْسِهِ عَلَى عَلِيٍّ في الرَّحَى

محمد بك : ثُمَّ؟

الجندي :

تَجالَدَا فَلَمْ يَدَعْهُ حَتَّى جُرِحَا

محمد بك : أَيْنَ هُوَ الآنَ؟

الجندي :

على آثارِنَا على سَرِيرٍ لَيِّنٍ مُظَّللِ

يَخْدُمُهُ النَّاسُ ويُعْنَوْنَ بِهِ

كالوَلَدِ المُمَهَّدِ المُدَلَّلِ

محمد بك همساً لعثمان:

عُثْمانُ هَذَا عَلَوِي لا تَنْسَ رَأْسَهُ غَداً

محمد بك للجندي:

تِلْكَ رُؤُوسُ شِيعَتِهِ. ومَنْ سَعَى لِنُصْرَتِهِ. مِنْ بَيْتِهِ وعَزْوَتِهْ

[يأخذ الجيش في العودة من ميدان القتال في أزياء شتى بين الضجيج المتواصل من الطبل والزمر، وتقبل طائفة طائفة فيمر بخيمة محمد بك، وكلما طافت به جماعة خرج إليهم البيك فينثر عليهم الذهب وهو يقول]

محمد بك :

خُذُوا خُذُوا خُذُوا خُذُوا إِنِّي أَنا أَبُو الذَّهَبْ
خُذُوا امْلَئُوا أَيْدِيَكُمْ مِن الشُّعَاعِ المُنْسَكِبْ

الجماعة :

سَلِمْتَ يا أَبا الذَّهَبْ وعِشْتَ تُعْطِي وتَهَبْ
أَخْجَلَ جُودُكَ السُّحُبْ

الجيش والنظارة يهتفون معاً:

بَنِي الوَادِي قِفُوا حَيُّوا اللِّوَاءَ
وغَطُّوا الأَرْضَ وَرْداً والسَّمَاءَ
رَجَوْتُمْ مِنْ وَرَاءِ الحَرْبِ نَصْراً
وهَذَا النَّصْرُ بَيْنَ يَدَيْهِ جَاءَ
هُوَ الزَّمْرُ المُقَدَّسُ فَاتْبَعُوهُ ومُوتُوا في القِتَالِ لَهُ فِدَاءَ
عَلَيْهِ ضَجَّةُ الفَرْحِ ابْتِهَاجاً بِطَلْعَتِهِ الحَبِيبَةِ واحْتِفَاءَ
كَأَنَّ وَرَاءَ هَيْكَلِهِ خَيَالاً
مِنَ الشُّهَدَاءِ والجَرْحَى تَرَاءَى
عَلَى قَدَمْ حَيُّوا العَلَمْ
حَيُّوا الشِّعَارْ حَيُّوا الفَخَارْ
رَمْزُ الوَطَنْ مَجْدُ الدِّيَارْ

أحد القواد القادمين :

سَيِّدِي فُزْتَ بالمُنَى هُو ذا الجَيْشُ قَدْ رَجَعْ
وهَبَ الله نَصْرَهُ لِلمُرِيدِينَ والتَّبَعْ
وعَلِيٌّ وجَيْشُهُ شَبِعَتْ مِنْهُمَا الضَّبُعْ
لَيْسَ يُدْرَى أَمَاتَ أَمْ في يَدِ الجُنْدِ قَدْ وَقَعْ

علي بك :

أَجَلْ أَرَى الجَيْشَ آقْتَرَبْ نَشْوَانَ بالِغَ الأَرَبْ
يُرْسِلُ رَنَّةَ الطَّرَبْ

فريق من الجند يتغنون من خارج الخيمة :

سَلِمْتَ يا أَبَا الذَّهَبْ وعِشْتَ تُعْطِي وتَهَبْ
أَخْجَلَ جُودُكَ السُحُبْ

جماعة أخرى من الجنود والنظارة يهتفون :

يا عَسْكَرَ النِّيلِ بالسَّلاَمَةْ يا عَسْكَرَ النِّيلِ بالسَّلاَمَهْ
ظَفِرْتَ بالنَّصْرِ كُلَّ حِينٍ وفُزْتَ بالعِزِّ والكَرَامَهْ
في يَوْمِ سِلْمٍ وفِي قِتَالٍ وفي رَحِيلٍ وفي إقَامَهْ
فَمَا شَهِدْتَ القِتَالَ إلاّ رَفَعْتَ للضَّفَّتَيْنِ هامَهْ
أَبْلَيْتُمُ قَادَةً وجُنْداً بُورِكَ في الجُنْدِ والزَّعَامَهْ
قَدْشَيَّدَ الله مَجْدَ مِصْرٍ والجَيْشُ مِنْ مَجْدِهَا الدِّعَامَهْ

جماعة آخرون :

هَلُمَّ خَيْلَ الوطَن تَخَايَلِي في الرَّسَنِ
اليَوْمَ أَنْتِ مُطْلَقَهْ حَمْحَمَةً وطَقْطَقَهْ

محمد بك أبو الذهب وينثر الذهب:

خُذُوا خُذُوا خُذُوا خُذُوا إنِّي أنَا أبُو الذَّهَبْ
خُذُوا آمْلأُوا أَيْدِيَكُمْ مِن الشُّعَاعِ المُنْسَكِبْ

الجماعة :

سَلِمْتَ يا أبَا الذَّهَبْ وعِشْتَ تُعْطِي وتَهَبْ
أَخْجَلَ جُودُكَ السُّحُبْ

أحد البكوات : مَلِكِي

محمد بك : ما جَرَى؟

الأول : تأمّلْ أسِيرٌ

سَيِّدِي مِنْ عَوَاهِلِ الشَّامِ كَهْلٌ[1]

محمد بك : مَنْ يَسُوقُ الرِّجَالُ؟ ضَاهِرٌ الشَّامِيُّ

عانٍ عَليه قَيْدٌ وغُلٌّ[2]

[يدخل ضاهر يحوطه الجند]

محمد بك :

وَيْحَهُمْ ذاكَ ضاهِرُ ما لِجُنْدِي
قد غَوَوْا ما لِقَادَةِ الجُنْدِ ضَلُّوا
كَثُرَ الجُنْدُ في الحَدِيدِ عَلَيْهِ
وهو كالَّيْثِ في الحَدِيدِ يُدِلُّ

محمد بك، ويتقدم منه:

ما أرَى ضاهِرُ يُسَاقُ أسِيراً
أنْتَ مِنْ ذَاكَ، يا أمِيرُ، أجَلُّ
أيُّهَا الجُنْدُ ضاهِرٌ صارَ لي ضَيْفاً
فَخَلُّوا سَبِيلَ ضَيْفِي خَلُّوا
مِنْ فِلَسْطِينَ أنتْ ضاهرُ أمْ مِنْ أرزِ لُبْنَانَ أمْ لَكَ الشَّامُ أصْلُ؟

ضاهر :

كُلُّ هَذَا هُنَاكَ، مَوْلَايَ، أصْلٌ
واحِدٌ يَجْمَعُ الرِّجَالَ وفَصْلُ

---

(١) العواهل: الحكام.
(٢) العاني: المهموم. والغل: الطوق من حديد يجعل في عنق الأسير.

عَــرَبٌ كُـلُّنَــا ومَـنْــطِقُنَــا الـفُـصْـحَى
وآبَــاؤُنَــا نِــزَارٌ وذُهْــلُ

محمد بك للجند:

ما صَنَعْتُمْ بِسَيْفِهِ؟

أحـد الجند : هُوَ عِنْدِي

محمد بك : هاتِهِ فَهُوَ مَحْرَمٌ لا يَحِلُّ

محمد بك ويناوله السيف:

خُذْ تَقَلَّدْ، والله، لَيْسَ لهذا الظُّـ
ـفْــرِ إلّا يَــدَ الـهَــصُــورِ مَــحَــلُّ
أَنْــتَ خِــلٌّ للبــائِـسِيـنَ وَفِيٌّ وهُــوَ أَيْضاً لَهُمْ صَـدِيقٌ وخِلُّ

ضاهر : لَسْتُ أَنْسَى لِسَيِّــدِي الفَضْــلَ مــا عِشْـ
ـتُ وهَــلْ فـي رِعَــايَــةِ الحَـقِّ فَضْــلُ
قَدْ رَدَدْنَا عَلَى السَّمَوْأَلِ سَيْفاً
كَــانَ دُونَ الــوَفَــاءِ أَمْسِ يُــسَــلُّ

ضاهر :

كَيْفَ أَمْشِي في الشَّــامِ أو في سِــوَاهَــا
أَلْــبَسُ الـعِــزَّ حِـيــنَ جَــارِي يُــذَلُّ
ذَاكَ سَـيْـفِــي فَــأَيْـنَ إكْــرَامُ ضَــيْـفِــي
مـا لِيَ الـيَــوْمَ غَـيْــرُ ضَـيْـفِيَ شُـغْــلُ

محمد بك : مَنْ! عَلِيٌّ؟

ضـاهـر :

أَجَــلْ ومَــنْ كَـعَــلِيٍّ مَلِكٌ ما لَهُ عَلَى الأَرْضِ مِثْلُ
سَيِّدِي، قِيلَ في خِـلَالِـكَ بِـرٌّ لَيْسَ يُحْصَى وفي سَجَايَاكَ نُبْلُ

قَـدْ تَـرَكْتُ الأَمِيـرَ فـي شِـدَّةِ الْـ

ـكَرَبِ ، وغـادرتُ جَمْعَنـا وهُـوَ فَـلٌّ[1]

مـا الَّـذِي أَنْـتَ صـانِـعٌ بِـعَـلِيٍّ؟

محمد بك : غَايَةُ الخَيْرِ فَهُوَ لِلْخَيْرِ أَهْلُ

هُـوَ فـي قَصْـرِهِ كـأمـسِ المُـفَـدَّى

بَـيْـنَ أَوْلَادِهِ الأَمِـيـرُ الأَجَـلُّ

ضاهر : أَسَرُونِي ولَوْ بَقِيتُ طليقاً

محمد بك : ما الَّذِي كُنْتَ صانِعاً؟

ضاهر : كُنْتَ تَبْلُو:

كَـيْف أَبْـنِي الـلِّوَاءَ حَـوْلَ حَـلِيـفِي

وأَرُمُّ الـصُّـفُـوفَ إِذْ تَـضْـمَـحِـلُّ

محمد بك :

بَـلْ سَتَبْقَى بِـمِصْـرَ ضَـيْـفـاً عَـلَيْـنَـا

مِـصْـرُ دَارٌ لـلأَكْـرَمِـيـنَ وأَهْـلُ

ضاهر : ورِجَالِي؟

محمد بك :

سَيَلْحَـقُـونَـكَ فِيـهَـا لَـكَ عِنْـدِي ولِلْعَشِيـرَةِ نُـزْلُ

ضاهر لنفسه :

ذَلِـكَ الـغَـدْرُ والـمَـمَـالِـيـكُ فِـيـهِـمْ

مِـنْ قَـدِيـمِ الـزَّمَـانِ غَـدْرٌ وخَـتْـلُ

[يشير محمد بك إلى جماعة من رجاله فيخرجون بضاهر]

[يقبل مراد في جماعة من الجند]

---

(١) الفل: المنهزم.

محمد بك : مـا أرى؟ما تَرَوْنَ؟

أحد الحاضرين: هَذا مُرَادُ

محمد بك : هُوَ ذا جَرّ ذَيْلَهُ إدْلاَلاَ

مراد بك : التَّحِيَّاتُ للأَمِيرِ

محمد بك :

مُرَادُ مَـرْحَبـاً مَـرْحَباً، تَعَـالَ تَعَـالاَ

مراد بك : أَلْفُ بُشْرَى، مَوْلاَيَ

محمد بك :

أَهْلاً وسَهْلاً أدْنُ مِنّي أُعَـانِقْ الـرِّئْبَـالاَ[1]

[يعانقه]

مراد بك : قَدْ بَلَغْتَ الآمَالَ

محمد بك : لِمَ لا ومَا عَلَّقْتَ إلاّ بِسَيْفِكَ الآمَالاَ

كَيْفَ كانَ القِتالُ؟ أيْنَ تَرَكْتَ الجَيْشَ؟

مراد بك : خَلْفِي مُظَفَّراً مُخْتَالاَ

بَعْـدَ حِين يَمُـرُّ مِنْ هَهُنَـا الجَيْشُ عَلَى سَيِّـدِي رِعَـالاً رِعَـالاَ[2]

محمد بك : وعَلِيٌّ

تَـرَكْتُـهُ فـي يَـدِ الآسِـينَ قـد نَـاءَ بـالـجِـرَاحِ ثِـقَـالاَ[3]

بَعْـدَ حِينٍ يَـأْتِي بِـهِ الجُنْـدُ مَحْمُـولاً مُسَجًّى إذا آسْتَـطَاعَ آنْتِقَـالاَ

[جماعة من الجند يتغنون خارج السرادق]

---

(١) الرئبال: الأسد.

(٢) الرعال: الجماعات القليلة التي تتقدم الجيش.

(٣) الآسون: المداوون الجراح.

سَلِمْتَ يـا أبـا الـذَّهَبْ وعِشْتَ تُعْـطِي وتَهَبْ
أَخْجَلَ جُودُكَ السُّحُبْ

[يخرج محمد بك في جماعته لتحيتهم]

[في هـذه الأثناء يتقـدم مصطفى اليسـرجي جريحاً من مراد بـك زاحفاً على الأرض]

مراد بك : يـا لَعَجـائِبِ الحَيَــاةِ مـا أَرَى هذا اليَسَرْجِي

مصطفى اليسرجي: اليَسَرْجِي مُصْطَفى

مراد بك : أَنْتَ الَّذِي بَرَزْتَ لِي مِنْ سَاعَةٍ؟

مُصْطفَى : أَجَلْ لأَلْقَى مِنْ حُسَامِكَ الرَّدَى

مراد بك : لَقَدْ جُرِحْتَ مِنْ يَدِي لِمْ لَمْ تَمُتْ؟

مصطفى : إنِّي أُحِسُّ أَجَلِي الآنَ دَنَا
مَوْلاَيَ، لا تَقْطَعْ حَدِيثي، وآنْتَظِرْ
عَــجَــائِـبُ الـحَـيَــاةِ فَــوْقَ مــا تَــرَى

مراد بك :
وهَـلْ عَجَائِبُ الحَيَـاةَ غَيْرُ مَـا يَجْرِي هُنَا الآنَ؟

مصطفى : أَجَلْ ومَا جَرَى

مراد بك : فَمُتْ إذَنْ وأَعْفِني

مصطفى : لا بَلْ أَقِمْ
وآسْمَعْ فَقَدْ يُنْجِيكَ ما أَرْوِي هُنَا

مراد بك : سِرٌّ؟

مصطفى : أَجَلْ، وقَدْ يَنَالُكَ الأَذَى
مِنْ أَنْ أَمُوتَ أَنَا والسِّرُّ مَعا

مراد بك :

إذَنْ فقُمْ. إبْقَ، تَأخَّرْ ساعَةً قُلْ ما لَدَيْكَ ثُمَّ مُتْ كَيْفَ تَشا

مصطفى :

أَهكَــذَا رَبّــاكَ جَــافٍ خَشِنٌ مِنْ المَمَــالِيـكِ مُضَيّــعُ الـوَفـا

لَيْتكَ عِشْتَ راعِياً في وَطــنٍ مُهَـذَّبِ الفِتْيَةِ صـالِـحِ النَّشَـا

مراد بك : دَعْ الفُضُولَ وآحْتَرِسْ، يا مُصْطَفَى

أَنْــتَ غَبِــيٌّ لَسْــتَ تَــدْرِي مَــنْ أَنَــا

أَمَا كَفَاكَ، أَمْسِ، أَنْ أَخَّرْتَني أنا وقَدَّمْتَ عَلِيّاً فاشْتَرَى

مصطفى : أَنْتَ تُحبُّها؟

مراد بك : أَجَلْ

مصطفى : أَنْتَ؟

مراد بك : أجلْ

مصطفى : حَذَارِ يا مُرَادُ مِنْ هَذَا الهَوَى

مراد بك مضطرباً:

ولِمْ؟ وما آمَالُ؟ أهْيَ مِنْ دَمِي؟ أَمْ هِيَ لَحْمِي

مصطفى : هِيَ واللهِ هُمَا

مراد بك : أُخْتِي؟

مصطفى : أَجَلْ أُخْتَك

مراد بك : يا لِي ولَهَا مِنْ هَوْلِ ما كُنْت عَلْيهِ مُقْدِمَا

مصطفى : مُرَادُ أَنْتَ في صَعِيدٍ واحِدٍ

ضَرَبْتَ بالسَّيْفِ المُربِّي والأَبَا

مراد بك : وَمَنْ أَبُوهَا وأَبِي أَنْتَ؟

مصطفى :

أَجَلْ أنَـا الَّـذِي بـاعَ الفَتَـاةَ والفَتَى

أنـــا الـشَّقِـيُّ بــائِــعُ ٱبْنَيْــهِ

مراد بك :

أَبِي مــا بِعْتَنَـــا إلاَّ لِنُــدْرِكَ الغِنَى

مصطفى : مُرَادُ أَدْرِكْنِي

مراد بك : فِدَاكَ، يا أَبِي

رُوحِي، وإنْ قَلَّتْ، لَكَ الرُّوحُ فِدى

مصطفى :

أُنْـظُرْ مُرَادُ أنَـا فِي النَّزْعِ ومَـا يُغْنِي المُفَـدُّونَ إذا النَّزْعُ أَتَى

سُقْتُ لَــكَ الــرِّقَّ وسُـقْتَ الـمَــوْتَ لِي

والــرِّقُّ والــمَــوْتُ عَــلَى حَــدٍّ سَـــوَا

مراد بك : أُعْفُ، أَبِي، عَنِّي؛ أَتَعْفُو يا أَبِي؟

مصطفى : القَلْبُ عَنْكَ وعَنِ السَّيْفِ عَفَا

بل ٱعْفُ أَنْتَ، يا مُرَادُ، عَنْ أبٍ

بــاعَــكَ طِـفْــلاً كَـبَــدِيــعَــةِ الــدُّمَى

مـا رَحِم الـدَّمْـعَ بِعَيْنَيْـكَ ولاَ رَقَّ لِــذَلِــكَ البُكَـى ولاَ رَثَى

مراد بك :

واأَسَـــفِـــي وانَـــدَمِـــي أَبِـي عَـلَيْـكَ قَـدْ غُـمِـي[1]

أَفِقْ، أبي، تَكَلَّمِ

---

(١) غمي: أي غمي عليه، أي عرض له ما أفقده الحس والحركة.

مصطفى : مُرَادُ! لا يَقْوَى فَمِي

[ويموت مصطفى]

مراد بك : ماتَ ٱنْتَهَى ، رَبِّ ، ٱرْحَمِ

[مراد بك يلقي عليه عباءته ويرجع باكياً]

تدخل آمال فيلمحها مراد بك ويقول لنفسه :

آمــالُ أُخْــتِــيَــا أَجَــلْ أَجَــلْ هِيَــا
لأكـفيـنَّــهـا تِـلكَ الـضَّــوَارِيَــا

آمال لنفسها :

مـا لَـهُ مُضْـطَــرِباً يَــرْمُقُنِي بـالرِّضَـا حِيناً وحِيناً بالغَضَبِ
مَا بِهِ؟

مراد بك : آمَالُ

آمال :

مَهْلاً سَيِّدِي . أُدْعُنِي حِينَ تُنَــادِي بــاللَّقَبْ

مراد بك : إسْمَعِي آمَالُ أُخْتِي

آمال لنفسها : أُخْتُهُ؟

رَبِّ مِنْ أَيْنَ مَتَى هَذَا النَّسَبْ

ثم لمراد بك : كَيْفَ ، مَنْ نَبَّاكَ؟

مراد بك :

نَبَّانِي أَبِي أَنَّنا ، يا أُخْتُ ، مِنْ أُمٍّ وأَبْ

]رمال : وأَبِي؟ أَيْنَ أَبِي؟

مراد بك :

أَيْـنَ مَضَــى؟ هُو هَذَا جُثَّــةٌ

آمال : ماتَ أبي

مراد بك :

إحْمِلِي الجُثَّةَ، يا أُخْتُ، مَعِي هَيَّ نَحجُبْها، هَلُمِّي نَحجُبِ

آمال بعد أن تقف أمام الجثة وتتأملها:

حَنَانَيْكَ، رَبِّي، أبِي رِمَّةٌ يَمُـرُّ عَلَيْهَا التُّـرَابُ الخَشِنْ

أبِـي كَـيْـفَ صِـرْتَ وَرَاءَ الـتُّـرَابِ

إلَـى جَـسَـدٍ بـالـبِـلَى مُـرْتَـهِـنْ

أبي مـا لأُذْنِـكَ قَـدْ أَبْـطَأَتْ وكُـنْـتَ إلـيَّ سَـرِيـعَ الأُذُنْ

وما بَالُ حَـظِّيَ مِنْكَ الصُّـدُودُ وكانَ نَصِيبي اللِّقَاءَ الحَسَنْ

وأَيْنَ يَـدٌ سَمْـحَـةٌ طـالَمَـا مَسَحْتَ بهـا عَبَـرَاتِي الهُتُـنْ

أحَقٌّ، أبي، دَهَمَتْكَ المَنُونُ

أَجَـلْ وجَـرَتْ فِـيـك كُـبْـرَى السُّـنَنْ

ذَهَبْتَ كـمـا ذَهَبَ الأَوَّلُـونَ قَتِيـلَ الحَيَـاةِ جَرِيـحَ الـزَّمَنْ

مُرَادُ أَخِي

مراد بك :

أُخْـتُ لا تَـحْـزَنِـي فمـاذا يَـرُدُّ البُكَـا والحُـزَنْ

آمال :

أَحَـقٌّ أخِي أَنَّـهُ قَـدْ قَـضَـى وأنَّا فَقَدْنَا الذُّرَى والرُّكُنْ[1]

قَـضَـى فـي مَـعَـارِكَ لَـمْ يَـجْـنِـهَـا

غَـرِيـبَ الـتُّـرَابِ غَـرِيـبَ الـوَطَـنْ

ثم مخاطبة الجثة:

تَـمَنَّـيْتُ أَنِّـي أَقِيـكَ الـرَّدَى بِنَفْسِي ومَنْ يَدْفَعُ المَوْتَ مَنْ؟

---

(١) الذُّرى: الأعالي.

وأَجْعَلُ غُسْلَكَ ماءَ الشُّؤُونِ
وأَصْنَعُ مِنْ هُدْبِ عَيْنِي الكَفَنْ[1]
وأَخْتَطُّ بَيْنَ حَنَايَا الضُّلُوعِ صُوَاناً ولَحْداً لِهَذا البَدَنْ
جُعِلْتُ الفِدَا لَكَ ممَّا دَهَاكَ ومِمَّنْ رَمَاكَ ومِمَّنْ طَعَنْ
ولَيْتَ جِرَاحَكَ بي يا أَبِي

مراد بك : رُوَيْدَكِ، أُخْتُ، أَقِلِّي الشَّجَنْ
ولا تُكْثِرِي حَسَرَاتِ الصَّدِيقِ
ولا تُشْمِتِي الكاشِحَ المُضْطَغِنْ

آمال :
وكَيْفَ مُرَادُ وهَذَا أَبُوكَ لَقًى في التُّرَابِ كأَنْ لَمْ يَكُنْ

[يخرج مراد بك وآمال بالجثة]

[يؤتى بعلي بك مجروحاً محمولاً على سرير من جريد
فيوضع في ناحية من الساحة]

علي بك لنفسه:
وَيْحِي تَفَرَّقَ عَسْكَرِي وخِيَامِي
وطَوَى الزَّمَانُ ورَيْبُهُ أَعْلامِي
أَحْتَالُ والأَحْدَاثُ تُفْسِدُ حِيلَتِي
وأَرُومُ والأَيَّامُ دُونَ مَرَامِي
لَمَّا طَوَت مُلْكَ الكِنَانَةِ رَاحَتِي
لَمْ يَكْفِنِي فَطَلَبْتُ مُلْكَ الشَّامِ
صَيَّرْتُ حَرْبَ التُّرْكِ وَجْهَ سِيَاسَتِي
حتى آقْتَنَيْتُ عَدَاوَةَ الأَقْوَامِ

---

(١) الشئون: مجاري الدموع في العيون.

وكَفرتُ إحْسَانَ الَّذِينَ خَدَمْتُهُمْ
حَتَّى تَجَرَّأَ خادِمي وغُلامِي

في الصَّالِحيَّةِ مَالَ صَرْحُ مَطَامِعِي
وكَذَاكَ رُكْنُ بِنَايَةِ الأَوْهَامِ

النَّصْرُ غَابَ وكَانَ طافَ بِرَايَتِي
حِيناً وحَامَ عَلَى شَبَاةِ حُسَامِي

وحُمِلْتُ في سُرُرِ الجَرِيدِ بِبِلْدَةٍ
وَطِئَتْ جَوَاهِرَ عَرْشِهَا أَقْدَامِي

قَدْ عِشْتُ بِالدُّنْيَا العَرِيضَةِ حالِماً
حَتَّى انْتَبَهْتُ فَلَمْ أَجِدْ أَحْلامِي

دُنْيَا أَرَدْتُ مِن العُرُوشِ حُطَامُهَا
جَعَلَتْ سَرِيرَ القَشِّ كُلَّ حُطَامِي

بالأَمْسِ جَلَّلَتِ التُّرَابَ مَوَاكِبي
واليَوْمَ لا خَلْفِي ولا قُدَّامِي

اليَوْمَ أَرْسُفُ في دَمِي وجِرَاحَتِي
وغَداً أَجُرُّ مَنِيَّتِي وحِمَامِي

أنَا قَدْ جَعَلْتُ الغُزَّ مَهْبِطَ نِعْمَتِي
وخَصَصْتُهُمْ بِمَنَازِلِ الإِكْرَامِ

فَلُدِغْتُ مِنْ صِلَّيْنِ مِنْهُمْ عَقَّنِي
هَذا وذاك أَضَاعَ حَقَّ ذِمَامِي[1]

وتَتَابَعَ الأُمَرَاءُ في أَثَرَيْهِمَا
يَسْتَمْرِئُونَ عَدَاوَتِي وخِصَامِي

[يقبل محمد بك أبو الدهب في حاشيته]

---

(١) الصل: الحية من أخبث الحيات.

محمد بك أبو الدهب:

يــا وَيْــحَ لِـي مــاذا جَـرَى هَــذَا أبِــي وسَــيِّــدي
سَــيَـعْــلَـمُ الـمُــغـرى بِــهِ كَـيْـفَ عِـقَـابِـي فـي غَـدِ

[ويتظاهر بالأسف ويتقدم لملاقاة الجريح]

محمد بك أبو الدهب:

يـا أَسَفَا عَلَى «عَلِي» يـا أَسَفَا عَلَى أَبِي وسَيِّـدي ومَوْئِـلِـي
يا أَسَفَا على الكَرِيمِ المُفْضِلِ

أحد البكوات همساً:

مــاذا يَـقُــولُ؟ سَـيِّــدُهْ! شُلَّتْ يَدُهُ شُلَّتْ يَدُهْ

علي بك لمحمد بك:

مُـحَـمَّــدُ ٱسْـمَــعْ مُــرَادُ غــادِرْ
إقْضِ عَــلَيْــهِ وأَنْــتَ قــادِرْ

محمد بك :

لَا بَــلْ تَــعِـيشُ، سَـيِّــدي وبِــيَــدَيْــكَ تَــقْــتُــلُهْ
سَيِّدِي ٱنْسَ اليَوْمَ وٱفْكِرْ في غَدٍ

علي بك : لَيْسَ لِلْمَغْلُوبِ غَيْرُ الذُّلِّ غَدْ

محمد بك : بَلْ غداً تَبْرَأُ مِنْ جُرْحِكَ

علي بك : لا قَلَّمَا قَامَ مِن الجُرْحِ الأَسَدْ

أحد الحاضرين همساً لآخر:

الـذِّئْبُ جَرَّبَ في المُــرَبّي ظُفْرَهُ فـأَصَـابَـهْ
لا تَحْـوِ دَارُكَ أَرْقماً حَتَّى تُحَـطِّم نـابَــهْ[1]

علي بك لمحمد بك:

مُحمـدُ ٱطْلُبْ لِي قَلِيـلَ مــاءِ إنِّي أُحِسُّ حُــرْقَـةَ الـظَّمَــاءِ

---

(١) الأرقم: أخبث الحيات.

محمد بك :

مَـوْلاَيَ، لا بَـاسُ فِـدَاؤُكَ الـنَّـاسُ

محمد بك لعثمان ويناوله حقاً:

عُثْمَـانُ جِيءْ بـالشَّـرَابِ أَغِـثْـهُ بـالـعُـنَّـابِ

علي بك :

عَـجِّـلْ وأَطْفِـيءْ لَهِـيبـي أَسْـرِعْ وخَـفِّـفْ عَـذَابِـي

[يذهب عثمان ثم يعود بالماء]

علي بك لمحمد بك ويتأمل الكأس:

أَغْرَيْتَ في الصُّبْحِ بي عَقُـوراً ما أَنَـا مِنْ جُـرْحِـهِ بِصَـاحِي

والآنَ أَرْسَـلْتَ كَـلْبَ سُـوْءٍ يَدُسُّ لي الـسُّـمَّ في القَرَاحِ[1]

وهَـكَـذَا تَجْـرَحُ الأَفَـاعِـي وتُفْـرِغُ السُّمَّ في الـجِـرَاحِ

علي بك لعثمان:

عُـثْمَـانُ مـا دَسَـسْتَ لـي في الـكَـاسِ

عُـشْـبَ الـقِـفَـارِ أَمْ تُـرَابَ الـمَـاسِ

السُّمُّ أَحْيَاناً طَبِيبٌ آسِي

[ويشرب]

محمد بك لعلي بك:

أَبِـي وأَمِـيـرِي كَـفَـى سُـوءُ ظَـنٍّ

علي بك :

مُحَمّـدُ نَـلْ كُلَّـ ـمـا شِئْـتَ مِـنِّـي

ومـالِـي أَلُـومُـكَ والـسُّـمُّ فَـنِّـي

---

(١) القراح: الشراب الخالص من كل شيء.

أخَـذْتَ الخِيَانـةِ والـغَـدْرَ عَـنِّـي
[محمد بك يبتعد فى حاشيته فيختلط بالأمراء الآخرين]

علي بك وقد لمح آمال ومراد بك قادمين :

أرَى، وَيْحَ لي، ماذَا أرى؟
تَـوَالَـتْ جِـرَاحَـاتِـي وطَـالَ عَـذَابِـي
مُـرَادٌ وآمَـالٌ. عَـدُوِّي وزَوْجَـتـي
فـيـا زَمَنِـي هَـلْ مِنْ جَـدِيـدِ مُـصَـابِ!
يُعَذِّبُنِي، يا رَبِّ، أنِّي أرَاهُمَا
قَـد آخْـتَـلَطَا مِـنْ جِـيئَـةٍ وذَهَـابِ
إذَنْ هِـيَ تـهـوَى الـنَّـذْلَ وهُـوَ يُحِبُّهَـا
إذَنْ لَـيْسَ مـا خُـبِّـرْتُـه بِـكِـذَابِ
إذَنْ فَـمُـرَادٌ لَـمْ يَـثِـبْ بِـيَ وَحْـدَهُ
ولَـمْ يَقْـتَـحِـمْ سِتْـرِي ويَسْطُ بِبَـابِـي
ولَـكِـنْ أعَـارَتْـهُ الـخَـبِـيثَـةُ نـابَـهَـا
ومَـا في ذَرَاهَـا مِـنْ نَـقِـيـعِ لُـعَـابِ
أجَـلْ هَـدَمَـا عُـشِّي مَـعـاً وتَـعَـاوَنَـا
عَلَى ثَلْمِ مِـحْـرَابِي وهَـتْـكِ حِجَـابِـي

آمال لنفسها :

إلَـهِـي أعِـنْ زَوْجِـي وبُـلَّ جِـرَاحَـهُ
فَـمَـا بـالُـهُ مُـسْـتَـوْفِـزاً لِعِـتَـابِي
رَمَـانِـي بِـعَـيْـنٍ قُـلِّبَـتْ عَـنْ كَـرَاهَـةٍ
وعَـنْ نَـظَرَاتٍ كـالـشِّـرَارِ غِـضَـابِ
تُـرَى ظَنَّ بِي سُوءاً تُـرَى آرْتَابَ في أخِي
فَفَـكَّـرَ فـي جُـرْمِـي وكَـيْـفَ عِـقَـابِـي
لـه العُـذْرُ في حـالٍ أضَـاعَتْ صَـوابَـهُ
فـإنِّـي أنَـا الأُخْـرَى أضَعْـتُ صَـوَابِي

وتتقدم من علي بك:

سَيِّدِي، مَوْلَايَ

علي بك : مَنْ؟ أَنْتَ؟

آمال : أَجَلْ

علي بك : أعزُبِي عَنِّي خَلِّينِي آعزُبِي

الأَقَاوِيلُ إذَنْ صادِقَةٌ   الرِّوَايَاتُ إذَنْ لم تَكْذِبِ

آمال : ما أَذَاعُوا، سَيِّدِي، ما نَقَلُوا؟

علي بك : خَبّروني آمْرَأتِي تَعْبَثُ بِي

آمال : مَعَ مَنْ أَعْبَثُ، مَعْ هَذَا الفَتَى؟

مَعَ شَقِيقِي وآبن أُمِّي وأَبِي

علي بك لمراد بك: مُرَادُ

مراد بك : مَوْلَايَ

علي بك :

آعْزُبْ   لَا بَلْ تَعَالَ آقْتَرِبْ

مراد بك : أَبِي

علي بك :

سُؤَالٌ، يا فَتَى   أصْغِ إلَيَّ أَجِبْ

مُرَادُ كُنْتَ لا تَرَى   غَيْرِي فما غَرَّكَ بِي

أَنْتَ الَّذِي آشْتَرَيْتُهُ   بِفِضَّتِي وذَهَبِي

ولَمْ أُقَصِّرْ مَعَهُ   عَنْ وَاجِبِ المُؤَدِّبِ

مراد بك :

مَوْلَايَ خَلِّنِي إلَى   ضَمِيرِي المُعَذِّبِ

أعْفُ فأَنْتَ أَهْلُهُ   هَبْ لِي جَرَائِمِي هَبِ

علي بك : مُرَادُ

مراد بك : مُرْ

علي بك :

أُوصِيكَ خَيْراً بِالمَلَاكِ الطَّيِّبِ
أَمَا تَرَاهَا أَصْبَحَتْ مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ وأَبِ

ثم مستمراً :

مُرَادُ بُنَيَّ أَصِخْ أَصْغِ لِي تَعَلَّمْ مِن الذَّاهِبِينَ آسْتَفِدْ

مراد بك :

تَكَلَّمْ، أبي، هَاتِ، قُلْ سَيِّدِي وبَيِّن كَدَأْبِكَ سُبْلَ الرَّشَدْ

علي بك :

بِنَاءُ المَمَالِيكِ واهِي الأَسَاسِ وسُلْطَانُهُم مُضْمَحِلُّ العَمَدْ
وضَيْعَتُهُمْ بَعْدَ طُولِ الإِبَاءِ عَوَى الذِّئْبُ فِيها وصَاحَ الأَسَدْ
إِذَا فَسَدَ الخُلْقُ في أُمَّةٍ فَقُلْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُمْ قَدْ فَسَدْ
وصَاحِبُكُمْ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ فكُلُّ عِنَايَتِهِ بالجَسَدْ
يُحِبُّ النِّسَاءَ ويَهْوَى الطَّعَامَ ويَبْنِي القُصُورَ ويُغْنِي الوَلَدْ
بِفَضْلِ التَّعَاوُنِ سُدْنَا البِلَادَ ولَوْلَا تَعَاوُنُنا لَمْ نَسُدْ
إذا قامَ بانٍ إلى غَايَةٍ تَعَثَّرَ بالهادِمِ المُجْتَهِدْ
وأُولِعَ بالعُصْبَةِ العامِلِينَ رِجَالٌ كَسَالَى مُنُوا بالحَسَدْ
فَلَمْ يَرَ واحِدُهُمْ هِمَّةً وفَضْلاً لآخَرَ إلا حَقَدْ
يَمِيناً مُرَادُ لَمَا في البِلَادِ سِوَاكَ يَلِيقُ لِحُكْمِ البَلَدْ
يَلُمُّ المَمَالِيكَ مِنْ فُرْقَةٍ ويُوقِظُ مِنْ حَزْمِهِمْ ما رَقَدْ
ويُرْجِعُ للطَّاعَةِ المَارِقِينَ ويَكْسِرُ مِنْ شِرَّةِ المُسْتَبِدْ
فَثِبْ بالغَبِيِّ غَداً، ثِبْ بِهِ وقُمْ أَنْتَ فاحِمْ الحِمَى بَعْدَ غَدْ

[ويغمى عليه]

مراد بك :

وَيْحَ لِلْمَجْدِ حَلّ بالماجِدِ المَوْتُ وأَخْنى على الكَرِيم الحِمَامُ

رَحْمَتَاهُ لَهُ، مَضَى وتَوَلَّى وآسْتَرَدَّتْ جَمَالَها الأَيَامُ

آمال :

ماتَ! لا، يا مُرادُ، قُلْ هُوَ حَيٌّ

قُلْ أخِي تِلْكَ ضَجْعَةٌ ومَنَامُ

فَرَجِي، يا عَلِيُّ، ما أَنْتَ رَاءٍ مَأْتَمٌ بَيْنَ نَاظِرَيْكَ يُقَامُ

فَرَجِي مِثْلُ يَوْمِ نَحْرِ عَلَيْهِ مِنْ دَمِ البِرِّ لَمْحَةٌ وآبْتِسَامُ

ضَحَّتِ الحادِثاتُ فِيه بِكَبْشٍ

فُجِعَ الشَّرْقُ فِيهِ والإِسْلاَمُ

قد أَصَبْنَا من العُيُونِ كِلاَنَا أَدْرَكَتْنِي وأَدْرَكَتْكَ السِّهَامُ

أحد البكوات لآخر:

أَرَأَيْتُمْ؟ أَسَمِعْتُم؟ جُرَأَةٌ تِلْكَ يا وَيْحَ مُرادٍ، وَيْح لَهْ

ما لَهُ آسْتَهْتَرَ في مَوْقِفِهِ وَمَضَى يَفْعَلُ فِعْلَ السَّفَلَهْ

أنْظُرُوا فَهْوَ عَلَيْهَا مُقْبِلٌ وهِيَ بالسَّمْعِ إلَيْهِ مُقْبِلَهْ

تَرَكَا المَقْتُولَ لَمْ يَكْتَرِثَا لِدَمٍ مِنْ حَوْلِهِ قَدْ جَلَّلَهْ

أتُرَى يَطْمَعُ أَنْ يَخْلُفَهُ وهْيَ هَلْ تَطْلُبُ زَوْجاً بَدَلَهْ

آمال وتلتفت حولها:

مُرَادُ أخِي

مراد بك : لَبَّيْكِ، آمَالُ

آمال : ما لَنَا، رَمَتْنا عُيُونُ القَوْمِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ؟

وإني لَثَكْلَى مَرَّتَينِ ومَا دَرَوْا

تَوَلَّى أبِي عَنِّي، ولَمْ يَبْقَ صاحِبِي

مراد بك :

كَـذَاكَ فُضُـولُ النَّـاسِ شُغْـلٌ بِحَـاضِـرٍ
كَمَـا قَـدْ شَغَلْنَـاهُمْ وشُغْـلٌ بِغَـائِـبِ

ومِـنْ أَلْسُـن تَـجْـرِي بسُـوءٍ وهَـمُّـهـا
فَـوَائِـدُ عِنْـدَ الغَيْـرِ أو في مَـصَـائِبِ

آمال :

صَدَقْتَ، مُـرَادُ، آنْـظُرْ، تَـأَمَّـلْ فُضُـولَهُمْ
لَقَـدْ رَمَقُـونَـا بـالـعُيُـونِ الـشَّـوَاغِبِ

يَـرَوْنَ عَـجِـيبـاً أَنَّـنَـا هَـهُنَـا مَـعـاً
وأَنَّـكَ تَـمْشِـي، يـا أَمِيـرُ، بِـجَـانِـبِي

أحد البكوات يتقدم:

مُرَادُ مَن الحَسْنَاءُ؟

مراد بك : ما أَنْتَ؟ ما الَّذِي
يَهمُّكَ مِنْ أَمْرِ الحِسَانَ الكَوَاعِبِ

ثم لآمال :

أأَبْصَرْتِ، يا أُخْتُ، الفُضُولِيَّ

البك لنفسه :

أُخْتَهُ عَجِيبٌ فَلَمْ نَـعْلَم لَـهُ مِـن أَقَـارِبِ

لمراد بك :

وأَيْـنَ تُـرَى كَـانَتْ ومَـنْ ذا أَتَى بِـهَـا؟
رِوَايَـةُ غَـاوٍ أَوْ مَـقَـالَـةُ كَـاذِبِ

[مراد بك يهم ويلطمه بيده لطمة شديدة]

آمال لمراد بك :

تَرَفَّقْ، أخِي، سامِحْهُ

البك لنفسه :

تَدْعُوهُ، يا أَخِي إِذَنْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا رواه بِلاَعِبِ

مراد بك :

تَـعَـلَّمَ إِذَنْ أَنَّ الـفُـضُـولَ وَقَـاحَـةٌ
وأَنَّ عِـقَـابِـي عَـنْـكَ لَـيْسَ بِـعَـازِبِ

البك :

وأَنْتَ تَعَلَّـمْ أَنَّ سَيْـفِي مَـنِيَّـةٌ وغَـدَّارَتِي مَحْشُوَّةٌ بـالمَعَاطِبِ

مراد بك : وقَوْسُكَ؟

البك : قَوْسِي لَيْسَ يُخْطِىءُ سَهْمُهَا

مراد بك : ورُمْحُكَ؟

البك : مِثْلُ الأُفْعُوانُ المُوَاثِبُ

مراد بك :

وقَلْبُكَ إِنِّي لا أَرَى القَلْبَ حاضِراً عَلَى أَنَّهُ أَمْضَى سِلاَحِ المُحَارِبِ
وإِلاَّ فـذا صَدْرِي، فَضَـعْ فِيـهِ مـا تَشَا
وسَـدِّدْ إِلَـيْـهِ مـاضِيَـاتِ الـمَـضَـارِبِ

البك :

وكَيْفَ آجْتَرِائِي، سَيِّـدِي، وآبْنَ سَيِّـدِي
مَـعَـاذَ أَيَـادِيـكُمْ، مَـعَـاذَ الـمَـوَاهِـبِ

مراد بك :

إِذَنْ خَـلِّ شَـأْنَـيْنَـا ولاَ تَـشْتَـغِـلْ بِـنَـا
وطِـرْ فِي فَضَـاءِ الأَرْضِ ذاتِ المَنَـاكِبِ

آمال : مُرَادُ أخِي

مراد بك : آمالُ هَذَا مُحَمَّدٌ

يُلاَحِظُنَا في الجَمْعِ لَحظَ المُرَاقِبِ
ولا بُـدَّ مِـنْ إنْبَـائِـهِ بـالَّـذِي جَـرَى

آمال : ومـا ضَـرَّ، سِـرْ، قـابِلْهُ، كَلِّمْـهُ، خـاطِبِ

محمد يقترب ويقول:
مُرَادُ أَرَى شَغْباً وأَسْمَعُ ضَجَّةً بُنَيَّ، أَهَذَا مَوْضِعٌ للتَّصَاخُبِ
ونَـحْـنُ عَـلَى مَـوْتٍ وحَـوْلَ جِنَـازَةٍ
وفي مَـأْتَمٍ فَـخْمٍ وَشيـكِ المَـوَاكِـبِ
مراد!

مراد بك : أَمِيري!

محمد بك : تِلْكَ والله رِيبةٌ

مراد بك : تَفَضَّلْ، أَمِيري، وآسْتَمِعْ ثُمَّ عاتِبِ

محمد بك :
أَمَـا هَذِهِ عِـرْسُ الكَبِيرِ فَمَـا أَتَى بِهَا هَهُنَـا بَيْنَ آزْدِحَـامِ المَنَـاكِبِ

مراد بك : بَـلَى، يـا أَمِـيـرِي، وَهْـيَ أُخْـتِـيَ

محمد بك : أُخْتُهْ! حَنَانَيْكَ، رَبِّي، تِلْكَ إحْدَى العَجَائِبِ

مراد بك :
أَجَـلْ، سَيِّدي، أُخْتِي آجْتَمَعْنَـا مِن النَّوَى
عَـلَى قَـدَرٍ مِـنْ صَـنْعَـةِ الله غَـالِـبِ
ولَمْ نَدْرِ قَبْلَ اليَـوْمِ أَنَّا قَـرَابَةٌ وأَنَّا آلْتَقيْنَا في كَرِيمِ المَنَاصِبِ

محمد بك : ومَنْ قالَ للصِّنْوَيْنِ هَذَا؟

مراد بك : أَبُوهُمَا

محمد بك : وما هُوَ؟ مَنْ؟

مراد بك : بَعْضُ التِّجَارِ الجَوَالِبِ

محمد بك :

وأَيْنَ فَــأَدْعُــوهُ فَــأُعْلِي مَحَلَّهُ   وأَرْفَعُــهُ أَبْنِيـهِ فَـوْقَ الكَـوَاكِبِ

مراد بك : تَعِيشُ وتَبْقَى . . . ماتَ

محمد بك : ماتَ أَبُوكُمَا؟

مراد بك : أَجَلْ . هُوَ ذا يَدْمَـى وَرَاءَ العَصَائِبِ

محمد بك : جَرِيحٌ؟

مراد بك : أَجَلْ لَكِنْ قَضَى مِنْ جِرَاحِهِ

محمد بك : قَتِيلٌ؟

مراد بك : أَجَلْ ثاوٍ وَرَاءَ السَّبَاسِبِ[1]

محمد بك : وما تَصْنَعَانِ الآنَ؟

مراد بك : ما أَنْتَ آمِرٌ

محمد بك : هُنَالِكَ حُرَّاسِي ، وثَمَّ رَكَائِبِي

فَخُــذْهَــا إلى الفُسْــطَاطِ حَتَّى تَجِي بِهَــا
إلى قَصْــرِهَــا مَحْفُــوفَــةً بــالــرَّغَــائِبِ

وبَعْــدَ غَــدٍ تَجْــرِي على القَصْــرِ نِعْمَتي
ويَــأتِيــهِ بِــرِّي كــالغُيُــوثِ السَّــوَاكِبِ

آمال وهي منصرفة :

وَدَاعاً أَبِي !

---

(١) السباسب : الصحراوات .

محمد بك : صَبْراً جَمِيلاً، أَمِيرَتِي

ولاَ تَـفْعَـلِي فِعْـلَ الـبَـوَاكِـي الـنَّـوَادِبِ

آمال :

عَـفَـا الله عَنْـهُ كـانَ شَـيْخـاً مُـصَـلِّـيـاً

مُحِبَّ اليَتَـامَى راغِبـاً فـي المَـثَـاوِبِ[1]

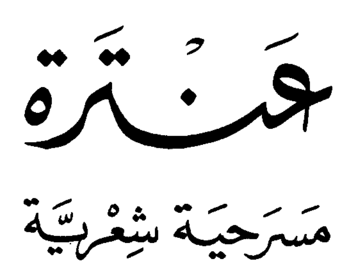
لَقَـدْ طَلَبَ الـدُّنْـيَـا بِمِـصْـرَ فَنَـالَـهَـا

فَـوَلَّى إلى الأُخْـرَى وُجُـوهَ الـمَـطَالِبِ

ستـار الختـام

---

(١) المثاوب: جمع مثوبة وهي الجزاء.


عنترة
مسرحية شعرية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

عنترة: أحد أغربة العرب، وهم ثلاثة:

١ - عنترة، وأمه زَبيبة.

٢ - وخفاف بن عمير الشريدي وأمه نُدبة.

٣ - والسُّلَيك بن عُمير السَّعْدِيّ، وأمه السُّلكة.

وإلى أمهاتهم جميعاً يُنسبون.

وأبوه شداد. وقيل: عمرو بن شَداد.

ويقال له: عنترة الفلحاء. وهذا لتشقُّق شَفتيه.

وأُمه زَبيبة حَبشيّة، وكان لها وُلدٌ من غير شدّاد، وكانوا إخوتَه لأُمه. وقد نفاه أبوه، ثم ما لبث أن ألحقه بنسبه، حين رأى منه ما أَنْجَب.

ويبدو أن أول ما بدت النَّجابة على عنترة كان في حرب داحس والغبراء، التي كانت بين عَبس وذُبيان، فلقد أبدى عنترة في يومها من الشجاعة والفتك ما جعل بني ذبيان يطلبون الصُّلح.

ومن قبل هذا كان عنترة لا يُعَدُّ من الشُّجعان، فلقد دعا مرةً عُويمر بن أبي عَدِيّ، وكان فارساً، عنترةَ إلى أن يبارزه، وقال له: أُبْرُزْ إليَّ أيُّها العَبد، فإن قتلتُك فلأُخيفنَّ أصحابك بعدك، وإن قتلتني رَجَعْتَ بإبل قومي، فإذا عنترةُ يَنْكُص ولم يُقدم على مبارزته.

وهذا البطل عنترة الذي جال بعدها وصال، وأخاف وأرهب، لم يلبث طويلاً أن لقي حتفه على يدي حيان بن عمرو بن عَميرة. وكان هذا سنة (٢٢ق. هـ)، أي سنة (٦٠٠م).

ويُخيَّل إليّ أن شاعريّة عنترة أسبغت على قِتاله أكثر ممَّا هو له، فلقد كان لا تمضي له طعنة يَطعنها إلَّا جعل منها ما لا يستطيع غيره من الفرسان طَعنها، ولا كَرَّ يوماً على خصم، وفَرَّ هذا الخصم منه إلا أقام الدنيا وأقعدها بِشعره.

هذه أولى، وثمَّة ثانية، انضمت إليها فأعانت على إطارة صِيته، وهي حُبُّه لابنة عمِّه عَبلة. فلقد ثار صراع في هذه لا يقلُّ عن صراع الحرب بل يُربي عليه، وكما امتطى عنترة الشِّعر في الأولى يُذيع به صِيته، آمتطاه في الثانية يدفع عن آدميَّتَه. . وقد لا أكون مغالياً إذا قلت: إنَّه كان من بين الأوائل الذين حملوا لواء تحرير العبيد. وأول ما تجلّى هذا فيه كان في ذلك الحوار الذي جرى بينه وبين شدَّاد، الذي ألقاه في رَحم ِ أمه زبيبة، يقول شدَّاد لعنترة، وقد أغار على بني عبس مُغيرون: كُرَّ يا عنترة، فيقول عنترة: العبد لا يُحسن الكَرّ، إنَّما يُحسن الحِلاب والصرّ. فيقول شداد: كُرّ وأنت حر. وفي شعر عنترة الكثير من تلك الصرخات.

فهذه يجب أن نتذَّكرها لعنترة ونتقصَّاها لنتبيَّن حُجَّته فيها، ونحن نُترجم له.

هذا هو عنترة الفارس العاشق، والذي كان من أوائل مَن وقفوا لتحرير العبيد.

ولكنَّا حين نقرأ سيرته لا نراه فيها غير الفارس العاشق. ولا نرى للثَّالثة ذكراً، مع أنَّها ـ كما أرى ـ خير ما لعنترة.

فما قاتل وأبلى إلَّا لهذه الثَّالثة.

ولا أَصرَّ على أن يبني بآبنة عمه إلّا لهذه الثَّالثة.

ولا زاد في إضرام نار حبِّه لابنة عمِّه إلاَّ هذه الثَّالثة.

وما كان أولى شاعرنا شوقي أن يلتفت إليها في مسرحيته هذه ويُبرزها.

وبعد. فلقد انتهت إليَّ هذه المسرحية بطبعتِها تفقد الكثير من الضَّبط الذي يكمل به استواء اللفظ، كما تفقد الشَّرح الذي يكمل به استواء المعنى.

ولعلي بهذين اللذين أقمت بهما النّص، إلى ما سوّيت به الوزن، أكون قد قدمت للقارىء نصّاً مقروءاً مفهوم المعنى، مستوي الوزن.

والله عوني في كل ما آخذ فيه

إبراهيم الأبياري

ذو العقدة ١٤١٢ هـ

يوليه ١٩٩٢ م



تمهيد

زمن الرواية : حوالى منتصف القرن الأول قبل الهجرة.

مكان الرواية : بادية نجد ـ أحياء عبس وعامر وما بينهما.

المشاركون والمشاركات في الرواية

عنترة : فارس بني عبس، أسود اللون لأمِّه.

عبلة : محبوبة عنترة وابنة عمِّه.

مالك : أبو عبلة، وعمّ عنترة، وهو سَرِيّ من سَراة عبس.

زهير :
إخوة عبلة.
عمرو :

صخر : سري من سراة عامر يحب عبلة ويتردد على حيها ويخطبها.

ضرغام : فارس شاب من فرسان عبس يحبّ عبلة ويخطبها كذلك.

ناجية : فتاة من عبس تحبُّ صخراً.

شدّاد : أبو عنترة.

داحس : رفيق عنترة.

مارد :
عبدان.
غضبان :

رستم : قائد الفرس.

سعاد : خادم عبلة.

نكرات مسرحية: رجال وخدم وفتيات من عبس وعامر راقصات ومغنيات وزامرون، ولصوص...

الفصل الأول

عين ذات الأصاد في يمين المسرح وقد حفت بالنخيل وفي اليسار مضارب بني عبس، وأظهرها خيمة مالك الحمراء التي يبدو جزء منها حوله ومن ورائه فضاء. في جبهة المسرح ربوة عالية وكثبان من الرمال تستوي بالأرض من ناحية اليَمين. الوقت في مطلع الشمس وقد وقف عنترة أمام الخيام بادياً عليه النصب والكلال. يسمع نباح كلاب من وراء الخيام.

المشهد الأول

عنترة :

سَلِي الصُّبْحَ عَنِّي كَيْفَ يا عَبْلَ أُصْبِحُ ... وأيْنَ يَراني نَجْمُهُ حِينَ يَلْمَحُ

أفِي خيْمَتِي كالنَّاسِ أمْ في بيُوتِكُمْ ... أبُثُّ الخِيَامَ الشَّوْقَ وهْوَ مُبَرِّحُ

أُقَبِّلُ أطْنَابَ البُيُوتِ ورُبَّما ... تَلفَّتُّ عَنْ مُنْهلَّةِ الدَّمْعِ تسفَحُ[1]

أَرَى بِوُقُوفِي في دِيَارِكِ رَاحَةً ... كما يَسْتَرِيحُ ابنُ السَّبِيلِ المُطَرَّحُ[2]

أَبُوكِ غَرِيرُ القَلْبِ لَمْ يَعْرِفِ الهَوَى ... ولم يَدْرِ مَا يَأسُو القُلُوبَ ويَجرَحُ

يَخِفُّ لِوَاشٍ يَشْرَحُ الزُّورَ سَمعُهُ ... وفِي أُذْنِهِ وَقْرٌ إذا جِئْتُ أشْرَحُ

---

(١) البيوت: أي الخيام. وأطنابها: الحبال التي تشربها. ومنهلة الدمع: يعني عينه.
(٢) المطرّح: المبعد.

أَرى الغِيـدَ مِنْ حَـوْلي وفيهنَّ سَلْوةٌ فَمَـا لِي أَردُّ القَلْبَ عَنْـكِ فَيَجْمَـحُ
فَمَـا سَـرَّنِي مِنْهنّ مـا كَـانَ يُشتَهَى ولا رَاقَ لي مِنْـهُنَّ مـا كَـانَ يَـملُحُ
أَحِيـدُ عن السَّـارِي لِكَيْ لا يُـرِيبُكُمْ وأُقْصِي كِـلَابَ الحَيِّ عَنِّي فَتَنْبَـحُ
فيـا عَبْلَ قَـدْ طـالَ التَّنـائي وظِلُّهُ مَتَى بِتَـدانِينَـا الحَـوَادِثُ تَسْمَـحُ؟

[يصعد الربوة من اليمين]

يـا لَيْتَ حُبَّـكِ، عَبْـلَ، لِي حُـبُّ الـقَـطَاةِ لِشَـكْـلِهـا[1]
أو حُـبُّ قُـبَّـرةِ الـصَّـفَـا لأَلـيـفِـهـا ولِـخـلِّهـا[2]
أو مِـثْـلُ حُـبِّ نَـجِـيـبَـةٍ مَـجْنُـونَـةٍ فـي فَـحْـلِهـا
لَيْـتَ افْـتِتَـانَـكِ لـم يَكُـنْ بِـشَـجَـاعَـتِي وبِـفَـضْـلِهـا
أو لَـيْـتَ حُـبَّـكِ لَـمْ يَـكُـنْ لِـقَـصَـائِـدِي ولِـنُـبـلِهـا

[يُهيّىء لنفسه مضطجعاً وراء نخلتين على الربوة تحجبانه عن سائر المسرح جهد المستطاع ثم يرقد ويعلو نباح الكلاب وثغاء الشاء وصياح الديكة ويمرّ به فتيان سائران على الربوة وقادمان من ناحية الخيام]

المشهد الثاني

أحد الفتيين:

مـا ذاكَ؟ مَنْ؟ قِفُـوا، انْـظُرُوا جُلْمُـودُ صَخْـرٍ أم جَسَـدْ؟

الآخر :

هَـذَا الـفَـتَـى عَـنْـتَـرةُ كُـلُّ الـثَّـرَى لـه وُسُـدْ[3].
قَـدِ الْـتَـوَى كـالأَفـعُـوا نِ وتَـمَـطَّى كـالأَسَـدْ

[يهبط الفتيان الربوة ويختفيان ناحية اليمين وراء النخيل ويسمع صوت هاتف من وراء الخيام]

---

(١) القطاة: واحدة القطا، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء.
(٢) القبّرة: واحدة القبّر، وهو جنس من الطيور.
والصفـا: الحجر العريض الأملس.
(٣) الوُسُد: جمع وسادة.

المشهد الثالث

الهاتف :

الـدِّيكُ عِنْـدَ البُيُوتِ صـاحـا   يـا حَيَّ عَبْسٍ عِمُـوا صَبَـاحَـا
حَيِّ هَـلاَ يـا رُعَـاةُ هُبُّـوا   هاتُوا المَواشِي خُذُوا البِطَاحَا[1]
هلُمُمْنَ يـا رَاعِيَـاتِ عَـبْسٍ   الـرَّعْيَ والحَلْبَ والفَـلاَحَـا[2]

[يخرج صبية وجوار من كل ناحية في الحي مارّين بالخيمة الحمراء ومتجهين إلى الحظائر وراء النخيل بينما يجلس جماعة من الجواري على حفافي العين يملأن الجرار ومن بينهن ناجية ثم تخرج عبلة من الخيمة الحمراء وتقف أمام بابها تتمطّى وتتثاءب]

المشهد الرابع

عبلة :

وَادِي الـصَّـفَـا تَـجَـاوَبَـتْ   وَزَقْـزَقَـتْ عَـصَـافِـرُهْ
وآنـتَـبَـهَـتْ خِـيَـامُـهُ   وآسْـتَـيْـقَـظَتْ حَـظَائِـرُه[3]
صـاحَـتْ هُـنـاك شَـاءُهُ   وَهَـهُـنَـا أَبـاعِـرُهْ[4]
أوّلُـهُ فـي لُـجَّـةِ الْـفَـجْـرِ جَـرَى وآخِـرُهْ
نَـبَـاتُـهُ ومَـاؤُهُ   وظِـلْـفُـهُ وحـافِـرُهْ

فتاة تتغنّى:

جِئْنَ الـصَّـفَـا يـا عَـذَارَى   وآمْـلأْنَ مِـنْـهُ الجِـرَارَا

الأخريات متغنّيات:

جِئْنَ الصَّفَا ....

(١) البطاح: الأمكنة المتسعة يمر بها السيل. وخذوها أي أنزلوها.
(٢) هلممن: تعالين.
(٣) الحظائر: مأوى الماشية.
(٤) الأباعر: الجمال.

الأولى وحدها:

مَاءُ مِنَ الفَجْرِ أصْفَى   فَرِدْنَ صَفّاً فَصَفّا
وآقْعَدْنَ فَاضْرِبْنَ دُفّا   وقُمْنَ فاضْرِبْنَ طَارَا

الأخريات:

جِئْنَ الصَّفَا يا عَذَارَى   وآمْلأْنَ مِنْهُ الجِرَارَا

الأولى :

تِلْكَ دُمُوعُ الغَوَادِي   جُمِّعْنَ مِنْ كُلِّ وَادِي
فِي عَيْنِ ذاتِ الإصَادِ   ثم آنْفَجَرْنَ آنْفِجَارَا[1]

الأخريات:

جِئْنَ الصَّفَا يا عَذَارَى   وآمْلأْنَ مِنْهُ الجِرَارَا

الأولى :

رِدْنَ القَرَاحَ الزُّلاَلاَ   رِدْنَ الرَّحِيقَ الحَلاَلاَ
فَمَا سَقَى مُنْذُ سَالاَ   كَمِثْلِ عَبْسٍ دِيَارَا

الأخريات:

جِئْنَ الصَّفَا يا عَذَارَى   وآمْلأْنَ مِنْه الجِرَارَا

[تدخل عبلة خيمتها ويمرّ صخر أمام الخيام متهادياً واقفاً في المسرح هنا وهناك بين الحين والحين]

المشهد الخامس

إحدى الفتيات:

نَاجِيَةُ آسْمَعِي انْظُرِي   مَنِ الفَتَى يا نَاجِيَهْ؟
ذَاكَ الفَتَى المُهَنْدَمُ الحُلْوُ الرَّقِيقُ الحَاشِيَهْ

---

(١) ذات الإصاد: ردهة في ديار عبس وسط هضب القليب.

ناجية : كَـيْـفَ أَلَـمْ تَـرَيْـهِ قَـبْـلَ هٰـذِه فـي الـنَّـاحِـيَـهْ؟

الفتاة : لله ما أَظْرَفَهُ

ناجية : أَحْبَبتِهِ يا غاوِيَهْ
خَـلِّـيـهِ فَـهْـوَ مُـغْـرَمٌ صَـبٌّ بـأُخْـرَى سـالِـيَـهْ

الفتاة : مَنِ الفَتَى؟

ناجية :
مِـنْ عَـامِـرٍ أَبُـوهُ مَـوْفُـورُ الـنِّـعَـمْ
يُـقَـالُ فـي حِـظَـارِهِ أَلْـفَـانِ من حُـمْـرِ الـنَّـعَـمْ

الفتاة :
يُـحِـبُّ مَـنْ؟ يَـعْـبُـدُ مَـنْ؟ يـا لَـيْـتَـنِي كُـنْـتُ الصَّـنَـمْ

ناجية :
إِنَّ الَّـتِـي هَـامَ بِـهَـا بِـغَـيْـرِ عَـبْـدٍ لَـمْ تَـهِـمْ

الفتاة : عَبْلَةُ؟

ناجية :
لِـمْ لاَ؟ إِنَّـهـا الـيَـوْمَ حَـدِيـثُ لـلأُمَـمْ
صَـيَّـرَهَـا عَـنْـتَـرةٌ نـاراً عـلى رَأْسِ عَـلَـمْ[1]

[تظهر عبلة على باب الخباء]

المشهد السادس

ناجية :
خَـيْـمَـتُـكِ الـحَـمْـرَاءُ يـا عَـبْـلَ، لَـعَـمْـرِي فـاخِـرَهْ
تَـصْـلُحُ أَنْ يَـسْـكُـنَـهـا عَـقَـائِـلُ الـمَـنَـاذِرَهْ

---

(١) العلم: الجبل.

فتاة :

مُـتِّـعْـتِ يـا أُخـتُ بِـهَـا ... ولا تَـزَالُ عـامِـرَهْ
وعـاشَ أَهْلُوكِ وعَاشَ مـالِـكٌ ... وعِشْتِ في بيْتِكِ يا عَبْلَ، المَدَى
مَـعْ رَجُلٍ كـأنَّـهُ لَيْثُ الـوَغَى

صخر : بَلْ رَجُلٍ كَأَنَّهُ بَدْرُ الدُّجى

عبلة :

بَـدْرُ الـدُّجى؟ لا. لَيْسَ ذاكَ بُغْيَتِي ... نَحْنُ الغَـوَانِي حَسْبُنَا بَـدْرُ السَّمَا
إنْ كَـانَ في الأَسْمـارِ بـاتَ عِـنْـدَنَـا ... أو فِي الكَرَى على المَضَاجِعِ ٱنْحَنَى
الـبَـدْرُ في بِيضِ لَيَـالِـيـهِ مَعِي

صخر : ماذا تُرِيدَينَ إذنْ؟

عبلة : لَيْثَ الشَّرَى[1]

أُرِيـدُ أَجْـلَاداً شَـدِيـدَةَ الـقِـوَى ... وسَـاعِـداً خَشْـنـاً كَجُلمُـودِ الصَّفَـا[2]

صخر :

وسِحْـنَـةً كـأنَّـمَـا قَـدْ قُـلِّبـتْ ... عَلَى هَبَـابِ القِـدْرِ وَجْهـاً وقَـفَـا

عبلة :

تُـرِيـدُ أنْ تَـسْخَـرَ مِـنْ عَنْـتَـرةٍ؟ ... بَيِّنْ كَفَى يـا صَخْـرُ تَعْـرِيضـاً كَفَى
إن كُنْتَ كـالفِتْيَـانِ فـامْضِ لاقِـهِ

صخر : أَنَا؟ أُلَاقِيهِ أَمَجْنُونٌ أنَا؟

لِمْ لا تَقُـولِينَ ٱلْـقَ حَيَّـةَ الـصَّفَـا ... أَوْ أَسَـد الصَّحْـرَاءِ أو ذِئبَ الفَـلَا

عبلة :

خَلِّكِ مِنْـهُ، صَـخْـرُ، لا تَقْـتَسِ بِـهِ ... لا تَتَّزِنْ، صَخْـرُ بِفَـارِسِ الـوَغَى[3]

---

(١) الشرى: الموضع الكثير الأسد.
(٢) الأجلاد: جمع جلد بالكسر، وهو غشاء الجسم.
(٣) لا تقتس: أي لا تقيسنّ نفسك به، ولا تتزن به: أي لا تجعل نفسك مساوياً له.

صخر :

الحَقُّ أنّي يا بِنْتا ... تِ عَبْسٍ خانَني الصَّبِرْ
سَئِمْتُ مِنْ عَنْتَرَةٍ ... ومِنْ ثَنائِهِ العَطِرْ
ومِنْ حَديثِ بَأسِهِ ... ومِنْ نُعُوتِهِ الأُخَرْ
وفِتْنَةِ البَدْوِ بِهِ ... وشَأْنِهِ بَيْنَ الحَضَرْ
أكُلُّ ذِئْبٍ رِيُّهُ ... وشِبْعُهُ مِنَ البَشَرْ[1]
وكُلُّ لَيْثٍ فاتِكٍ ... وكُلُّ حَيَّةٍ ذَكَرْ[2]
وكُلُّ سَيْلٍ لَمْ يَدَعْ ... وكُلُّ رِيحٍ لَمْ تَذَرْ
عِنْدَ الرِّجالِ والنِّسا ... ءِ كائِنٌ لَهُ خَطَرْ؟

عبلة :

خَلِّينَ صَخْراً دَعْنَهُ ... قَدْ قَتَلَ الفَتَى الحَسَدْ
إسْمَعْنَ شاةَ عامِرٍ ... ماذا تَقولُ في الأَسَدْ

صخر :

شَاةٌ أنا يا بَناتِ عَبْسٍ ... إحْسَبْنَني الشَّاةَ ما يَضُرُّ؟
في الشَّاةِ والله كُلُّ خَيرٍ ... ولَيْسَ فِيها أذىً وشَرُّ
مِزاجُها هادِئٌ لَطِيفٌ ... وشَكْلُها رائِقٌ يَسُرُّ

عبلة : [ضاحكة] اضْحَكْنَ يا بَناتْ العَامِريُّ شَاةْ
[ثم إلى صخر]: بُسْبُسْ تَعالَيْ بُسْبُسِ

أخرى : هُسْ شاةَ عامرٍ هُسِي
خُذي كُلِي مِنْ تُرْمُسِي[3]

صخر : شَهِدَ الله قد أَسَأْتُنَّ فَهْماً

---

(١) الشبع: ما يكفي ويُشبع.
(٢) ذَكَر: شديد الفتك.
(٣) الترمس: شجرة لها حب مفرطح، يؤكل بعد نقعه.

عبلة : نحنُ؟ بَلْ أنْتَ قد أسأْتَ مَقَالاَ

صخر : ما الَّذِي قلتُ؟

عبلة :

قُلْتَ ما قِيمَةُ البَأْ — سِ وصَغَّرْتَ عِنْدَنَا الأَبْطَالاَ

صخر :

إنّما قُلْتُ تَأْخُذُ الذِّئْبَةُ الذِّئْبُ وتُعْطِي اللَّبَاءَةُ الرِّئْبَالاَ[1]
وآبْنَةُ النَّاسِ لابْنِهِمْ، فَقَدِيماً — سَخَّرَ الله لِلنِّسَاءِ الرِّجَالا

عبلة :

لا تُرِيدُ الرِّجَالَ يا صَخْرُ إلاّ — جُبَنَاءً أذِلّةً أنْذَالاَ

صخر :

بَلْ أُرِيدُ الحَيَاةَ خَيْراً وسِلْماً — لَيْسَ شَرّاً سَبِيلُها وقِتَالاَ
أُرِيدُ الجَمَالَ لِهَذَا الجَمَالِ — وأبْغِي الشَّبَابَ لِهَذَا الشَّبَابْ
ويُحْزِنُنِي أنْ تُزَفَّ الظِّبَاءُ — إلى أُسْدِ الغَابِ أو لِلذِّئابْ
وأنْ تُحْمَلَ آمْرأةٌ كالشُّعَاعِ — عَرُوساً إلى رَجُلٍ كالهَبَابْ
وفي البِيدِ كُلُّ فَتًى كالسِّرَاجِ — إذا أظْلَمَ اللَّيْلُ أو كالشِّهَابْ

عبلة :

جَمِيلٌ ولَيْسَ بِحامِي البُيُوتِ — ولا مَانِعٍ مِن يَدٍ مَالَهُ
إذا ما عَوَى الكَلْبُ ضَلَّ السِّلاحَ — ويَلَّ مِن الخَوْفِ سِرْوَالَهُ
يَجُودُ بِزَوْجَتِهِ لِلْمُغِيرِ — ويَرْمِي إلى الذِّئْبِ أطْفَالَهُ

صخر : ومَنْ تعْنينَ يا عَبْلَ؟

عبلة : ومَنْ يا صَخْرُ مَنْ تَعْنِي؟

---

(١) اللباءة: اللبؤة. والرئبال: الأسد.

لَقَدْ أَسْرَفْتَ في التَّعْـريضِ ... بـالـلَّيْـثِ وفـي الـطَّعْـنِ

[تسمع ضجة وأصوات استغاثة من ناحية الخيام]

عبلة :

وَيْـحَ جِـيـرَانِي وَوَيْـحِي ... صَـرَخـاتٌ وصَـفِـيـرُ
وعـلى الـخَـيْـمَـاتِ أشْـبَـاحٌ وأقْـدَامٌ تَـدُورُ
أتُـرَى قـد نَـزلَ الـلِّصُّ بـعِـبْسٍ والـمُـغِـيـرُ؟

صخر :

الـحَـيَـاةَ الـحَـيَـاةْ ... الـنَّـجَـاةَ الـنَّـجَـاةْ
الـفِـرَارَ الـفِـرَارْ ... الـقِـفَـارَ الـقِـفَـارْ

[يفرّ الجميع من هنا ومن هناك وتبقى عبلة وحدها فتخرج إليها من الخيمة الخادم سعاد]

المشهد السابع

سعاد :

سَـيِّـدتـي هَيّي آهـرُبِـي ... جَمْـعُ الشياطـيـن اقْتَـرَبْ

عبلة :

أَهْـرُبُ؟ لا! مـا فِـي طِـبـاعِ الـعَـرَبـيَّـاتِ الـهـرَبْ
نَـحْـنُ ثِـنْـتَـانِ يـا سُـعَـادُ تَـعَـالـيْ بِـجَـانِـبـي
بَـلْ قِـفي حَـيْـثُ أنـتِ فـي ... طَـرَفِ الـبَـابِ رَاقِـبـي

سعاد : ومَعِي

عبلة : ما الَّذِي حَمَلْتِ؟

سعاد [وتظهر خنجرها]: خَلِيلِي وصاحِبي

[تدخل عبلة الخيمة ويسمع صوتها من الداخل وترى من الباب]

عبلة :

خِـنْـجَـرٌ مِـثْـلُ خِـنْـجَـرِي ... جَـرِّدِيـهِ تـأَهَّـبِـي

خِنْجِري أينَ خنجري اليوْمَ مِنِّي هُوَ ذَا خِنْجَري تَعالَ أعِنِّي
حُطْ عَفَافِي وَحَامِ عَنْ قُدُسِ العُزَّى وردَّ اللُّصُوصَ عَنْها وعَنِّي[1]

[تتجه عبلة إلى صنم بداخل الخيمة]

عُزَّايَ قَوِّي يَمِيني عُزَّايَ لا تَخْذُلِيني
أبِي تأخَّر عَنِّي وإخْوَتِي تَرَكُونِي
وأيْنَ عَنْتَرةُ اليَوْمَ أيْنَ حامِي العَرِينِ؟
لَوْ كانَ في أرْضِ عَبْسٍ لَجَرَّدَ السَّيْفَ دُونِي

عُزَّايَ مَعْبُودَ ثَقيفٍ وإلٰهَةَ العَرَبْ
إنَّ اللُّصُوصَ طَمِعُوا فيما عَلَيْكِ مِن ذَهبْ
لَنْ يَسْلُبُوكِ شَعْرةً وفِيَّ عِرْقٌ يَضْطَرِبْ

[تخرج عبلة]

كَمِ الرِّجالُ؟ هَلُمِّي قُومِي آنْظُرِي يا سُعَادُ

[تدور سعاد حول الخباء في حذر ثم تعود]

سعاد :

سَيِّدتي لا تُرَاعِيْ حَوْلَ الخِبَاءِ ثَلاَثَهْ
وجُوهُهُمْ كالِحَاتٌ وبالثِّيَابِ رَثَاثَهْ

المشهد الثامن

[يظهر أحد اللصوص فتختفي الفتاتان وراء باب الخباء، حتى إذا حاذى الباب طعنته عبلة في ظهره]

عبلة : [هامسة]

ذِئبٌ؟ تَعَالَ خُذْ؛ مُتِ قَتَلْتُهُ بِضَرْبةِ

---

(١) العُزّى: صنم كان يُعبد في الجاهلية.

المشهد التاسع

[يظهر لص آخر فتطعنه سعاد]

سعاد : [هامسة]:

وأَنْــتَ أيْـضــاً يــا شَــقــي   خُــذِ آمْض مُـتْ بِــهِ الْحَـقِ

اللص [ممدّداً على الأرض]:

آهٍ مِن الخَنَاجِرْ

الأوّل : شُلَّتْ يَمِينُ الغَادِرْ

[يظهر لصوص آخرون من هنا وهناك وراء الخباء]

المشهد العاشر

سعاد : سَيِّدتي

عبلة : سُعَادُ ماذَا؟ ما الخَبَرْ؟

سعاد : سَيِّدتي الآنَ نُواجِهُ الخَطَرْ

سِرْبٌ من الذِّئَابِ نحــونَا آنْحَدَرْ

عبلة : بَلْ هُوذا سُعَادُ في البَيْتِ آنْفَجَرْ

قِــفِي، سُــعَــادُ، نــاحِــيَــهْ   دُونَــكِ تِــلْــكَ الــزَّاوِيَــهْ

سعاد : وأنتِ مِنْ وَرَائِيَهْ

عبلة :

لا بَــلْ مَــكَــانِــي هٰــهُــنَــا   فَــرَبَّــةُ الــدَّارِ أَنَــا

سُــعَــادُ لــلْــمَــنِــيَّــهْ   أحْــلَى مِــنَ الــدَّنِــيَّــهْ

ولاَ يَــزِيــدُ فــي الــعُــمُــرْ   شَيْءٌ إذا الــمَــوْتُ حَــضَــرْ

هَيِّي آبْنَــتي تَــقَــنَّــعِــي   ونَــاوِلِــيــنــي بُــرقُــعِــي

وقَاتِلِي الجَمْعَ مَعِي

أحد اللُّصوص: الَّلاتُ أكبرْ ما ذَاك؟

عبلة : خِنْجَرْ[1]

[تحاول أن تطعنه فيمسك بذراعها ويمسك لص آخر بذراعها الأخرى ويقبض لصَّان آخران على سعاد]

اللِّص: : ما لِلْمُبْرقَعَاتِ والخَنَاجرِ يَحْمِلْنَها؟

عبلة : لِرَدْعِ كُلِّ فاجِرِ

لص آخر:

تَعَالَيِ اسْفِرِي آرْفَعِي ماذَا وَرَاءَ البُرقُعِ؟
الآنَ تَمْضِينَ مَعِي!

[يحمل بعض اللُّصوص عبلة وسعاد إلى ما وراء الستار من ناحية اليسار فتسمع استغاثة عبلة من هناك بينما يبقى في المسرح سائر اللصوص]

المشهد الحادي عشر

عبلة [مستصرخة]:

وَاعَنْتَرا وَاعَنْتَرا لَيْتَكَ عِنْدِي فَتَرى
حَلَّ الذِّئَابُ ساحَتي إليّ يا لَيْثَ الشَّرَى

أحد اللصوص :

الخَيْمَةُ الحَمْرَا القُبَّةُ الكُبْرَى
هُنَا رَوَائِعُ التُّحَفْ هُنَا نَفَائِسُ الطُّرَفْ
هُنَا عَصَائِبُ اليَمَنْ وَوَشْيُهَا الغَالي الثَّمَنْ

آخر [ممسكاً بخناق أخيه]:

بُشْرَايَ دعْ يا آبْنَ الزِّنى القُرْطَ لي

---

(١) اللات: صنم كان يُعبد في الجاهلية.

آخر : بَلْ لِي أنَا

الأوّل : السَّيْفُ بَيْنَنَا حَكَمْ

الثاني [ويطعنه]: خُذْها وما شِئْتَ فَنَمْ

الثالث : لا لَكَ القُرْطُ وَلاَ لَهُ

[ثم يطعن الثاني]

أَعْطِنيه يا حُثَالَهْ[1]

[ضجة الغارة مستمرة من وراء الستار. يقدم من يسار الربوة المرتفع شدّاد ومالك فيهرب اللصوص ويعثر القادمان بعنترة وهو نائم]

المشهد الثاني عشر

شدّاد : أَضجْعَةً يا عَبْدُ والحَيُّ سُبِي

عنترة : مَنِ المُنَادِي؟ سَيِّدِي: صَوْتُ أبِي؟

شدّاد : ماذَا يَقُولُونَ غداً في العَرَبِ!

[يظهر من يمين الربوة بعض الهاربين]

المشهد الثالث عشر

أحد الهاربين :

أُبِيحَتِ الحِظَارُ والخِيَامُ وآختُطِفَتْ جِرْوَةُ يا هُمَامُ[2]

مالك : وافَرَسا طارَ بِهَا الطَّغَامُ![3]

مالك [لعنترة]: عَنْتَر قُمْ رُدَّ عَلَيّ جِرْوَتي

(١) الحثالة: الرديء من كل شيء.

(٢) الجروة: الصغيرة من الكلاب وجروة هنا فرس أبي قتادة.

(٣) الطغام: الأرذال.

عنترة [ببرود]: سِرْ أنتَ أنْقِذْها أو آبْعَثْ إخْوَتِي
وخَلِّني أغْنَمْ لَذِيذَ غفْوَتِي
[ويرقد]

هارب آخر :
يا سَيِّدَ المَاءِ لَيْسَ لَنَا المَاءُ
أُطْرِدَتِ الإبْلُ وسِيقَتِ الشَّاءُ

شدّاد : يابنَ شَدّادَ

عنترة [بتهكم]:
ما أنا آبنٌ لِشَدّادَ ولَكِنْ عَبْدٌ يسُومُ ويَسْقِي
لَسْتُ مِنْ عَبْسَ لاَ، ولَسْتُ لكَ آبناً لَوْنُ أُمِّي أفَاتَني مِنكْ حَقِّي

شدّاد :
قُمْ يا فَتَى عَبْسٍ انْهَضْ ذُدْ عَنْ حَرِيمي وعَنِّي
إذا رَدَدْتَ السَّبَايا فأنتَ عَنْتَرَةُ آبْنِي

عنترة :
يا سَيِّدَ الحَيِّ قُلْ لي مَتَى فَطِنْتَ لِشَأْنِي
أأنتَ ذَا تَدَّعِيني وكُنْتَ تَبْرأُ مِنِّي؟

هارب ثالث :
يا سَيِّدَ الوادِي هَيٍّ آحْمِهِ هَيٍّ
عَبْلَةُ....

عنترة [ناهضاً]: ما الخَطْبُ؟

الفتى : سُلَّتْ مِنَ الحَيْ

عنترة :
أنا كاللَّيْثِ ما الهَزِيمةُ في طَبْعِي ولَيْسَ الفِرَارُ لِي في جِبِلَّهْ

أنَا حُرٌّ وإنْ أَبَتْ عَبْسُ والنَّاسُ وآبَائي السَّراةُ الأَجِلَّهْ
لا لِحُرِّيَّتِي أمُوتُ ولَكِنْ حَبَّذَا المَوْتُ في سَبِيلِكِ عَبْلَهْ

[يسمع صوت استغاثة من وراء الستار]

المستغيث :

عَنْتَرةَ البَأسِ ويا عَزِيزَ الجَارْ
تِلْكَ نِسَا عَبْسٍ حَلَّ عليها العَارْ

عنترة :

لَبَّيْكِ يا عَبْسُ لَبَّيْكِ
عَنْتَرةُ الرَّوْعِ أَمَّنَ سِرْبَيْكِ[1]

[يسمع صوت عبلة من بعيد ومن وراء الستار]

عبلة : واعَنْتَرتا واعَنْتَرتَا

عنترة : لَبَّيْكِ عُبيلَ اللَّيْثُ أَتى

عَبْلَةُ يا عَبْلَ لا تُرَاعِي لَبَّيْكِ بالسَّيْفِ بالقَنَاةِ
يا عَبْلَةَ القَلْبِ لا تُرَاعِي لَبَّيْكِ بالرُّوحِ بالحَيَاةِ
تَأمَّلِي غَضْبَتِي تَرَيْها كغَضْبَةِ اللَّيْثِ لِلَّبَاةِ

[يظهر جماعة من اللصوص من ناحية الخيام يحملون أسلاباً، ويحاولون الهرب عن طريق العين حينما سمعوا صوت عنترة فيهبط عنترة من الربوة ويقطع عليهم الطريق]

المشهد الرابع عشر

عنترة :

يا سَرَقَهْ يا فَسَقَهْ اللَّيْثُ جَا
رُؤوسَكُمْ نفُوسَكُمْ أوْ فالنَّجَا

---

(١) السرب: الطريق.

خَلُّوا الحُلِي دَعُوا الوُسُدْ
مَن يَخْتَلِسْ حَبْلَ مَسَدْ
فَوَيْلُهُ مِنَ الأَسَدْ

[يهجم عليهم]

كُونُوا ذِئَابَ الفَلَا إنِّي أنَا القَسْوَرَهْ[1]

أحد اللصوص :

عَنْتَرَةٌ جاءَكُمْ عَنْتَرَةٌ عَنْتَرَهْ

عنترة :

رُدُّوا الحُرَمْ إلى الخِيَمْ سُوقُوا النَّعَمْ إلى الحِظَارْ
هَلُمُّوا يا ذِئَابَ القَفْرِ لاقُوا السَّيْلَ والنَّارَا
هَلُمُّوا جَمْعَكُمْ واجْرُوا رِيَاحاً أَجْرِ إِعْصَارَا
فَهَذَا اليَوْمُ في البِيدِ سَيَبْقَى بينَنَا ثَارَا
مَنْ يَتَّزِنْ بِاللَّيْثِ مَنْ؟ حَذَارِ مِن بَطْشِي حَذَارْ
هاتُوا القَنَا أَلْقُوا هُنَا إنِّي أنَا سَيْلٌ وَنَارْ

أحد اللصوص :

زَمْجَرَةٌ قَسْوَرَةٌ عَنْتَرَةٌ هَيُّوا الفِرَارْ

آخر :

بَلِ آهْجُمُوا وأَقْدِمُوا لا تُحْجِمُوا فَذاكَ عَارْ

أسيد :

مَكَانَكُمْ يا قَوْمُ لا تَفَرَّقُوا كَمْ ذا مِن العَبْدِ إلى كَمْ نَفْرَقُ؟

[لعنترة] :

هَلُمَّ عَنْتَرُ القَني تُسْقَ الرَّدَى أو تَسْقِنِي

---

(١) القَسْوَرَة: الأسد.

عنترة : مَنِ الفَتَى؟

أسيد : ابنُ حُرَّةٍ!

عنترة : عَرَّضْتَ يا أَحْمَقُ بِي

أنا آبْنُ شَدَّادَ فَمَنْ أَبُوكَ؟ جِئْنِي بِالأَبِ

أسيد :

أبي مُعَانِقُ الأَسَلْ سَلْ عنْ أبي مَنْ شِئْتَ سَلْ

عنترة : شَدَّادُ أعْلَى وأَجَلّ

أحد اللصوص :

صَاحِبُكُمْ وعَنتَرهْ يا عَجباً هَيُّوا نَرَهْ
أُسَيْدُ شَهْمٌ أُسَيْدُ باسِلْ
تَعالَ نَنْظُرْ كَيْفَ يُنَازِلْ
لَيْثَ الصَّحَارَى غُولَ القَبَائِلْ

[يطعن عنترة أسيد فيرديه ثم يجري إلى ما وراء الخيام باحثاً عن عبلة ووراءه مالك وشدّاد]

المشهد الخامس عشر

لص :

أُسَيْدُ عِشْ أَنْتَ أُسَيْدُ يَسْتَاهِلْ[1]
من يَطْفِر النَّارَ فَلَيْس بِالعَاقِلْ[2]

آخر :

هَذَا القَدَرْ مَن يَقْحَمُهْ[3]

---

(١) يستاهل: أي يستأهل بالهمز، فسهل، أي يستحق.
(٢) طفر النار: قفز من فوقها وتخطاها إلى ما وراءها.
(٣) يقحمه: أي يقتحمه ويرمي بنفسه فيه من غير روية.

هَـذَا الـصَّـخْـرُ مَـن يَـصْـدِمُـهْ

[يفرّ اللصوص من اليمين ويدخل عنترة
وعبلة من اليسار ووراءهما داحس وسعاد]

المشهد السادس عشر

عنترة:

لَبَّيْكِ عَبْلَةُ يا فِداكِ حَيَاتِي ... نادِي يُجِبْكِ مُهنَّدِي وقَنَاتِي

لو رَنَّ صَوْتُكِ في جَوانِبِ حُفرَتِي ... لَبَّاكِ من ثَبَجِ التُّرَابِ رُفاتِي[1]

البِيدُ تَحْتَ يدِي وتَحتَكِ ضَيْعَةٌ ... أنا لَيْثُ غابَتِها وأَنْتِ لَبَاتِي[2]

رُوِّعْتِ بِنْتَ العَمِّ؟

عبلة : مِمَّ؟

عنترة : ألم يَرُعْ

مَرْأى البُزَاةِ حَمَامَتِي وقَطَاتِي

عبلة :

مَرْأى البُزاةِ؟ تَرى اللُّصُوصَ بَوازِياً ... هُمْ دونَ ذلك، هُم حِدَاءُ فَلاَةِ

جُبَنَاءُ خَطَّافُونَ أكْبَرُ هَمِّهِمْ ... عُكَّازُ شَيْخٍ أو حُلِيُّ فَتَاةِ

عنترة : ماذا لَقِيتِ مِنَ اللُّصُوصِ؟

عبلة : بلَ آمْضِ سَلْ

[تشير إلى قتيلين على باب الخباء]

هَذَيْنِ كَيْفَ تَلَقَّيَا طَعَنَاتِي

أنـا وآبْنَتي هـاتِيـكَ جَنْـدَلْنـاهُمَـا

---

(١) ثبج التراب: وسطه حيث تجمّع.
(٢) اللباة: اللبؤة.

عنترة : حَقٌّ سُعادُ فَعَلْتِ

سعاد : سَلْ مَوْلَاتِي

عنترة :

أجَلْ أرَى جُثَّةً وأخْـــرَى   داحِسُ مــاذا تَــرَى؟

داحس : دِمَاءَ

عنترة : أأَنْتُما تَقْتُلانِ

عبلة : لِمْ لَا؟

عنترة : مَن قَلَّدَ الخِنْجَرَ الظِّبَاءَ؟

عبلة

ذِئَــابُ قَفْــرٍ مَشَتْ إلَيْــنَــا   كَوَالِحــاً تُضمِـرُ العَـدَاءَ[1]

عنترة : وأيْنَ كَانَ الرِّجَالُ؟

عبلة : سَلْهُمْ

عنترة : وكيْفَ لم يَسْمَعُوا النِّدَاءَ؟

عبلة :

لَقَــدْ تَلفَّتُّ لَمْ أجِــدْهُمْ   ولم أجِـدْ حَوْلِيَ النِّسَـاءَ

عنترة [ملتفتاً لداحس]:

دَاحِسُ صِـحْ وأَسْـمِـعَ   ونَـادِ عَــبْــلَةُ مَـعِـي
وَأنَّــهَـــا سَـالِـمَـــةٌ   وأنَّــهَـــا لَــمْ تُــرَعِ

[تدخل سعاد الخباء وينادي
داحس من وراء الخيام]

---

(١) كوالح : عابسة.

المشهد السابع عشر

داحس :

يـا عَبْسُ بُشْـرَى لَكُمُ قـد وُجِـدَتْ أُخْـتُـكُـمُ
عَـنَـتَـرةٌ حِـيَـالَـكُـمْ وعـبـلةٌ بَـيْـنَـكُـمُ

عبلة : عَنْتَرةٌ؟

عنترة : عُبَيْلَةٌ

عبلة : مِنْ أَيْنَ؟

عنترة : مِنْ طُولِ السُّرَى

سَـرَيْـتُ أبْغِـي الـحَـيَّ لَـيْـلِي كُـلَّه حـتَّـى دَنَـا
وجِئْـتُ فـي مُنْبَلَجِ الـصّـبْـحِ أُسَـابِـقُ الـضُّـحَـى
عَـسَـايَ أَرْعَى شَـاءَكُـمْ كـعـادَتي فِـيـمَـنْ رَعَـى

عبلة :

لا لَسْتَ تَرعَىَ الشاءَ يا عَنْتَـرَ بَـلْ تَـرْعَى الحِمَى
وأَيْـنَ يـابْـنَ الـعَـمِّ كُـنْـتَ لـم تَـزُرْنَـا مِـنْ مَـدَى

عنترة :

فـي عَـالَـم الـدُّنْـيَـا وفِـي وادِي الحَيَـاةِ وفي شِعَـابِـهْ
فـي البِـيـدِ عَبْـلَةُ فـي عَـرِيـنِ الـلَّيْـثِ فـي سُـلْطانِ غـابِـهْ

عبلة : سعاد

[تخرج سعاد من الخباء ويعود داحس من وراء الخيام فيصعد الربوة ويختفي وراء النخيل]

المشهد الثامن عشر

بِـنْـتُ أيـا بِـنْـتُ آذْهَـبِـي جِـيـئِي بِـتَـمْـرٍ ولَـبَـنْ

[تدخل سعاد الخباء]

المشهد التاسع عشر

عنترة :

أَجَلْ لي ثَلاثُ ألبَسُ البيدَ حائِراً | كما يَلْبَسُ اللَّيْلَ الطَّويلَ سَقِيمُ
إذا قُمْتُ مِن ذِئْبٍ عَثَرتُ بِحَيَّةٍ | طَريقِي مَنَايَا كُلُّه وسُمُومُ
أَهِيمُ على وجْهِي وقَلْبي من الجَوَى | على وَجْهِهِ بَيْنَ الضُّلوعِ يَهِيمُ
ويَهْدَأُ إلاّ حِينَ تَهْتَزُّ بانةٌ | ويُطْرِق إلاّ حِينَ يَشْخَصُ رِيمُ
أَجِيءُ حِماكُمْ من نُجوم بَعِيدةٍ | وتَرْجِع بي مِن حيثُ جِئْتُ نُجُومُ
ويُحْزِنُني يا عَبْلَ أنّي أَزورُكُمْ | فَيَصْرِفُ عمِّي الوَجْهَ وهْو كَرِيمُ
يَكَادُ يَسُلُّ السَّيْفَ حِينَ أَجِيئُه | ويُوقِدُ نارَ الطَّرْدِ حِين أَرِيمُ[1]
فَخاضَ المَوالِي في حَدِيثِي وأَقْبَلَتْ | عَلَيَّ مِن الوادِي الظُّنُونُ تَحُومُ
وكَمْ رَامَ وُدِّي في القَبائِلِ سَيِّدٌ | وَوَدَّ مَكَانِي في الدِّيارِ زَعِيمُ
ولَوْ لَمْ يَكُنْ يا عَبْلَ عَمّاً ولا أباً | لِعَبْلَةَ سِيمَ الخَسْفَ وهُو كَظِيمُ

عبلة :

تَسُومُ أَبِي خَسْفاً؟

عنترة : مَعاذَكِ عَبْلَتي

مَعَاذَ الهَوىَ إنِّي إذَنْ لَلئِيمُ

ولكنَّ عمِّي جارَ

عبلة : هَبْ لِيَ ذَنْبَهُ

وهَبْنِي الَّتِي جارَتْ أكُنْتَ تَلُومُ؟

عنترة :

عُبَيْلَةُ جُورِي وَٱتْرِكِي عمَّنا يَجُرْ | فإنِّي عَلَى عَهْدِ الهَوَى لَمُقِيمُ

[تخرج سعاد من الخباء حاملة قصعة فيها مجيع وهو طعام يصنعه العرب من التمر واللبن، فتضع القصعة على الأرض وتدخل من حيث خرجت]

---

(١) اريم: ابرح.

المشهد العشرون

عبلة : عَنْتَرْ خُذْ قاسِمْنِيَ المَجِيعَا

عنترة : هاتِي فَقَدْ كدتُ أموتُ جوعا[1]

[يجلسان إلى قصعة المجيع فتتناول عبلة بضع بلحات تعطيها إلى عنترة]

عنترة :

حَسْبِي النَّوى، عَبْلَ، ما فِي التَّمْرِ لي أَرَبٌ   مُنَايَ كُلُّ نَواةٍ خالَطَتْ فاكِ

التَّمْرُ أَطْيَبُ ما فِيهِ النَّواةُ إذَا   مَرّتْ بثَغْرِك أوْ مَسّتْ ثنَايَاكِ

لَقَدْ مَرَرْتُ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي شَجَرٍ   نَضْرٍ، وإنْ لَمْ يُصِبْه الغَيْثُ، ضَحّاكِ

مُطيَّبٍ نَفَحْتنِي مِنْهُ رائِحَةٌ   كالْمِسكِ، يا عَبْل، أو تَعْلُو عَلَى ذَاكِ

فَقُلتُ عَبْلَةُ في الوَادِي مَشَتْ وَرَمَتْ   عَلَى نَوَاحِيهِ مِنْ فِيهَا بِمِسْوَاكِ

عبلة :

لَقَدْ أَحْسَنْتَ يا عَنْتَرُ فاَقْبَلْ مِنْ فَمِي الْتَمْرَا

عنترة :

بِرُوحِي فُوكِ يا عَبْلَةُ، هاتِي الشَّهْدَ والخَمْرَا

عنترة :

عَبْسُ آشْهَدُوا عَبْلَةُ قَدْ   قامَتْ تَزُقُّ عَنْتَرهْ

كما تَزُقُّ فَرْخَها   على الغُصُونِ القُبَّرهْ

عنترة : عَبْلَ

عبلة : لبيْكَ حَامِيَ الخَيْلِ

عنترة :

لا ما   أنا لِلخَيْل يا عُبَيْلةُ حامي

---

(١) المجيع: ضرب من الطعام يُصنع من لبن وتمر.

عبلة :

مَنْ إذن يُمْسِكُ النَّجِيبَةَ في السَّرْجِ ويَحْمي النَّجِيبَ خَلْفَ اللِّجامِ؟

عنترة : ألهذا أَحْبَبْتِني؟

عبلة :

ولشأنٍ كضُحَى الشَّمْسِ أو كبَدْرِ التَّمامِ

كُلَّ يَوْمٍ يُقَالُ عَنْتَرةُ أرْدى كَمِيّاً وقامَ عَن ضِرْغَامِ

عنترة :

لِمَ لاَ تَعْشَقِينَ، عَبْلَ، جَوَادِي؟ لِمَ لاَ تَعْشَقِينَ، عَبْلَ، حُسَامِي؟

أوَ لَيْسَا هُما شَرِيكَيَّ في الفَتْكِ وضَرْبِ الطُّلَى وحَصْدِ الهامِ؟[1]

[يظهر داحس على الربوة ثم يهبط منها حاملاً معه فراخ نسر وثلاثة أشبال]

المشهد الحادي والعشرون

عبلة : ما ذَاكَ؟ ما تَحْمِلُ؟ ماذا عَنْتَرَهْ؟

ما تِلْكَ عَنْتَر؟

عنترة [متناولاً أفرخ النسر من داخس]:

هٰذي يا عَبْلَ، أَفْرَاخُ نَسْرِ

إغْتَرَّ بِي أَبَوَاهَا وكُنْتُ بالشِّعْبِ أَسْرِي

فظلّلَ الأَبُ صَدْرِي وغَطَّتِ الأُمُّ ظَهْرِي

ومَسَّيَانِي بِكَرٍّ على الجِبَالِ وفَرٍّ

تَوَهَّمَانِيَ صَيْداً يُهْنِي الفِرَاخَ ويُمْرِي[2]

فَلَمْ أكُنْ غَيْرَ يُتْمٍ لِمُبْتَغِي الصَّيْدِ مُرٍّ[3]

---

(١) الطلى: الأعناق.،

(٢) يهني: أي يهنىء بالهمز، يهني أي يطعم، ويمري: أي يمرىء بالهمز بيمري: أي يجعل الطعام سائغاً.

(٣) اليتم: فقد الأب. أي جعلت صغار صائديّ يتامى لفقدهم أباهم.

عبلة : مَاتَا؟

عنترة : أَجَـلْ لَـقِيَا عَـبْلَتـيِ جَـزاءَ الـتَّـجَـرِّي
مُحَـطَّمَيْـن بِكَـفِّي مُمـزَّقيْن بـظُفْـرِي

[يـدخل جمـاعة من الهـاربين فتيانـاً وفتيات من نـاحيـة العين وبينهم صخـر وناجية]

المشهد الثاني والعشرون

صخر : عَبْلَةُ لم تُسْبَ

صوت : عَبْلَةُ في الحَيِّ

آخر :
عَـنْـتَـرَةُ ثَـمَّ لا خَـوْفَ مِـنْ شَـيٍّ

عبلة : وما هٰذِهِ الأُخْرَى؟

عنترة :

شُـبُـولٌ ثَـلاَثَـةٌ تُـرَبَّى هُنَـا بَيْنَ الـبُيُـوتِ وتُـصْلَحُ
تَـعَـرَّضَ لِي لَـيْثٌ يُـدِلُّ بِـبَـأْسِـهِ إلـى جـانِبَيْـهِ لَـبْـوَةٌ تَـتَـبَجَّـحُ
وقَـدْ مَـلأَ البَيْـدَاءَ رَعْـداً كَـأَنَّمَـا بِـكُـلِّ سَبِيـلٍ ذُو رُعُـودٍ مُلَمِّـحُ
مَـشَيْـتُ إِلَيْـه فـانْثَنَى فَـطَلَبْـتُـهُ فَـأَقْبَـلَ تيَّـاهَ الـخُـطَى يَـتـرَنَّـحُ
ظَـلَلْنـا مَـلِيّـاً أَتَّـقِيـهِ ويَـتَّـقِـي ويُعْجِمُ في قَـوْلِ الـوَعِيـدِ وأُفْصِـحُ
فـأَغْمَـدْتُ سَيْفِي في قَـرارَةِ جَـوْفِه أَلَيْسَ لِسَيْفِي ذلـك الغِمْـدُ يَصْلُحُ؟
إِلَى أَنْ تَعَـايَـا في يَـدِي فَـذَبَحْتُـهُ ومَنْ ذا رأَى الضِّرْغامَ كالشَّاةِ يُذْبَحُ[1]
وكَمْ مِنْ كَمِيٍّ فـي أَعِنَّـةِ سـابِـحٍ تَرَكْتُ وَرَائِي في الدَّمِ الحُرِّ يَسْبَحُ[2]

عبلة : وما صَنَعْتَ باللَّبَاةِ يابْنَ عمْ

---

(١) تعايا: تظاهر بالعي.

(٢) الكميّ: لابس السلاح والأعنة: جمع عنان، وهـو بئر اللجـام. والسابـح: الفرس يسبـح في جريه.

عنترة : عَفوْتُ عَنْهَا

عبلة : ذاكَ واللهِ الكَرَمْ

عنترة :

اقتَحَمَتْنِي مَرَّتَيْنِ وآنْثنَتْ لم تَرَ مِن فائدةٍ أن تَقْتَحِمْ

أُنْثَى ضَعِيفَةُ القِوَى تَرَكْتُها إنَّ الإنَاثَ عِنْدَ أَمْثَالِي حُرَمْ

صخر :

شُبُولٌ تُرَبَّى في البُيُوتِ أغَابَةُ حِماكُمْ؟

عنترة : ونَحْنُ الأُسْدُ في الغَابِ نَسْرَحُ

وما لَكَ يا هَذَا وعَبْسٍ ودُورِها وما أَنْتَ؟ مَنْ هَذا الفَتَى المُتَوَقِّحُ؟

صخر :

فَتًى زَائِرٌ مِنْ عامِرٍ مِنْ سَرَاتِهَا وما هُوَ إلاَّ مُعْجَبٌ مُتَمَدِّحُ

عبلة :

جَبَانٌ ذَلِيلٌ جاءَ عَبْساً ومَاءَهَا يُعَرِّضُ للإفْكِ العَذَارَى ويَفْضَحُ

فتاة :

فَتَى عامِرٍ في كُرْبةٍ أَيْنَ عامِرٌ؟ يَكَادُ فَتَاهَا في السَّرَاوِيلِ يَسْلَحُ[1]

ناجية : أَسَأْتَ بِهِ يا عَنْتَرُ الظَّنَّ

عنترة :

ما أَرَى وأَسْمَعُ؟ أُنْثَى عَنْكَ يا فَحْلُ تَنْضَحُ؟[2]

صخر [همساً] :

دَعِينَا دَعِيهِ لا تَزِيدِيهِ ثَوْرَةً

---

(١) يسلح : يروث.
(٢) تنضح : تدفع.

ناجية : تَنحَّ إذَنْ قَدْ أَوْشَكَ الكَبْشُ يَنْطَحُ

[ينصرف الجميع فلا يبقى إلا عبلة وعنترة]

عنترة :

يا عَبْلَ كَم بَيْداءَ جُبْتُ مَخُوفَةٍ قَذَفَتْ إليّ بِذِئْبِها والضَّيْغَمِ
فَلَقِيتُ كُلَّ مُنازلٍ بِسِلاحِهِ وجَعَلْتُ أَضْرِبُ باليَدَيْنِ وبالفَمِ
أخَّرْتُ رُمْحِي وادَّخَرْتُ مُهَنَّدِي ورَبَطْتُ سَرْجِي للكَمِيِّ المُعْلَمِ
حَتَّى تَراءَتْ ظَبْيَةٌ فَتَمَلأَتْ مِمَّا رَأتْ رُعْباً فَلَمْ تَتَقَدَّمِ[1]
لَمَّا رَأتْنِي، والسِّبَاعُ تَنُوشُنِي نَفَرَتْ نِفارَكِ مِنْ عُيُونِ المَوْسِمِ
رِيمٌ تَلفَّتَ لم يَفُتْكِ بِجِيدِهِ وبِمُقْلَتَيْهِ وفُتِّهِ بِالْمِعْصَمِ
فَمَنعْتُها مِنْ كُلِّ ضارٍ ثائرٍ وأَبَحتُها الوادِي وقُلْتُ لها آسْلَمِي
يا لَيْتَنا، يا عَبْلَ، عُصْفُورَتانْ في غُصْنِ ضالٍ أو على فَرْعِ بانْ[2]
في رَوْضَةٍ غُفْلٍ وراءَ الرُّبى لَم يَسْقِها إلاَّ الغَوادِي يَدانْ
عَلَى جَناحَيْكِ جَناحِي وفِي فَمِي مَكَانَ الحَبِّ هذا الجُمَانْ

عبلة :

لَقَدْ وَدِدْتُ فَوْقَ ما شِئْتَ لَنا يا قَسْوَرَهْ
مِنْ عِيشَةٍ وادِعَةٍ خامِلَةٍ مُسَتَّرَهْ
لا بِعُيُونِ النَّاسِ أوْ أَلْسُنِهُمْ مُكَدَّرهْ

عنترة :

لَوْ لَمْ تَهِيمِي، عَبْلَتِي بِحَمَلاتِي المُنْكَرهْ
ولَيْسَ بِي أنا ولا بِسِحْنَتِي المُحْتَقَرَهْ
لَقُلْتِ إذ دَعَوْتِنِي يا قَمَرِي، يا سُكَّرهْ!

---

(١) تملأت: امتلأت.

(٢) الضال والبان: نوعان من الشجر.

عبلة :

هـذا الـسَّـوادُ يـابْنَ عـمِّي مِـثْـلُ صِبْـغَـةِ الـسَّـحَـرْ
كـالمِسْـكِ والكُحْـلِ هُمَـا   فـي مَفْـرِقِي وفي البَـصَـرْ
ومَـا يـضُـرُّكَ الـسَّـوَا   دُ يـابُنَ عَمِّي، مـا يَضُـرْ؟
الـكَـعْـبَـةُ الـغَـرَّاءُ مِـنْ   أحْـسَنِ مـا فِيهـا الـحَجَـرْ
الـبَـدْوُ فـي إجْـلالِـهِ   وفـي وَقَـارِهِ الـحَضَـرْ

عنترة :

مـاذا وَدِدْتِ، يـا عُـبَـيْـلَ يـا حَـيَاةَ، عَـنْـتَـرَهْ؟

عبلة :

وَدِدْتُ أنِّـي صَـدَفٌ   وأنْـتَ فِـيـهِ جَـوْهَـرَهْ
فـي زَاخِـرٍ لـم يَـدْرِ بَـعْـدُ الـغـائِـصُـونَ خَـبَـرَهْ
ومَـوْضِـعٍ لـم يَـسْـمَـعِ الـفُـلْـكُ بِـهِ ولَـمْ يَـرَهْ

عنترة :

بـي أنتِ، يـا عَـبْـلَةُ بِـي   لا بَـلْ بـأُمِّـي وأبِـي
لا بَـلْ بـعَـبْسٍ بَـلْ بـنَـجْـدٍ بَـلْ بـمُـلْكِ الـعَـرَبِ

ستار

الفصل الثاني

المنظر الأول

[المكان كما كان في الفصل الأوّل إلاّ أن خيمة مالك قريبة جدّاً تملأ المسرح أو تكاد، ويبدو بابها كأنه ستر مسدول ولا أثر لعين ذات الإصاد ولا لسائر خيام بني عباس، ويرى مقدم المسرح كأنه طريق عام أمام الخباء. الوقت في الأصيل وقد وقفت عبلة وناجية توصوصان من ثقوب في باب الخباء ثم تتحدّثان. . . . .]

المشهد الأول

عبلة :

مَنْ يا تُرَى الرِّجَالُ مَنْ؟ أَتَى الحِمَى يا ناجِيَهْ؟

ناجية :

ضُيُوفُكُمْ مِنْ عامِرٍ مِنَ السَّرَاةِ العالِيَهْ

عبلة : وفِيمَ، يا أُخْتُ، جاؤوا

ناجية : لا أدْرِ. . . ما يَطْلُبُونَا

عَسَاهُمُ رُسْلُ خَيْرٍ لَعَلَّهُمْ خاطِبُونَا

عبلة :

مِنْ عامِرٍ أَجَلْ عَرَفْتُ بَعْضَهُمْ ويَخْطُبُونَ عِنْدَنا مَنْ يا تُرَى؟

ناجية :

أظُــنُّ بِـنْـتَ مـالِـكٍ عــالِـمَــةً بكُـلِّ ما جَـرَى ويَجْـرِي في الحِمَى
ومَنْ عَسَى يُخطَبُ في الحَيِّ سِوَى عَـبْـلَةَ رَبّــةِ الــسَّـنَــاءِ والــسَّـنَــا؟

عبلة :

هَــازِلَــةٌ يــا أُخْـتُ أمْ مَـجْـنُـونَــةٌ أنْتِ؟ أجَــاءَ القَـوْمُ مِنْ أَجْلِي أنَــا؟

ناجية :

لا تُـنْكِـرِي، عَبْـلَـةُ، لا تَـجـاهَـلِي لَـمْ يَبْـقَ سِـرّاً أَمْـرُ ذَلِـكَ الفَـتَـى

عبلة : فتى ومِمَّنِ الفَتَى؟

ناجية : مِنْ عامِرٍ

عبلة : وما حَدَاهُ نَحْوَ عَبْسٍ؟

ناجية : الهَوَى

عبلة : وما آسمُهُ

ناجية : صَخْرٌ

عبلة :

لَعَلّه الَّذِي في كُـلِّ مَغْـرِبٍ عَلَى المَـاءِ يُـرَى

ناجية : كَيْفَ أمَا تَهْوَيْنَه، يا عَبلَ

عبلة :

لا، أخْـطَاكِ مـا حَسِبْتِ، يـا نَـاجِيَ، لَا

ناجية : يا فرحا خليّهِ لِي، عبلَ

عبلة : اذْهبِي بِهِ متى أخذْتُه مِنكِ متى

[تنصرف عبلة من اليسار غير عابئة، وتعود ناجية إلى الوصوصة من ثقوب الخباء، وبعد لحظات يقدم صخر من اليمين متأبطاً صرة فيها ثياب]

المشهد الثاني

ناجية :

عِمْ صَباحاً يا عامِريُّ إلَى أيْنَ؟

صخر : إلى عَبْلَةٍ

ناجية : أيُمكِنُ ذَاكَا؟

صخر : لِمَ لَا

ناجية : عَبْلَةٌ تَـرَى الـذِّئْبَ في جَـوْزِ الفَيـافِي لَكِنَّهـا لا تَـرَاكَـا

صخر : ما تَقُولينَ؟

ناجية :

لَـمْ أقُـلْ غَـيْـرَ حَـقٍّ هِيَ، يـا عـامِـريُّ، تَهْـوَى سِـوَاكَـا

صخر : عَبْلَةٌ لِي غداً

ناجية :

خُـدِعْـتَ ولَـمْ يَـصْـدُقْـكَ شَـيْـطَانُـك الـذي مَـنَّـاكَـا
صَـخْـرُ دَعْ عَبْـلَةً وخَـلِّ هَـوَاهَـا وتَـحَـوَّلْ إلـى الَّـتـي تَـهْـوَاكَـا

صخر : أنا أهْوَى سِوَاكِ، يا أُخْتَ عبْسٍ

ناجية : إمْضِ ، لا نِلْتَ، يا غَبِيُّ، مُنَاكَا

[ينصرف صخر من نـاحية اليسـار، ثم تتبعه نـاجية بعـد قليل من التفكيـر ثم ينجاب الستار المسدول عن داخل الخباء]

المنظر الثاني

«داخل خيمة مالك وتبدو النعمة على كل ما فيها، وقد جلس مالك القرفصاء في جانب، وجلس في جواره وفي الجانب الآخر رجال من بني عامر ـ خدم وقوف بباب في صدر الخباء»

المشهد الأوّل

مالك :

أَلْجَزُورَ، الجَزُورَ؛ ألنارَ، ألنارَ؛ قِرَى الضَّيْفِ ضَيْفُنَا اليَوْمَ عامِرْ

[ينصرف الخدم]

المشهد الثاني

يا مَرْحباً بعامِرِ العِلْيَةِ ٱلأَكَابِرِ

حَظٌّ لَعَمْرِي عَظِيمٌ

الضيفان : لَنَحْنُ أَعْظَمُ حَظَّا

مالك : سَرَاةُ عامِرَ عِنْدِي

أحد الضيوف: في دارِ سَيِّدِ عَبْسِ

آخر :

في البِيدِ يا مَالِكُ قَوْلٌ شائِعٌ نُرِيدُ أنْ نَعْلَمَ مِنْكَ خَبَرَهْ

ثُمّ نَخُـوضَ في الَّـذِي جِئْنَـا لَـهُ

مالك : هاتُوا اسْأَلُونِي رَاشدِينْ بَرَرَهْ
ماذَاكْ؟

الضيف :
إنّ النَّـاسَ قَـدْ تَحـدَّثُـوا أنَّـك لَـنْ تَـرْضَى بِـغَيْـرِ عَـنْتَـرَهْ

مالك : صِهْراً؟

الضيف : أَجَلْ

مالك :
مَـنْ قـالَ؟ ذاكَ كَـذِبٌ أَيَـطْمَـعُ الأَسْـوَدُ أَنْ أُصَـاهِـرَهْ؟

الضيف :
ذلِـكَ يـا مـالِـكُ مـا قُلْتُ لَهُـمْ

[ثم يتلفت حوله]

لا يَسْمَعَنَّ آبْنُ الإِمَاءِ لا يَرَهْ!

آخر :
عَبْلَةُ لا تُـهْـدَى إلى آبْـنِ أَمَـةٍ يَـرْعَى الشُّوَيْهـاتِ ويَسْقِي الأَبْعِـرَهْ

آخر :
أبـا عَبْلَةٍ جِئْنـاكَ نَخْـطُبُ عَـبْلَةً

مالك : لِمنْ؟

الأول : لِنَجِيبٍ سَيِّد وآبْنَ سَيِّدِ
لأَبْيَضَ مِنْ فِتْيـانِ عـامِـرَ مـاجِـدٍ ولَـيْس لِعَبْـدٍ عِنْـدَ شَـدَّادَ أَسْـوَدِ

مالك : ماآسْمُ الفَتَى؟

الأول : صخْرُ مِنْ وَلَدِ الأَشْتَرِ

مالك : وهَلْ رَأى عَبْلَةَ؟

آخر :

أَلْفَ مَرَّهْ وسَمِعَ الحُرُّ حَدِيثَ الحُرَّهْ

مالك :

أَصِيخُوا لِي... أَصاحِبُكُم شُجَاعٌ؟ فَعَبْلَةُ تُبْغِضُ الرَّجُلَ الجَبَانَا

أحدهم :

كَلَيْثِ الغَابِ إِقْدَاماً وكَرّاً إذا آعْتَقَلَ المُهَنَّدَ والسِّنَانَا

مالك :

أَصِيخُوا لِي أَصَاحِبُكُمْ جَوَادٌ فَعَبْلَةُ تُبْغِضُ الرَّجُلَ البَخِيلاَ

أحدهم :

يَكَادُ نَدَى يَدَيْهِ حِينَ يَهْمِي يُنَسِّي حاتِمَ السَّمْحَ المُنِيلاَ[1]

مالك :

أَصِيخُوا لِي أَصاحِبُكُم جَمِيلٌ؟ فَعَبْلَةُ تُبْغِضُ الرَّجُلَ الدَّمِيمَا

أحدهم :

أَلَمْ تَرَهُ أَلَمْ تَنْظُرْ إِلَيْهِ إِذَنْ لَمْ تُبْصِرِ المَلَكَ الكَرِيمَا

مالك :

أَصِيخُوا لي أَصَاحِبُكُم فَصِيحٌ؟ فَعَبْلَةُ تُبْغِضُ الرَّجُلَ العَيِيَّا

أحدهم :

أَلَمْ تَرَ قطُّ قُسّاً في عُكَاظٍ؟ وسَحْبَاناً، إذا شَهِدَ النَّدِيَّا؟[2]

---

(١) حاتم: أي حاتم الطائي، وهو من أجواد العرب المشهورين.

(٢) قسّ: هو ابن ساعدة الإيادي، وكان من خطباء العرب قديماً. وعكاظ سوق كانت للعرب يتبارى فيها الشعراء والخطباء. وسحبان هو سحبان وائل وكان من فصحاء العرب.

مالك :

أَصِيخوا لِي أَصاحِبُكُمْ رَقِيقٌ؟ فَعَبْلَةُ تُبْغِضُ الرَّجُلَ العَنِيفَا

أحدهم :

سَتُلْقِيهِ إذا حُمِلتْ إلَيْهِ وَديعاً مِثْلَ نَعْجَتِها أُلُوفَا

مالك :

أَصِيخُوا لِي أَصَاحِبُكم غَنِيٌّ؟ فَعَبْلَةُ طِفْلَةٌ تَهْوَى الثَّرَاءَ

أحدهم :

سَنُسْكِنُها القُصُور كَبِنْتِ كِسْرَى ونُلْبِسُها الجَواهِرَ والفِرَاءَ[1]

آخر :

ذَكَرْنا شَيْخَ عَبْسٍ كُلَّ شَيْءٍ ولَمْ تَذْكُرْ لَنا مَهْرَ الفَتَاةِ

آخر :

فَهِيِّ سَلِ آقْتَرِحْ ما شِئْتَ هَيِّ أَأَلْفُ نَجِيبَةٍ أَمْ أَلْفُ شَاةِ؟

مالك :

عَلِمْتُمْ أَنَّنِي مُثْرٍ غَنِيٌّ فَلاَ أَبْغِي النِّعَاجَ ولا النِّيَاقَا
ولَسْتُ بِجَاعِلٍ مَهْراً لِبِنْتِي هِجانَ الإبْلِ والخَيْلَ العِتَاقَا[2]

أحدهم : ولَكِنْ ما تُرِيدُ؟

مالك :

أُرِيدُ شَيْئاً لَو ابتُلِيَ الحَدِيدُ بِهِ لَضَاقَا

أحدهم : إذَنْ فاذْكُرْهُ قُلْهُ

مالك : وما انتِفاعِي ولَوْ حَمَّلْتُ صخْراً ما أَطَاقَا

---

(١) كسرى: من ملوك الفرس، وكان معروفاً بالجاه والثراء.

(٢) الهجان: الإبل البيض الكرام. والعتاق من الخيل: النجائب.

أَصِيخُوا لِيَ آذْهبُوا قُولُوا لِصَخْرٍ يُقَدِّمْ رَأسَ عَنْتَرَةٍ صَدَاقَا

أحدهم :

نَقُولُ لَهُ انْتَزِعْ قُلَلَ الرّوَاسِي؟ نَقُولُ لَهُ آهْدِم السَّبْعَ الطِّبَاقَا؟[1]

نَقُولُ لَهُ تُطَالِبُهُ بِمَهْرٍ تَضِيقُ بِهِ القَبَائِلُ أنْ يُسَاقَا

آخر :

ولِمْ لاَ؟ ما هُنالِك مُسْتَحِيلٌ هُنَاكَ دمٌ سُئِلْنا أَنْ يُرَاقَا

أَلَيْسَ المَالُ يَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ؟ ويَرْشُو السُّمْرَ والبِيضَ الرِّقَاقَا

ولو هَبَطَ الأَباطِحَ مَالُ صَخْرٍ لَغَطَّى الشَّامَ أو غَمَرَ العِرَاقَا

إذا أَعْيَاهُ رَأْسُ العَبْدِ أغْرَى مَوَالِيَ بَيْتِهِ ورَشَا الرِّفَاقَا

مالك :

ألآنَ فَهِمْتُمُ قَدْ ضِقْتُ ذَرْعاً بِعَنْتَرَةٍ وضِقْت بِه خِنَاقَا

أُرِيدُ العَبْدَ مَيْتاً ما أُبَالِي قَضَى بالسَّيْفِ أمَ ماتَ اخْتِنَاقَا

أُرِيدُ فِرَاقَهُ وأُرِيدُ حُرّاً مِنْ الأَصْهارِ يُبْلِغُنِي الفِرَاقَا

إذا ذاقَ الهَلاَكَ لَنَا عَدُوٌّ أَنَسْأَلُ عَنْهُ أَيْنَ وكَيْفَ ذَاقَا؟

أحد الضيوف :

فِي غَدٍ نَحْرٌ وقِدْرٌ في غَدٍ دُفٌّ وزامِرْ

إنْهَضُوا بُورِكَ في الصِّهْرِ لِعَبْسٍ ولِعَامِرْ

[يهمون بالقيام]

مالك :

مَكَانَكُمْ، ياضُيُوفَ عَبْسٍ هُنَيْهَةً تَطعَمُوا المَجِيعَا[2]

---

(١) القلل: رؤوس الجبال والرواسي: الجبال الثابتة الراسخة. والسبع الطباق: السموات السبع طبقة فوق طبقة.

(٢) المجيع: ضرب من الطعام يصنع من لبن وتمر.

مَجِيعُ البِيدِ مِنْ لَبَنٍ وتَمْرٍ   ولا تَلْقَاهُ إلا عِنْدَ عَبْسِ
إذا الغِلْمانُ للأضيافِ قامُوا   فإنّي خادِمُ ضَيْفِي بِنفْسِي

[ثم يخرج ليأتيهم بالطعام]

المشهد الثالث

أحدهم للآخر:

لَقَدْ كَذَبْتَ كَثِيرا   وقُلْتَ ، والله، زُورَا
قَدْ زِدْتَ للشَّاةِ شَاةً   ولِلبَعِيرِ بَعِيرَا
وقَدْ صَنَعْتَ لِصَخْرٍ   مَخالِباً وزَئِيرَا
ورُبَّمَا طارَ صَخْرٌ   إذا رَأى عُصْفُورَا!

الآخر :

أَجَلْ كذَبْتُ وما ضَرَّ لَسْتُ أَوَّلَ كاذِبْ
وكُلُّنا قد كَذَبْنَا   لِكَيْ نَقُومَ بِوَاجِبْ
لَقَدْ خَطَبْنا لِصَخْرٍ   والكِذْبُ فَنُّ الخَوَاطِبْ!

ثالث :

ومالِكُ كَيْفَ نَسِيتُمْ كَلِمَاتٍ قالَها
مُباهِيّاً بِبِنْتِهِ   ومُظْهِراً كَمالَها
سَمِعْناهُ يَقُولُ ولا يُبَالِي   فَعَبْلَةُ تُبْغِضُ الرَّجُلَ الدَّمِيمَا
ولَمْ نَرَ قَبْلَ عَبْلَةَ في البَوَادِي   فَتَاةً عُلِّقَتْ عَبْداً زَنِيما(1)
سَمِعْناهُ يَقُولُ ولا يُبَالِي   فَعَبْلَةُ تُبْغِضُ الرَّجُلَ العَنِيفا
ولم نَرَ قَبْلَ عَبْلَةَ في البَوَادِي   فَتَاةً عُلِّقَتْ ذِئْباً مَخُوفا

[يدخل مالك حاملاً قصعة فيها طعام ومن ورائه غلمان يحملون مثلها،
توضع القصاع على الأرض، وينصرف الغلمان]

---

(1) االزنيم: الملحق بقوم.

المشهد الرابع

مالك :

المَجِيــعَ المَجِيـعَ يــا ضَيْفَ عَبْسٍ   إطعَمُــوهُ اطْعَمُــوا هَـنِيئــاً مَــرِيئــا

[يقبل الحاضرون كلهم على القصاع]

أحدهم : أَلْبَانُ عَبْسٍ تَفْضُلُ العُقَارَا

آخر : وتَمْرُهَا كَحَلَمِ العَذَارَى[1]

آخر : أَفدِيهِما مِنْ لَبَنٍ وتَمْرِ

آخر [هامساً] لا أَشْتَرِيهُمَا بِزِقٍّ خَمْرِ

مالك :

أَلاَنَ آسْـتَـعْـمِـلوا الـحَـزْمَ   فَـمَـا نَـعْـلَمُ مـا يَـطْرَا

بَـنِـي عـامِـرَ لا تُـجْـرُوا   لِـمَـا كَـانَ هُـنَـا ذِكْـرَا

أحدهم :

أَبَـا عَـبْـلَةَ لا تَـخْشَ   سَـيَبْـقَـى مـا جَـرَى سِـرّاً

آخر :

ومــا ضَــرَّ إذا نَـحْـنُ   أَذَعْـنَـا الأَمْـرَ مـا ضَـرّا؟

ولِـمْ لا نَـذْكُـرُ الخِـطْبَـةَ   أَوْ لا نُـعْـلِنُ الـبُـشْـرَى؟

إذَنْ أَنْـتَ تَـخَـافُ الـعَـبْـدَ   أَوْ تَـخْـشَـى لَـهُ شَـرًّا؟

مالك :

أَلَـيْسَ الـحَـزْمُ أنْ نَـأْخُـذَ   مِـنْ عَـنْـتَـرةَ الـحِـذْرَا؟

فَـقَـدْ يَـقْـتُـلَنِـي وَحْـدِي   وقَــدْ يَــقْـتُـلُنـا طُـرًّا

ولا يُـبْـقِـي لَـنَـا شَـاةً   عـلى الـمَـرْعَى ولاَ بَـكْـرا

---

(١) العقار: الخمر. والحلم: ما برز من رأس الثدي، واحدتها: حلمة.

أحدهم :

أَبُــو عَــبْــلَة بــالــعَــبْــدِ وَمــا يَــفْــعــلُهُ أَدْرَى
فَــسِــيــرُوا بــالَّــذِي قَــالَ ولا تَــعْــصُــوا لَــهُ أَمْــرَا

[يقومون عن الطعام ثم يحيُّون مالك ويبدأون في الانصراف فإذا انصرفوا وقف مالك بباب الخباء]

أحدهم : في ذِمَّةِ الله وفي حِفْظِه... مالِكُ

مالك : مَحرُوسِينَ باللهِ

المشهد الخامس

مالك : عَبْلَ

عبلة [من وراء الستار]: أَبِي؟

مالك : مِــنْ أيــنَ يــا عَبْلَةُ

المشهد السادس

[تدخل عبلة]

عبلة : مِن خِبائِيَا

مالك : وأَيْنَ تَمْضِينَ؟

عبلة : أُهِيبُ بِسُقَاةِ شَائِيَا

مالك :

قِـفِي آسْـمَعِي لِـي سَــاعــةً وخَــفِّــفِــي عَــنَــائِــيَــا

عبلة : قُلْ أَبِي مُرْ

مالك :

إذَنْ تَعــالَيْ أَصِــيخِي وزُهَيْــرُ أَخُــوكِ أَيْنَ زُهيْــرُ؟

عبلة : مَع عَمرٍو هُناكَ

مالك [ينادي]: يا عمْرُو

عمرو [من وراء الستار] : لَبَّيْكَ أبِي

جِيءْ تَعالَ هَيَّ زُهَيْرُ

[يدخل عمرو وزهير]

المشهد السابع

مالك :

عَبْلَ أصْغِي في أرْضِ نَجْدٍ شَبابٌ   أُطلِعُوا فِي سَمَائِهَا أقْمَارَا

مِنْهُمُ الأُسْدُ جُرأةً وثَباتاً   والقَوارِينُ نِعْمَةً وَيَسَارَا[1]

مِثْلُ صَخْرٍ

عبلة : ومَنْ بِرَبِّك صَخْرٌ؟

عمرو : عامِرِيٌّ مِن أرْفَعِ البِيدِ دَارَا

زهير :

مِن بَنِي الأَشْترِ الكَثيرِينَ مَالاً   ونَخِيلاً وَضَيعْةً وعَقَارَا

عبلة :

قد عَرَفْتُ الغُلاَمَ ذاكَ الفَتَى النِّضْوَ الّذِي لا يُطِيقُ يَقْتُلُ فَارَا[2]

كُلَّ يَوْمٍ مَعَ العَذارَى كثِيرَ العُجْب مُسْتَحْيِياً كإحْدَى العَذَارَى

أتَرَى يَا أبِي وأنْتَ أخِي يَا   عمْرُو كَيْفَ آنْتَقَيْتُمَا الأَصْهَارَا

زهير :

وأنا لا أرَى عُبَيْلَةَ خَيْراً   مِن أبِيهَا ولا أخِيها آخْتِيارَا

أنْتِ مَفْتُونةٌ بِأَسْوَدَ عَبْدٍ   مِنْ بَنِي عَمِّنا تَسَرْبَلَ قارَا

---

(١) القوارين: جمع قارون. وهو رجل من قوم موسى عليه السلام ضُرب به المثل في الجاه العريض والثراء الواسع.

(٢) النّضو: المهزول.

عبلة :

أوتَعْنِي الَّذِي حَمَى حَوْضَ عَبْسٍ | وكَسَا البِيدَ سُؤْدُداً وفَخَارَا؟
والَّذِي قَلَّدَ الوقَائِعَ والأَيّامَ عَبْسا وخَلَّدَ الأَشْعَارَا
يا زُهَيْرُ اتَّئِدْ مَتى كانَتِ الأَلْوانُ تَبْنِي وتَهْدِمُ الأَحْرَارَا؟
لم يَحُطَّ السّوادُ من أَسَدِ القَفْرِ | ولم يَرْفَعِ البَيَاضُ الحِمَارَا
أَرَأَيتَ السَّوادَ قَدْ عَبَّدَ اللَّيْلَ | كما عَبَّدَ البَيَاضُ النَّهَارَا؟

مالك : زُهَيْرُ

زهير : أبي

مالك :

أَصْغِ عَمرُو وآسْتَمِعْ | ويا عَبْلَ آنَ لَنَا أَنْ نَجِدْ

عبلة :

مَتى كُنْتُ هازِلَةً يا أَبِي؟

مالك : هَزَلْتِ آبنَتي وأَضعْتِ الرَّشَدْ

وما زِلْتِ بالعَبْدِ مَفْتُونَةً | وهَيْهاتَ بالعَبْدِ يَرْضَى أحَدْ
فَلاَ أنَا أَرْضَى ولا أَخَوَاكِ | ولا مَنَ تَدَانَى ولا مَن بَعُدْ

عبلة :

أَعَنْتَرةً يا أَبِي قَدْ عَنَيْتَ؟

مالك : أجَلْ

عبلة : وَا لِعَنْتَرَةَ المُضْطَهَدْ!

أَبِي قَد تَمكَّنَ مِنكَ الوُشَاةُ | وأَثَّرَ فِيكَ كَلامُ الحَسَدْ
أَلَيْسَ ابنَ عَمِّي؟ أَلَيْسَ الجَوادَ؟ | أَلَيْسَ الشُّجَاعَ أَلَيْسَ الأَسَدْ؟
أما هُوَ مِنِّي ومِن إخْوَتِي | نَمَانَا أَبٌ في الأَوَالِي وجَدّ؟

وَفي البِيدِ رُدَّ لآبائِهِ   ولَيْسَ إلَى الأُمَّهاتِ الوَلَدْ
أبِي عَنْتَرةٌ لَيْسَ   بِزِنْجِيٍّ ولا عَبْدِ
ولم يُجلَبْ مِنَ النُّوبِ   ولم يُحْضَرْ مِن السِّنْدِ
ولَكِنْ مِيسَمُ اللَّوْنِ   كمِثْلِ الأسَدِ الوَرْدِ
فَتًى كالأَسْمَرِ اللَّدْنِ   جَمِيلُ الشَّعَرِ الجَعْدِ
شُجَاعٌ ذَائِعُ الصِّيتِ   جَوادٌ واسِعُ الرِّفْدِ[1]

عمرو :

أبِي سُدًى تُراجِعُ المفْتُونَا   وعَبَثاً تُخاطِبُ المَجْنُونَا

زهير : فَمُرْ يَكُنْ ما شِئْتَ أن يَكُونَا

مالك :

الأَمْرُ يا عَبْلَ لكِ أُمُرِينا   فالشَّأْنُ يَعْنِيكِ وَلا يَعْنِينَا

عبلة :

ذاكَ أمرٌ، الرَّأْيُ فيه لِعَمْرٍو   وزُهَيرٍ ولَيْسَ لِي آلرأْيُ فيهِ
يا أَبِي آعقِدْ عَلى زُهيْرٍ لِصَخْرٍ   أو فَزَوِّجْه يا أبِي من أَخِيهِ

مالك [في دهش]:

أُزَوِّجُ الرِّجالَ بالرِّجالِ؟   ذاك لَعَمْرِي مُنتَهَى الخَبَالِ

زهير : إسْتَهْتَرتْ أُخْتِي فَمَا تُبَالِي

مالك : إذنْ يا عَبْلَ أُصْرَرْتِ؟

عبلة : أجَلْ ولْيَكُ ما كَانَا
فلنْ أَرْضَى سِوَى عَنْتَرَةَ آبْنِ العَمِّ إنْسَانَا

[ثم تخرج غاضبة]

---

(١) الرفد: العطاء.

المشهد الثامن

مالك : إذن فـانـتـظِري يـا عَـبْـلَ لِـلْعـبْـدِ وَلِـي شَـانَـا

[يخرج في أثر ابنته ويقبل صخر من ناحية الطريق من جهة اليسار ومعه الصرة التي كان يحملها في المنظر الأوّل]

صخر : عَمْروٌ زُهَيرٌ؟ عَجبُ الحَظِّ صَدِيقَايَ هُنَا!
يا طِيبَهَا لِقاءَةً

عمرو : لله ما أَسْعَدَنَا
أهْـلاً بِصَخْـرٍ مَـرْحبـاً بـالقَمَـر العَـالِي السَّنَـا
مـا هَـذِه الـحُـلَّةُ مَـا أظْـرَفَـهَـا مَـا أَحْسَنَـا

زهير : أَصَنْعَةُ الشَّامِ؟

صخر : ولِمْ لا تَذْكُرانِ اليَمَنَا؟
صَنْعـاءُ أعْـلَى مـن دِمَـشْـقَ سِلْعَـةً وثَـمَـنـا

عمرو :
تِلْكَ أُمُـورٌ يـا أَخِي يَعـرِفُهـا أهْـلُ الغِنَى

زهير : ومـا ذَلِك مَـا الـمِـنْـدِيـلُ يـا صَخْـرُ ومـا فِـيـهِ؟

صخر :
ثِيَـابٌ مِثْـلُ أثْـوابِـي مِنَ الـوَشْي وغَـالِيـهِ
لِكُـلٍّ مِنْـكُمَـا ثَـوْبٌ إلـيْـهِ جِئْتُ أُهْـدِيـهِ

[يفرد الصرة فيتناول كل منهما حلة]

زهير :
عَمْـرُو تـأمَّـلْ يـا لَهَـا حُلَّةً لله مـا أبْـهَى ومـا أبْـهَجَـا
الحَقُّ مـا قَـالَ فَتَى عـامِـرٍ صَنْعَـاءُ أعْلَى بَلَدٍ مَنْسِجَـا

[يرى في الصرة طرحة من حرير فيتناولها]

وتِلْك عَمْرُو؟

عمرو : طَرْحَةٌ مِثْلُ ذُنَابَى الطَّاوُسِ

كَـمِـثْـلِـهـا مـا لَـمَـسَـتْ في الـوَشْيِ كَـفُّ لامِسِ

عمرو مبتسماً: هَدِيّةٌ لِعَبْلَةٍ؟

صخر : مَجْلُوبةٌ مِنْ فَارِسِ

زهير :

خَلِّنَا صَخْـرُ مِنْ هَـدَايَـاكَ. قُـلْ لِي كَـيْفَ أَزْمَـعْتَ أنْ تُـلَاقِـي عَنْـتَـرْ؟

صخر :

غـداً على العَبْـدِ أُصُبُّ النَّحْـسَـا عبْـدَيْنِ مِـن شَـرِّ العَـبِيـدِ نَـفْسَـا

ومِنْ أَشَدِّهِمْ قِوَى وبَأْسَا

إنْ صَـارَعَـا جُلْمُـودَ صَخْـرٍ صُـرِعَـا أو قَـارَعَـا ضَيْغَـمَ غَـابٍ قُـرِعَـا

أو رَمَيَا الشَّمْسَ أَصَابَا المَطْلَعَا

غَـضْـبَـانُ وَهْـوَ الـمَـنِـيَّـهْ ومـارِدٌ وَهْـوَ حَـيَّـهْ

كِلاهُمَا جِنِّيَّهْ

هـا هُمَـا أقْبَـلَا تـأَمَّلْهُمـا يـا عَمْـرُو

[ينظرون إلى شبحين قادمين من ناحية اليمين]

عمرو : ماذَا أَقُولُ جِنِّيَانِ

ولِمنْ يا تُرَى هُمَا؟

صخر :

السَّابِقُ الأَوّلُ عَـبْـدِي وقَـدْ شَـرِيـتُ الـثَّـانِـي

[يدخل العبدان غضبان ومارد]

---

(١) التامور: القلب.

المشهد العاشر

تَـعَـالَ غَـضْـبَـانُ قُـلْ لِـصَـخْـرٍ كَـمْ أَسَـدٍ صِـدْتَ؟

غضبان : نَحْوَ أَلْفِ

عمرو :

أَلْـفٌ؟ أَفِـي الـبـيـدِ أَلْـفُ لَـيْـثِ لَـوْ قُـلْتَ لـيْـثـيْـنِ كـانَ يَـكْـفِـي!

زهير : وكَمْ ذِئباً قَتَلْتَ؟

غضبان : آثْنَيْنِ!

عمرو : ماذَا؟

غضبان : قَتَلْتُ عِدَادَ ناصِيَتِي ذِئَابَا!

زهير :

وكُـنْـتَ إذا بَـعـثْـتَ لَـهَـا سِـهَـامـاً وجِئْتَ تَجُسُّهـا وُجِـدَتْ كِـلاَبَـا!
وأَنْـتَ يـا مَـارِدُ قُـلْ لِـي كَـيْـفَ صَـيْـدُكَ الأَسَـدْ؟

مارد :

أَصِـيْـدُه إذا أَتَـى لِـبَـطْـنِ وادٍ فَـرَقَـدْ
وكُـنْـتُ فَـوْقَ نَـخْـلَـةٍ يَـزِلُّ عَـنْهـا مَـنْ صَعِـدْ
والقَـوْسُ في حِضْنِي كَمَـا تَـحْـتَـضِـنُ الأُمُّ الـوَلَـدْ
وكَـانَـتِ الـسِّـهَـامُ فِـي كِـنَـانَـتِـي بِـلا عَـدَدْ
هُـنَـاكَ أَرْمِـي فَـأَسُـلُّ الرُّوحَ من أَصْلِ الجَسَدْ
فِـي حَـائِطِ الـتَّـامُـورِ إنْ شِئْـتُ وفي رُكْـنِ الكَبِدْ[1]

عمرو : غَضْبَانُ

غضبان : لَبَّيْكَ

عمرو : أَجِبْنِي

غضبان : سَلْ مُرِ

عمرو : كَيْفَ لِقَا عنْتَرَةَ الغَضَنْفَرِ؟

غضبان : وجْهاً لِوَجْهٍ؟

زهير : لِمَ لاَ؟

غضبان : لا أَجْتَرِي

زهير : كَيْفَ تَبِيعُهُ إذَنْ وتَشْتَرِي؟

غضبان :

أقْــذِفُــهُ مِــن فَــرْسَــخٍ بِخِـنْـجَـرِ   أتْــرُكُــهُ كَــالـتَّـيْـتَــلِ الـمُـعَـفَّــرِ

صخر : وأَنْتَ يا مَارِدُ لَسْتَ تَجْهَلُهْ

مارد : مَنْ يَجهلُ اللَّيْثَ؟

صخر : فكَيْفَ تَقْتُلُهْ؟

مارد : آتِي لِرَأْسِ جَبَلٍ فأَنْزِلُهُ وثَمَّ

صخر : مَاذَا؟

مارد : لِيَ سَهْمٌ أُرْسِلُهْ

يُــودِّعُ الحَيَــاةَ مَنْ يَسْتَقْبِلُهْ

[يتهامس الثلاثة لحظة ثم يتجه عمرو وصخر ناحية اليمين لينصرفا]

عمرو :

الــخَـيْــرُ فــي الـعَـبْـدَيْـنِ   سِيــرَا آمْـضِـيَــا راشِــدَيْـنِ

[يخرج عمرو وصخر وينصرف العبدان من ناحية اليسار وتسمع ضجة تتعالى شيئاً فشيئاً، وصياح وعويل، فتظهر عبلة من الباب الذي في الصدر، فزعة مضطربة]

المشهد الحادي عشر

أصوات من الخارج: وَا وَلَدَا! وَا كِبِدَا! وَاأَسَدَا!

عبلة :

زُهَيْرُ مَا الضَّجَّهْ؟ مَا هَذِهِ الرَّجَّهْ؟

زهير :

أَحْسَبُهَا قَافِلَةً مُدْبِرَةً مُنْهَزِمَهْ
تَعَرَّضَتْ لِفَاتِكٍ فَرَدَّهَا مُحَطَّمَهْ

[يسمع صوت مناد ينادي]

الصوت :

يَا مَعْشَرَ البِيدِ آسمَعُوا بُشْرَى لَكُمْ أَهْلَ الخِيَمْ
بَظَهْرِ عَبْسٍ وَوَرَاءَ الحَيِّ إِبْلٌ وغَنَمْ

أَلْفَانِ أو مَا نَحْوُ ذَا كَ مِنْ كَرائِمِ النَّعَمْ
كَانَتْ إلى كِسْرَى تُسَاقُ وإِلَى أَرْضِ العَجَمْ

[يسمع صوت مناد آخر من ناحية أخرى]

الصوت :

وَرَاءَ الحَيِّ يَا عَبْسُ مِنَ الأَنعَامِ أَلْفَانِ
جَنَى عَنْتَرَةَ الفَلْحَا ءِ مِن أَسْلَابِ سِرْحَانِ[1]
وكَانَتْ في الفَلَا تُزْجَى إلى كِسْرَى بْنِ سَاسَانِ
ألا فَلْيَعْلَمِ القَاصِي مِنَ الخَيْمَاتِ والدَّانِي
بأنَّ اللَّيْثَ قد جَادَ عَلَى الحَيِّ بِقُطْعَانِ

---

(١) جني: أي ما جناه وظفر به. والفلحاء، يريد الأفلح أي اشتر الشفة السفلى، وأنَّث الصفة لتأنيث الاسم.

زهير : مَنِ اللّيْثُ؟

عبلة :

لَــحَــاكَ الله هَــلْ فــي الــبِــيــدِ لَــيْــثَــانِ؟

[يمرّ على الطريق رجال ونساء هم فلول القافلة المسلوبة في هيئة ذعر واضطراب داخلين من اليمين]

المشهد الثاني عشر

أحدهم : وذِرَاعِي وأينَ مِنِّي ذِرَاعِي؟

آخر : أيْنَ ساقِي قد طَيَّرَ السَّيْفُ سَاقِي؟

امرأة : نَعْلِي. تركْتُ في القِتَالِ نَعْلِي

أخرى : أمَا أنَا فقد فَقَدْتُ بَعْلِي

آخر : وَافَرَسِي ما حالَ بيْنَهُ وَبيْنَ صاحِبِهْ!
أيُّ جَـبَـانٍ حَـطَّنِـي عَـنْ سَـرْجِـهِ وطَـارَ بِـهْ!

عجوز [باكية]:

لَـهْفِـي عَلَى فَـوَارِسٍ مِـنْ قَـوْمِي نَـامُـوا على الـعَـرَاءِ شَـرَّ نَـوْمِ
يا لَيْتَنِي لم يَتَأَخَّرْ يَوْمي

عبلة :

تِـلْكَ الـعَـجُـوزُ ثَـاكِـلَهْ تَـبْكِـي ٱبْنَـهـا في الـقَـافِـلَهْ
يَـا أُمُّ مَـاذا دَهَـاكِ أوْجَـعَ قَـلْبِـي بُـكَـاكِ؟

العجوز :

عِشْـرُونَ من بَـوَاسِـلِ الفُـرْسَـانِ تَـحْـتَ لِـوَاءِ ولَـدِي سِـرْحَـانِ

عبلة :

سِرْحَانُ لَيْثُ الضَّرْبِ والطِّعَانِ؟

العجوز : أَجَلْ تَرَكْتُهمْ عَلَى المَكانِ
وليمَةَ الحِدَاءِ والغِرْبَانِ

عبلة :
إذنْ سِـرْحَـانُ في القَـتْلَى لَـكِ الـرَّحْمنُ مِـنْ ثَـكْلَى
مَن المُغِيرُ

العجوز : عُصْبَةٌ

عبلة : مَن الزَّعيمُ؟

العجوز : عَنتَرهْ

عبلة : عَـنـتَـرةٌ يـفْـعَـلُ أفْـعَـالَ الـلُّصُـوصِ الـفَـجَـرَهْ؟

العجوز :
لا يـا آبْـنَـتِـي ظَـلَـمْـتِـهِ عَـنْـتَـرَةٌ لَـمْ يَـبْـتَـدِي
عَـنْـتَـرةٌ كـالـلَّـيْـثِ عِـنْـدَ شَـبْـعِـهِ لا يَـعْـتَـدِي

عبلة : مَـنْ بَـعَـثَ الـحَـرْبَ إذنْ ومَـنْ جَـنَـاهَـا؟

العجوز : وَلَدِي
ثَكِلْتُ علـى الـدَّرْبِ خَيْـرَ البَنِينَ وفَـاجَـأَنَـا في الـطَّرِيقِ الهُبُـلْ[1]
وكُـنَّـا ثَـلاثِـيـنَ غَـيْـرَ الـرُّعَـاةِ
مِـنَ آمْـرَأةٍ مَـعَـنـا أَوْ رَجُـلْ
وكـان الـسَّـوَامُ كَـثِـيـراً يَـضِـيـقُ
بِـهِ الـسَّـهْـلُ أو يَـتَـغَـطَّى الـجَـبَـلْ
وكُـنَّـا نُيَـمِّمُ أرْضَ الـعِـرَاقِ لِنَجْتازَها

عبلة : نَحوَ كِسْرَى؟

(١) الهبل: بضم فسكون، وحرّك ثانية للاتباع: اللاتي ثكلن أولادهن.

العجوز : أجَلْ

عبلة [غاضبة]:

لِتُعطُوا رِشىً وتَنَالُوا مُنًى ... ويُمنَحَ سِرحَانُ بعْضَ العَمَلْ
ويحْكُمَ في البِيدِ بإسْمِ الهُمَامِ ... وتَحْتَ ظُبى فارسٍ والأَسَلْ
ذَليلٌ بِبَابِ أنُو شِرَوَانَ ... وعِنْدَ الخِيَامِ العَزيزَ البَطَلْ
إلَى كَم تَهِيمُونَ تَحْتَ النُّجُومِ ... وتَفْتَرِقُون آفْتِرَاقَ السُّبُلْ؟
فَنِصْفُ قِطَاعٌ رَعتْها الذِّئَابُ ... ونِصْفُ على البِيدِ فَوْضَى هَمَلْ؟
وَلَيْسَ لَكُم دُولَةٌ في الوُجُودِ ... وتَسْحَبُكُمْ كالذُّيُولِ الدُّوَلْ
ألَمَّ على حَوْضِكم قَيْصَرٌ ... وكِسْرَى على جانِبَيْهِ نَزَلْ
ويحكُمُكُم تَحْتَ نِيرِ الغَرِيبِ ... ومِهْمَازِهِ الأدْعيَاءُ الدَّخَلْ
هُمُ الأُمَرَاءُ وقَدْ يَرتَدُونَ ... بِبَابِ الأَعَاجِمِ ذُلَّ النُّدُلْ[1]

أحدهم : سَمِعْتَ!

آخر : ما ذاكَ؟

الأوّل : سَمِعْتَ النَّاعِيَهْ؟
فَهِمْتَ!

الثاني : فارِقْنِي تَزَحْزحْ ناحِيَهْ

الأول [لعبلة]:

يَا لَكِ مِنْ مُكَابِرَهْ ... تَطعَنُ في الأَكَاسِرَهْ
وتَلْعَنُ المَنَاذِرَهْ![2]

الآخر :

عَبْلَةُ تَنْطِقُ الذَّهَبْ ... لو كُنْتَ تَعْقِلُ الخُطَبْ

---

(١) الندل: من يقومون على خدمة القوم في الطعام والشراب الواحد، نادل.
(٢) الأكاسرة: ملوك فارس. والمناذرة: ملوك الحيرة.

الأول : وما الّذي تَرْمِي لهُ؟

عبلة : أَرْمِي لتَحْرِيرِ العَرَبْ

الأول : تَحْرِيرُهُمْ؟ مِمَّ؟

عبلة : مِن القَيْدِ

الأول : وكَيْفَ قُيِّدُوا؟

عبلة : الفُرْسُ والرُّومُ اسْتَرقُّوا قَوْمَنَا وآستَعْبَدُوا

الثاني [لأخيه]: مَالي إذنْ؟

الأول : ماذَا؟

الثاني : لا قَيْدَ في رِجْلِي
وأنْتَ والنَّاسُ جَمِيعُكُمْ مِثْلِي!

عبلة :
ألاَ بَطَلٌ نلْتَقِي حَوْلَهُ كإسْرالَ حَوْلَ لِواءِ الرُّسُلْ؟[1]
يَفُكُّ مِنَ الرِّق أعْنَاقَنَا كَما فَكَّ مُوسَى رِقَابَ الأُوَلْ

الأول : وَجدْناهُ؟

صوت :
مَنْ ذاكَ مَنْ يا تُرَى يَكُونُ؟ تَكلَّمْ لكَ الوَيْلُ قُلْ

عبلة : أَتنْسَوْنَ عنْتَرةَ العَبْقَرِيَّ؟

صوت : أيحكُمُنا العَبْدُ هَذا خَبَلْ!
لَبِئْسَ أَمِيرُ الرِّجَالِ الغُرَابُ وبِئْسَ الدَّلِيلُ إذا ما حَجَلْ

الأول : أتجحَدُ عَنترةً؟

---

(١) كإسرال: بنو إسرائيل.

آخر :

خَلِّهِ فما جَدَّ في قَوْلِهِ بَلْ هَزَلْ

عبلة :

مـا بـالُـكُـمْ جَـبُـنْـتُـمُ يـا عَـبْسُ، قَـوْمـاً ونِسَـا؟
حَـتّـى رَمَـى هَـذا الـفَـتَـى عَـنْـتَـرةً بِـمَـا رَمَـى
أَلَـيْسَ فِـي أرجُـلِكُـمْ نَعْـلٌ وفي الأيْـدِي عَصَـا؟

[يهجمون على من سبَّ عنترة ويضربونه]

الأول : مـا لَـكَ يـا فَـتًى بَـلَغْتَ فـي الـوَقَـاحَـةِ الـمَـدَى

آخر : مـاذَا الّـذي غَـرَّكَ يـا كَـلْبُ بِـضِـرْغَـامِ الـشَّـرَى؟

المضـروب :

وأَنْـتَ مـا يَعْـنِيـكَ مـن عَنْـتَـرةٍ؟ ومـا الَّـذي يَعْنِيـكَ مِنْ شأْنِي أنَـا؟

عبلة :

صَـدَقْتَ مـا كُنْـتَ لِتَـعْنِـي أَحَـداً لَوْ لَمْ تَخُضْ في الفَرْقدِ العَالي السَّنَا
أمَّـا آبنُ شـدّادٍ فـذُخْـرُ قَـوْمِـه يَـهُـمُّ مَـنْ رَاحَ ويَـعْـنِـي مَـنْ غَـدَا

[يسمع صوت عنترة من وراء الستار قادماً من ناحية الستار]

عنترة :

يـا بِـيـدُ هـا أنـا ذا أَنـا حـامِي حِمـاكِ ورَبُّ غـابِـكْ
إنْ كُنْتِ جـاهِلَتِي آخْـرُجِي بِجَميـع ظُفْـرِكِ لِي ونَـابِـكْ
هـاتِـي أُسُـودَكِ كُـلَّهـا هـاتِي الكَـوَاسِـرَ من ذِئـابِـكْ

أحدهم : يا رِجَالُ الفِرَارَ قَدْ طَـلـعَ اللَّيْـثُ عَلَيْنا هَيُّوا الفِرَارَ الفِرَارَا

[يفرُّون جميعاً من ناحية اليمين وتبقى عبلة وحدها]

المشهد الثالث عشر

عنترة [من وراء الستار]:

أيا عَبْلَ

عبلة :

مَــنِ الــطَّارِقُ مَنْ بـالخَيْمَةِ آسْتـذْرَى؟[1]

مَن الهاتِفُ مَنْ؟

[يدخل عنترة]

المشهد الرابع عشر

عنترة : عَنْتَرَةُ العَبْسِيُّ

عبلة : يا بُشْرَى!

عنترة :

تـعَــالْي ظَـبْيَـةَ الـقَــاعِ أَجِيــرِي أَسَــدَ الـصَّــحْــرَا

ستــار

---

(١) استذرى: استكف واستتر.

الفصل الثالث

المنظر الأول

«المنظر في وادي الصفا على مقربة من حي بني عامر على سبيل مطروق. عيون ونخيل وأشجار، عقلت عبلة بعيرها تحت شجرة منها، على بعد قليل. أناس يغدون ويروحون على الطريق»

المشهد الأول

عبلة :

قُلْ لي بِرَبِّكَ مَنْ تُحِبُّ ومَنْ تُحِبُّكَ يا بَعِيرْ

أيُّ النِّيَاقِ فإنَّهُنْ عَلَى مَرَاعِينَا كَثِيرْ

وهَلِ اكْتَفَيْتَ بِنَاقَةٍ أَمْ أنْتَ كالعَبْسِيِّ زِيرْ؟[1]

تَلْهُو بِمَا دفَعَ الرَّوَاحُ إلَيْكَ أو سَاقَ البُكُورْ

مُتَنقِّلاً بينَ البُيُوتِ عَلَى عَقَائِلِهَا يَدُورْ[2]

ما حَقُّ عَنْتَرِ عِنْدَنَا إلَّا التَّجَنُّبُ والنُّفُورْ

ما لِي تَمَلَّكَ مُهْجَتِي عَبْدٌ عَلَى عَبْسٍ أمِيرْ!

---

(١) الزير: الذي يكثر زيارة النساء ويحب مجالستهن ومحادثتهن.

(٢) العقائل: السيدات المنحدرات؛ الواحدة: عقيلة.

لَوْ يَجْمَعُ العَرَبَ السَّرِيرُ لَجَاءَهُ يَسْعَى السَّرِيرْ
كَاللَّيلِ إلَّا أنَّهُ في عَيْنِي القَمَرُ المُنِيرْ
حَسَدَتْنِي الدُّنْيَا عَلَيْهِ وكُلُّ مَحْسُودٍ خَطِيرْ

[تتسلى عبلة بإطعام بعيرها بينما يمرّ
في الطريق ثلاثة فتيان، فيلمحون عبلة]

المشهد الثاني

قراد :

بُجَيْرُ ماذَا ضَرَّ لَوْ أنَّا أتَيْنَا الشَّجَرهْ
هَلُمَّ نَلْهُو ساعَةً بِالغَادَةِ المُنْتَظِرَهْ

بجير :

أأنَا مَجْنُونٌ أنَا ألْهُو بِرِيمْ القَسْوَرَهْ؟[1]
لا يَا أخِي لا أجْتَرِي عَلَى لَبَاةِ عَنْتَرَهْ

الثالث :

صَهٍ صَهٍ بُجَيْرُ حَسْبُ يا قُرَادُ ثَرْثَرهْ
دَعَا الفُضُولَ وابْعَثَا تَحِيَّةً مُعَطَّرَهْ
ما تِلْكَ إلَّا عَبْلَةٌ ما عَبْلَةٌ بِنَكِرَهْ

[ينصرفون من الجانب الآخر ويسمع صوت عنترة من وراء الستار]

المشهد الثالث

عنترة : يا عَبْلَ . . .

عبلة [لنفسها]: مَنْ ذَا يُنَادِي عَبْلَ؟ عَنْتَرةٌ؟

عنترة : يا عَبْلَ . . .

---

(١) ريم: أي رئم بالهمز. وهو الظبي الخالص البياض. والقَسْوَرَة: الأسد.

عبلة [لنفسها]:

هذا هُو الحُبُّ هذا آسْمِي عَلَى فَمِهِ — تِلْكَ لَعَمْرِي نَبْرَةُ الأَسَدِ
يُــرَدِّدُ آسْمِيَ في البَيْــداءِ مُنْفَــرِداً — يَـأْتِي من القَلْبِ أو يَـأْتِي من الكَبِـدِ
وَرُبَّمــا نَسِيَ آسْمِـي غَيْـرَ مُنْفَـرِدِ

عنترة :

يــا عَبْــلَ أَيْن جَبِينٌ لَسْتُ ســالِيَــهُ — طَلْقُ البَشَـاشَةِ حُلْوٌ كـالصَّبَاحِ نَـدِي
وأَيْنَ يــا عَبْـلَ فَـرْعٌ كـانَ فـاغِيَتي — وكــان لَهْـوِي إذا ضَفَّــرتُـهُ ودَدِي[1]
ولِي يَــدٌ خَشْنَــةُ الأَظْفَــارِ أَنقُلُهَــا — مِنَ الغَــدَائـرِ أحْيَــانــاً إلى اللِّبَــدِ[2]
تَعِيثُ مِن شَعَـرِ الغادَاتِ في خَمَـلٍ — حِينــاً ومِن شَعَـرِ اللَّبوَاتِ في زَرَدِ[3]

[يقبل عنترة وفي أثره داحس فيختفي داحس وراء الشجر بعيداً عن المسرح]

المشهد الرابع

عنترة : مَنْ أَرَى؟ عَبْلَةٌ؟

عبلة : مَنْ؟ عَنْتَرةٌ؟

عنترة : مُهْجَتِي عَبْلَةُ ماذا تَصْنَعِينْ؟

عبلة :

خَــرَجْــتُ لِــلنُّــزْهَــهْ — عَــلَى الــصَّـفَــا وَحْــدِي
أَقْــضِــي هُــنَــا بُــرْهَــهْ — أَبُــثُّ مــا عِــنْــدِي
خَــمِــيــلَةَ الــبــانِ — وَرَوْضَــةَ الــرَّنْــدِ[4]

عنترة [مشيراً إلى البعير]:

وذَاكَ يا نُورَ عَبْسٍ؟

---

(١) الفرع: الشعر التام. والفاغية: الرائحة الطيبة، والدَدِ: اللهو واللعب.
(٢) اللبد: جمع لبدة، وهو الشعر المتراكب بين كتفي الأسد.
(٣) خمل: بفتح فسكون، وحرّك ثانية اتباعاً: هدب القطيفة. والزرد: حلق القفر والدرع
(٤) الخميلة: الشجر المجتمع الكثير. والبان والرند: ضربان من الشجر.

عبلة : هَذا بَعِيري صَباحُ

رَبِّـي مَـعِـي وبَـعِـيـرِي تَـحْـتِـي وَهَـذَا الـسِّـلَاحُ

[وتريه سلاحها على هودج البعير]

عنترة :

أَمِثْلُكِ عَبْـلَ تخشى بـأَس شَيْءٍ وتَتَّخِـذُ الـكَـنَـائِـنَ والـرِّمَـاحَـا

لَقَدْ قُرِنَ آسْمُـكِ المَحْبُوبُ بـآسْمِي أمَـا يَكْفِي آسْمُ عَـنْـتَـرَةٍ سِـلَاحَـا

عبلة : مِنْ أَيْنَ يا آبْنَ العَمّ؟

عنترة : مِنْ عَالَمِ البِيدِ

عبلة :

كَـمْ مِـنْ فَـتَـاةٍ كَـمْ مـاذا مِـنَ الـغِـيـدِ؟

يَـقُـولُـونَ عَنْـتَـرةٌ لم يَـقِفْ بِحَيٍّ مِن البِيـدِ إلَّا خَـطَبْ

فَقَـالَ لِهَـاتِيـكَ مـا تَشتَهِي وغَـازَلَ تِلْكَ وأُخْـرَى أَحَبّ

خَـلَائِلُه صِـرْنَ مِثْـلَ الحَصَى

عنترة : وأَنْتِ أَصَدَّقْتِ هذا الكَذِبْ

أَحَـادِيثُ لَفَّـقَهـا حُـسَّـدِي وقد يَخْلُقُ الحَاسِدُونَ الرِّيَبْ

عبلة : وأُختُ سَعْدٍ؟

عنترة : مَا لهَا؟

عبلة : ألم تَقُدْ بَعِيرَها؟

ومـا نَسِيـتَ في ظَـلا مِ اللَّيْـلِ أَنْ تَـزُورَهَـا

[يسمع حفيف في أوراق الشجر
ووطء أقدام فيقبل داحس مذعوراً]

المشهد الخامس

داحس : سَيِّدي، سيِّدي خُذِ الحَذْرَ

عنترة : ماذَا داحِ ؟[1]

داحس : أحسَسْتُ أرْجلاً ودَبِيبا

عنترة : لا تَخفْ داحِ

داحس :

بَـلْ أَخَـافُ وأخـشى خَـطَراً مـاثِـلاً وشَـرّاً قَـرِيبَا

[يعود داحس من حيث أتى]

المشهد السادس

عبلة : وعاتِكَةُ؟

عنترة : كَيْفَ صُنْعِي بِهَا؟

عبلة : بَعثْتَ إليها بجِلْدِ النَّمِـرْ

عنترة : وكيْفَ وأَينَ؟

عبلة :

لَـقَـدْ كـانَ ذاكَ فَـلاَ تَتَنَصَّـلْ ولا تَـعْـتَـذِرْ
وهِـنْـدُ بِـنْـتُ عَـامِـرٍ أَلَـمْ تَجِئْـهـا في الـخِـبَـا؟
وآبْـنَـةُ بِـسْـطَامِ أَلَـمْ تَـنْـثُـرْ عـلَيْهَـا الـذَّهَـبَـا؟
وَابـنَـةُ شَـيْـبـانَ أَلَـمْ تَـطِرْ بِـهَـا مُـشـبِّـبَـا؟

عنترة :

قَـدْ زَوَّرُوا وآخْـتَـلَقُـوا وحَـدَّثُـوكِ الـكَـذِبَـا

---

(١) داح: أي داحس، فرخَّم.

رُحْماكِ يا عَبْلَ

عبلة : دَعْني وآمض ِ آشْتَغِلْ بالخَلائِلْ[1]

عنترة : مَنْ قالَ ذاكَ؟

عبلة : كَثِيرٌ هَذا حَدِيثُ القَبائِلْ

عنترة :

لا وَعَيْنَيْكِ وأَعْظِمْ بالقَسَمْ وفَم ٍ عَنْ غُرَّةِ الصُّبْح ِ آبتَسَمْ
لم أنَمْ يا عَبْلَ عَنْ عَهْدِ الهَوَى مَن رَعَى أمْراً عَظِيماً لم يَنَمْ
أذْكُري يا عَبْلَ أَيَّامَ الصِّبَا حِينَ أَسْقِي بَيْنَ عَينَيْكِ الغَنَمْ
وشُوَيْهَاتُكِ حَوْلِي أُنُسٌ يَغترِفْنَ الماءَ مِن رَاحِي السُّحُمْ[2]
إنْ حَضَرْتُ الماءَ حامتْ وآرْتَوَتْ أو تَوَلَّى المَاءَ غَيْري لَمْ تَحُمْ
أذْكُرِي إذ أَنْتِ طِفْلٌ حُلْوَةٌ قد كَسَاكِ الحُسْنُ فَرْعاً لِقَدَمْ
إذْ تَجِيئينَ بِصِبْيانِ الحِمَى وصَبَايَا الحَيِّ في ظِلِّ الخِيَمْ
فتَقُصِّينَ عَلَيهِمْ خبَرِي مع ذِئْبِ القَفْرِ أو لَيْثِ الأجَمْ
أنَا يا عَبْلَةُ عَبْدٌ في الهَوَى وأنَا يا عَبْلَ في القُرْبَى آبنُ عَمْ
أطلُبي الإيوانَ أحْمِلْهُ عَلَى رَاحَتَيْ كِسْرَى وهَامَاتِ العَجَمْ
أو سَلِينِي الهَرَمَ المَشْهُورَ يا عَبْلَ أَجْلِبْ لكِ من مِصْرَ الهَرَمْ
أو سَلِيني البِيدَ مَهْراً أو سَلِي ما وَرَاءَ البِيدِ من حُمْرِ النَّعَمْ
أو تَعَالَيْ فخُذِي أشْرَفَ ما قَلَّدَ الإنْسانُ سَيْفِي والقَلَمْ
رُبَّ خَيْل ٍ قُدْتُ حتَّى قادَنِي وحَوَى رِقِّي بَنَانٌ كالعَنَمْ
ولُيُوثٍ صِدْتُ حَتَّى صادَنِي رَشَأُ القَاع ِ ورُعْبُوبُ الأكَمْ[3]
قَدْ رَعَيْتُ النَّجْمَ حَتَّى مَلَّنِي وتَعَهَّدتُ الدُّجَى حَتَّى سَئِمْ

---

(١) الخلائل: المشرقات.
(٢) شويهاتي: شياهي. وأنس: آنسات. والراح: جمع راحة. والسحم: السواد.
(٣) الرشأ: ولد الظبية إذا قوى وتحرك. والرعبوب: الغضّة الطويلة الممتلئة الجسم.

أَشْتَهِي طَيْفَكِ في حُلْمِ الكَرَى ... فَيَقُولُ اللَّيْلُ لِي أَيْنَ الحُلُمْ؟

[في هذه الأثناء يظهر مارد وغضبان من وراء الشجر وفي غير الناحية التي اختفى فيها داحس، فيسدّد أحدهما سهمه إلى ظهر عنترة، فتراه عبلة وتضطرب فيصيح عنترة بالرجل دون أن يلتفت إليه]

المشهد السابع

عنترة [ضاحكاً]:

حَذَارِ يا وغْدُ حَذَارِ يا لُكَعْ ... اللَّيْثُ لاَ يَقْتُلُهُ الكَلْبُ، فَدَعْ

[يقع القوس من الرعب من يد مارد ثم يخرّ هو نفسه إلى الأرض ميتاً ويفرّ غضبان]

قَدْ وَقَعَتْ مِنْ يَدِهِ وقَدْ وَقَعْ

المشهد الثامن

قَد كَانَ لا بُدَّ أَنْ أَرَاهُ ... لِلَّيثِ عَيْنَانِ في قَفَاهُ

سِيري آنْظُري ماتَ ورَبِّ الكَعبَهْ ... زَمْجَرَةُ اللَّيْثِ الهَصُورِ صَعْبَهُ

بَلِ آسْمَعِي، عَبْلَ آسْمَعِي، كَلاَمِي ... لَوْلاَكِ لَمْ أَنجُ من الحِمَامِ

قَدْ كُنْتِ أنتِ صَنَمِي قُدَّامِي ... لَكِ اتّجاهِي وبِكِ آهتِمَامِي

رَأَيتُ في عَينيْكِ قَوْسَ الرَّامِي ... ويَدَهُ في جَعْبَةِ السِّهَامِ

عبلة : ومَا رأَيْتَ؟

عنترة :

رَأَيْتُ العَيْنَ حائِرَةً ... والوَجْهَ لَوَّنَهُ الإِشْفاقُ أَلْوانَا

وقَفَّ شَعْرُكِ وآنْسَابَتْ غَدائُرُهُ ... كما أَثَرْتِ وَرَاءَ اللَّيلِ ثُعْبَانَا[1]

وقام صَدْرُكِ كالمِنْفَاخِ مُجتَهِداً ... لا يُفرِغُ الرِّيحَ إلا آرْتَدَّ مَلآنَا

فَقُلْتُ شَرٌّ وَرائِي لَسْتُ أُبْصِرُهُ ... في عِطْفِ عَبْلَةَ لما رُوِّعتْ بَانَا

---

(١) قف الشعر: قام من الفزع.

ولاَحَ لي الحُبُّ في عَيْنَيْك مُرتَسِمـاً لم تَستَطِيعي لَـهُ يـا عَبْـلَ كِتْمـانَـا

عبلة : الحُبُّ! كَيْفَ عَرَفْتَ الحُبّ؟

عنترة : مِنْكِ ومِنْ عينيكِ

عبلة : قد تَكْذِبُ العَينانِ أحْيانَا

عنترة :

لا عَبـلَ لا إنَّ عيْنَ الحُبِّ صـادِقَـةٌ وما تَعَـوّدْتُ مِنْ عَيْنَيـكِ بُهتْـانـا

عبلة :

أجَـلْ ولَكِنْ قـدِيمـاً كـانَ ذاك أجَـلْ هـذا السَّـوَادُ لِعَيْنِي كـانَ إنْسَـانَـا

عنترة : واليَوْمَ؟

عبلة :

ما لَـكَ في قَلْبِي الجَـرِيـحِ هَـوىً اليَوْمَ، عَنْتَر، مَنْ أحبَبْتُ قـد خـانَـا

عنترة :

دَعِي الوَسَاوِسَ والأَوْهَـام عَنْكِ دَعِي يـا عَبْلَ جُـرِّي علَى ما قِيـلَ نِسْيـانَـا

[يسمع وطء أقدام]

عبلة : عَـنْـتَـرَ تِـلْكَ ضَـجّـةٌ فَـلْنَـتَـوارَ نـاحِـيَـهْ
لا يَـجِـدُ الـواشِي إلـيْـنـا سُـبُـلاً والـواشِـيَـهْ

[يختفيان وراء الشجر ويقبـل من ناحيـة أخرى مـالك وضـرغام وزهير كأنهم مارُّون بالطريق. ويتشاغل زهير بالشرب من ماء عين أو بشيء من مثل هذا]

المشهد التاسع

ضرغام : سَيِّدَ الحَيِّ

مالك :

أَلْـفُ لَـبَّـيْـكَ ضِـرْغَـامُ تَـكَـلَّمْ أَثَمَّ شَـيْءٌ تَـقُـولُ؟

ضرغام :
سَيِّـدَ الحَيِّ عُبْلَةُ آختـارَهَـا القَلْبُ   فَـهَـلْ لِي إلـى الـزَّواجِ سَبِـيـلُ؟

مالك : والمَهْرُ يا ضِرْغامُ

ضرغام : مَهْرُ عَبْلَةَ؟ آقْتَرِحْ تَرهْ
قَـدِّرْهُ أو خَـلِّ إلـى   عَـبْـلَةَ أنْ تُـقَـدِّرَهْ
وغـالِـيَـا مـا شِئْتُـمَـا   فِـيـهِ وظُـنَّـا الـمَـقْـدِرَهْ

مالك :
المَـهرُ يـا ضِـرغـامُ غـالٍ   فـاجـتـهِـدْ أن تَـحـذَرَهْ

ضرغام :
سَـلْ تَاجَ كِسْرَى وآقْتَـرِحْ   عِـمَـامَـةَ الـمَـنَـاذِرَهْ
سَـلْ سُبْحَـةَ القَيْصَـرِ أوْ   فـاطْلُبْ صَلِيبَ القَيْصَـرَهْ

مالك : المَهْرُ فَوْقَ ذَاكَ

ضرغام :
قُلْهُ   لا تَـخَـفْ أن تَـذْكُـرَهُ

مالك :
إسْـمَـعْ إذَنْ أَصِـخْ لَـهُ   الـمَـهْـرُ رَأْسُ عَـنْـتَـرَهْ

ضرغام [لنفسه]:
له الوَيْلُ ماذا قَالَ؟

مالك : قَد وَجَمَ الفَتَى

ضرغام : أبا عَبْلَةَ آذْكُرْ هَوْلَ ما أَنْتَ سائِلُ

مالك : جَبُنْتَ!

ضرغام : مَعاذَ الله ما الجُبْنُ في دَمِي

مالك : فَلِمْ ضِقْتَ ذَرْعا؟

ضرغام : مَهْرُ عَبْلَةَ هائِلُ

أأمشِي إلى الفَلْحاءِ أَخْطِفُ رَأْسَهُ فِداءُ الَّذي أَمْشِي إلَيْهِ القَبائلُ[1]
كَرِيمٌ لَعَمْري والكِرامُ قد آنْقَضَوْا شُجَاعٌ وشُجْعانُ الرِّجالِ قَلائِلُ
إذا قال بَزَّ القائِلينَ رَنينُهُ وما بَزَّهُ في أَيْكَةِ البِيدِ قائلُ
هَزارُ البَوادِي طَارَحتُه بِشَجْوِها رُباها وغَنّت في صَداهُ الخَمائِلُ
وما بيْنَنا ثارٌ ولا بَيْنَ أَهْلِهِ وأَهْلِي عَداوَاتٌ خَلَتْ وطَوائِلُ[2]

مالك : وعَبْلَةُ يا ضِرْغامُ؟

ضرغام : ما شَأنُ عَبْلَةٍ؟

مالك : أَلَيْسَ فِدَاها في الحِجازِ العَقَائِلُ؟

ضرغام :

أَجَلْ وفِداها الشَّمْسُ ما التفَتِ الضُّحى عَلَيْهَا وما رَفَّتْ عليها الأَصَائِلُ

مالك : أأَنتَ تَخافُ العَبْدَ؟

ضرغام :

لِمَ لا أخافُهُ تُخافُ وتُرْجَى في الرِّجَالِ الفَضَائِلُ
وإنْ آبنَ شَدَّادٍ وإنْ ذاعَ بأْسُهُ فتىً مِلْءُ بُرديْهِ عَفافٌ ونائِلُ
مِن العُصْبَةِ المَسْطُورِ في البَيْتِ شِعْرُهُمْ قَصَائِدُهُمْ أَسْتَارُهُ والوَصائِلُ[3]

مالك :

فما لَكَ مُصْفَرّاً كأَنَّكَ هالِكٌ مِن الخَوْفِ قَبْلَ الطَّعْنِ والضَّرْبِ زائِلُ؟
تَعالَ زُهَيْرُ آسْمَعْ حَسِبْناهُ حائطاً

[يقبل زهير]

---

(١) الفلحاء: لقب عنترة. أي ذو الشفة السفلى المثقوبة. وقد مرّ شرح هذا قبل.

(٢) الطوائل: العداوات، والواحدة: طائلة.

(٣) الوصائل: ثياب حمر مخططة تصنع باليمن. وكانت الكعبة أول ما كُسِيته الأنطاع ثم الوصائل. يشير إلى أن عنترة من أصحاب المعلقات التي كانت تعلق بالكعبة.

زهير : فَمَا هُوَ؟

مالك : رَكْنٌ في العَوَاصِفِ مائِلُ

وأَمّلْتُهُ سَيْفاً فَلَمَّا لَبِسْتُهُ إذا هُوَ عُودٌ أَنْكَرَتْهُ الحَمائِلُ
وقُلْتُ غَمَامٌ يُمْطِرِ الحَيَّ في غَدٍ فَكَانَ جَهَاماً ما لَنا فِيهِ طائِلُ
وقُلْتُ كُلَيْبٌ نَسْتَطِيلُ بِصِهْرِهِ إذا هُوَ كَلْبٌ

ضرغام : ضَلَّ ما أَنْتَ قائِلُ

وأُقْسِمُ لَوْلَا ظَبْيَةٌ تَحْتَ خَيْمَةٍ وغُصْنٌ حَوَتْهُ في الحِجَالِ الغَلَائِلُ
لَمَا رُحْتَ إلَّا جُثَّةً في الثَّرَى لَقًى وغَالَتْكَ مِنْ قَبْلِ المَغِيبِ الغَوائِلُ(١)

مالك : تَجَرَّأْتَ يا ضِرْغَامُ

ضرغام :

مَا تِلْكَ جُرْأَةٌ ولَكِنْ كَمَا قَدْ كِلْتَ لِي أَنَا كَائِلُ

مالك :

كَفَى حَسْبُ يا ضِرْغَامُ حَسْبُ وَقَاحَةً فَمَا أَنْتَ إلّا مُكْثِرُ الزَّهْوِ خائِلُ
لَقَدْ قُلْتَ قَوْلاً شَفَّ عَمَا وَرَاءَهُ وقامَتْ على لُؤْمِ النِّجَارِ الدَّلَائِلُ(٢)
ولَا يَرْفَعُ الأَبْطَالَ أَنَّكَ مِنْهُمُ فَما هَذِهِ للباسِلِينَ شَمَائِلُ
وما لَكَ كَالأَبْطَالِ سَيْفٌ تُجِيلُهُ ولَكِنْ لِسَانٌ بالسَّفَاهَةِ جَائِلُ
أَيُذْكَرُ عَبْدُ السُّوءِ في كُلِّ قَفْرَةٍ وذِكْرُكَ يا ضِرْغَامُ في البِيدِ خامِلُ
أَمَا أَنْتَ كالفَلْحَاءِ صِنْدِيدُ قَوْمِهِ أما لَكَ كَالفلْحاءِ سَيْفٌ وعامِلُ؟(٣)
ألا حَسَدٌ للعَبْدِ؟

ضرغام :

لَا . لَسْتُ حاسِداً ولا أَنَا للنَّارِ الأَكُولَةِ حامِلُ

---

(١) اللقى: ما طمس وتُرِك.
(٢) النجّار: الأصل.
(٣) العامل: أعلى الرمح.

أأحْسُـدُ مَنْ يَحْيَا العُفَـاةُ بِمَـالِـهِ ... ويَـأْوِي اليَتَـامَـى ظِلَّهُ والأَرَامِـلُ؟
أأحْسُـدُ مَنْ لا يَعْصِمُ البِيـدَ غَيْـرُه ... إذا زَحَفَتْ مِنْ أَرْضِ كِسْرَى الجَحَافِلُ؟
أأحْسُـدُ مَنْ يُـرْجَى لِتَـأْليفِ قَـوْمِـهِ ... إذا آفْتَـرَقَتْ تَحْتَ المُلوكِ القَبَائِـلُ؟

مالك :

يُـؤَلِّـفُـنَـا عَـبْـدٌ أمَـا ثَـمَّ سَـيِّـدٌ ... عَن العَبْـدِ يُغنِينَـا أمَـا ثَمَّ عـاهِـلُ؟
إذَنْ فَليَمُسْنـا الخَسْفَ كِسْرَى وقَـوْمُه ... وقَـيْـصَـرُ والـرُّومُ الـجُفَـاةُ الأَرَاذِلُ
أَيَمْـنَعُنَـا عَـبْـدٌ؟ إذَنْ نَحـنُ عُـزَّلٌ ... فَـأَيْنَ عَـوَالِينَـا وأَينَ المَنَـاصِـلُ؟

ضرغام :

لَقَدْ عِيلَ صَبْرِي للّذِي أَنَا سامِعٌ

مالك : إذا الصَّبْرُ لَمْ يَنْفَدْ فما أَنْتَ فاعِلُ؟

ضرغام :

عِقَـابٌ يُنسِّيـكَ الـوَقَـاحَـةَ عـاجِـلٌ ... وآخَـرُ مَـتْـرُوكٌ إلى الـغَـدِ آجِـلُ

مالك :

رُوَيْـدَكَ يـا ضِـرْغَـامُ مَا لَـكَ هـاذِيـاً ... وما لَكَ قَد ضاعَتْ لَدَيْك المَنَـازِلُ؟
فمـا العبْـدُ إلاّ كـالـدُّخَـانِ وإنْ عَـلاَ ... إلى النَّجْمِ مُنْحَطٌّ إلى الأَرْضِ سافِلُ

ضرغام :

تَعَالَ تَأَهَّبْ

[يمسك بكتفيه فيهزه هزاً]

مالك : كاهِلي خَلٌّ كاهِلي

ضرغام : أَقَالَبُ زُبْدٍ ذاكَ أمْ ذاكَ كاهِلُ

زهير [صائحاً]:

هَلُمُّوا، سَرَاةَ الحَيِّ هاتُوا رِجالَكُم

مالك : إليَّ فَعبْسٌ فَاجَأَتْها النَّوازِلُ!

يا عَبْسُ

[ويرى عنترة قادماً فيجري نحو الحي هو وابنه زهير]

عَنْتَرَةٌ؟

المشهد العاشر

عنترة [من وراء الستار] :

لَبَّيْكَ مَا بِكُمُ؟ خَوْفٌ من السَّيْل أم خَوْفٌ مِن النَّارِ؟
الله أَمَّـن بـالـفَـلْحَـاءِ سِـرْبَـكُـمُ أَفْعَى الصَّرِيمِ ولَيْثُ القَفْرَةِ الضَّارِي(1)

[يظهر عنترة]

المشهد الحادي عشر

مَن الفَتَى مَنْ أَرَى؟ ضِرْغَامُ أَنْتَ هُنَا أَغَـارَةٌ؟ أَيْنَ عَهْـدُ الجـارِ للجَارِ؟
أَجِئْتَ تَسْبِي مَـهَـاتي؟

ضرغام : جِئْتُ أَخْطُبهَا

عنترة : ما أَجْمَلَ الصِّدْقَ لم يُلْبَسْ بإنْكَارِ

فَمَا جَرَى؟

ضرغام :

نَـال مِنّـا مـالِـكٌ وبَغَى عَلَيْكَ بالشَّتْمِ ، هذا العَائِبُ الزَّارِي
حَتَّى آنْـصَـرَفْتُ إِلَـيْـهِ كَيْ أُؤَدِّبَـهُ

عنترة : يا لَيْتَ أَدَّبْتَهُ تأديبَ جَبَّارِ

ضِرْغَامُ

ضرغام : عَنْتَرَةُ

---

(1) الصريم: القطعة المنزلة من منتظم الرمل.

عنترة :

اسمَـعْ بَيْـنَنَـا شَـرَكٌ ... في حُبِّ عَبْلَةَ قـد يَـدْنُـو من الثّـارِ
فـاجْعَـلْ لِنَفْسِـك أُنْثى غَيْـرَهَـا أَرَبـاً ... فـإِنَّ عَـبْـلَـةَ آرَابِـي وأَوْطَـارِي

ضرغام :

وأَنْتَ فـاعبُـدْ سِـوَاهـا إنَّني رَجُـلٌ ... جَـعَلْتُ عَـبْلَةَ أَوْثـانِـي وأَحْجـارِي
تَعَـالَ نَذْهَبْ إلى شَمْسِ النَّهَـارِ معاً ... نَقُولُ، عَبْلَةُ، قَدْ خُيِّـرتِ فـاخْتـارِي
فَمَا تَرَى أنْتَ؟

عنترة :

رَأْيِـي أَنْ نَـصِـيـرَ إِلَـى ... جَمَـالِ تَضْحِيـةٍ أو فَضْـلِ إيثَـارِ
رَأْسِي ورَأْسُك في المِيزانِ قَدْ وُضِعَا ... وحُكْمُ سَيْفِك أو سَيْفِي هُوَ الجَارِي
مَنْ ماتَ مِنَّا قَضَى حَقَّ الهوَى كَرماً ... ولَيْسَ بـالموْتِ دُون الحُبَّ مِن عـارِ

ضرغام :

رَأَيْـتَ عَنْـتَـرَ رَأْيـاً لَسْتُ أَتْبـعُـهُ ... يَـأْبَـاهُ حَبِّي وإعْجَـابِي وإكْبَـارِي
والله لا جَـمَعـتْـنـا سَـاحَـةٌ

عنترة : لِمَ لاَ؟ ... الحَـرْبُ تَجْمَـعُ مِغْـوَاراً بِمِغْـوَارِ

ضرغام :

هَبْنِي قَتلْتُك

عنترة : ماذَا ضَرَّ؟

ضرغام :

كَـيْـفَ إذَنْ ... تَكُـونُ في البِيـدِ أَنْبَـائي وأَخْبَـاري؟
أَلَسْتُ شِبْـلاً فَتِيّـاً مِن شَبُـولَتِـهَـا ... فَهَـلْ أُجَرِّبُ في الـرِّئبالِ أَظْفـارِي؟
وكَـيْـفَ أَفْـلِقُ رَأسـاً مِلْؤهُ شَـرَفٌ ... أَحَقَّ مِن جَبَهـاتِ الـرُّوم بـالغـارِ؟[1]

---

(١) الغار: شجر كان يكلَّل بورقه رأس الفائز والمنتصر.

وكَيْفَ أَضْـرِبُ عُنْقاً في أَمَـانَتِهـا كَـرَامَـةُ القَـوْمِ مِنْ بَـدْوٍ وحُضَّـارِ؟
وكيفَ أَرْمِي لِسَـانـاً طَـالَمـا سُقِيتْ بِشَهْـدِهِ البِيـدُ مِن شَـرْبٍ وسُمَّـارِ؟[1]

عنترة ينادي: يا عَبْلَ

عبلة [من وراء الستـار]: لَبَّيكَ يا ابنَ العَمِّ

[تقبل عبلة]

المشهد الثاني عشر

ضرغام : أنتِ هُنَا؟

عبلة : أَجَلْ

ضرغام : إذَنْ سَمِعَتْ ما قِيلَ أُذْنَاكِ؟

عبلة :
أَجَلْ عَلِمْتُ بِمَا قَدْ دَارَ بيْنكُمَا

عنترة : فَمَا تَرَيْنَ؟ لعَلَّ القَوْلَ أرْضاكِ
يا عَبْلَ حُبُّكِ في لَحْمي جَرَى ودَمي وقـد يُحِبُّـكِ ضِـرْغَـامٌ ويَهْـوَاكِ

ضرغام :
أُحِبُّهـا حُـبِّيَ الـعُـزَّى وأَعْبُـدُهـا عِـبـادَةَ الـلَّاتِ

عنترة : بِنْتَ العَمِّ بُشْرَاكِ

ضرغام :
ولـو يُـطَافُ بِغَيْـرِ البَيْتِ في زمَنِي مـا طُفْتُ يـا عَبْـلَ إلَّا حَـوْلَ مَغْنَـاكِ

عبلة :
مـاذا تَقولُ، آبنَ عَمِّي، بِمْ تُبشِّـرني بُشْـرَى بِمَـاذَا؟

---

(١) الشرب: الشاربون. والسامر: المتسامرون.

عنترة : بِهذا العَاشِقِ البَاكِي

عبلة [لنفسها]:

يُحبُّني؟ رَبِّ أَشْقَيْتَ الفَـوَارِسَ بِـي فَـلاَ أُتَيِّمُ إلا الـمُعْـلَمَ الشَّـاكِـي[1]

عنترة :

عَبْلَ آسْمَعِي عَبْلَ هذا الحُبُّ كَيْفَ أتَى هَـلْ كان في فَتَـراتِ الدَّهْـر يَلْقَاكِ؟

عَسَـاهُ جَـاءكِ يَشْكُـو الحُبَّ مِنْ زَمَنٍ لَعَلَّهُ بِـالْهَـوَى مِنْ قَبْـلُ نـاجَـاكِ

ضِـرْغَـامُ هـاتِ تَكلَّمْ

ضرغام :

أَنْتَ تَـظْلِمُـنِـي فَمَـا نَصَبْتُ لِـعَبْسٍ قَطُّ أَشْـرَاكِـي

قُـوْلِي لِعَنْتَـرةٍ يـا عَبْـلَ مـا خُلُقِي كَمَـا يَقُـولُ ولاَ فـي شِيـمَتي ذَاكِ

هل آلتَقَيْنَا على ذاتِ الإِصَـادِ ضُحًى وهَـلْ لَقِيتُـكِ إلاّ في عَـذَارَاكِ؟[2]

وهـل نَـظَرْتُـكِ إلاَّ خـاشِعـاً خَفِـراً كما نَظَرْتِ وَرَاءَ السِّتْرِ عُزَّاكِ؟[3]

عنترة :

الآنَ يـا عَبْـلَ تَخْتـارِينَ راضِـيَـةً هـاكِ الخَـطِيْبَيْنِ قـدَ مَـدّا يَـداً هـاكِ

عبلة :

إنّي قد آخْتَرْتُ يا آبْنَ العَمِّ مِنْ زَمَنٍ

عنترة : مَنْ؟

عبلة : سَيِّدي!

[تندفع إليه]

عنترة : عَبْدُكِ الوافِي ومَوْلاكِ!

---

(١) المُعْلَمَ: الذي أعلم نفسه بعلامة في الحرب. والشاكي: التام السلاح.

(٢) ذات الإصاد: ردهة في ديار عبس. والعذاران، الشعر المسترسل على جانبي الوجه.

(٣) العزى: صنم كان يُعبد في الجاهلية.

[تسمع ضجة وقعقعة سلاح وأصوات استغاثة من الحي كأنها من بعيد]

عبلة :

يَـا وَيْـحَ أُذْنِي صَيْحَـةٌ وفَـوَارِسٌ مَـا ذاكَ عَـنْـتَـرُ؟

عنترة : غارةٌ وصِيَاحُ

عبلة :

ضِـرْغَامُ عَنْتَر ما مُقامُكمَا هُنـا؟ والـحَـيُّ ثَـمَّ مُـرَوَّعٌ يُـجْـتَـاحُ

[يقبل داحس مضطرباً]

المشهد الثالث عشر

عنترة :

ماذا وَرَاءَكَ داحِ ما دَهَمَ الحِمَى؟

داحس : فِئَةٌ عَلَيْهِم شِكَّةٌ وسِلاحُ[1]

وَطِئَتْ تُـرابَ المَهْـدِ أَرْجُـلُ خَيْلِهِمْ وَلَـهَـا عَـلَيْـهِ نَـشْـوةٌ ومِـرَاحُ

عنترة : أمِنَ البوَادِي؟

داحس :

بَـلْ غَسَـاسِنَـةٌ عَلَى قَـسمَـاتِـهِمْ أثـرُ النَّعِيم، صِبَـاحُ

في ظِـلِّ دَجْلةَ والفُراتِ تَـرَعْـرَعُـوا وغَدَوْا على وَشْيِ الرِّيَاض ورَاحُـوا

أَوْلَادُ لَـخْـمٍ والَّـذِيـن رَمَـى بِـهِـمْ أَرْضَ الـعِـرَاقِ تَـطَلُّعٌ وطِـمَـاحُ

جَـاء الـحِـجـازُ بِهِمْ ومَكَّـةُ والْتَقَتْ فـيـهِـمْ جِبَـالٌ حَـوْلَـهـا وبِـطَاحُ

نُشِئـوا هُنـاكَ فَمَـا تَصَلَّب مَنْسِـرٌ لـهـمُ ولَا بـلـغَ الـتَّـمَـامَ جَنَـاحُ

عنترة : ما يَبْتغُون؟

---

(١) داح: أي يا داحس، فرخّم.

داحس :

أظُنُّ رَأسَك سُؤْلَهم هَتفوا بِه حَوْل البُيوتِ وصاحُوا
أَنَسِيتَ سِرْحَاناً وكَيفْ قَتلْتَهُمْ وفَوارِساً بُهُماً بِسَيْفِكِ طاحُوا

ضرغام :

ما القَوْمُ؟

عنترة : عَسْكرُ رُسْتمٍ

ضرغام : مَنْ رُسْتمُ؟

عنترة : بَطَلٌ له شَرفٌ وفيهِ سَمَاحُ
وفتًى يُعظِّمهُ العِرَاقُ وصاحِبٌ كِسْرَى إليه بأُنْسِهِ يَرْتاحُ

عنترة [لداحس]:

ما شَكْلُه؟ ما لَوْنُه ما وَجْهُه؟

داحس : رَيّانُ أَبْلَجُ ناعِمٌ وَضّاحُ

ضرغام : هذا الجَمالُ فَمَا شجَاعةُ رُسْتُمٍ

داحس : مَوْتٌ لِمَنْ يَمْشِي إلَيه مُتَاحُ

عنترة : وثِيَابُه؟

داحس :

زَرَدُ الحَدِيدِ وبُرْنُسٌ ضافٍ على أعْطَافِهِ ووِشَاحُ
قد حَفَّ ساعِدَه السِّوَارُ وَرفَّ في أُذْنَيْه قُرْطُ اللُّؤلؤ اللَّمّاحُ

[تزداد الضجة وتقترب الأصوات]

ضرغام :

إسْمَعْ لِوَاءَ البِيدِ أصْغِ لِصوْتِهمْ هذا النِّدَاءُ يَزيدُ والإلْحاحُ

[يسمع صوت رستم]

الصوت :

العَبْدُ! رَأْسُ العَبْدِ

عنترة [لداحس]:

إمْضِ فَـقُـلْ لَـهُـمْ رَأْسِي لَهُمْ في مَنكِبَيَّ مُبَـاحُ

[ثم يواجه الأشباح القادمة من بعيد]

يـا قَـوْمُ لم أَفْهَمْ نِـدَاءَكُمْ آعـزُبُـوا إذْ لَـيْسَ في لُـغَـةِ الأُسُـودِ نِـبَـاحُ
وَيـحٌ لِـرَأْسِي قـد غَـدا كُـرَةً لَهُمْ رَاحٌ تَـجِيءُ بِـهِ وتَـرْجِـعُ رَاحُ[1]
كَثُـروا عَلَيْـه في الـطِّلابِ ودُونَـه تَـتَـقَـطَّعُ الأَسْـيَـافُ والأَرْمَـاحُ

[يقبل جماعة من الحي هاربين وينصرف عنترة وضرغام للقاء المهاجمين]

المشهد الرابع عشر

عنترة [من وراء الستار]

لَـبَّـيْـكَ يـا أُسْـوارُ تَـعْـلَم أيُّـنـا يُـبكَـى عَـليـهِ فـي غَـدٍ ويُـنَـاحُ[2]

عبلة [للقادمين]:

حُيِّيتُمْ ، عَبْسُ عِمُوا مَسَاءَ

عَبْسُ ، آسْمَعُوا الزَّئِيرَ والعُوَاءَ

قُومُوا انْظُرُوا عَنْتَـرَةَ اللِّوَاءَ

[يشرف الكل على المعركة الدائرة من وراء الستار]

أحدهم : عَلَى قَدَمْ حَيُّوا العَلَمْ لَيْثَ الأَجَمّ

عنترة [من وراء الستار]: عَبْلَ عَبْلَ

عبلة : لَبَّيْكَ أَلفَ لَبْ

---

(١) الراح: الأكُف.
(٢) الأسوار: قائد الفرس.

أحدهم : ذاكَ عَبْــدُ شَدّادٍ آنْقَلَبْ

عبلة : بَلْ لِوَاءُ عَبْسٍ فَتى العَرَبْ
أَنْصِتُوا آسْمَعُوا الرَّعْدَ في السُّحُبْ
تِلْكَ صَرْخَةُ اللَّيْثِ في القَصَبْ

أحدهم :
وآخَرُ لَيْسَ دُونَ أَخِيهِ بَأْساً

عبلة : أَجَلْ

الأول : ضِرْغَامٌ العَضْـبُ الحُسَامُ
مُبِيدُ الضَّيْغَمَيْنِ بِشِعْبِ خَبْتٍ

آخر : أَجَلْ ضِرْغَامٌ المَوْتُ الزُّؤامُ

المنظر الثاني

«المنظر ذاته بعد زمن قصير، لا تزال عبلة ومن معها من بني عبس يشرفون على المعركة، وإن كان يبدو أنهم قد تأخروا في المسرح إلى مكان أبعد من مكانهم في المنظر الأوّل قليلاً. في مقدّمة المسرح من ناحية أخرى جماعة قليلة من بني لخم أنصار الفرس وبيد أحدهم صندوق وحديثهم يكاد يكون همساً»

المشهد الأول

واحد من بني لخم:
ما ذَاكَ؟ ما الصُّنْدُوقُ؟ ما بِأَكُفِّكُمْ؟

حامل الصندوق: السِّلْمُ يا إخْوَانُ والإِصْلاَحُ
العَبْدُ رَأْسُ العَبْدِ بُشْرَى فارِسٍ اليَوْمَ كُلُّ مَحَلَّةٍ أَفْرَاحُ

[يفتح الصندوق فترى فيه رأس قتيل مغطى]

آخر :
أَبِرَأْسِ عَنْتَرَةٍ أَتَيْتُمْ ما لَهُ يَنْزُو؟ وما لِلسِّتْرِ عَنْهُ يُزَاحُ؟

آخر :
أَتُراهُ حَيّاً!

آخر : هَلْ جُنِنْتَ

الأول : إذَنْ قَضَى وتَخَلَّصَتْ مِنْ غُولِهَا الأَرْوَاحُ

آخر :

من ذَا الذي ذَبحَ الغَضَنْفَرَ؟

الجماعة : رُسْتُمُ فَحْلُ العِرَاقِ وكَبْشُهُ النَّطَّاحُ

آخر :

حُطُّوهُ نَنْظُرْ يا إلٰهي مَا أرَى

[يكشف القائل الرأس]

وَيْلٌ لَهُم أيَّ الرُّؤوسِ أطَاحُوا؟

مَا ذَاكَ عَنْتَرَةٌ ولَكِنْ رُسْتُمُ مَنْ يا تُرَى الجَانِي مَنِ السَّفَّاحُ؟

آخر :

مَنْ غَيْرُ عَنْتَرَةٍ يُجَنْدِلُ رُسْتُماً قَدْ كَانَ بَيْنَ الضَّيْغَمَيْنِ كِفَاحُ
ما تَنْظُرُونَ الرَّأْسَ في الدّمِ غَارِقاً وعَلَيْهِ مِنْ كُلِّ الجِهَاتِ جِرَاحُ؟
لَهفِي عَلَى قَسَمَاتِهِ وجَبِينِهِ عَفَتِ البَشَاشَةُ وآنْطَفَا المِصْبَاحُ

آخر [صائحاً]:

يا لَكِسْرَى ونَوَاحِي فَارِسِ لِقَتِيلٍ حَوْلَ عَبْسٍ دَارِسِ
فَتَكَ العَبْدُ بِحُرٍّ فارِسِي قائِدِ الجَحْفَلِ إسْوَارِ العِرَاقْ
يا بَنِي المُنْذِرِ آلَ الأَشْهَبِ شَرَفَ الفُرْسِ وَمَجْدَ العَرَبِ
قَدْ صَحِبْتُم رُسْتُماً في المَوْكِبِ فآرْكَبُوا في ثارِهِ الخَيْلَ العِتَاقْ
بَيْنَنَا يا عَبْسُ يَوْمٌ ذُو نَبَا

[تتجه الجماعتان: بنو عبس وبنو لخم بعضهما إلى بعض]

بنو عبس :

مَرْحَباً باليَوْمِ أهْلاً مَرْحَبا

أحدهم :

هَـــذِهِ السُّـمْـرُ أُعِـدّتْ والـظُّبَى … أُرْهِفَتْ وانـتَـظَرَتْ يـومَ التَّـلاَقْ[1]

عبلة : أَوْلاَدَ لَخمٍ

آخر : مَنِ المُنَادِي؟

آخر : عَبْلَةُ

الأول : مَنْ تِلْكَ؟

الآخر : بِنْتُ مالِكْ

عَـنْـتَـرةٌ جُـنَّ فـي هَـوَاهَـا … والبِنْتُ جُنَّتْ بِـهِ كَـذَلِـكْ

آخر : لَبَّيْكِ لَبَّيْكِ أُخْتَ عَبْسِ

عبلة : ألاَ أُنَبِّيكُمْ بأَمْسِ ؟

مـا نَـحْـنُ إلاَّ سَـواءُ جِـنْسِ … نَحْنُ بَنُـو الشَّمْسِ والصَّحَـارَى

لا تَـحْـفِـلُوا رُسْـتُـمـاً دَعُـوهُ … خَـلُّوهُ لـلفُـرْسِ يَـشْـأَرُوهُ

ولا يُـقَـاتِـلْ أخـاً أَخُـوهُ … مِـنْـكُـمْ ولا تَـخْـذُلُـوا الـدِّيَـارَا

حُـشِـرْتُـمُ تَـحْـتَ كُـلِّ رَايَـهْ … وأسْـرَجُـوكُـمْ بِـكُـلِّ غـايَـهْ

وسَّـعْـتُـمُ الـمُـلْكَ والـوِلاَيَـهْ … لِـكُـلِّ كِـسْـرَى وَكُـلِّ «دَارَا»[2]

قَـبِيـلَةٌ تَـحْـتَ حُـكْـمِ كِـسْـرَى … وقَـيْـصَـرُ الـرُّومِ دَانَ أُخْـرَى

أَصْـبَحْـتُـمُ لـلغَـرِيـبِ جِـسْـرَا … يَـرْكَـبُـهُ كُـلّـمـا أغـارَا

أحدهم :

مـاذَا تـقُـولِـيـنَ يـا فَـتَـاةُ؟ … أَيَـتْـرُكُ الـقَـائِـدَ الـغُـزَاةُ

كَـأَنّـه فـي الـطّرِيـق شَـاةُ … وذَابِـحُ الـشَّـاةِ قَـدْ تَـوارَى؟

---

(١) السمر: الرماح. والظبى: السيوف.

(٢) دارا: من ملوك الفرس.

عبلة :

يـا لَـخـمُ، يـا بَـنِـي الـعَـرَبْ — يـا لَـخْـمُ، حُـرْمَـةَ الـنّـسَـبْ!

[ضجيج]

رُوَيْدَ ما هَذَا الجَلَبْ

بنو لخم : نُرِيدُ رَأْسَ عَنْتَرَهْ

عبلة :

قَـدْ رُمْـتُـمُ مـا لَـمْ يُـرَمْ — مـا أَنْـتُـمُ ولاَ الـعَـجَـمْ

بِـبَـالِـغِـي لَـيْـثِ الأَجَـمْ

بنو لخم : نُرِيدُ رأْسَ عَنْتَرَهْ

أحدهم :

يـا عَـبْـلَ أَحْـيِـي رُسْـتُـمَـا — - إن شِئْـتِ - نَـحْـقِـنِ الـدَّمَـا

أو نَـاوِلِـيـنَـا الـمُـجْـرِمَـا

الجميع : نُرِيد رَأْسَ عَنْتَرَهْ

[يسمع صوت عنترة مقبلاً من بعيد فيلتفت إلى ناحية الجميع]

الصوت :

أراكِ، يـا عَـبْـلَ، تَـغْـضَـبِـيـنَـا — يـا عَـبْـلَ، مَنْ ذا تُـخَـاطِـبِـيـنَـا؟

مَـن ذا الّـذِي يَـرْفَـعُ الـجَـبِـيـنَـا — مُـخَـاطِـبـاً مَـلْـكَـةَ الـعَـذَارَى

عبلة :

يـا عَنْتَـرَةَ البَـأْسِ خَـلِّ سَيْفَـكْ — وعُـدَّ لَـخمـاً في الحَيّ ضَيْـفَـكْ

ولا يَـرَ الأَقْـرَبُـون حَـيْـفَـكْ — ولا يَـقُـولُـوا الـعَـبْـسِـيُّ جَـارَا

مـا أَنْتَ مَنْ ظَلَمَ القَـرِيـبَ وهَـذِه — لَخْمٌ قَـرَابَـتُنـا الأَدَانِي فَـاعْـدِلِ

بـالأَمْسِ تَبْنِي رُكْنَ قَـوْمِكِ بـاذِخـاً — واليَـوْمَ تَفْعَـلُ فِيـهِ فِعْلَ المِعْـوَلِ

بـالبَيْتِ بـالعُـزَى بَعبْلَةَ بِـالهَـوَى — بـالحَقِّ إلاَّ سِرْتَ سِيـرَةَ مُجْمِلِ

[يظهر عنترة]

المشهد الثاني

عنترة :

مَـا لَـكِ عَـبْـلَ ثـائِـرَهْ مَـا يَـبْـتَـغِي الـمَـنَـاذِرَهْ

صَـنَـائـعُ الأكـاسِـرَهْ

بنو لخم : نُريدُ رَأْسَ عَنْتَرَهْ

عنترة : رأْسِي أنَا

واحد من بني لخم: لِمْ لاَ؟ أجَلْ

عنترة : هَلْ لَكُمُ به قِبَلْ

الكل : أَجَلْ أجَلْ أَجَلْ أَجَلْ

عنترة : يا بُعدَ رَأسِ عَنْتَرهْ!

يا لَخْمُ، هاتُوا جَمْعَكُم هاتُوا القَنَا وامْضُوا لِكسْرَى وارْجِعُوا في جَحْفَلِ

جِيئُوا بِفُرْسَانِ العِرَاقِ وفَارسٍ مِنْ رَاكبٍ فِيلاً ومِنْ مُتَرجِّلِ

وتقَلَّدوا أمْضَى المَنَاصِل وٱطْلُبُوا رَأْسِي بِمَا قُلِّدْتُم من مُنْصُلِ

هَـلُمُّوا يَـا بَنِي لَـخْـمِ خُـذُوا رَأْسِيَ مِنْ جِسْمِي

بِـمَـا شِئْتُمْ فَبَـالسَّيْفِ وبِـالرُّمحِ وبـالسَّهْمِ

[ينازلهم ويقتل منهم مقتلة عظيمة فيفرون صائحين]

أحدهم : خَلّني، أَنْجُ بنفْسِي

آخر : أُنجُ مِن جَبَّارِ عَبْسٍ

ذاك جِنِّيٌّ ولا يَبرُزُ للجِنِّيِّ إنْسِي

عبلة : رُحْمَاكَ عَنْتَر

عنترة : أنْتِ عَبْلَةُ ذِي

عبلة : أجَلْ

عنترة : ما تَأْمُرِينَ سَلي الخَوَارِقَ أفْعَلِ

عبلة :

رُحْـمَاكَ، عَنْـتَر، لا تَشِمْ سَيْـفـاً ولاَ تَـطْعَنْ بِـرُمْـحٍ واتَّئِـدْ وتَمهَّـلِ[1]

[يلقي عنترة سلاحه ثم يقبل عليها]

لَمْ أنْسَ ذِكْرَكِ، والجِـرَاحُ تَسِيـلُ مِنْ دِرْعِي، وتَصْبِـغُ أدْهَمي بـالعَنْـدَمِ[2]
(ولَقَـدْ ذَكَـرتُـكِ والـرِّمَـاحُ نَـوَاهِـلٌ مِنِّي وبِيضُ الهِنْـدِ تَقْـطُرُ مِن دَمِي)[3]
فَـمَضَـيْتُ أعـتَنِـقُ الـرِّمَـاحَ لأنَّهَـا خَــطَرَتْ كـأَسْمَـرِ قَـدِّكِ المُتَقَـوِّمِ
(ووَدِدْتُ تَقْبِيــلَ السُّيُـوفِ لأنهـا لَمَعَتْ كَبَـارِقِ ثَغْـرِك المُتَبَـسِّمِ)[4]

ستـار

---

(١) لا تشم: لا تستل.
(٢) أدهمي: حصاني الأسود والعندم: دم الأخوين، صباغ أحمر.
(٣) هذا البيت لعنترة.
(٤) هذا البيت لعنترة.

الفصل الرابع

«في حي بني عامر وفي مضارب بني الأشتر وفي خيام صخر. سرادق فخم وسامر حافل فيه جماعة من سراة عبس وأخرى من وجوه عامر. خدم يروحون ويجيئون بقصاع الطعام وأواني الشراب. جماعة يزمرون، وآخرون يضربون على الدفوف والمزاهِر..........»

المشهد الأوّل

أحدهم :

عَبْلَةُ في الوَشْيِ زُفَّتْ إلى عامِرْ
يا زامِرَ الحَيِّ هاتِ آشْدُ يا زامِرْ
هَيَّ آرْتَجِلْ هَيَّ وأَطْرِبِ السّامِرْ

شيخ من عامر :

الطَّعامَ الطَّعامَ، يا عَبْسُ، قُومُوا الطَّعامَ الطَّعامَ، ضِيفانَ عامِرْ

آخر :

الشَّرابَ الشَّرابَ تِلْكَ بَواطِيهِ وهَذِي أَقْداحُه يا حُسَاةُ
دونَكُمْ تَمْرَ عامِرٍ ما آكتَسَت أَطْيَبَ مِنْهُ ومَا ألَذَّ النَّوَّاةُ
دُونَكُمْ مِنْ زَبِيبِ جِلَّقَ والطَّائِفِ ما لم يَسْقِ المُلُوكَ السُّقَاةُ

آخر :

هَــذَا شَــرَابُ الــرُّعَــاةِ دَعْــنِــي   مِــنْــهُ وهَــاتِ اسْقِــنِي الكُــرُومَــا

آخر :

هَيّى جَــوارِيَ الــحِــمَــى   هَيِّي صَــبَــايَــا عــامِــرِ
قُــمْــنَ إلــى الــدُّفــوفُ وآضْــ   ــرِبْــنَ عَــلَى الــمــزَاهِــرِ
زِدْنَ جَــمَــالَ الــعُــرْسِ أوْ   زِدْنَ جَــمَــال الــسَّــامِــرِ
قَــدْ كَــمَــلَ الأُنْسُ   قَــدْ جَــرتِ الــكَــأْسُ
قُومُوا اطْرَبُوا، عَبْسُ
قَــدْ كَــمَــل الــسَّــامِــرْ   ورَنَّــمَ   الــزَّامِــرْ
قــوموا آطرَبُوا عامِرْ

غناء :

يــا عَــبْــلَ حَــيِّــيــنَــا   إنّــا   مُــحَــيُّــوكِ
هَــاكِ الــرَّيَــاحِــيــنَــا   يَــنْــفَــحْــن عَــنْ فِــيــكِ
يــا عَــبْــلَ يــا حُــرَّهْ   يــا مَــلْــكَــةَ الــغِــيــدِ
أَصْــبَــحْــتِ كــالــدُّرَّهْ   فــي مَــفــرِقِ الــبِــيــدِ

ضيف :

لاَ تَــسْــقِــنِــي الــتَّــمْــرَ وَلا   بِــنْــتَ الــشَّــعِــيــر والــذُّرَهْ
وعَــاطِنِي مــا يَشْــربُ الــرُّ   ومُ وَرَاءَ أَنْــقَــرَهْ
إذا شَــرِبْــتُ أَرْبــعــاً   مِــنْهَــا آنْــقَلْبْــتُ عَنْــتَــرَهْ!

[يسمع صوت عنترة من بعيد يخاطب رجالاً من وراء الستار]

صوت عنترة: مَنِ يا رِجالُ؟

صوت أحد الرجال: ومَنْ أَنْتَ؟

صوت عنترة: فاتِكٌ ومُغِيرُ
مَــنْ آثَــرَ الــعَــيْــشَ   فَــلْــيَــنْــجُ بــالــنَّــفْــسِ

لا جَــرَّدَ اللهُ سَــيْـفِــي عــلى عَــبْسِ

واحد من بني عامر: عَنْتَرَةٌ؟

آخر : ماذَا؟

الأوّل : عَنْتَرةٌ جَاءَ

آخر :

بَــلْ ذَاكَ سَــكْــرانُ يَــقُــولُ مــا شَــاءَ

آخر : ماذا تَرُدُّ الجِوَاءُ؟

آخر [ثملًا]: ما ذاكَ إلّا ثُغَاءُ[1]

شُــوَيْـهــةٌ جــاوَبَـتــهــا مِـنَ الـمَــرَاعِــي الـشّــاءُ

صوت عنترة: وَقفْتُمُ يا رِجَالُ؟

صوت أحد الرجال: أجلْ وقَفْنَا

صوت عنترة: نَزالِ إذنْ نَزالِ إذَنْ نَزالِ

صوت أحد الرجال: تأَهَّبْ يا فتًى

صوت عنترة :

أَبْنَاءُ عَمِّي؟ إلٰهِي كَيْفَ أَصْـنَــعُ بــالــرِّجــالِ؟

صوت أحد الرجال: تأَهَّبْ يا فَتًى للقَاءِ عَبْسٍ

صوت عنترة : وأَنْتُمْ فَآسْتَعِدّوا للقِتَالِ

[تسمع قعقعة سلاح]

واحد من بني عامر:

أَمَــا تَــبَــيَّــنْــتَ الــفَــتَــى أَمَــا عَــرَفْــتَ الــزَّمْـجَــرهْ؟

---

(١) الجواء: الأجواء.

واحد من بني عامر [ثملاً]: عامِرُ

آخرون : ماذا؟

الأوّل :

ظَفِرتْ أَيْدِيكُمْ بالجَوْهَرَهْ
فُزْتُمْ مِنَ البِيدِ ومِنْ سَمَائِهَا بالنَّيِّرهْ

آخر : وبَعْدُ؟....

آخر :

ماذَا تبْتَغِي؟ فِيمَ تُكِدُّ الحُنْجَرهْ؟

الأول :

أُرِيدُ أَنْ أَعْلَمْ أَيْـ ـنَ اليومَ أَيْنَ عَنْتَرهْ؟
عَبْسٌ عَلَى سِلاَحِهَا وعَامِرٌ مُنْتَظِرَهْ
وذَاكَ سَيْفِي فِي يَدِي فلْيَجِىءُ العَبْدُ يَرَهْ!

أحدهم :

أَعُوذُ بالعُزَّى أَعُوذُ باللاَّتِ

آخر :

نَعُوذُ بالْبَيتِ مِن الفُجَاءَاتِ

صوت عنترة :

أَنَا الَّذِي لقَّبَنِي أَبِي وأُمِّي القَسْوَرَهْ
ضَجَّتْ ضَرَاغِمُ الفَلاَ مِن حَمَلاتِي المُنْكَرَهْ

واحد من بني عامر [لآخر من بني عبس]:

أوَلَمْ تَقلْ لِي إنَّ رَأسَ العَبدِ كانَ صَدَاقَ عَبْلَهْ؟

الآخر : قَدْ قِيلَ ذاك أَجَلْ

الأول : فَكَيْفَ إذَنْ نَراهُ؟

ثالث [من عبس] : أَنْتَ أَبْلَهْ!

مَنْ ذَا الَّــذِي يَقْــوَى عَلَى رَأْسِ الـغَضَنْفَـرِ عَـنْـتَـرَهْ؟
قــد مــاتَ رُسْتُــمُ دُونَــه وهَــوَى أُسَيْــدُ الـقَـسْــوَرَهْ
وجَنَى شُيُــوخُ الـحَيِّ مِنْ مَــهْــرِ الـفَـتَــاةِ الـثَّــرْثَــرَهْ
فَــرَضُــوا صَــدَاقَ فَـتَــاتِهِم نَــعَـمــاً تُـسَــاقُ وأَبْـعِــرَهْ!

[يـدخل عنتـرة ومعه رجـال آخرون من عبس وفتـاة مقنَّعة فينهض السـامرون ويشهرون سيوفهم ويفر من بني عامـر غير قليـل، ويبرز لعنتـرة واحد من بني عبس]

المشهد الثاني

المتقدم :

أنَــا الَّــذِي تَــعْــلَم عَــبْسٌ أَنِّــي أَذُودُ عَـــنْـــهَـــا وتَــذُودُ عَــنِّــي
خُذْ يا آبنَ عمِّيَ الحِذَارَ مِنِّي

عنترة :

مَــرْحَبَا بِــكْ مَرْحَبَــا بِــكْ عِشْ تَــمــتَّــعْ بِــشَـبَــابِــكْ

[يحمل عليه عنترة فيطير السيف من يده ولا يؤذيه]

تَــعَــالَ، سَــيْـفُــكَ طَــارَا لا تَــخْـشَ بــالأَسْــرِ عــارَا
إنِّي أُراعِي الأُسَارَى

[يأخذه رجال عنترة أسيراً]

عنترة :

خُــذُوا الأَسِــيــرَ نــاحِــيَــهْ ولا تَــجُــزُّوا الـنَّــاصِــيَــهْ

[يبرز له آخر من بني عبس]

المتقدّم :

إنِّي أنــا الـغَـضَـنْـفَــرُ الـعَـبْـسِيُّ تَــعْـرِفُـنِـي الـرِّمـاحُ والـقِـسِيُّ
والوَحْشُ في الفَلاَةِ والإنسِيُّ

عنترة [حاملاً عليه]:

أنَـا الـمَـنَـايَـا الـمَـاثِـلَهْ أنـا الـقَـضَـايَـا الـنّـَازِلَـهْ

غَضَنْفَرٌ في قافِلَهْ

[يحطم سيفه]

سَيْفُـكَ يـا هَـذَا كُـسِـرْ وصَـاحِـبُ الـسَّـيْـفِ أُسِـرْ

[إلى رجاله]: خُذُوهُ

[إلى منازله]: هَيَّ آمْضِ سِرْ

[يأخذه رجال عنترة فيبرز له شاب ثالث]

المتقدم :

أنَـا أَخُـو الأَشْـبَـالِ مِـثْـلُ أبـي الـرِّئْـبَـالِ

بالقِرْنِ لا أُبَالِي[1]

عنترة :

وأَنْـتَ أيْـضـاً يـا حَـدَثْ مَـا الحَرْبُ، يـا طِفْلُ، عبَثْ

قِفْ لا تَسِرْ إلى الجَدَثْ

[يحمل عليه عنترة فيطير السيف من يده]

الشاب :

أيـنَ مَـضَـى سَـيـفِـي؟ قـد كـان فـي كَـفِّـي

عنترة :

لا تَـغْـتَـمِـمْ ولا تَـسَـلْ سَيْفُـكَ فـي سَيْـفِي دَخَـلْ!

سِرْ قِفْ هُناكَ يا بَطَلْ!

الآنَ أَنْـتَ لُـعْـبَـتِـي إلـحَـقْ بِـصَـاحِـبَـيْـكَـا

إمْضِ آنْـضَـمِـمْ إلـيـهِـمَـا

---

(١) القرن: المثل في السجاعة.

[وفي هذه الأثناء يكون قد رفع بيده من الأرض مبارزاً آخر كان قد خرج إليه فيقذفه بجانب الشاب]

وضُمَّ ذَا إلَيْكَا

[ثم يخاطب الجماعة]

سُدَّى حَرْبُكُمْ يا قَوْمِ أَلْقُوا سِلاَحَكُمْ ولا تُرْكِبُوني في دمائُكُمُ وِزْرَا

رَأَيْتُمْ يَدِي؟

أحد بني عامر: ما كَانَ أعْظَمَ بَطْشَها؟

عنترة : وسَيْفِي؟

آخر : كَسْيفِ الموْتِ يَفْرِي ولا يُفْرَى

[يقترب عنترة من الفتاة المقنعة التي دخلت معه]

إنْهضِي الآن، يَا عَرُوسُ، تَعَالَي لا تَخافِي مِنِّي ولا مِنْ رِجَالِي

بَطَلٌ كُلُّهُمْ فَلاَ خَوْفَ مِنْهمْ كَيْفَ تشْقى النساءُ بالأبْطالِ

[يرفع عن وجهها القناع فإذا هي عبلة]

صخر [في ذهول]: مَنْ هذِه؟

عبلة : عَبْلَةٌ!

صخر : مَن بِمَنْ تزوّجْتُ إذَنْ؟

مَن التي تَركْتُ في الخِبَاءِ؟

ومَن تُرَى تَكُونُ في النِّسَاءِ؟

رجل لآخر:

لكنْ أجِبْنِي ألسْنَا في دَارِ صَخْرٍ وعُرْسِهْ؟

الآخر :

نعَمْ وأحْسَبُ صَخْراً جَرَتْ أُمورٌ بِنَحْسِهْ

عنترة :

قِياماً، عامِرُ، آنْتَظِروا، قضَائِي فإنِّي المَوْتُ ما مِنْه فِرَارُ
وأَنتمُ، عَبْسُ، لِلأَوطانِ عُودُوا فَمَا فِي عَامرٍ لَكُمْ قَرَارُ
نَسِيتُ لَكُمْ وأنْسَى ما جَنَيْتُمْ تُحَبُّ وإنْ تَنَكَّرتِ الدِّيَارُ

الجماعة [كل جملة يقولها رجل]:

العَفْوَ عَنْتَرَهْ الصَّفْحَ يا بَطَلْ
مُرْنا بِمَا تَشَا أَمْرُكَ مُمْتَثَلْ

عنترة :

رأيْتُمُ يا قَوْمُ عَبْلَةً مَعِي وكُنْتُمُ حَسِبْتُموها في الخِبَا
نِيطَ بِعَبْسٍ وشَبابِ عَامرٍ أنْ ينْقُلُوها مِن حِمًى إلى حِمَى
ساقُوا بَعِيرَها وكانُوا حَوْلَهَا عِشْرِينَ فِتْياناً أَشِدّاءَ القِوَى
أَدْرَكْتُهم على الطَّرِيقِ فَنَجَا مِن المَنُونِ بالفِرَارِ مَنْ نَجَا
وماتَ دُونَ الرَّحْلِ نَحْوُ عَشْرةٍ قد غُودِروا مُجَنْدَلِين في الفَلاَ
وهؤلاءِ هُمْ بَنُو العَمِّ أَبَوْا إلاّ المَسِيرَ مَعَنَا إلى هُنَا
كانَتْ مَعِي ناجِيةٌ فَركِبَتْ بَعِيرَ عَبْلَةٍ وحَثَّتِ الخُطَى
في وَشْيِ عَبْلَةٍ وفي خِمارِها وآنْطَلَقتْ تُحْدَى بأَتْباعِي أنَا

رجل :

حَدِيثُ عَبْلَةٍ عَجَبْ لَيُؤْثَرنَّ في العَرَبْ
لَتَرْوِينَّهُ الحِقَبْ

صخر :

واشِقْوَتِي وابَلاَئِي فَقَدْتُ إبْلِي وشَائِي!

عبلة :

يا صَخْرُ إنَّ في الخِبَاءِ جارِيهْ تَهْواكَ في السِّرِّ وفي العَلانِيَهْ

صخر : جارِيَةٌ تُحِبُّني! مَنْ؟

عبلة : ناجِيَهْ

صخر : ناجِيَةٌ؟ ومَنْ أَرادَها لِيَهْ؟

عبلة : أنا الَّتي جَعلْتُها مَكَانِيَهْ

عنترة :

نـاجِـيـةٌ يـا فـتَـى جَـارِيَـةٌ كـالـرَّشَـا
وأنـتَ بـانٍ بِـهـا إنْ شئْـتَ أو لَـمْ تَـشَـا

صخر :

قَـبِـلْتُ بـالـحُـكْـمِ إنْ قَـبِـلَتْ عـامِـرْ
مُـرْهُـمْ بِـمَـا شِئْـتَ أنْـتَ هُـنَـا الآمِـرْ

عنترة :

مَـنْ يُـخـالِـفْ إرادَتِـي مِـنْـكُـمُ يَمْضِ نـاجِـيَـهْ

[لا يتحرّك أحد]

قَـدْ قـبِلْتُـمْ مَـشـيئَـتـي ورَضِـيـتُـمْ قَـضَـائِـيَـهْ
إشـهَـدُوا عُـرْسَ عَـبْـلَةٍ وآشْـهَـدُوا عُـرْسَ نـاجِيَـهْ

عبلة : إنِّي أَخافُ

عنترة : عَجَباً يَـخَـافُ جـارُ الأَسَـدِ

عبلة :

غـداً يُـقَـالُ صِـدْتَنـي وكُـنْـتَ لـي بـمَـرْصَـدِ
غـداً يُـقـالُ قـد تـآ مَـرْنـا عـلى الـتَّـمَـرُّدِ
يُقالُ خَانَ عمَّهُ

عنترة : وأنْتِ

عبلة : خُنْتُ والِدِي

عنترة :

لِيَقُلِ السَّامِرُ ما قد شاءَ وليهذِ النَّدي
ولتَقُمِ البِيدُ لِمَا نأتِي بهِ وتَقْعُدِ
ماذا يَهُمُّ بَعْدَمَا قد صارَ كَنْزي في يَدِي
وبَعْدَ أن نِلْتِ مُنَا كِ وبَلغْتُ مَقْصِدِي

عبلة :

والنّاسُ مِن كُلٍّ فُضُو لِيٍّ وكُلٍّ مُعتَدِي؟

عنترة :

النَّاسُ؟ خَلِّي لِقَنَا تِي النّاسَ أو مُهنَّدِي
أنْتِ إذا أطعَمْتهِمْ مُخَّ الرَّشَا لم تُحْمَدِي
غداً يخصُّونَكِ بالتَّمْليقِ والتَّوَدُّدِ
البِيدُ مَعْبَدٌ وأنْتِ دُمْيَةٌ في المَعْبَدِ

واحد من عبس:

عَنترَ اسْلَم لعبْسَ نَحنُ فِداؤُكْ لَقِيَ الذُّلَّ والرَّدى أعْدَاؤُكْ
لَقَدْ أبَى عَمُّكَ أنْ يُهْدِي إلَيْكَ الجوْهَرَهْ
عَمُّكَ نَحْنُ قَوْمُهُ نَحْنُ لَنَا أنْ نَأمُرَهْ
عَنْتَر هَاكَ عَبْلَةً عَبْلَةُ هاكِ عَنْتَرَهْ

عنترة :

الآنَ صَخْرُ آمْضِ إلى الخِبَاءِ جِيءْ بِنَاجِيَهْ
عامِرُ، عَبْسُ، أقْبِلُوا زُفُّوا العَرُوسَ الغالِيَهْ
مَا هِيَ بالخَادِمِ في عَبْسٍ ولا بالرَّاعِيَهْ
لَكِنْ فَتَاةٌ حُرَّةٌ من البُيُوتِ العَالِيَهْ
تَزوّجَتْ بوافِرِ المَالِ كَثِيرِ المَاشِيَهْ

صخر : عَنْتَر

عنترة : صَخرُ هاتِ قُلْ

صخر : وإبِلِي وشائِيَهْ؟

عنترة :

تُـردُّ في غَـدٍ إلَـيْـكَ وهِـي مَـهْـرُ نـاجِـيَـهْ

يـا عَبْلَ سـامَحَنِي في قُـرْبِكُم زَمَني وشـاءَ رَيْبُ اللَّيَـالِي أَنْ نَعِيش مَعَـا
يـا بِيدُ هَيٍّ اشهَـدي أعْـراسَ عَنْتَـرةٍ ويـا سِـبـاعُ تَعَـالَيْ هَنِّئي السَّبُعَـا

عبلة :

إلتـامَ في عـامِـرٍ شَمْلِي بعَنْـتَـرةٍ وكـان ظَنِّيَ في شمْلي به انصَـدَعَا[1]
قَـد آجْتَمعْنا على عُـرْسٍ وفي فَـرحٍ كَمْ من شَتِيتَيْن بَعْـدَ الفُرقَـةِ آجتَمعَـا
إنِّي وَضَعْتُ يَمِـيـني في يَـدَيْ أَسـدٍ لـو مَـرَّ مِخْلَبُه فَـوْقَ الصَّفَـا خَشَعَـا
سَـامَ القَبَـائِـلَ إجْـلالِي ومَلَّكَنِي عَقَـائِـلَ البِيـدِ حَتَّى صِـرْنَ لِي تَبَعـا

ستـار الختام

---

(١) التام: أي التأم واجتمع.



فَسُودَة

رِوَايَة مَنظُومَة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة أولى

في (سنة ١٨٨٥) آتفقت أوروبا على تقسيم أفريقيا والاستيلاء على مواردها الضخمة، وكانت انجلترا تطمع في أملاك مصر الممتدّة من منابع النيل إلى البحر المتوسط، ومن سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى ساحل المحيط الأطلنطي. لذلك أرغمت انجلترا مصر، بعد احتلالها، على إخلاء السودان، وأوغندة، ومديرية خط الاستواء، وبحيرة البرت، وهرر، وإرتريا، والصومال. ثم سمحت لبلجيكا وإيطاليا وأثيوبيا بالاستيلاء على بلاد مصرية واسعة.

وكانت فرنسا تُوغل في بحر الغزال في سنة ١٨٩٦، وتعمل على آحتلال أعالي وادي النيل، أو جنوب السودان، فلم تَرَ آنجلترا بُدّاً من إرسال حَملة مصرية إنجليزية على عَجل لاسترداد السودان. وقد تمكّنت هذه الحملة من الغلبة على الدراويش في أم درمان في (٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨)، وكانت خسارة الدراويش ما بين قتيل وجريح حوالى (٢٧٠٠٠) مقابل (٤٦٠) من المصريين والإنجليز.

وقَد علم «كتشنر» أن «مرشان» القائد الفرنسي، وصل إلى «فشودة» واحتلها في (١٠ يوليه)، ورفع العلم الفرنسي على دار الحكومة، كما أنه أقام على أنقاض القلعة المصرية القديمة حصناً مسوّراً، وعقد مع «الشيلوك»

معاهدة بسطت بمقتضاها فرنسا حمايتها على المنطقة.

عندها بادر «كتشنر» بصعود النيل على ثلاث بواخر حربية وقوّة مصرية، وبلغ «فشودة» في (١٩ سبتمبر) وهناك وفد عليه «مرشان» في زورق من زوارقه، فتحادثا غير أنهما لم يتفقا، فما كان من «كتشنر» في اليوم التالي إلا أن احتفل برفع العلم المصري على ربوة تَبْعُد (٥٠٠ ياردة) عن العلم الفرنسي، وغادر «فشودة» نحو الجنوب تاركاً للمفاوضات السياسية تسوية الموقف.

كان وزير خارجية فرنسا في ذلك الوقت «دلكاسيه» ووزير خارجية انجلترا «سالسبري» ووزير خارجية مصر «بطرس غالي». وقد جرت مفاوضات طويلة آستغرقت أشهراً. وكان «سالسبري» يقول: إن «فشودة» مصرية، وإن مصر قد آحتفظت بحقوقها على وادي النيل، وجميع البلاد التي كان يحكمها السلطان. وكان «دلكاسيه» ينازع في أن انجلترا تملك توكيلاً رسمياً عن مصر للمطالبة بحقوقها. لذلك أرسل ناظر خارجية مصر إلى وكيل انجلترا السياسي كتابه الشهير الذي كانت خاتمته: «ولعلم الحكومة المصرية أن مسألة فشودة في هذا الأوان موضوع مفاوضات بين بريطانيا العظمى وفرنسا، فإنها تكل إليّ أن أطلب من سيادتكم أن تتفضّلوا بحسن الوساطة لدى اللورد «سالسبري» ليتمَّ الاعتراف لمصر بحقوقها، التي لا تقبل نزاعاً، ولكي تعاد إليها الأقاليم التي كانت تحتلها حتى قيام ثورة «محمد أحمد المتمهدي».

وكان لإنجلترا موقف حازم في الدفاع عن مصالحها، ودام الصراع طويلاً بينها وبين فرنسا على أملاك مصر وتوزيع تركتها، فاضطر الفرنسيون في النهاية إلى التخلّي عن «فشودة» في (١١ ديسمبر)، وعاد «مرشان» أدراجه بعد أن أُسدل الستار على تلك الرواية الفاجعة، أو على فصل من فصولها.

هذه كلمة اقتطعتها من كلمة للأديب المؤرخ الدكتور محمد صبري.

وأقول: إن هذا الحادث، حادث فشودة، هز خواطر المصريين جميعاً شعباً وحكومة. وكم كانت للصحف كلمات تعبر عن هذا.

وكان أجلَّ ما طالعت به الصحف الناس حينذاك تلك الرواية المنظومة فشودة، التي نظم أحداثها شوقي.

ففي اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة (١٨٩٨) صدرت جريدة المؤيد، التي كانت لسان الحزب الوطني، الذي يتزعمه مصطفى كامل: وفي الصفحة الأولى من المؤيد نشرت هذه الرواية المنظومة.

والطريف أن صحيفة المؤيد لم تذكر اسم ناظمها، كما يقول الدكتور محمد صبري، وإنَّما قالت: جاءتنا هذه الرواية البديعة من أحد الظرفاء.

وكان هذا هو أسلوب ذلك العصر، فكم نشرت الصحف لشوقي من شعر، ولم تذكر معه اسمه، وإنما كانت تجتزىء بألقاب وصفات، لم يكن يخفى على قراء ذلك العصر أنها لشوقي، منها هذا الاسم الذي أملى به شوقي هذه الرواية، وهو شعر ينمّ عليه.

وقد ضم الدكتور محمد صبري هذه الرواية إلى ما جمعه من كل ما هو مجهول لشوقي ،وعنه نقلتها أنا هنا، بعد أن ضبطت ألفاظها، وحررت بعض كلماتها.

والله أسأل للمرحوم الدكتور محمد صبري خير الجزاء، ولي السداد والتوفيق.

ابراهيم الأبياري

ذو القعدة ١٤١٢ هـ/يونيه ١٩٩٢ م

تمهيد

فَشُودَةٌ رِوَايَهْ ... لِلمُبْصِرينَ آيَهْ

قَدْ مُثِّلَت في العَصْرِ ... لِيَهْتَدِي في مِصْر

فمَا اهْتَدَى ولا عَقَلْ ... ولا دَرَى كُنْهَ الحِيَلْ

بَلْ شَهِدَ التَّمْثِيلاَ ... ثُمَّ انْثَنَى بَخِيلاَ

مُوَلِّيَ الأَكْتَافَ ... في سَاعَةِ الإسْعَافْ

فَلاَ تَلُمْ فَرَنْسَا ... وفَضْلَهَا لا تَنْسَى

وقُلْ لِمَنْ رَامَ السَّبَبْ ... شَقَاءُ مِصْرَ قَدْ غَلَبْ

الفصل الأوّل
(مرشان في فشوده)

مَـرْشَـانُ في النِّيـلِ ٱلْتَقَى — مِنْ بَعْـدِ مـا عَـزَّ الـلِّقَـا
تَـقَـابَـلاَ فـي سَـلْمٍ — عَـلَى الصَّفَا الأَتَـمِّ
حَـيْـثُ الـمِـيَـاهُ تَـجْـرِي — نَـهْـراً بِـجَـنْـبِ نَـهْـرِ
والأَرْضُ بِـكْـرٌ لَـمْ تَـزَلْ — كـمـا دَحَـاهَـا فـي الأَزَلْ
تُـخْـرِجُ أَصْـنَـافَ الـثَّـمَـرْ — تُـنْـبِـتُ أَجْـنَـاسَ الـزَّهَـرْ
تَـفِـيضُ بـالـمَـأْكُـولِ — مِـنْ عَـدَسٍ وفُـولِ
تُـرَابُـهَـا الـتِّـبـرُ الـسَّـنِـي — وكَـمْ بِـهَـا مِـنْ مَـعْـدِنِ
وغَـرْسُـهَـا آبْـنَ يَـوْمِـهِ — لَـمَـرْشَـنٍ وقَـوْمِـهِ
مَـرَشَـانُ فِـيهَـا قَـدْ ثَـبَـتْ — كَـأنَّـه عُـودٌ نَـبَـتْ
يَـلِـيـنُ لـلعَـوَاصِـفِ — فَـمَـا لَـهُ مِـنْ قَـاصِـفِ
أَخْـرَجَـهُ دِلْـكَـاسْ — أُلْـعُـوبَـةً لـلـنَّـاسْ
أُلْـعُـوبَـةٌ وتَـنْـقَـضِـي — قَـدْ خَـابَ فِـيهَـا مَنْ رَضِي
وكَـيْـفَ كَـانَ الـعَـاقِـبَـهْ — فَـإنَّ مِـصْـرَ الـخَـائِـبَـهْ
إِذْ لَـمْ يَـكُـنْ لِـبُـطْـرُسِ — مِـنْ طَـاقَـةٍ بِـدِلْـكَـسِـي
ولاَ لَـه مِـنْ بُـورِي — يُـسْـمِـعُ سَـالِـسْـبُـورِي
ولا لَـهُ مِـن أُمَّـهْ — تُـنْـجِـدُهُ فـي الـغُـمَّـهْ

ولا لَـهُ مِـنْ دَوْلَـهْ تُـمِـدُّه بـالـصَّـوْلَـهْ
ولَا لَـهُ ولَا لَـهْ لله مـا أَجَـلَّهْ
وبـعـد هـذا فـاسـمَـعِ يـا خـالـيَ الـبـال وَعِ

الفصل الثاني
مرشان والنيل

النِّيلُ كانَ نائِمَا رأى (المجور) قائِمَا[1]
يَضْرِبْه في رَأْسِهِ يَحْسَبُهُ في رَمْسِهِ
خاطَبْهُ يا نِيلُ يا أيُّها القَتِيلُ
يا تارِكَ البِلادِ لأفْسَدِ الأوْلادِ
يا ضائِعَ المِيرَاثِ والصِّبْيَةِ الأحْدَاثِ
ذُبِحْتَ بالسِّكِّينِ مِنْ غادِرٍ مُهِينِ
وكانَ أهْلُكَ المُدَى والحَبْلَ كانُوا واليَدَا
فَمَا صَرَخْتَ صَرْخَهْ بَلْ قَدْ ذَهَبْتَ فَرْخَهْ
قد سَقَطْتْ في زِيرِ أو وَقَعَتْ في البِيرِ
فلا تَلُمْنِي بَعْدَ ذَا إذا تَعَمَّدْتُ الأذَى
إنِّي أنَا المُحَامِي عَنْكَ لَدَى الأنَامِ
لا بُدَّ لِي مِنْ حِصَّهْ قَبْلَ ضَيَاعِ الفُرْصَهْ
إذْ قَدْ غَدَا في النِّيَّهْ أنْ تُحْفَظَ القَضِيَّهْ

* *

*

---

(١) الميجر: رتبة عسكرية.

فَهَبَّ دَاعِي النِّيلِ مِنْ نَوْمِهِ الطَّوِيلِ
يَقُولُ يا مَرْشَانُ يا أَيُّهَا الشَّيْطَانُ
يا أَسَدَ القِفَارِ يا حَيَّةَ البَرَارِي
يا سَمَكاً عَوَّامَا يا طائِراً حَوَّامَا
يا لَبْكَةَ العَجِينِ يا بِلَّةً في الطِّينِ[1]
يا ضَجَّةَ الطُّبُولِ على طَرِيقِ الغُولِ
يا خارِجاً من عُلْبَهْ يا حادِثاً مِنْ لُعْبَهَ
يا مُشْكِلاً لَمّا نَزَلْ ومُشْكِلَيْنَ إنْ رَحَلْ
وإنْ أَرَدْتَ جِدِّي فأَنْتَ خَيْرُ عِنْدِي
مِنْ كُلِّ ذِي قَلْبٍ بَطَلْ لِجَنَّةِ الأَرْضِ وَصَلْ
ما كَانَتِ الشُّهُورُ يَكْفِي لَهَا طابُورُ
ولا الحَمَامُ الأَزْرَقُ يَعْصِمِ مِنْهُ زَوْرَقُ[2]
ولا الأُسُودُ السُّودُ يَصُدُّهَا بَارُودُ[3]
ولاَ مَجَاهِلُ الثَّرَى تطْوى كَمَا تطْوى القُرَى
سَلَكْتَهَا يا غَازِي أَبِيَّةَ المَجَازِ
حَتَّى مَلَكْتَ مَجْرَى بَحْرَ الغَزَالِ طُرًّا
تَبِيعُهُ وتَشْتَرِي بِرَايَةٍ وعَسْكَرِي
لَكِنْ تَعَالَ قُلْ لِي ولا تَكُنْ مُضِلِّي
مَنْ ذا أَبَاحَكَ الحِمَى مَنْ ذا حَبَاكَ المَغْنَمَا
مَنْ ذا لِهَذَا جَرَّا مَنْ ذا عَلَيْهِ جَرَّا[4]
بَحْرُ الغَزَالِ مِنِّي كَيْفَ يَزُولُ عَنِّي

---

(١) بلة العجين: ما اختلط منه وامتزج. والبلّة: البلل.
(٢) الحمام الأزرق: يعني الإنجليز لزرقة عيونهم. والزورق: يعني الزورق الذي ركبه مرشان للقاء كتشنر.
(٣) الأسود السود: يعني السودانيين.
(٤) جرّا: الأولى ساق، وجرا الثانية: أي جرّأ.

وهَــذِهِ فَــشُــودَة رَبــيــبَــتِــي الــمَــعْــهُــودَهْ[1]
كَــيْــفَ أَسَــاءَ فِــيــهَــا وكَــيْــفَ تَــقْــتَــنِــيــهَــا
فــآنْــدَفَــع الــمــاجُــورُ بِــسِــحْــرِهِ يَــدُورُ
وقــال قَــوْلاً مُــقْــنِــعَــا أَثْــبَــتَ فِــيــهِ مــا ادَّعَــى
يــا سَــيِّــدَ الأَنْــهَــارِ ومَــلِــكَ الــدِّيَــارِ
مــاذا يُــهِــمُّــكَ الــسَّــقَــطْ مِنْ بَعْــدِ مــا الــرَّأْسُ سَقَطْ[2]

---

(١) الربيبة: بنت امرأة الرجل من غيره.

(٢) السقط: ما سقط. والرأس: يعني مصر. يشير إلى الاحتلال البريطاني لها.

الفصل الثالث
(سالسبوري ومصر)

وجَـاء سـالـسْـبُـوري ... لِـمِـصْـرَ فـي سُـرُورِ
يَـقُـولُ وهْـيَ تَـسْـتَـمِـعْ ... يَـخْـدَعُـهَـا فَـتَـنْـخَـدِعْ
يـا مِـصْـرُ يـا فَـتَـاتِـي ... يـا زِيـنَـةَ الـبَـنَـاتِ
يـا مُـشْـتَـهَـى انْـكِـلْـتِـرهْ ... يـا بِـنْـتَ أُخْـتِ لُـنْـدُرَهْ
يـا مُـنْـيَـةَ الـتَّـامِـيـزِ ... والـوَطَـنِ الـعَـزِيـزِ
بَـلْ يـا أَتَـانَ الـمَـلَـكَـهْ ... يـا أَلْـفَ أَلْـفِ سِـكَّـهْ[1]
يـا نـاقَـةَ الـسِّـرْدَارِ ... وجَـيْـشِـهِ الـجَـرَّارِ[2]
يـا أَصْـلَ مـا قَـدِ اكْـتَسَـبْ ... مِـنْ ثَـرْوَةٍ ومِـنْ تَـعَـبْ
يـا بَـلَـداً مـا فِـيـهِ ... ذو نـاظِـرٍ يَـبْـكِـيـهِ
يـا أُمَّـةً ولاَ وَطَـنْ ... يـا مَـنْـزِلاً لِـمَـنْ سَـكَـنْ
يـا مَـوْطِـئَ الأَقْـدَامِ ... يـا فِـتْـنَـةَ الأَقْـوَامِ
إنِّـي أرَى الـنَّـشَّـالاَ ... يَـخْـتَـلِـسُ الـخَـلْـخَـالاَ[3]
هَـيَّـا نَـصِـيـحُ الـسَّـارِقَـا ... ونُـشْـهِـدُ الـخَـلاَئِـقَـا
وبُـطْـرُسٌ والـوُزَرَا ... يُـحَـرِّرُونَ الـمَـحْـضَـرَا

(١) الأتان: الحمارة.
(٢) السردار: لقب حاكم السودان من الإنجليز.
(٣) الخلخال: ما تلبسه المرأة في رجلها من حلي.

ويُثْبِتُونَ فِيهِ   تُهْمَةَ سارِقِيهِ
وبَعْدَ عَرْضِ الشَّكْوَى   نُقِيمُ نَحْنُ الدَّعْوَى
ونُظْهِرُ النُّصُوصَا   ونَطْرُدُ اللُّصُوصَا
أَوْ لَا فَقَدْ خَابَ الأَمَلْ   ولَا سَبِيلَ لِلْعَمَلْ
فَمَا أَتَمَّ قَوْلَهُ   أَنْ ضَحِكَتْ مِصْرَ لَهُ
وأَقْبَلَتْ تَقُولُ   يا أَيُّهَا المَأْمُولُ
يا سَنَدِي وعُمْدَتِي   يا عُدَّتِي لِشِدَّتِي
بُطْرُسُ مِنْ عَبِيدِكَا   والكُلُّ مِنْ جُنُودِكَا
فَاقْضِ بِمَا تَشَاءُ   لا يُنْقَضُ القَضَاءُ
تاللهِ ما أَخْرَجْتُهُمْ   بالعُنْفِ إذ أَخْرَجْتُهُمْ
لكِنَّنِي أَرَدْتُ   ولِلجَمِيعِ كِدْتُ
إِنِّي أَنا الدَّهَاءُ   عَنِّي رَوَى النِّسَاءُ
وسَوْفَ أُنْسَى النَّاسَا   لُورِينَ والأَلْزَاسَا[1]
هَلْ عَلِمتْ انكِلْتَرَا   أَيُّ لِوَاءٍ يُزْدَرَى
أَيُّ عَزِيزٍ هَانَا   أَيُّ قَدِيرٍ دَانَا
أَيَّ الشُّعُوبِ تَفْضَحُ   أَيَّ اللُّيُوثِ تَجْرَحُ
فَلْتَجْتَنِ الثَّأْرَاتِ   ولْتَرْقُبْ السَّاعَاتِ

---

(١) الألزاس واللورين: ناحيتان كانت فرنسا وألمانيا تتنازعاها.

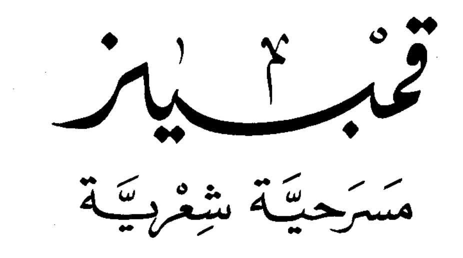
اللبنانيو

رقصة الختام

إلَـيْـكُـمُ عَـنْ بُـطْرُسِ ... نـادِرَةً فـي الـمَـجْـلِس
إذ قـالـت الـنُّـظّارُ ... يـا مَـنْ لَـهُ الـفَـخَـارُ
يـا أكْـفَـأَ الـوزَارَهْ ... يـا صَـاحِـبَ الـمَـهَـارَهْ
نَـرَى الـمَـجَـالَ صَـعْـبَـا ... ذِئْـبٌ يَـعَـضُّ ذِئْـبَـا
فـهـاتِ حَـدِّثْ عَـنْـهُ ... كَـيْـفَ خَـرَجْـتَ مِـنْـهُ
فَـقَـامَ فِـيـهِـمْ مُـفْـصِـحَـا ... يَـقُـولُ مـا قـال جُـحَـا[1]
فـشُـودَةٌ تَـعِـيشُ ... مِـثْـلَ آسْـمِـهـا فَـشُـوشُ[2]
مـا الـخُـلْفُ والـتَّـجَـافِـي ... إلّا عَـلَى الـلِّحَـافِ
دَفَـعْـتُـهُ لِـلـورْد ... وبِتُّ تَـحْـتَ جِـلْـدِي[3]

---

(١) جُحا: من أصحاب النوادر والحيل، وبه يُضرب المثل.
(٢) الفشوش: ما لا طائل تحته.
(٣) تحت جلدي: أي أرعد من الخوف.


قمبيز
مَسَرحيَّة شِعْرِيَّة



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بـوفاة نخـاو، أميـر صـا الحجـر. خلفـه ٱبْنُـه أبسمتيـك الأول (٦٦٣ - ٦٠٩ق.م). وكان أول ما فعله تحرير البلاد من حُكم الأشوريين، ثم القضـاء على ما كان للأمراء المصريين من نفوذ.

ويُعد أبسمتيك الأول المؤسسَ للأسرة السادسة والعشرين.

وقـد أخذ أبسمتيـك الأول في رَبط الصلة بينه وبين الأُمم المُـطِلّة على البحر المتوسط، ذات الحضارة الملحوظـة. من أجل هـذا اختار سـايس(صا الحجر) لتكون مَقرَّ مُلكه، لوقوعها شماليَّ مصر.

وأفسح الطريقَ أمام سُكّان تلك البلاد، ولا سيما الإغريق، لِيَقْدُمـوا إلى مصر بتجاراتهم.

وأنس أبسمتيك الأول في الإغريق نشاطاً صناعياً وتجارياً، فكانوا كلمـا حلّوا بمكان أقاموا به الأسـواق التجارية، والمعامـل الصناعيـة، فرحَّب بهم، ومَنحهم أراضي يُقيمـون بهـا بـالقـرب من بَسـطة. كمـا كـان لهم بمَنف حيٌّ خاصّ بهم.

وإذا بالإغريق عدد كبير من أصحاب التجارات والمصانع، هـذا إلى ما كان لهم في الجيش من جُند مأجورين، وإذا لهم بعد هذا وذاك أثر في الحياة العامة، وحياة الملوك خاصة.

وكما كانت الحال عهدَ أبسمتيك، كانت كذلك عهد سَلفه وآبنه نخاو (٦٠٩ ـ ٥٩٣ق.م) وإذا عدد الإغريق يُربي على ما كان. لا سيما في الجيش.

وبعد وفاة نخاو خلفه أبسمتيك الثاني، ثم إيزيس المدوَّن على الآثار بآسم خَفرع، الذي أخذ يُوجس شراً من تَغلغل الإغريق في شؤون البلاد، فإذا هو يُرسل قوة لمساعدة اللوبيين على الإغريق المستعمرين لمقاطعة قيرينيفما، بشمالي إفريقية.

ولكن هذا الجيش، الذي لم يكن به جندي إغريقي، لم يكتب له النصر، وانهزم شر هزيمة، وإذا هذه الهزيمة تحفز الجند إلى أن يختاروا أحمس الثاني (أسيس) ملكاً، على الرغم من مقاومة جند إيزيس اليونانيين.

وحين ولي أحمس الثاني أخذ في استصفاء الجنود اليونانيين من الجيش، وجمعهم في منف، وجعلهم حرساً له.

غير أنه لم يَحُدّ من النشاط التجاري للإغريق، وإذا هم يستوطنون بمدينة نقراطيس. وغدت هذه المدينة شبه مستعمرة لهم، ومنها أخذوا ينتشرون هنا وهناك في أنحاءِ مصر.

وفي أواسط القرن السادس قبل الميلاد (٥٥٠ق.م) ظهر بين الفرس رجل يدعى كورش. كُتِب له أن ينتزع السلطة من أيدي الميديين، وأسس دولة الفرس.

وبعد وفاة كورش خلفه ابنه قمبيز، الذي أخذ يُعدّ العُدة لغزو مصر.

ويُفلح قمبيز في دخول مصر، بعد أن مهَّد السبيل له واحد من الإغريق.

ولقد حاول قمبيز بعد أن تمَّ له فتح مصر. وأخذه أبسمتيك أسيراً، وبقضائه بهذا على الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٠ ـ ٥٢٥ق.م)، حاول قمبيز بعد هذا فتوحات لم يُوفق فيها، وأحس شماتة المصريين به. فإذا هو

يقسو عليهم، ويهدم معابدهم وهياكلهم. واشتط فقتل بيده العجل أبيس، والناس يحتفلون به.

هذا تقديم أردت أن أصل به القارىء بأحداث التمثيلية.

وبعد. فلقد كانت التمثيلية كغيرها مهملة الضبط إلا في القليل، ولم يعرض فيها لشرح.

وكان لا بد لي، أن أضبط وأشرح ليرى القارىء بين يديه نصّاً مقروءاً جليّاً.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما حاولت، وبالله العون.

ابراهيم الأبياري

ذو الحجة ١٤١٢ هـ/يوليه ١٩٩٢ م



تمهيد

زمن الرواية: القرن السادس قبل الميلاد.

مكان الرواية: مصر منفيس: عاصمة مصر.

صا الحجر: مقرّ البلاط.

فارس/ سوس: عاصمة الفرس.

المشاركون والمشاركات في هذه التمثيلية

أمازيس : فرعون مصر.

ابسمتيك : ابن أمازيس وولي العهد.

نفريت : ابنة أمازيس.

نتيتاس : ابنة فرعون أبرياس المقتول.

قمبيز : ملك الفرس.

تاسو : حارس فرعون.

تتي : وصيفة الملكة نتيتاس.

فانيس : كان قائداً في الجيش المصري ثم التحق بالجيش الفارسي.

رجال الوفد الفارسي.

رجال البلاط الفرعوني.

قواد ـ جند: من الفرس.

ساحر ـ راقصات ـ أقزام، نوب ـ حجاب ـ خدم: مصريون.

الفصل الأول
المنظر الأول

[بالقرب من غـرفة فـرعون أمـازيس الخاصـة ـ تاسـو حارس فـرعون ـ الأميرة نفريت ابنة الملك]

تاسو : نِفْرِيتُ؟

نفريت : تاسُو ها هُنَا؟

تاسو : وهَلْ أُرَى إلاَّ هُنَا؟

أَحُــومُ حَــوْلَ صَـنَـمِـي وحَــوْلَ هٰــذِي الــقَــدَمِ

نفريت [وتنظر إلى رجلها]:

وحَوْلَ رِجْلِيَ أَنَا؟

تاسو : أَجَــلْ حَــوْلَ هــذا الشُّهْــدِ والــزُّبْــدِ والنَّمِيــرِ الصَّــافِي

مــا بِكِ يــا نِفْــرِيتُ، مــا هَـذا الأَسَى؟

مــا بــالُ عَـيْنَـيْـكِ تُــرِيـذَانِ البُـكَـا؟

نفريت :

تَـسْــأَلُـني مــا بِـي أَلَــمْ تَـعْـلَمْ بِـمَــا

جَــرَى ويَجْــرِي مِنْ فجــائِــعِ القَضَــا

تاسو :

مـــاذا جَـــرَى؟ مـــاذا لَـقِـيـتِ مَـلْـكَـتِـي

مـن الـقَـضَـــاء؟ مُـهْـجَـتِـي لَـــكِ الـفِـــدَا

نفريت :

كَيْفَ لَقَـدْ كـانَ حِسَـابِي أَنَّنَـا بِخِـطْبَة الفُـرْسِ تَحطَّمْنَـا مَعَا

تاسو :

إذَنْ فَــهَــذَا الــغَــمّ مِــن جَــرَّائِــهَــا

وأنـتِ تـخـشـيـن الـرحـيـل والـنَّـوَى

نفريت : وأَنْتَ يا تاسُو أَلَمْ تَحْزَنْ؟

تاسو : أنَا! أَحْزَنُ يا سُلْطَانَة الفُرْسِ أنَا؟

لَــقَــدْ وَدِدْتُ لــو مَـلَـكْـتِ كُـلَّ مَـا

دَبَّ عـلـى الأَرْضِ وطـارَ فـي الـسَّـمَـا

نفريت : وفُرْقَتِي تاسُو أَلَمْ تَحْزَنْ لَها؟

تاسو : ولِـمْ؟ وفي الـفُـرْسِ يَـكُـونُ المُلْتَقَى

نفريت :

في فـارسٍ! في قَصْـرِ زَوْجِي تَـلْتَقـي!

يـا عَـجَـبَـاً مـاذا تَـقُـولُ يـا فَـتَـى؟

تاسو :

لِمْ لا أَلَيْسَ في القُصُـورِ سَعَـةٌ؟ نَحْنُ هُنَـاكَ مِثْـلُ مـا نَـحْنُ هُـنَـا

نفريت :

هَـذا الغَبَـاءُ مِنْـكَ تـاسُـو عَجَبٌ لَيْسَ المَـكَـانَـانِ على حَـدٍّ سَـوَا

هُـنَـا أَبِي إذا بَـكَـيْـتُ رَقَّ لِـي وإنْ شَـفَـعْـتُ لـكَ عِـنْـدَهُ عَـفَـا

تاسو : وثَمَّ؟

نفريت :

وَحْشٌ فـي إهـابِ بَـشَـرٍ   يَقْـتُـلُ مَـنْ يَـلْقَـى

تاسو : أمُونُ نَجِّنا[1]

وماذا آعْتَزَمْتِ؟

نفريت :

آعْـتَـزَمْـتُ الـبَـقَـاءَ   بِمِصْـرَ وفي ظِـلِّ هٰـذِي الحُجَـرْ

وبـالـقُـرْبِ مِـنْـكَ ومِـنْ والِـدَيَّ   ومِـنْ إخْـوَتِـي وذَوِيَّ الأُخَـرْ

وبَـيْنَ وصِـيفَـاتِـي الـمُـشْـفِـقَـاتِ   ومَـنْ لاذَ بِـي مِـنْ بَنَـاتِ الأَسَـرْ

تاسو :

ولَكِنْ تُـرَى كَيْفَ تَجْـرِي الأُمُـورُ   إذا عَـلِـمَـتْ فـارِسٌ بـالـخَـبَـرْ

وقِـيـلَ لِـقَـمْـبِـيـزَ فِـرْعَـونُ خـالَفَ، وآبْـنَـهُ فِـرْعَـوْنَ لَـمْ تَـأْتَـمِـرْ

نفريت :

لِيَجْـرِ بما شاء تـاسُـو القَضَـاءُ   لِيَجْـرِ بِـمـا شـاء تـاسُـو القَـدَرْ

لِـتُخْسَفْ بِقَـوْمٍ عَلَيْهَـا البِـلَادُ   لِـيَسْتَـأْخِـرِ النِّـيـلُ أو يَنْـفَـجِـرْ!

فـأمَّـا أنَـا فـسَـأَبْـقَـى هُـنَـا   وإنْ غَـضِـبَـتْ فـارِسٌ والـنَّـمِـرْ

فـمـا الـفُـرْسُ لي بـالـصِّـحَـابِ الكِـرَامِ

ولا لِـيَ فـي مُـلْكِـهِـمْ مِـنْ وَطَـرْ

[تدخل الأميرة نتيتاس]

نفريت : مَن المُفَاجِي (نَتِيتَا)؟

نتيتاس : نِفْرِيتُ، تاسُو سَلَامُ

نِـفْـرِيتُ أَصْـغِـي لِـقَـوْلِـي   فَـلِـي إلَـيْـكِ كَـلَامُ

نفريت : تَكَلَّمِي وآقْتَصِدِي

---

(١) أمون: معبود للمصريين القدماء.

نتيتاس : ولَمْ أَزَلْ مُقْتَصِدَهْ

نفريت : أَتَيْتِنِي شامِتَةً

نيتيتاس : لا بَلْ أَتَيْتُ مُسْعِدَهْ

آمُــونُ قَــدْ مَــدَّ إلَــيْــكِ وإلَــى الــوَادِي يَــدَهْ
وقَــدْ كَـفَـى مِـصْــرَ الـبَــلَا ءَ والــخُـطُوبَ الـمُـرْعِـدَهْ
وكَــفَّ عَــنْ رُبُــوعِــنَــا نــارَ المَجُـوسِ المُــوقَـدَهْ[1]

نفريت : وكَـيف نِيتِيتَاسُ ماذا ما الخَبَرْ؟

كَيْفَ جَرَى غَيْرَ مَجارِيه القَدَرْ؟

تاسو : ما الأَمْرُ، يا سَيِّدَتِي!

نتيتاس : وأَيُّ شَأْنٍ فيهِ لَكْ

إنَّ الَّــذِي عِــنْــدِيَ لَا يُــقَــالُ إلَّا لِــلْمَــلَكْ

نفريت : عَجِّلِي إذَنْ. قـابِلِي أبي. أَسْـرِعِي الخُـطَى. إذْهَبِي آذْهَبِي
وآسْأليهِ ما. شِئتِ وآطْلُبِي

نتيتاس :

مــا ذَاكَ مــاذَا تَــقُــولِــيــنَ فــكِّــري يــا نَــفَــرْتُ
مــا جِئْــتُ أطْــلُبُ مــالًا ولا لِــهَــذَا حَــضَــرْتُ
ولا بِــشَــأْنِــكِ يــا بِــنْــتَ آمَــزِيسَ آفْــتَــكَــرْتُ

نفريت :

فَـفِـيـمَ إذَنْ جِـئْـتِ يـا نِـتـيـتــاسُ وفــي أيِّ شَــأن نَـقَـلْـتِ الـقَـدَمْ؟

نتيتاس :

أتَــيْــتُ لِــمَــصْــلَحَــة الآخَــرِيــنَ وجِئْتُ لِشَــأنٍ جَـلِـيـلِ الـعِـظَمْ

---

(١) يشير إلى عبادة الفرس النار عندها.

أَتَيتُ لأَفْدِي بِنَفْسِي البِلَادَ وأَدْفَعَ عَنْ مِصْرَ شَرَّ العَجَمْ
فَإِنَّكِ إن تَرْفُضِي يَزْحَفُوا كَزَحْفِ الذِّئَابِ ونَحْنُ الغَنَمْ
فأَيْنَ أَبُوكِ؟

نفريت :

تُلاقِينَهُ هُنَالِكَ في حُجُرَاتِ الصَّنَمْ

نتيتاس : سَأَمْضِي إلَيْهِ

نفريت : [بتهكم] آذْهَبِي آفْدِي البِلَادَ

نتيتاس : نَعَمْ أنا أَفْدِي بِلَادِي نَعَمْ

[تخرج]

نفريت :

يا وَيحَهَا قَدْ ذَهَبَتْ دَعْنِيَ تَاسُو وآذْهَبِ

[يخرج تاسو]:

«يدخل فرعون إلى غرفته الخاصة وهي حجرة صغيرة أرضيَّتها من الخشب الملوَّن وفيها بضعة كراسي خفيفة الوزن لطيفة الصنع وفي زواياها الأربع تماثيل للآلهة المصرية، فرعون أمازيس وابنته نفريت مقبلة عليه»

نفريت :

سَلَامٌ يا ضُحَى الشَّمْسِ ويا غُرَّةَ آبيس[1]
ويا حَامِيَ سايِيسِ ويا حَارِسَ مَنْفِيس

فرعون :

سَلَامٌ شِبْهَ هاتُورٍ سَلَامٌ شِبْهَ إيزِيسِ

نفريت :

أَبِي بَلْ نادِني يا بِنْتَ فِرْعَوْنَ أمازِيسِ

---

(١) آبيس: العجل المقدّس. وكان يتميز بغرّة بيضاء في جبهته.

فرعون :

تَـعَـالَـيْ أَقْـبِـلي يـا بِـنْـتَ فِـرْعَـوْنَ أمـازيسِ
وفـي أيّ جَـلِـيـلٍ أوْ صَـغِـيـرٍ يـا تُـرَى جِئْـتِ
تَـعَـالَيْ يـا بُنَـتِي قُـولِـي سَـلي فِـرْعَـوْنَ مـا شِئْـتِ

نفريت :

أَبِـي كُـنْ لِـي فَـقَـدْ أظْـلَمَـتِ الـدُّنْـيَـا بِـعَـيْـنَـيَّـا

فرعون :

سَـأجْـلُو ظُـلْمَـةَ الـدُّنْـيَـا وأمْـحُـوهَـا بِـكَـفَّـيَّـا

[تغرورق عيناها بالدموع]

نفريت : بِنْتَاهُ
رَبَّاهُ أبِي

فرعون :

ما للأمِيرَةِ باكِيَهْ؟
هَـلاَّ ٱدَّخَـرْتِ لِـمَصْـرعِـي هَـذِي الـدُّمُـوعَ الغـالِيَـهْ

نفريت :

لا بَـلْ تَـعِـيشُ أبِـي وتَـبْـقَـى فـي ظِـلاَلِ الـعـافِـيَـهْ
أبـتي تـهـيَّـأ كـلُّ شـي ءٍ لـلـنَّـوَى الـمُـتَـرامِـيَـهْ
فَـغَـداً تَـضُـمُّنِي الـقُـصُـورُ بَـلِ الـقُـبُـورُ الـجـافِـيَـهْ
فـي أَلْـفِ جـارِيَـةٍ لِـقَـمْـبِـيـزٍ هُـنَـاكَ وجـارِيَـهْ
مِـنْ كُـلِّ مُـرسَـلَـةٍ هُـنَـا لِـكَ كـالبَهـيمَـةِ سـالَـيْـه
فَـبِـأيِّ قَـلْبٍ ، يا مَـلِـيـكُ تَـزُفُّـنِـي لـلطَّاغِـيَـهْ
أدْرِكْ فَـتَـاتَـكَ قَـدْ ضَـعُـفْـتُ عـن ٱحْـتِـمَـالِ الـدَّاهِـيَـهْ

[تدخل نتيتاس على فرعون أمازيس فتخرج نفريت]

فرعون :

مَنْ أرَى؟ إنّـه لَحَظٌّ عَـظِـيـمٌ نِتِيتـاسُ بِنْتُ الفَـراعِـينِ عِـنْـدِي

نتيتاس :

التَّحَـايَـا لِعَـرْشِ مِصْـرَ المُفَـدَّى مِنْ أبِي سـاكِـنِ السَّمَـاءِ وجَـدّي

فرعون :
وَسَــلاَمُ الَّـذِي على عَــرْشِ مِصْـرٍ لا تُــؤَدِّيــنَــهُ؟

نتيتاس : وكَيْفَ أُؤَدّي؟
لَـيْسَ بَيْـنَ آبنَــةٍ وســاقِـي أَبِـيـهَــا غُـصَّــةَ الـمَــوْتِ مِـنْ سَــلاَمٍ ورَدِّ
إنَّ حِــقْــدِي عَــلَيــكَ دَيْــنٌ وبِــرٌّ رَبِّ، لا يَـذْهبِ العُقُــوقُ بِحِقْــدِي

فرعون :
إِحْمِلِي الـحِقْــدَ لِـي أو آطَّــرِحِيــهِ وتَـمَـنَّـيْ عـليّ جـاهِــي ورِفْــدِي
إِسْأَلِي تَسْأَلِي أَبَاكِ

نتيتاس : مَعَاذَ الدَّ مِ فِرْعَوْنُ لَيْس دُنْيَاكَ قَصْدِي

فرعون : فيمَ قَدْ جِئْتِنِي إذَنْ؟

نتيتاس : في حُقُوقٍ لِدِيَارِي وواجِبٍ نَحْوَ مَهْدِي
كُــلَّ عــامٍ صَبِيــةٌ مِـنْ بَنَــاتِ الـشَّعْـبِ
تُختَارُ لِلْفِدَاءِ فَتَفْدِي
تَنْــزِلُ النِّيــلَ غَيْـرَ خـائِـفَـةٍ مـا فِيــهِ لِلْمَــوتِ مِـنْ حِيـاضٍ وَوِرْدِ
سَــمَـحَــتْ بــالـحَـيْــاةِ فــي غَــيْــرِ سَــأْمٍ
وسَــخَــتْ بــالـشَّـبَــابِ فــي غَــيْــرِ زُهْـدِ
تَبْتَغِي الخِصْبَ والـرَّخـاءَ وتَحْـتَـا لُ لِعَيْشٍ بِنِعْمَــةِ النِّيـلِ رَغْــدِ
سَقَتِ النَّـاسَ بَعْدَهــا لَمْ تَقُـلْ قَـوْ لَ الأنَــانِيِّ: يَهْلِكُ النَّــاسُ بَعْــدِي

فرعون :
قَــدْ عَــرَفْنَــا فَهَــلْ تُــرِيــدِينَ مِنّــا أَنْ تَـكُــونِي الَّتِي نَــزُفُّ ونُـهْــدِي

نتيتاس :
تِــلْكَ مَــدْفُــوعَــةٌ يُــقَــدِّمُــهـا الْــ
ــكُــهَّــانُ، لَـكِــنَّــنِي تَــقَــدَّمْــتُ وحْــدِي

[مستمرة]:

جِئْتُ أُفْدِي وَطَنِي مِنْ سَيْفِ قَمْبِيزَ ونَارِهْ
جِئْتُ أفْدِي وَطَنِي مِنْ دَنَس الفَتْحِ وعَارِهْ

فرعون :

ماذا تَقُولِينَ لي؟ أَجِيبِي قَمْبِيزٌ؟ الفَتْحُ؟ مِصْرُ؟ فارِسْ؟

نتيتاس :

نِفْريتُ تَأْبَى المَسِيرَ هَبْ لِي مَكَانَها مِنْكَ يا أَمَازِسْ

فرعون : أَنْتِ الَّتي تَذْهَبِينَ؟

نتيتاس : لِمْ لاَ؟

فرعون : هَذَا هُو النُّبْلُ يا نتاتِسْ
بَخٍ بخٍ بِنْتَ أَخِي

نتيتاس [في استنكار]: أَنْتَ، يا قاتِلَ عَمِّي؟؟
لا . . . أَبِي . . يأْبَى وأُمِّي

فرعون :

لا تَدْفَعِي نَتِيتَ بِي ولاَ تَهِيجِي غَضَبِي

نتيتاس [كالمستهزئه]: تَقْتُلُني مِثْلَ أبي!

[تظهر نفريت بالباب]

فرعون :

مَنْ ذَا أرى؟ نِفْرِيتُ، هيّا ادْخُلي لا تَقِفُ الأَقْمَارُ بالبَابِ

نفريت :

تَحِيَّةُ الشَّمْسِ لسارعٍ أبي تَحِيَّةُ المَعْبُودِ آمُونِ

فرعون :

أَتَيْتِ لِوَفْقِ الأَمْر، نِفْريتُ أَقْبِلِي
تَعَالَيْ أُنبِّئْكِ الجَلِيلَ تعَالِي

نفريت : أبي لا جَلِيلَ اليَوْمَ إلاّ مُصِيبَتِي

فرعون : ولكِنّها قَدْ آذَنتْ بِزَوَالِ

نفريت : وكَيْفَ وأنَّى؟

فرعون :

أُنْظُرِي مَنْ بِمَجْلِسِي وأَيُّ رَسُولٍ للسَّماءِ حِيَالِي
إلهٌ لعَمْرِي في قَميصِ أَمِيرةٍ سَعَى لكِ يَحْبُو عَوْنَه وسَعَى لِي

نفريت : نتيتاسُ أُخْتِي؟

نتيتاس [لنفسها]:

أُخْتُهَا ما أَضَلَّها مَتَى كانَ بَيْتِي مُجْرِمينَ وآلِي

نفريت [لأبيها بعد أن سمعت نجواها]:

أبي أَلِهَذَا تَجْمعُ اليومَ بَيْنَنَا وما لابْنَةِ المَلْكِ القَدِيمِ ومالِي

فرعون :

لَقَدْ بَعَثْتها الشَّمْسُ مِنْ عَرْشِ مَجْدِها
شُعَاعَ هُدًى مِن حَيْرةٍ وضَلاَلِ
تُزَفُّ إلى قَمْبِيزَ في مَوْضِعِ آبْنَتي
وفي مَوْكِبٍ من وَفْدِه ورِجَالِي

نفريت : نتيتاس

فرعون : ألا بِنتَ فِرْعَونٍ أجيبي

نتيتاس : دَعَنْها

نفريت : ولِمْ

نتيتاس : ذاك عَهْدٌ يا أميرَةُ خالِي

فَـلاَ يَسْتـوِي المُلْكُ القَشِـيبُ جَـلاَلُـه
وآخـرُ مـخلوعُ الـجـلالـةِ بـالـي[1]

نفريت : أحقٌّ نتيتا ما رَوَى المَلْكُ

نتيتاس :

ما رَوَى أبُـوكِ صَدَى صَـوْتِي وَرجْـعُ مَقَـالِي

نفريت :

رُوَيْـداً نـتِيـتَـا راجِـعِـي الـرُّشْـدَ إنّـمـا
تُـضَـحِّـيـن، يـا أُخْـتِـي، بـأَنْـفَسٍ غـالِـي

تُضَحِّين بـالـدُّنْيَـا الجَميلَةِ والصِّبَا وهٰـذا الفَضَاءِ السَّـافِر المُتَـلالِي

أَحَقٌّ عَقَدْتِ العَزْمَ؟

نتيتاس :

بَـعْـدَ رَوِيّـةٍ وأَقْنَعْتُ نَفْسِي بَعْـدَ طُـولِ نِضَـالِ
ومَـالِيَ لا أُعـطِي الحيـاةَ إذا دَعَتْ بِـلاَدي. حَيَـاتي لـلبـلادِ ومَـالِي

ستـار

---

(١) القشيب: الجديد.

المنظر الثاني

[حجرة عظيمة في قصر فرعون ـ وفد من الفرس ينتظر رسول الملك أمازيس، هنا وهناك في الحجرة نفر من حاشية فرعون]

رئيس الوفد:

لَقَــدْ جُلْتُم في بَـلْدَةِ العِـجــلِ جَـوْلـةً
وما بَـرِحَـتْ بـالـزَّائـريـنَ تُـجَـابُ
فَـكَـيْـفَ وَجَـدْتُـمْ قَـوْمَ فِـرْعَـوْنَ؟

قباذ : أُمَّةٌ

إذا هِـيَ قِـيسَتْ بـالـشُّعُـوبِ عُـجَـابُ
لَهُمْ مِثْـلُ ما لـلأُسْدِ بـالجِنْسِ عِـزَّةٌ
ضَـوَارِي الفَـلَا عِنْـدَ الأُسُـودِ كِـلَابُ[1]
هُمُ الشُّهْبُ والنَّـاسُ الجَنَـادِلُ والحَصَى
وتِـبْـرُ الثَّـرَى والـعَـالَـمُـون تُـرَابُ
وكُـلُّ الَّـذِي صَـاغُـوا مِـنَ الفَـنِّ آيَـةٌ
وكُـلُّ الَّـذِي قَـالُـوا هُـدًى وصَـوَابُ

---

(١) الضواري: المولعة بأكل اللحم من السباع.

الرئيس :

خَطَبنا إليهمْ، أَمْسِ، بِنْتَ مَلِيكِهِمْ
فَمَا كانَ إلاَّ الاحْتِقَارَ جَوَابُ
وأشْفَقَ أَهْلوها وقالُوا حَمَامَةٌ
دَعَاهَا إلى الوَكْرِ السَّحِيقِ عُقَابُ

[ثم يعرض ببصره رجال القصر من المصريين]

تَأَمَّل، (قُبَاذُ)، القَوْمَ وانْظُرْ وُجُوهَهُمْ
وُجُوهٌ عَلَيْهَا لِلهُمُومِ سَحَابُ
أَلَسْتَ تَرَاهُمْ كُلَّما نَقَلُوا الخُطَى
لَهُمْ جِيئَةٌ مِنْ رِيبَةٍ وذَهَابُ

قباذ :

ولَكِنَّهُمْ ما قَصَّرُوا عَنْ ضِيَافَةٍ
طَعَامٌ ونُزْلٌ طَيِّبٌ وشَرَابُ
وخَمْرٌ فِنِيقيٌّ بأَيْدِي سُقَاتِها لَهَا نَفْحَةٌ مِسْكِيَّةٌ وحَبَابُ[1]
وماذا عَلَيْنَا أنْ تَضِيقَ وُجُوهُهُم
إذا لم تَضِقْ سَاحٌ لَهُمْ ورِحَابُ

[وعلى أثر ذلك يخاطب رجل آخر من الوفد صديقاً له في ناحية أخرى من الحجرة وكان عائداً هو أيضاً من المدينة]

الرجل : زفيروس؛ مِنْ أَيْنَ؟

زفيروس : مِنْ جَوْلَةٍ بِمَنْفِيسَ

الأوّل : كَيْفَ وَجَدْتَ البَلَدْ؟

وكَيفَ آحْتِقَارُهُمُ للغَرِيبِ إذا قام في شَأْنِهِ أو قَعَدْ
وكَيْفَ عُيُونُهُمُ حَوْلَهُ إذا حملَته آحْتِمالَ الرَّمَدْ

---

(١) الحُباب: الفقاقيع تطفوا على سطح الشراب.

زفيروس :

وَجَـدْتُ وُجُوهـاً عَلَيْهَـا النَّعِيمُ   وَدُنْيَـا على جـانِبيْهـا الـرَّغَــدْ
وسُـوقـاً تُفَضُّ وسُــوقـاً تُقَــامُ   وخَلْقــاً يَـرُوحُ، وخلقــاً يَفِــدْ
وشَعْبـاً على خُطَّةٍ في الحَيَـاةِ   ونَـظْمٍ بِهِ في الشُّعـوبِ انْفَرَدْ
ولَمْ أرَ مِثْــلَ صِنَــاعــاتِهِـمْ   سُمُــوّاً وبُعْـداً على المُنْتَقِــدْ
ولا مِثْــلَ أَخْــلاَقِهِمْ مَبْلغــاً   مِنَ الفَضْلِ أو مِنْ خِلاَلِ الرَّشَدْ
إذا مَــرَّ يافِعُهُم في الـطَّرِيقِ   بِشَيْــخٍ تَنَحَّى لـه أو سَجَــدْ

الأول :

تَبَـارَكَت النَّارُ. كِلْتَ المَـدِيحَ   لِمِصْــرَ جُـزَافــاً ولم تَقْتَصِـدْ

زفيروس :

أخِي ما الَّذِي أَنْتَ نـاعٍ عَليَّ   ومــا قُلْتُ إلّا الـذي أَعْتَقِــدْ

الأول [مبتسماً]:

لَقَـدْ سَحرتْ مِصْـرُ الفـارِسِيَّ   ويـا طَالَمَـا نَفَثَتْ في العُقَدْ[1]
ولَــكِـنْ زفـيــروس كَـيْــفَ الـجُـنُــودُ
وكَــيْـفَ الـحَــدِيــدُ وكَـيْـفَ الـزَّرَدْ[2]
وهَــلْ كُـنْـتَ تَـلْقَــاهُـمُ فــي الـطَّرِيـقِ
وتَــنْـظُرُ أَظْـفَــارَهُــمْ والــلِّبَــدْ[3]

زفيروس :

أخِي مـا رَأيْتُ بِمِصْرَ الجُنُودَ   ولم يَـأْخُـذِ العَيْنَ مِنْهُمْ أَحَــدْ
سِـوَى فِتْيةٍ من جُنُود القُصُورِ   وضُبَّـاطِها في الثِّيـاب الجُـدُدْ
يَرُوحُونَ في الخُوَذِ اللّامِعَاتِ   ويغدونَ في الذَّهـبِ المتَّـقِـدْ

---

(١) نفثت: نفخت. والعُقَد: ما يعقد من خيط ونحوه، وهـذا مـا يفعله السـاحـر. يشيـر إلى مـا اشتهرت به مصر من سحر.
(٢) الزرد: الدروع.
(٣) اللبد: الشعر.

الأول :

إِذَن هـو مُـلكٌ بـلا حـائِطٍ رَقِيقُ الأَوَاسِي ضَعِيفُ العَمَدْ[1]

خـلا الـوكـرُ من صـرخـات العُقـاب

ونـامـت عـن الـغـابِ عيـن الأسـدْ

أولئك لا في حماةِ الـديـارِ ولا في العديد ولا في العُـدَدْ

طَـوَاوِيسُ فـي عَـرَصَـاتِ الـقُـصُـورِ

تَـرُوقُ تَـهَـاوِيـلُهـا مَـنْ شَـهِـدْ

ولا يُـعْجِبنَّـك سِلْمٌ يَـرِفُّ وخَيـرٌ يَفِيضُ ومَـالٌ لُبَـدْ[2]

وآثَـارُ فَـنٍّ تَـرُوعُ العُـقُـولَ وأَجْسَـادُ مَـوْتَى تَعِيشُ الأَبَـدْ

فَمَـا أَنتَ راءٍ سِـوَى جَـنَّـةٍ هِيَ الخُلْدُ أو طَيفُه في الخَلَد[3]

يَهُبُّ عَلَيْهَـا غـداً عـاصِفٌ من الفُرسِ أَنَّى تمشَّى حَصَدْ

ثالث متدخلاً:

صَـدَقْتَ أخـا الفُـرْسِ قُلْتَ الصَّـوَابَ

غـداً يَـعْصِـفُ الـفُـرسُ أو بَـعْـدَ غَـدْ

أحـدهم لآخر: أَعَلِمْتُمْ مـاذا يُرَدَّدُ في القَصْرِ وماذا يُقَـالُ هَمساً ووَحْيـاً

الثاني : ما يَقُولُونَ؟ هاتِ، قُلْ

آخر : كَيْفَ صِـدْتَ السِّرَّ في القَصْرِ كَيْفَ صِدْتَ النَّجِيَّـا[4]

هـاتِ قُـلْ مـا بـأَرْضِ مِصْـرَ عَجِيبٌ

مِـصْـرُ دُنْـيَـا وسَـائِـرُ الأَرْضِ دُنْـيَـا

---

(١) الأواسي: الدعائم.

(٢) لبَدْ: كثير موفور.

(٣) الخلد: البال والخاطر.

(٤) النجي: الطائر الخفي.

الأول :

هُـمْ يَـقُـولُـونَ إنَّ بِـنْـتَ أمـازيـ
ـسَ عَـرُوسَ المَلِيـكِ تـأْبَى المُضِيَّـا

الثاني : هازِلٌ أَنْتَ؟

الأول : بَـلْ سَمِعْتُ حَـدِيثـاً إنْ يكُن مُفتَرًى فماذا عَلَيَّـا؟

آخر :

إنَّـهُ يَـهْـذِي دَعُـوهُ كـاذِبٌ لا تَـسْـمَـعُـوهُ
ما الَّذِي زَخْرَفَ

الثالث :

أَلْقَى كِـذْبَـةَ الأَجْيَـالِ فُـوهُ
يَـزْعُـمُ الـمَـلْكَـةَ نِـفْـرِيـتَ آبْـنَـةَ الـمَـلْكِ أمـازِسْ
تَـرْفُضُ الـسَّـيْـرَ مَـع الـوَفْـدِ إلـى أَقْـطَارِ فـارِسْ

آخر :

مـا خَـطْبُـهُ مـا يَـدَّعِـي إمْضِ بِـنَـا لا تَـسْـمَـعِ
يَـقُـولُ فِـرْعَـوْنُ مِـصْـرَا لـم يَـرْضَ قَمْبِيـزَ صِهْـراً

الثاني :

مَـنْ أمـازِيسُ مـا الأَمِيـرةُ مـا مِـصْـ
ـرُ أفي الأَرْضِ مَنْ بِـقَـمْـبِـيـزَ يَـهْـزَا

آخر :

أهـذا خَـبَـرٌ يُـرْوَى غَـبِـيٌّ أَنْـتَ واللهِ
أتَـحْـتَ الـقُـبَّـةِ الـزَّرْقَـا ءِ مَـنْ يَـسْـخَـرُ بـالـشَّـاهِ

الأول :

أعْـزُبُـوا مـا لَـكُـم ولـي قَـلِّلُوا الـشَّـتـمَ والـسَّـخَـرْ

مـا الَّـذِي قَـدْ أَتَـيْـتُـهُ؟ نـاقِـلُ الكُفْـرِ مـا كَـفَـرْ!
خَبَـرٌ قيـلَ قَـدْ يَـصِـحُّ، وقَـدْ يَـكْـذِبُ الـخَـبَـرْ

أحدهم :

يـا صَحْبُ كَيْفَ تُـرَى تَقْضُـونَ لَيْلَكُمُ
وكَـيْـفَ، نَـوْمُكُـمْ فـي هَـذِهِ الـدَّارِ

آخر :

أمّـا أنـا فـإذا آسْتَـلْقَيتُ طَـوَّفَ بـي
شَـتَّى الـخَيَـالاَتِ مِـنْ سِحْـرٍ وسَحَّـارِ
وأَنْتَ؟

الأول :

يَـغْشَـى الـكَـرَى عَـيْـنِـي فَـيَـصْـرِفُـهُ
عَنْهَـا خَـيَـالُ تَـمَـاسِـيـحٍ وأثْـوَارِ
مِـن التَّـوابِـيتِ حـوْلِي كُـلُّ مُنْتَقِـلٍ
بِـغَـيْـرِ رِجْـلٍ ولا سـاقَـيْـنِ دَوَّارِ
يُجِيـلُ مِـنْ خَلْفِـهـا الأَمْـوَاتُ أَعْيُنَهُمْ
كـأَنَّـهـا في الـدُّجَى أحْـدَاقُ أنْـمَـارِ
ولا تَـزَالُ بيَ الأَرْواحُ طـائِفَـةً مُنَـاجِيَـاتٍ بـأَلْغَـازٍ وأَسْـرَارِ

آخر :

أمّـا أنـا فـإذا مـا جِئْتُ مُضْـطَجَعِي
عَـوَّدْتُ نَـفْسِيَ قَبْـلَ الـنَّـوْمِ بـالنَّـارِ
فـلا يَـطُوفُ مـن الأَرْواحِ بـي شَـبَـحٌ
مِـن خَـيِّـرِيـنَ وإنْ جَـلُّوا وأَشْـرَارِ

آخر : هيّا آسْمَعُوا ماذَا رَأَيْتُ أمْسِ

آخر : ما ذاكَ؟

الأول : صَهْ تَكَلَّمُوا بِهَمْسِ

رَأَيْتُ عُصْفُوراً بِرَأْسِ إِنْسِ أَقْبَلَ حَتَّى صارَ عِنْدَ رَأْسِي

فَما مَلَكْتُ عِنْدَ ذاكَ حِسِّي

آخر : ثُمَّ؟

الأول :

صَحَوْتُ، فَوَجَدْتُ نَفْسِي مُنْطَرِحاً أَغُطُّ فَوْقَ كُرْسِي

آخر : وأنا

ثان : أنْتَ ما رَأَيتَ؟

الأول :

أعجَبَا مِمَّا رَأَى صاحِبُكم وأَغْرَبَا

رَأَيْتُ آبِيسَ أَتَى مَضاجِعِي فَهَزَّها بِقَرْنِهِ وقَلَّبَا

ثم رَأيتُ

الثاني : ما رَأَيْتَ؟

الأول : حَدَقاً تَقلَّبَتْ في الليل تَحْكِي اللَّهَبَا

آخر : ثُمَّ؟

الأول :

وقال العِجْلُ أَنْتُمْ فارسٌ؟ قُلْتُ نَعَمْ. فقالَ لِي : لا مَرْحَباً

آخر في دهشة :

يا عَجَبَا. أَلْعِجْلُ قَدْ كَلَّمَهُ يا عَجَبَا

[يدخل تاسو حارس فرعون]:

تاسو :

أَيُّها الوَفْدُ سَلامٌ لَكُمُ بِنْتُ فِرْعَوْنَ سَتَأْتِي بَعْدَ حِينْ

تَتلقَّاكُمْ بِمَا يَزْكُو بِكُمْ مِنْ تَحايَا وتُجِيبُ الخاطِبينْ

رئيس الوفد:

أيُّـهـا الـسَّـيِّـد تـاسُـو أُدْنُ مِنَّـا مَـرْحَبـاً بِـكْ
غِـبْتَ عـنَّـا زَمـنـاً حَـتَّـى آغْـتَـمَـمْـنَـا لِغـيَـابِكْ
لـم تَـسَـلْ عَـنَّـا ولَـمْ تـبْـعَـثْ رَسُـولاً مِـنْ صِـحَـابِـكْ

تاسو :

يـا كَـبِـيـرَ الـوَفْـدِ هٰـذَا الـعَـطْفُ قَـدْ أثَّـرَ فِـيَّـا
أنْـتَ لا تَـجْـهَـلُ مِـنْ أنْـظِمَـةِ الـدِّيـوانِ شَـيَّـا
شَـرَفُ الـخِـدْمَـةِ لا يَـجْـعَـلُ وَقْـتِـي بِـيَـدَيَّـا

فارسي [لآخر بصوت منخفض]:

تاسُو؟! ومَنْ تاسُو؟

الآخر :

فَتًى في القَصْـرِ مَـرْمُـوقٌ جَمِيـلْ
نَـدْمَـانُ فِـرْعَـوْنٍ وصـا حِبُـه وحـارسُـه النَّبيـلْ[1]
ويَـمِـيـلُ فِـرْعَـوْنٌ إلَـيْـهِ وبِـنْـتُـهُ أيـضـاً تَـمِـيـلْ

[حارسان يدخلان فيصيح أحدهما]:

الأول : المَلْكُ فِرْعَوْنُ سَارِعْ

الثاني يردّد: المَلْكُ فِرْعَوْنُ سَارِعْ

[يـدخـل الملك والأميـرة نتيتـاس وكبـار الكهنـة المصـريين فيجلس الملك والأميرة ويقف تاسو وراء الملك، فينهض رئيس الوفد ويقول]:

رئيس الوفد [إلى فرعون]:

بَـرَكَـاتُ الـسَّـمَـاءِ فِـرْعَـوْنَ مِـصْـرَا
وسَـلَامٌ مِنْ عَـاهِـلِ الأرْضِ كِسْـرَى

---

(١) الندمان: المنادم على الشراب.

رُسْـــلُ قـمْبِـيـزَ نَحْـنُ لَـمْ نَـأَلُ إحْـسَـا
نَـكَ يَـوْمـاً ولاَ آهْـتَـمـامَـكَ شُـكْـرَا
قَـدْ خَـطَبْـنَـا إلَـيْـكَ زَنْـبَـقَـةَ الـوَا
دي وأعـلى عـقـائِـلِ الـنِّـيـلِ قَـدْرا
نَـحْـمِـلُ الـشَّـامَ إنْ أَرَدْتَ صَـدَاقـاً
ونَـسُـوقُ الـعِـرَاقَ إنْ شِئْـتَ مَـهْـرَا
ونُـزَجِّـي الـكـنُـوزَ مِـنْ قَـيِّـم الـيَـا
قُـوتِ والـدُّرِّ والـزُّمُـرّدِ تَـتْـرَى
إنّـهـا فَـارِسٌ وإنَّـا لَـنَـرْجُـو
أنْ سَتَـرْضَى بِـهَـا حَـلِيـفـاً وصِـهْـرَا

فرعون أمازيس [إلى تاسو]:

قُـمْ أَجِـبْ عَـنِّـيَ الـدَّهَـاقِـينَ تـاسُـو

تاسو : سَيِّدي مَنْ أَكُونُ! مَوْلاَيَ. عُذْرا[1]

نتيتاس : أَبَتِي، أَعْفِهِ

ثم إلى تاسو: مَكَانَكَ تاسُو أنا بالفَصْلِ في مَصِيرِيَ أَحْرَى

نتيتاس [إلى الوفد الفارسي]:

مَـرْحَـبـاً، وَفْـدَ فـارسٍ رُسْـلَ قَـمْـبِـيـزَ مـرْحَـبَـا
قَـدْ تَـأَخَّـرْتُ عَـنْـكُـمْ وأَطَـلْـتُ الـتَّـحَـجُّـبَـا
ونَـهَـانِـي مُـطَـبِّـبِـي فَـسَـمِـعْـتُ الـمُـطَـبِّـبَـا
خَـبَّـأُونـي لِـوَعْـكَـةٍ ومِـن الـبَـرْدِ يُـخْـتَـبَـا
لـم يَـرَ الـنَّـاسُ صـاحِـبـاً كـالـعَـوَافـي مُـحَـبَّـبَـا[2]

---

(١) الدهاقين: رؤساء الأقاليم.
(٢) العوافي: المضياف.

رئيس الوفد:

أشْكُري الله، يا آبْنَتي وآذْكُري فَضْلَ مَا حَبَا[1]
كَمْ سَأَلْنَا فَجَاءَنَا بالَّذي طَمْأنَ النَّبَا

أمازيس [إلى تاسو بصوت منخفض]:

ما لَها تاسُ أَطْنَبَتْ ولِذَا الشَّيْخُ أَطْنَبَا
تَرَكَا خِطْبَةَ الزَّوا ج وقَامَا لِيَخْطَبَا

نتيتاس [بصوت منخفض وقد سمعت ما دار بينهما]:

ما الَّذي سَاءَ والِدي مِنْ كَلامي وأَغْضَبَا
ما لِفِرْعَونَ ساخِطاً ولِتَاسُو مُقَطِّبَا

فرعون [بصوت منخفض]:

إجْعَلي القَصْدَ، يا آبْنَتي لَكِ في القَوْلِ مَذْهَبَا

نتيتاس للوفد:

قَدْ دَعَوْتُمْ أبي لِمَا يَرْفَعُ البِنْتَ والأَبَا
إنَّ فِرْعَوْنَ كَوْكَبٌ صاهَرَ اليومَ كَوْكَبَا
أُذْكُرُوا لِي مُقَامَكُمْ أتُرَى كانَ طَيِّبَا
أَيُّها الوَفْدُ قَلَّمَا صاهَرَتْ مِصْرُ أَجْنَبَا
مَرْحَباً وَفْدَ فَارِسٍ

الملك [بصوت منخفض]: شَبعَ الوَفْدُ مَرْحَبا

نتيتاس :

أنا إنْ عِشْتُ شِدْتُ لِلنَّارِ بَيْتاً مُطَنَّبَا[2]
في عُيُونِ الوِهَادِ مِنْ فارسٍ أوْ عَلَى الرُّبَا
كُلَّمَا لاحَ ضَوْؤُهُ هَزَّتِ الأَرْضُ مَنْكِبَا

---

(١) حبا: أعطى.
(٢) المطنَّب: المشدود بالأطناب، وهي الحبال.

رئيس الوفد :

هَلُمِّي بَارِكِي يا نَارْ عَلَى بِنْتِ الفَرَاعِينِ
ويَا فارِسُ هاتُوا الغَارْ وجِيئُوا بالرَّيَاحِينْ
وحَيُّوا زَوْجَةَ الجَبَّارْ عَلَى كُلِّ السَّلَاطِينْ

[وينثر الفرس الرياحين على الأميرة نتيتاس وهم يتغنَّون]

الكهنة المصريون يتغنون:

آمُونُ ، قُمْ شارِكْ فِرْعَوْنَ في العُرْسِ
تَعَالَ طُفْ بارِكْ في مَلْكَةِ الفُرْسُ

* * *

نَحِّ الشَّيَاطِينَ وآنْفِ العَفَارِيتَ
واحْرُسْ بِعَيْنَيْكَ مَوْكِبَ نِفْرِيتَ

* * *

آمُونُ هَيَّ آشْتَرِكْ في عُرْسِ بِنْتِ المَلِكْ
وقُمْ إلَيهَا كَلِّلِ بَرَاحَتَيْكَ رَاسَهَا
وآشْهَدْ بِمِصْرَ وآجْتَلِ بِفَارِسٍ أَعْرَاسَهَا

ستار

المنظر الثالث

«بهو عظيم من القصر زُيِّن بالمصابيح البديعة الألوان المصنوعة من ورق البردي وأغصان الزيتون، وصففت الأزهار. . . والرياحين هنا وهناك. وفي ناحية من البهو جوقة العزف من حاملات القيثارة، والعود، والناي، والدف. يموج المكان بأعضاء الوفد الفارسي في ملابسهم الفارسية الفاخرة وبرجال الحاشية وخدم القصر من الحرس والكهنة كبارهم وصغارهم وفتيان النوبيين، وقد وقف قهرمان القصر يصرف الوصفاء والندل ويسخرهم في شؤون الوليمة. وقد مدّت الموائد الفخمة وجعلت عليها ألوان الطعام المختلفة من خراف مشوية وباردة وبطّ صيد، ومن سمك النيل، ومن الحلوى بأنراعها، وسلال الفاكهة. ووضعت هنا وهناك أباريق الذهب والفضة المملوءة من عتيق الخمر. يجلس على المائدة فرعون أمازيس وبجانبيه وأمامه كبار رجال الوفد الفارسي وعظماء رجال الكهنوت والدولة. وينتشر الآخرون على جنبات المائدة يتحادثون جماعات جماعات»

فارسي [لصاحبه]:

فَيْروزُ، أُنْظُرْ تَرَى الخِرَافَا ... حُمراً لِطَافاً على الخِوَانِ
ذا سَمَكُ النيل في الأَوَانِي ... كأنَّه مِعْصَمُ الغَوَانِي
وأَعْيُنٌ تِلْكَ في جُفُونٍ ... أَمْ ذلِكَ البَطُّ في الجِفَانِ

فيروز :

ذَكَرْتُ كُلاًّ ولم تُرَحِّبْ ... بِخَمْرِ سامُوسَ في الدِّنَانِ

وخَمْرِ فِينِيقْيَا المُصَفَّى كأَنَّهُ رِيقَةُ الحِسَانِ

فيروز :
وخَمْرِ مِصْرٍ بِقَصْرِ فِرْعَوْ نَ

ثالث : تِلْكَ مَجْهُولَةُ المَكْانِ

الأول :
فَيْرُوزُ، دَعْني خَلِّني الخَمْرُ لَيْسَتْ دَيْدَنِي
مِنْ خَمْرِ آتِينَا وسَا مُوسٍ ومِصْرَ أعْفِنِي
الأَكْلُ، يا فَيْرُوزُ شُغْلِي وبِهِ تَفَنُّنِي
تَشْرَبُ والبَطْنُ خَلِي! يا لَكَ مِنْ مُغَفَّلِ!
كُلْ، هَيْءَ، فَيْروزُ، كُلِ
هَذا الخِوَان قَدْ كَمَلْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ حَمَلْ
هذا شُوِي، هذا قُلِي
والبَطُّ في الأَطْبَاقِ بَطْبَطُ في الرِّقَاقِ
مِنْ رَأْسِهِ للأَرْجُلِ

ثالث :
وهَذِهِ الإِوَزُّ رَجْرَاجَةٌ تَهْتَزُّ
قد طُيِّبَتْ بالتَّابِلِ

فيروز [للأول]:
أخِي، كِلاَنَا قَدْ صَدَقْ فَمَا لَنَا لا نَتَّفِقْ
آكُلُ ما تَأْكُلُ مِنْ طَعَامِ ونَحْتَسِي مَعاً مِن المُدَام

الثالث : هَذَا لعَمْرِي مُحكمُ الكَلاَمِ

فرعون [إلى رئيس الوفد]:
سَيِّدِي لَوْ تَقُولُ لِي كَيْفَ قَمْبِيزُ والقَدَحْ

الرئيس :

إنَّ قَمْبِيزَ، سَيِّدي مَلِكٌ كُلُّهُ مَرَحْ
لَيْسَ تَخْلُو قُصُورُهُ مِنْ سُرُورٍ ومِنْ فَرَحْ

فارسي آخر :

لَكِنْ لَهُ شُغْلٌ عن الخَمرِ بِطُولِ غَزْوَتِهْ

فرعون : أَيْنَ تُرَى يَشْرَبُها

الفارسي : يَشْرَبُها في خُوْذَتِهْ
كَعَبْدِهِ آبنِ أمَتِهْ

[ويخلع الفارسي خوذته ويصب فيها خمراً ويشرب. بعض صغار رجال الوفد الفارسي يتحادثون فيما بينهم]

أحدهم :

لَيْتَ شِعْرِي فَلَسْتُ أَدْرِي إلى أيِّ بَلاَءٍ قَمْبِيزُ يَدْفَعُ فارِسْ
قَدْ فَتَحْنَا الفَضَاءَ شَرْقاً وغَرْباً ومَلَكْنَاهُ مِن عُبَابٍ ويابِسْ
إتَّسَعْنَا مِن الفُتُوحِ

آخر :

يَقِيناً غَيْرَ أنّا لَمْ نَفْتَكِرْ بالحَارِسْ
خَلِّ «مانِي» عَنْكَ السِّيَاسَةَ، دَعْهَا
خَلِّ عَنْكَ الفُضُولَ، خَلِّ الوَسَاوِسْ
إنَّ شَرقَ البِلَادِ ضيعةُ قَمْبِيزَ، وغَرْبَ البِلَادِ حَقْلُ أمازِسْ
سائِسُ العالَمِينَ أَسْعَدُ مِنْهُ رَجُلٌ للحِمارِ والبَغْلِ سائِسْ

ثالث :

أُنْظُر الحَفلَ «بِهارٌ» آستَخَفَّتَهُ الكُؤُوسُ

رابع :

وَفْدُ قَمْبِيزَ، وهَذَا مَلْكُ مِصْرٍ آمَزِيسْ

ذَهَبُ الأَرْضِ عَلَيْهِمْ غَرِقَتْ فيه الطُّقُوسْ
سَاسَةُ الدُّنْيَا، وكُلٌّ غَيْرَهُمْ فيها مَسُوسْ

الثاني :

خَلِّنَا، بالله، مِنْ سَاسٍ، ودَعْنَا مِنْ يَسُوسْ
لِمْ نَظَلُّ الدَّهْرَ مَرْءُوسِينَ، والغَيْرُ الرَّئِيسْ
لِمَ «ماني» لا أنا رَذْلٌ ، ولا أَنْتَ خَسِيسْ

الأول :

كُلُّ ما أَعْجَبَ كِسْرَى فَهُوَ في الفُرْسِ نَفِيسْ
كُلَّ حِينٍ حاكِمٌ يَمْشِي عَلَيْنَا ويَدُوسْ
هٰكَذا يَخْتَلِفُ الحَظُّ سُعُودٌ ونُحُوسْ
إنَّ بَعضَ النَّاس أَذْنَابٌ لِبَعْضٍ هُمْ رُؤُوسْ
مَنْزِلُ الأُسْدِ الصَّحَارَى وعَلَى المَرْعَى التُّيُوسْ

الأول :

لِمَ، يا «ماني»، يَسُودُونَ ونَبْقَى لا نَسُودْ
ونُقَادُ، الدَّهْرَ، والآخَرُ يا «ماني» يَقُودْ

آخر :

يا أَخِي، نَحْنُ كِلاَنَا عاجِزُ الرَّأْيِ بَلِيدْ
هَذِه الدُّنْيَا لِمَنْ يُقدِمُ فيها أو يُرِيدْ
سُنَّةُ الكَوْنِ، ومَا عَنْ سُنَّةِ الكَوْنِ مَحِيدْ

آخر :

أنا يا «ماني» طَمُوحٌ أنا لا أَكْتُمُ عَنْكَا
أنا في الدُّنْيَا، وفي زينَتِهَا أَرْغَبُ مِنْكَا
أنا أَهْوَى سَعَةَ العَيْشِ، ولا أَرْضَاهُ ضَنْكَا

الأول :

إرْضَ بِـمَـا كـانَ ومَـا يَـكُـونُ أوْ فـانْـفَـلِقْ
وهَـيَّ نَـشْـرَبْ قَـدَحَـيْـنِ أو فَـهَـيّ آنْـطَلِقْ

أحدهم :

الـقَـدَحَـا. الـقَـدَحَـا الـخَـمْـرُ تَـنْـفِي التَّـرَحَـا
قَـصْـراً أَرَى أمْ فَـلَكَـا وشَـجَـراً أَمْ قُـزَحَـا[1]
وغَـادَةً تَـسْـقِـي أمِ الـظَّبْـيَـةَ أم شَـمْسَ الـضُّـحَـى
وخُـوَذاً عـلى رُؤُو سِ فـارسٍ أَمِ الـرَّحَـى
الـقَـدَحَـا الـقَـدَحَـا هـاتُـوا الشُّعَـاعَ المُـفْـرِحَـا
هـاتِ السّنَـا هـاتِ القَبَسْ هـاتِ الشَّـذَا هـاتِ النَّفَسْ
هـاتِ سِـرَاجَ الـمِـهْـرَجَـا نِ هـاتِ شَـمْـعَـةَ الـعُـرُسْ
هـاتِ ابـنَـةَ الـشُّـعَـاعِ والـظِّلِّ آبْـنَـةَ الـعَـذْبِ الـسَّـلِسْ

أحدهم [لرئيس الوفد]:

مَـوْلَايَ، أَلْـقِ الـسَّـمْـعَ وآبْـعَـثِ الـنَّـظَرْ
ماذا تَرَى؟

الرئيس :

أَرَى «بَـهَـاراً» قـد سَـكِـرْ

الأول : فَـتَـاكَ غَـنَّـى وفَـتَـايَ قَـدْ شَـعَـرْ

الرئيس : وما الَّذِي ضَرَّ؟

الأول : صَدَقْتَ لا ضَرَرْ

الرئيس : ونَحْنُ ما نَصْنَعُ؟

---

(١) قزح: يعني قوس قزح، وهو ما ينشأ في السماء على مقربة من مساقط الماء، وتكون فيه ألوان الطيف متتابعة.

الأول : شُرْبٌ وسَمَرْ

الرئيس : ونَحْنُ أيضاً بَشَرُ وهُمْ بشَرْ
فَلْيَشْرَبُوا من ها هُنا إلى السَّحَرْ

أحد الشبان:

رَئيسَ الوَفْدِ، لا زِلْتَ لِمَا يَرْفَعُ تُخْتَارُ
ولا ساوَاكَ دِهْقَانٌ ولا دانَاكَ أُسْوَارُ[1]
وغالَى بِكَ قَمْبِيزٌ وحَلّت جِسْمَكَ النَّارُ

[يدخل وصيف من وصفاء القصر وبيده مومياء من الذهب يعرضها على الضيِّفان. ووراءه رجل يقول ويكرر. . .]

المُومِيَا طُوفُوا بِها واتَّعِظُوا بِخَطْبِها
لا تَسْأَلُوا ما هِيَ مَنْ؟ نَكَّرَها طُولُ الزَّمَنْ
هَيَّا كُلُوا هَيَّا آشْرَبُوا هَيَّا آسْمَعُوا هَيَّا آطْرَبُوا
تَمتَّعُوا بالفَانِيَهْ قَبْلَ الحَيَاةِ الثَّانِيَهْ
خُذُوا المُدَامَ الصَّافِيهْ قَبْلَ انْكِسَارِ الآنِيَهْ

فارسي لآخر:

خُورْشِيدُ هذا هُو البَلاَءُ كُلُّ أحادِيثِهِم فَنَاءُ

خورشيد :

رِوَايةُ المَوْتِ حَيْثُ رَاحُوا وقِصَّةُ المَوْتِ حَيْثُ جاءُوا

[يقترب تاسو من نتيتاس في ناحية أخرى من البهو ويقول]

تاسو :

نِتيتاسُ ألاَ كَأسٌ ألاَ شَكْوَى ألاَ عَتْبُ
أيُنْسَى في سُوَيْعَاتٍ ويُطْوَى ذلكَ الحُبُّ

---

(١) الدهقان: حاكم الإقليم. والأسوار: القائد عند الفرس.

نتيتاس :

دَعِ الحُبَّ فَلَمْ يُخْلَقْ لَهُ مَنْ لا لَهُ قَلْبُ

تاسو : وما ذَنْبِي؟

نتيتاس : لَقَدْ أَحْسَنْتَ لٰكِنْ لِي أنا الذَّنْبُ

أَنا أَحْبَبْتُ عابِثاً سادِرَ القَلْبِ جافِيَا

يَعشَقُ الجَاهَ والغِنَى لا يُحِبُّ الغَوانِيَا

[مستمرة]:

أنتَ كالنِّعمَةِ مِن قَصْرٍ لِقَصْرِ

أنت كالنَّحْلةِ مِنْ زَهرٍ لزَهْرِ

[مستمرة]:

باعَدَت الأَخْلاَقُ ما بَيْنَنا أينَ أخُو العَهْدِ مِن النَّاكِثِ

لَعِبْتَ بي فِيمَا مَضَى عابِثاً

فالعب بغيري اليوم كالعابث

أَقْسَمْتَ لي فَاذْهَبْ فَأَقْسِمْ لَها

فأَنْتَ أَهْلُ القسمِ الحانِث

أحببْتَ بِنتَ الحيِّ حتَّى قَضَى واليومَ، أحْبَبْتَ آبنةَ الوارِثِ

كَمْ مَجْلِسٍ كانَ لَنا ثالِثٌ فِيهِ، وقَدْ تَعْمَى عَنْ الثالِثِ

تاسو : ما هُوَ مَنْ؟

نتيتاس : الحُبُّ يا مُدَّعِي والحُبُّ حَرْبُ الظَّالِمِ العائِثِ(١)

[يعرض عنها تاسو ويبتعد]

نتيتاس [لنفسها]:

مَضَى الغادِرُ لم يَشْعُرْ بِمَا حمَّلَنِي الغَدْرُ

---

(١) العائث: المفسد.

ولا رَقَّ لَـهُ نَـابٌ   عـلى جُـرْحِي ولا ظُـفْـرُ
تَـكَـلَّمْـتُ، فَلَمْ يَـسْـمَـعْ   وأنَّى يَـسْـمَـعُ الـصَّـخْـرُ
لَقَـدْ غـامَـرْتُ في تـاسُـو   وتـاسُـو في الهَـوَى غَـمْـرُ
كَمْ آسْتَشْفَيْتُ بـالـسِّحْـرِ   فَـمَـا عـافَـانِـيَ الـسِّـحْـرُ
وكَـمْ نـادَيْـتُ آبَـائـي   فَـمَـا لَـبَّـانِـيَ الـنَّـصْـرُ
وكَـمْ جِـئـتُ إلى الـصَّـبْـرِ   فَـمَـا آوانِـيَ الـصَّـبْـرُ
جَـزَاءُ الـمُـعْـرِض الـتَّـيَّـا   هِ مِـنْـكَ الـصَّـدُّ والـكِـبْـرُ
هَـبِـيـهِ نَـأَتِ الـدَّارُ   بِـهِ أو نَـزَحَ الـقَـبْـرُ

هَـبِـي مَـعْـرِفَـةَ الـغَـادِ   رِ لَمْ يَـأْتِ بها الـدَّهْـرُ
أقِـلِّي شُـغُـلَ الـفِـكْـرِ   فَـقَـدْ أتْعَبَـكِ الـفِـكْـرُ
هَـبِـيـهِ مَـرَّت الـسِّـنُّ   عَـلَـيـهِ ومَشَى الـعُـمْـرُ
فَـلَمْ يَـبْـقَ لَـهْ نَـهْـيٌ   عَـلَى الـغِـيـدِ ولا أمْـرُ
ولَـمْ يَبْـقَ لَـهُ فـي البَـا   لِ تِـمْـثَـالٌ ولا ذِكْـرُ

[مدعو من المصريين يشير إلى نفريت وهي متنكرة في زي يوناني ويقول لرجل بجانبه . . . .]

المدعو : مَن المَرْأَةُ؟

الآخر : مَنْ؟

الأول : تِلْكَ   تَـرَاهـا مِـثْـلَ طَـاوُوسِ
تَرَاهَا مَعَ كالْيَاسِ

الثاني : ومَنْ؟

الأول : وارِثِ فانِيسِ
أمِـيـرِ الـجَـيْـشِ فـي مَـنْـفٍ   وأسْـــوَانَ وسَـايِـيـسِ

الثاني :
أجَـلْ تِـلْكَ الَّـتِـي تَـظْـهَـرُ فـي أغْـرَبِ مَـلْـبُـوسِ

فَـهٰـذَا الـوَجْـهُ مِـصْـرِيٌّ وهَـذَا الـزِّي سـامُـوسِـي

[رجل فارسي لآخر يدعى قباذ]:

الرجل : أُنْظُر قُبَاذُ ما تَرَى؟

قباذ : أَحْسَنَ شَيْءٍ مَنْظَرَا

حَـمَـامَـةٌ تُـطَارِحُ الـشَّـجْـوَ حَـمَـاماً ذَكَـرَا

يـا لَـيْـتَ أُذْنـي سَـمِـعَـتْ مـن الـحَـدِيـثِ مـا جَـرَى

الأول :

دَعْنِيَ مِنْ ذِكْـرِ الهَـوَى إنّـني مُـذْ كُنْتُ لـم أَعْشَـقْ ولم أُعْشَقِ

قباذ [في تهكم]:

وأَنْتَ كـالنَّـاسِ أُمْـرُؤٌ عـائِشٌ تلك لعمري عِيشة الأحمقِ

الأول :

قُـبَـاذُ قَـدْ عَـرَفْـتُـهُ ذلـك تـاسُـو الـحـارِسُ

قباذ : الـحَـمْـدُ لله عَـلَى أنْ لَـمْ تَـحُـزْهُ فـارِسُ

إذَنْ لـهَـامَـتْ كـاعِـبٌ بِـحُـبِّـهِ وعـانِسُ

[تاسو يقترب من نفريت]:

نفريت : تاسُو هنا؟ هاتِ آسْقِنَا

تاسو : لَبَّيْـكِ، يـا ذَاتَ البَهَـاءْ لَبَّيْـكِ، يـا بنت الـسمـاء

يـا لَـيْـتَـني كُـنْـتُ الـرَّحِـيـقَ وَلَـيْـتَـنَـي كُـنْـتُ الإنَـاءُ

[ويناولها قدحاً]:

نفريت :

تـاسُ، مِـنْ أَيْـنَ، ومَـنْ كنتَ مـن الغيـد تُحـدِّثْ؟

تاسو :

كـنـتُ أُجـامِـلُ الـضيـو فَ وأُلَـبِّـي الـمَـلِـكـا

فـعـارضـتـني نـيـتـتـا سُ فـي خـلالِ ذَلـكـا

نفريت : وما الذي قلتَ لها تاسُ، وما قالت لكما؟

تاسو : عادَت لذكر حبِّنا القديمِ وعَطَفَتْ على الهَوَى الذَّميمِ
وطال العتابُ

نفريت : وطالَ السِّبابُ

تاسو :

بحق الحبِّ، نفريتُ أقِلِّي الشُّغلَ بالأُخرَى
ولا تُلقي لناتيتا س لا بالاً ولا فكرا
غداً تخلُو لنا مِصرُ غداً يصفُو لنا القصرُ
غداً ترحلُ، لا أرجَعها البَرُّ ولا البحرُ

نفريت :

ما لكَ تاسُو ولها خَلِّ الفتاةَ خَلِّهَا
لله ما أعظَمها عِندى وما أجَلَّها
قد أظهرَتْ أمْسِ أمامي فضلَهَا ونُبْلَهَا

تاسو : ما فعلَتْ؟

نفريت :

ما أنتَ مَنْ؟ يَقْدُرُ تاسُ فِعْلَها

ألم تصبِر عن الوطن المفدى وتسمحْ بالدِّيار وبالشبابِ
وترضَ بأن تُزَفَّ غداً مكانِي إلى النمرِ الأمير على الذئابِ

تاسو :

صَهٍ نفريتُ صهْ لا يسمعونا فتلقَى مِصرُ أنوَاعَ العذابِ

[في ضجة الوليمة يقف صاحبان هما: منا، وأحامس، ويتحادثان، صديقهما خوفو يقبل عليهما ثم القائد كالياس. . . . .]

منا : أنْظُرْ أَحَامِسُ

أحامس : ماذا؟

منا : فِرْعَوْنَ بَيْنَ صِحَابِهْ

أحامس :

وما تَرَى مِنْ عَجِيبٍ؟ ماذا بِفِرْعَوْنَ ما بِهْ؟

منا :

أنْظرْ تَجِدهُ إلٰهاً في عَبْقَرِيّ ثِيَابِهْ

أحامس :

لا تُلَقِ بالاً إلَيْهِ ولا إلى أذْنَابِهْ

غَداً يَصُبُّ عَلَيْهِمْ قَمْبِيزُ سَوْطَ عَذَابِهْ

منا :

أحامس، آسْتَغْفِرْ لِمَا قُلْتَهُ فالُ الشَّيَاطِينَ ولا فَالُكْ

أحامس :

قَدْ كُنْتَ مِثْلِي يا مِنَا ساخِطاً تَلْعَنُ فِرْعَوْنَ فَمَا بالُكْ؟

[ثم مستمراً]:

تأمَّلِ القَصْرَ مِنَا وانْظُرْهُ أَرْضاً وسَمَا

أنظر تَرَى الإغْرِيقَ فيه هُمْ لَفِيفُ العُظَمَا

أنْظُرْ تَجِدْهُمُ كُلّهُمْ يُمَلِّقُونَ العَجَمَا

منا :

ماذا عَلَى فِرْعَوْنَ إنْ رَعَاهُمُ وقَدَّمَا

أَلَيْسَ لِلضَّيْفِ عَلَى ضَائِفِهِ أنْ يُكْرَمَا

أحامس :

وصَاحِبُ الدَّارِ إذنْ يَمُوتُ جُوعاً وظَمَا

وصاحِبُ الدَّارِ إذَنْ لا يَتَعَدَّى السُّلَّمَا

خوفو :

ماذا أثارَ الصَّاحِبَيْنِ لِمْ، وفِيمَ آخْتَصَمَا؟

أحامس :

كُنْ مُنْصِفاً إنْ رُمْتَ يا خُوفُو تَكُونُ الحَكَما
تأمَّلِ القَصْرَ خُوفُو أفِيهِ مِنْ مِصْرَ شَيٌّ
ألَيْسَ فِرْعَوْنُ فِيهِ كأنَّهُ أجْنَبِيٌّ
فأيْنَ حَفَّارُ مِصْرٍ وفَنّه العَبْقَرِيُّ؟
والجَيْشُ خُوفُو!

خوفو :

خُذِ الحِذْرَ يامِنَا يا أحَامِسْ
كالْيَاسُ آتٍ إلَيْنَا

منا : ومَنْ؟

خوفو : خَلِيفَةُ فانِسْ

أحامس : اليَوْمَ كالْيَاسُ وأمْسِ فانِسُ
إحْتَكَرَ القِيَادَةَ الأبَالِسُ

[ويقبل عليهم كالياس]

فرعون أمازيس [لتاسو]:

أيْنَ أقْزَامِيَ؟ إمْضِ جِىءْ بأقْزَامِي، تاسُ

[يدخل الأقزام في أزياء المهرجين، فيقولون]:

تَحِيّاتٌ لِفِرْعَوْنَ سَلَامُ الشَّمْسِ لِلمَلْكِ
سَلَامُ قائِدَ الخَيْلِ سَلَامُ حامِيَ الفُلْكِ

قهرمان القصر [للأقزام]:

هَلُمُّوا رَقْصَةَ الحُورِ إذا طُفْنَ بِهَاتُورِ
سَمَاءِ العِزِّ والنُّورِ

أحد الأقزام: نَحْنُ القُزْمُ أنْصَافُ نَاسْ
ناسٌ وبالشِّبْرِ نُقَاسْ

ثان :

نَحْنُ الدُّمَى واللُّعَبْ   بِنَا يَتِمُّ الطَّرَبْ

ثالث :

هلُمُّوا رَقْصَةَ المَوْتَى   من الكَهْفِ إلى الكَهْفِ
ودُورُوا كالتَّمَاثِيلِ   من الرَّفِّ إلى الرَّفِّ

آخر : ثِبِي جُثَثْ على الجَدَثْ ثِبِي ثِبِي
حَبْوَ الصغار على اليدِ والرُّكَبِ
هَيَّا قِفي، هَيَّا ازْحَفِي، هَيَّا الْعَبِي

هُنَا الطَّعَامُ هيَّا كُلِي   هُنَا الشَّرَابْ هيَّا اشْرَبِي

آخر :

تَعَالَ يا دِهْقَانْ   أرْقُص مَعِي
وأنتَ يا «أُسْوَارُ»   قُمَ آطْلُعِ
واقْتَبِسَا الأَنْوَارْ   مِنْ سَارِعِ

الجميع :

عِشْ يا مَلِكْ مَعَ الزَّمَنْ
مُطَوِّقاً مِصْرَ المِنَنْ
وذائِداً عن الوَطَنْ

[ثم يكررون عش يا ملك وينصرفون]

فرعون أمازيس [إلى وجهاء الفرس]:

يا وُجَهَاءَ الفُرْسِ قالُوا لَكُمْ   مِصْرُ بِلاَدُ السّحْرِ والسَّاحِرِ
فرُبَّما سَرَّكُمُ أنَّنِي   أَجِيئُكُمْ بالسَّاحِرِ القَادِرِ

وينادي : حُوتِيبُ

حوتيب : لبّيْكَ سَارِعْ

فرعون : تَعَالَ لَهُ الضُّيُوفا

حوتيب :

سادَتِي إنِّيَ في الكَفِّ وفي الجَبْهةِ أَقْرَا
أنا أَقْرَا لكَ حَظًّا أنا أَقْرَا لَكَ عُمْرَا
أنا الذي بِسِحْرِيَ المُبِينِ أَسْتَطْلعُ المَكْتُوبَ في الجَبِينِ

فرعون [إلى تاسو]:

تاسُو اقْتَرِبْ

تاسو : لبَّيْكَ يا سَاراعِ

فرعون : لِمْ أَجْلَبُوا ما خَطْبُهم ما الدَّاعِي

[ضجة وهمس]

فرعون [مستمراً]:

وفيمَ هَذَا الهَمْسُ والتَّدَاعي

تاسو : مولَايَ إنّ الوَفْدَ في آرْتِياعِ[1]

تاسو [في أذن الملك]:

إنْقَلَبَتْ عِصيُّهُمْ أفَاعِي

فرعون : يا لَحُتَيْبَ مِنْ فتىً صَنَاعِ

رئيس الوفد:

لله دَرُّ السّاحِرِ هٰذَا مِن العَبَاقِرِ

حوتيب :

أَناةً وَفْدَ فارِسَ لا تُرَاعُوا ولا تُحْصُوا دُعَابَاتي عَليًّا
خُذُوا قُضبَانَكُم وتَأَمَّلُوهَا لَقَدْ عادَتْ ما كانتْ عِصِيًّا

---

(١) التداعي: دعوة القوم بعضهم بعضاً.

فرعون :

حُـوتـيـبُ قَـدْ سَـرَّ ضُـيـو فِـي أَنْ يَـرَوْا ويَـسْـمَـعُـوا
فَـزِدْهُـمُ فَـعِـنْـدَكَ الـسِّـحْـرُ الـغَـرِيـبُ الـمُـمْـتِـعُ

حوتيب :

فِـرْعَـوْنُ هـذا شَـرَفٌ يَـطِـيـرُ بِـي ويَـرْفَـعُ
أصـنَـعُ مـا كـانَ دَدَا الـسَّـاحِـرُ قَـبْـلِي يَـصْـنَـعُ

فرعون : ولو ما الَّذِي تَصْنَعُ؟

حوتيب : جيئُـونِـي بِرَأْسٍ يُقْطَعُ
فَـإنَّـنـي أَرُدُّهُ لِـجِـسْـمِـهِ وأَرْجِـعُ
فَـمَـنْ مِـن الـوَفْـدِ بَـرِأ سِـهِ إلـيَّ يَـدْفَـعُ

رئيس الوفد [لرجاله]:

هَـلْ مِنْكُم يـا مَعْشَـرَ الفُـرْسِ بَـطَلْ
عَـنْ رَأْسِـهِ لِسَـاحِـرِ الـنِّـيـلِ نَـزَلْ

حوتيب :

هـاتُـوا الـرُّءوَس لا يَـخـافَـنَّ أَحَـدْ
فـكُـلُّ رَأْسٍ سَـيُـرَدُّ لِـلْـجَـسَـدْ

أحدهم : رَأْسِي غَيْرُ هَيِّنِ

ثان : رَأْسِي عَمُودُ بَدَنِي

ثالث :

رَأْسِـي لَـدَيَّ غـالِـي رَأْسِـيَ كُـلُّ مـالِـي

فرعون :

حُـوَتـيـبُ مـا مِـنْ أَحَـدٍ هـانَ عَـلَـيْـهِ رَأْسُـهُ
أنْـظُرْ إلـيـهـمْ. كُـلُّـهُـمْ عَـزَّتْ عَـلَـيْـهِ نَـفْـسُـهُ

خـلِّ حُـتَـيْـبُ الـنـاسَ وآخْـتَـرْ غَـيْـرَهُـمُ لـلـتَّـجْـرِبَـهْ

حوتيب :

مُـرْهَـمْ إذَنْ أَنْ يُـحْـضِـرُوا إِوَزَّةً أَوْ أَرْنَـبَـهْ

فرعون [لتاسو]:

إمْضِ تـاسُـو جِـىء حُـتَـيْـبـاً بـإوزٍّ وأَرَانِـبْ

[يخرج تاسو ثم يعود ببضع من الأوز والأرانب. فيقطع حوتيب رأس إوزة ويقول: شال هبد شال هبد لا يعجز السحر أحد يا رأس عد إلى الجسد]

الفرس : تَعَالَتْ قُدْرَةُ النَّارِ

المصريون: تَعَالَ الرَّبُّ آمُونُ

فرعون : هَيِّ حُتَيبُ إمْش ما بَيْنَ الصُّفُوفْ

وطَـالِـعِ الجَبْـهَـاتِ وآقْـرَإِ الكُـفُـوفْ

حوتيب :

بِـرَأْسِ مَـنْ أَبْـدأُ مُـرْنِـيَ يـا سَـارَعْ

فرعون [مبتسماً وملتفتاً لتاسو]

بِرَأْسِ تاسُو آقرأه في جَهبِينِهِ
وبَيِّن المَحْجُوبَ من شُؤُونِهِ

حوتيب [وهو يتأمل جبين تاسو]:

هَذَا فَتًى باطِنُه جَمَادُ
لَيْسَ وَرَاءَ رَأْسِهِ فُؤَادُ
رَأْسٌ عَلَيْهِ وَقَفَ الجَلاَّدُ

تاسو : إخْـسَـأْ كَـذَبْـتَ وضَـلَّ سِـحْـرُكْ

فرعون : وَرأْسِي يا حُتَيب ألاَ تَرَاهُ؟

حوتيب : جَبِينُكَ أَعْفِنِي مَوْلاَيَ مِنْهُ

فرعون : تَعَالَ حُتَيْبُ

حوتيب :

لا. هــذا شَــدِيــدُ جَبِينُ الشَّمْسِ تَنْبُو العَيْنُ عَنْهُ

يا عَجْبَاً ماذا أرى

فرعون : ماذا تَرَى

حوتيب : دَمٌ جَرَى

فرعون : دَمِي أنا؟

حوتيب :

لا، سَــيِّــدي عُــوفِيتَ بــل دَمُ الــوَرَى

تاسو :

إذَنْ لِـيَـجْـرِ كــالــمَـطَرْ مــا هَـمَّـنَــا دَمُ الـبَـشَـرْ

إذا سَــلِمْــتَ، يــا مَــلَكْ فــلْيَـهْــلِكَنَّ مَــن هَـلَكْ

كاهن لآخر [بصوت منخفض]:

إنّ هذا الغُلاَمَ فيه قَسَاوَهْ

الآخر : قُلْتَ حَقّاً وفيه أَيْضاً غَبَاوَهْ

فرعون : وبَعدُ ماذا؟

حوتيب :

وَغًــــى عَــوانُ يَشِيبُ مِنْ هَـوْلِها الـزَّمَـانُ

فرعون : وهل أكُونُ يا حُتيْبُ فِيهَا

حوتيب : سِوَاكَ يا مَوْلَاي يَصْطَلِيها

فرعون :

وابْنِي بسَامَا يا حُتَيْبُ ما تَرَى؟
هل يَشهَدُ الحَرْبُ وهَلْ يَرَاهَا[1]

حوتيب :

سَيِّدي لَيْتَ الأمِيرَ حاضِرٌ أنا لا أقرَأُ إلاّ في الجَبِينْ

[قهرمانة القصر تطيف بالعازفات والحسان وتقول]:

القهرمانة :

قُمنَ إلى اللَّهْوِ يا عَذارَى وخُذْنَ صَنْجاً وخُذْنَ دُفّا
واَهْتِفْنَ بالشِّعْرِ والأَغانِي واَقْطَعْنَ ليلَ الشَّبَابِ قَصْفَا

* * *

وأَنْشِدْنَ مَعَ القَوْمِ نَشِيدَ المَلِكِ العالِي

[ينشد الجميع نشيد فرعون مع الرقص وآلات الطرب]

النشيد :

فِرْعَوْنُ أَنتَ الرَّفِيعُ أَنتَ العَظِيمُ الشَّانِ
وأَنْتَ سَدٌّ مَنِيعُ مِنْ جَارِفِ الفَيَضَانِ

* * *

وأَنْتَ كالصَّخْرِ تَحْمي مِنْ نَكَبَاتِ العَوَاصِفْ
مِنْ قاطِعِ الطُّرْقِ يَأْوِي إلى حِمَاكَ الخَائِفْ

* * *

وأَنْتَ مِنْ صَخْرِ طِيْبَه حِصْنٌ مَشِيدُ الجِدَارِ
يُؤْوَى إلَيْك ويُلْجَا إلى طُلُوعِ النَّهَارِ

* * *

(١) بساما: أي أبسمتيك.

أَنْـتَ آخْـضِـرَارٌ لِـريـفِ وأَنْـتَ حُسْنُ الـرَّفِيـفِ[1]
تَـرُدُّ بَـطْشَ الـمُـعَـادِي وفَـتْـكَـهُ بـالـضَّـعِـيـفِ

[فرعون يغادر مكان الوليمة فينطلق
المدعوون على إثره ولا يبقى إلا نتيتاس]

نتيتاس [لنفهسا]:

أَفِـيـقِـي بِـنْـتَ فِـرْعَـوْنٍ فَمَـا يَـزْكُـو بِـك السَّـكُـرُ
غَـداً تـذرو رِيَـاحُ الـفُـرْ س مِنْ مَـوْتـاكِ مـا تَـذْرُو[2]
غَـداً يُـصْـبَـغُ مِـنْ شَطٍّ لِـشَطٍّ بـالـدَّم الـنَّـهْـرُ
غَـداً يُـهْـتَـكُ عَـنْ أَرْبَـا بِـكِ الـمِحْـرَابُ والـسِّـتْـرُ
فَـمَـا تَـاسُـو وفِـتْـيَـانٌ كـتـاسُـو في الـحِمَـى كُثْـرُ
هُـمُ الـنَّـحْـلُ وإنْ هَـابُـوا لِـقَـائِـي وأَنـا الـزَّهْـرُ
يَـمُـوجُـونَ بِسَـاحَـاتِـي ويَـزْهُـو بِـهِـم الـقَـصْـرُ
ولَـكِـنْ بَـيْـنَ جَـنْـبَـيَّ هَـوًى أَوْلَـى بِـهِ مِـصْـرُ

ستـار

(١) الرفيف: الخصب.
(٢) تذرو: تطيّر وتفرّق.

الفصل الثاني
في مدينة سوس الفارسية

«في حجرة فارسية فخمة مفروشة بثمين الطنافس ومملوءة بالوسـائد من الحـرير المختلف الألـوان، وقد زينت زوايـاها بـالريـاحين الكـريمـة، الملكة ووصيفتها تتي في الحجرة المذكورة. . . . .»

الوصيفة تتي [وهي تصلح رأس الملكة وتمشط شعرها]:

تَـبَـارَكَ الَّـذِي خَـلَقْ أَقُـولُـهَـا ولاَ مَـلَقْ
ذَوائـبٌ أم الـدُّجَـى ومَـفْـرِقٌ أَمْ الـفَـلَقْ؟[1]
غَـدَائِـرٌ فـي الـكَـتِـفَـيْـنِ أُسْـدِلَـتْ وفـي الـعُـنُـقْ
كـأَنَّـهـا مِـن الـحَـرِيـرِ الأَسْـوَدِ الـخَـيْطِ شُـقَـقْ
لـم يَـخْـلُ جَـوُّ فـارسٍ مُـذ ضَـمَّـهـا مِن الـعَـبَـقْ

الملكة : ما تَصْنَعِينَ يا تِتِي

تتي : أُصْلِحُ مَوْلَاتِي

الملكة : لِمَنْ؟

تتي : للزَّوْج يا سَيِّدَتِي

الملكة : لِنَمِرِ الفُرْسِ الخَشِنْ

---

(١) الفلق: الصبح ينشق من ظلمة الليل.

تتي :

هَــبيــهِ ذِئْـبــاً، مَـلْكَـتِـي أو نَـمِـراً أو كَـرْكَـدَنْ

أَلـيْسَ لـلأَزْوَاجِ تَـلْبَسُ الـنِّـسَـاءُ مـا حَـسُـنْ

الملكة [ملتفتة إلى وصيفتها تتي]:

قُـلْتِ حَقّـاً، تـتي فـإنّ عـلى المَـرأة لـلزَّوْج أنْ تَكُـونَ أَمِـينَـهْ

وعَـلَيْهَـا ألاَّ تُـقَصِّـرَ بِشْـراً حَيْثُ تَلْقَـاهُ أو تُقصِّـرَ زِينَـهْ

تتي الـوصيفـة:

بَــلْ تَــحَـلّيْ، مَـلِيكَــتِـي وآلْـبَـسِـي حُـلَّةَ الـبَـهَـاءْ

وآفْــتِـنـي مَـنْ بِــفَـارِسٍ مِـنْ رِجَـالٍ ومِـنْ نِـسَـاءْ

إنَّ كِــسْــرَى وقَــوْمَــهُ كُـلُّهـم فـي الـهَـوى سَـوَاءْ

أَنتِ كـالشَّمْسِ في الضُّحَى فـانْشُرِي الحُسْنَ والضِّيَـاءْ

لا عَـلَى الـقَـصْـرِ وَحْـدَهْ بَـلْ عَلَى الأَرْضِ والسَّمَـاءْ

الملكة : يا لَكِ مِنْ وَصِيفَةٍ مُمَلِّقَهْ

عَارِفَةٍ بالجُمَلِ المُنمَّقَهْ

الوصيفة : لَقَدْ وَضَعْتُ ذَهَباً في البُوتَقَهْ

ولم أَصِفْ بالطِّيبِ إلاّ زَنْبَقَهْ

وقُلْتُ عَن شَمْس النَّهَارِ

الملكة : مُشْرِقَهْ

[ويـظهر على الملكـة التفكيـر واشتغـال البال فجـأة ثم تتغنى في نفسها وهي مقبلة على المرآة تنظر فيها]

الملكة [في نفسها]:

يــا ظَــالِــمــاً أُحِــبُّــهُ جَـهْـدَ الـهَـوَى وإنْ غَـدَرْ

ومَـنْ هَـجَـرْتُ وَطَـنِـي لأجْـلِهِ حِـيـنَ هَـجَـرْ

قَـلْبُـكَ لَـحْـمٌ ودَمٌ مِـثْـلُ القُـلوبِ أمْ حَـجَـرْ

لَـمْ يَـتَـنَـصّـلْ مَـرَّةً مِـمَّـا جَـنَـى ولا آعْـتَـذَرْ
جِـسْمٌ كـسَلْسَـالِ الـصَّـفَـا عــلى فُـؤادٍ كـالـصَّـخَـرْ[1]
وزَهَـرٌ أَنْـتَ وتِـلْكَ الـنَّـفْسُ أَفْـعَـى فـي الـزَّهَـرْ
لـم تَـجْـنِ، يـا تـاسُـو، عَـلَيَّ إِنَّـمَـا جَـنَـى الـقَدَرْ
ذَنْـبُـكَ لا يُـغْـفَـرُ إِلَّا أَنَّ قَـلْبِـي قَـدْ غَـفَـرْ
إِنْ غِـبْـتَ عَـنْ عَـيْـنِـي فـأَنْـتَ فـي سَـوَانِـح الـفِـكَـرْ
أَرَاكَ كُـلَّمَـا رَأَيْـتُ طـائِـرَيْـنِ فـي الـشَّـجَـرْ
وكُـلَّمَـا بَـدَتْ لِـيَ الـشَّـمْسُ ولَاحَ لِـي الـقَـمَـرْ
وكُـلَّمـا جِـئْـتُ الـرِّيَـا ضَ ووَقَـفْـتُ بـالـغُـدُرْ[2]
وكُـلَّمـا تَـرَنَّـم الـشّـادِي وحَـرَّكَ الـوَتَـرْ
وكُـلَّمـا دَبَّـتْ وَرَا ءَ الـلَّيْـلِ نَسْمَـةُ السَّحَـرْ
يـا لَـيْـتَ شِـعْـرِي كَـيْـفَ أَنْـتَ مـا تَـجِـيءُ مـا تَـذَرْ
وكَـيْـفَ حُـبُّـكَ الـجَـدِيـدُ هَـلْ خَـبَـا وهَـلْ كَـبِـرْ
وهَـلْ وَفَـيْـتَ أَمْ غَـدَرْ تَ بـالـعَشِـيقَـاتِ الأُخَـرْ؟

الوصيفة :

دَعِـي الـنـاسِـيَ، مَـوْلَاتِـي وخَـلِّـيـكِ مِـن الـسَّـالِـي
ولا يَـخْـطُرْ لَـكِ الـنّـاكِـثُ لـلعَـهْـدِ عَـلَى بـالِ

نتيتاس :

هَـبِـيـهِ، يـا تِـتَـا، خَـانَ فَـمَـا لِـي لا أَفِـي مَـالِـي
لَـهُ خُـلْقٌ ولِـي خُـلْقٌ ولَـكِـنْ خُـلْقِـيَ الـعَـالِـي

تتي :

هُـوَ، يـا مَـلْكَـتِـي، مِـثَـا لٌ، ولَـكِـنْ مِـنَ الـوَحَـلْ
كـانَ يَـكْـفِـي لِـبُـغْـضِـهِ بَـعْضُ ذاكَ الَّـذِي فَـعَـلْ

(١) الصفا: أي الماء الصفو، والأصل فيه المد.
(٢) الغُدُر. غدران الماء.

نتيتاس :

أَنَـا أَفْـدِيـهِ يـا تِـتَـا بِـحَـيَـاتِـي وإنْ قَـتَـلْ

تتي : لَوْ كَان مَعْشُوقِي أنَا

نتيتاس : ما الَّذِي كان يُلاَقِي؟

تتي : آهِ لا أَدْرِي

بـالصَّفْـعِ أَجْـزِيـهِ وبـالـرَّكْـلِ أَوْ

كُـنْـتُ أُرِيـهِ الـنَّـجْـمَ فـي الـظُّهْـرِ

نتيتاس :

الـحُـبُّ فـي نـاحِـيَـةٍ وأَنْـتِ ذِي فـي نـاحِـيَـهْ

مـا هٰـكَـذَا الـحُـبُّ تِـتَـا مـا الحُبُّ إلَّا التَّضْحِيَـهْ

[تسمع ضجة وصياح وحركة جنود وراء القصر وصوت استغاثة]:

يقول المستغيث:

الـعَـفْـوَ يـا كِـسْـرَى الـصَّـفْـحَ يـا سُـلْطَانْ

أَخُـوكَ والـنَّـارِ ومَـجْـدِهَـا مـا خَـانْ

الملكة : إسْمعِي يا تِتَا أَلَمْ يأتِكِ الصَّوْ تُ؟

تتي [وتطل من نافذة]: أجَلْ ثَمَّ ضَجَّةٌ وعَوِيلُ

ثَمَّ خَيْلٌ وشُرْطَةٌ وسِلاحٌ

الملكة : لَيْتَ شِعْرِي مَن البَرِيءُ القَتِيلُ

تتي : أَقَتِيلٌ، يا بِنْتَ فِرْعَوْنَ؟

الملكة :

لِـمْ لا لَيْسَ في أَرْضِ فارسٍ مُسْتَحِيلُ

يـا تِـتَـا نَـحْـنُ في بَـلَدْ كُـلُّ قَـلْـبٍ بِـهِ جَـمَـدْ

الـحَـيُّ فِـيـهِ رَخِـيصٌ والـمَـيْـتُ أَرْخَصُ مِـنْـهُ

هُنَا المَيْتُ تُنْفَضُ مِنْهُ الأَكُفُّ   وتَنْهَى الشَّرَائِعُ عَنْ دَفْنِهِ
ويُطرَحُ ناحيَةً في الفَضَاءِ   على سَهْلِهِ أو عَلَى حَزْنِهِ
تَرُوحُ الحِدَاءُ على رَأْسِهِ   وتَغْدُو الذِّئَابُ على بطْنِهِ

تتي :

وَيْحَهُمُ، وَيْحَهُمْ   أمَا مِن النَّاسِ هُمُ؟
ذَلَّتْ وهَانَتْ أُمَّةٌ   مَيْتُهُمُ لا يُكْرَمُ

الملكة [وهي مطلة]:

تِتَا هَذا هُو الحَارِسْ   وهَذا مَنْ تُحبِّينَا
كَذوقك يا تِتَا لَمْ يَعْلُ ذَوْقٌ   أتِمْثَالُ حَبِيبكِ أَمْ إلَهُ

تتي :

ولَوْ فوق الإلَه يُحَبُّ شَيْءٌ   ويُكَرمُ لم يكُنْ أحَداً سِوَاهُ
تأمَّلِي كَتِفَيْهِ تأمَّلِي منْكِبَيْهِ   كأنَّ صَقْرَيْنِ حَطَّا فظَلَّلا شارِبَيْهِ

الملكة : إنْتَظِري لا بُدَّ لي أنْ أسْأَلَهْ

تتي : لا تَفْعَلِي ما لَكِ مَوْلاَتِي، ولَهْ

الملكة : يأيّها الحارِسُ

الحارس : لبَّيْكِ

الملكة : مَنْ يَقْتُلُونَ اليَوْمَ في السّاحَةْ؟

الحارس : أُخْتُ المَلِكْ: أَتوسِيَا

الملكة : أُخْتُ المَلِكْ؟

الحارس : أَجَلْ هِيَا
إتُّهِمَتْ بِبُرْدِيَا

تتي : مَنْ بُرْدِيَا؟

الملكة : أَخُو المَلِكْ! يُقْطَعُ في السَّاحَةِ رَأْسُ بُرْدِيَا
يا أَسَفَا عَاوَدَهُ جُنُونُه

تتي الوصيفة [وقد أطرقت الملكة لحظة مفكرة مغتمة]:

مـا بِـكِ، مَـوْلَاتـيَ، مـا غَـمّـكِ، مـا هٰـذَا الأَسَى؟

الملكة : لا شَـيْء بِـي لَـقَـدْ وَهِـمْـتِ، يـا تِـتَـا،لا شَـيْءَ لَا

الوصيفة : بَـلْ أَنْـتِ تَـكْـتُـمِـيـنَ غَـمّـاً طَـافَ أوْ هَـمّـاً سَـرَى

هَـلَّا ذَكَـرْتِ أنَّـنَـا غَـرِيـبَـتَـانِ هـا هُـنَـا

أَنْـتِ لِـيَ الأَهْـلُ ولَـكِـنِّـي أنـا لَـكِ الـحَـمَـى

ومـا عـلى الـغَـرِيـبِ إنْ جَـاءَ الغَـرِيبَ فـاشْتَكَى

الملكة :

صَـدَقْـتِ، يَـا تِـتَـا، أَنـا وأَنْتِ في الـكَـرْبِ سَـوَا

قَـد اجْتَمَعْنَـا بَعْـدَ قُـرْ بِ الـدَّارِ في دَارِ النَّـوَى

تتي :

أَيْـنَ إذِنْ تَـبَـسُّـمُ كـالصُّبْحِ مِنْ فيـكِ يُـرَى

الملكة :

لَقَـدْ رَأَيْتُ الهَـوْلَ والْـوَيـ ـلَ ومـا هَـدَّ الـقِـوَى

تتي :

أَضْـغَـاثُ أَحْـلَامٍ وزُو رُ مِن تَهَـاوِيـلِ الـكَـرَى

الملكة :رَأَيـتُ رُؤيَـا يـا تِـتَـا هَـلْ لـكِ عِلْمٌ بـالـرُّؤَى؟

الوصيفة [بعد تفكير]:

أَجَـلْ تَـذَكَّـرتُ أَجَـلْ عِـنْـدِيَ مـن ذَاكَ شَـذَا

قَـدْ كُـنْتُ في الصِّبَـا عَلَى أَبِـي أَقُصُّ مـا أَرَى

الملكة :

رَأَيْـتُـنـي كَـأَنَّـنـي في قَـصْـرِ آبـائـي بِـصَـا

الوصيفة :

في القَصْـرِ من صَـالحَجـرِ قَـصْـرِ الـجَـلَالِ والـبَـهَـا

الملكة :

رَمَيْتُ عَيْنَيَّ من القَصْرِ إلى أَقْصَى مَدى
رَأَيْتُ وادِياً كطُولِ البيدِ أو عَرْضِ الفَلا
إصْفَرَّ مِنْ شِعَابِهِ بَنَفْسَجِيّ المُنْحَنَى
إحمَرَّ مِثْلَ قُزَحٍ هُنَاكَ واخْضَرَّ هُنا
رَأَيْتُ لَيْثاً أَحْمَرَ الجِلْدَةِ خَشْناً كالصَّفَا[1]
فاغِرَ فيه عَنْ نُيُوبٍ مِثْلِ مَشْرُوع القَنَا[2]
إنْقَضَّ كالصَّخْرِ على الوَادِي فأقْعَى فَرَنَا
ونَظَرَ النِّيلَ وقَدْ عَبَّ ومَاجَ وطَغى
وخَرَجَتْ مِنه التَّماسِيحُ فُرَادَى وثُنَى
وأعْوَلَتْ حَتَّى لَقَدْ سَدَّ عَوِيلُها الفَضَا
فعُقِرَ الليثُ فلا رِجْلاً رمى ولا يَدا
وقَرّ في مَكَانِهِ كأَنَّهُ بَعْضُ الدُّمَى

الوصيفة : ثمَّ؟

الملكة : رَأَيْتُ حَنَشاً لَيْسَ له مِصْرُ ثَرَى
لم تَرَ مَنْفُ مِثْلَهُ ولا الصَّعِيدُ قَدْ رَأى
كأنَّه صاعِقَةٌ تَحَدَّرَتْ من السَّمَا
مَشَى إلَيْهِ كُلُّ ذِي قَوْسٍ وكُلُّ ذي عَصَا
وخَرَجَ الكُهَّانُ يَتْلُونَ الصَّلاَةَ والرُّقَى

الوصيفة : وما الَّذي حَلَّ بِهِ؟

الملكة : لم يُصِبِ الوَحْشَ أذى

الوصيفة : حَقَّقْتِهِ سَيِّدَتي؟

---

(١) الصفا: الحجر الأملس. والمراد هنا ضده.
(٢) فاغر فيه: فاتح فمه. ومشروع القنا: أي الرماح المسددة.

الملكة : حَقَّقْتُهُ على الضُّحى

الوصيفة : فَكَيْفَ كان؟

الملكة : صُورَةٌ تُشِيبُ أرْؤُسَ النَّشَا[1]
كأنَّه فانِيسُ عَيْنَيْنِ ووَجْهاً وَقَفا
حَتَّى تَعَوَّذْتُ بإيزِيسَ وآبائِي العُلَى

الوصيفة : فانِيسُ مَنْ؟

الملكة : نسِيتِه؟ كَيْفَ نَسِيتِ، يا تِتَا
الخائِنُ الَّذِي إلى فارِسَ مِنْ حِينٍ أتَى
يَشِي بِمِصْرَ وأَخَا فُ أنْ يَكُونَ بِي وَشَى

الوصيفة :
ما صَنَعَ الثُّعْبَانُ مَوْ لاَتِي

الملكة : مِن النَّهْرِ دَنَا
وفَحَّ ثُمَّ دَسَّ في النَّهْرِ لِسَاناً كاللَّظَى
فاحْتَجبَ النِّيلُ وعا دَ يَبَساً ما كانَ مَا[2]
واحْتَرَقَتْ مَدَائِنٌ بالضَّفَّتَيْنِ وقُرَى

الوصيفة : واللَّيْثُ، يا سَيِّدَتي؟

الملكة : بَعْدَ التَّهيُّبِ اجْتَرَا
مَشَى على الوَادِي فَهَلْ رَأَيْتِ عاصِفاً جَرَى؟
يَقْتَلِعُ اليابِسَ والرَّ طْبَ ويَفْرِي ويَطَا[3]
وكَرَّ حَتَّى غادَرَ الوَادِيَ قاعاً صَفْصَفَا

---

(١) النشا: أي النشء.
(٢) ما: أي ماء.
(٣) يطا: أي يطأ.

هــو ذا الحُلْمُ فمــا تَفْسِيــرُهُ نَــبِّئِيــنــي يــا تِــتَــا

الوصيفة [لنفسها مضطربة]: ماذا أقُولُ؟

الوصيفة [للملكة]:

مَلْكَتِي لا تَفْزَعِي

الملكة : كَــيْــفَ تِــتَــا كَيْفَ لا أفْـزَعُ والحُلْمُ مَهُـولُ

يَــنْــفَــدُ الــنِّــيــلُ ويَــذْوِي شَــطُّــهُ

وتَــغُــولُ الأَهْــلَ والأَوْطَــانَ غُــولُ

الوصيفة :

رُؤْيَاكِ، يــا سَــيِّــدَتِــي مِــنْ نَــفْــسِــهــا مُــؤَوَّلَــهْ

نــالــتْــكِ مِــن عَــشَــاءِ أَمْسِ ثِــقْــلَــةٌ ووَبَــلَهْ

الملكة : مــاذا أَكَــلْــتُ مَــع قَــمْــبــيــزَ ومــا قُــدِّم لــه؟

الوصيفة :

كَــان الــعــشــاءُ مَــلْــكَــتــي مــائِــدَةً مُــحــمَّــلَهْ

أَكَــلْتِ، يــا سَــيِّــدَتــي مِــنْ أَرْنَــبٍ مُــتَــبَّــلَهْ

ثــم أكْــلَتِ مِــن حَــمَــلْ وحَــمَــلُ الــفُــرْسِ جَــمَــلْ

الملكة: ثمَّ؟

الوصيفة : جاءوا بالطَّيْرِ في الأَطْبَاقِ

الملكة : طيرُ مَنْ؟

الوصيفة : طيرُ فارس والعراق.

الملكة : ثمَّ ماذا؟

الوصيفة : ثم جَاءُوا بالسَّمَكْ

فَرَأَيْتُ المَلْكَ في الأَكْلِ آنْهَمَكْ

الملكة : ثم ماذا؟

الوصيفة : لا أُعُــدُّ مــا حَــضَــرْ مِنْ لُحُــومٍ وبُقُــولٍ وخُضَــرْ

ثـم بـالـحَـلْوَى أتَـوْا والـفَـاكِـهَـهْ

الملكة : كَيْفَ كانَتْ؟

الوصيفة : تَشْتَهِيها الآلِهَهْ

الملكة :

خَلَّطْتِ تَخْلِيطَ العَجُـوزِ يـا تِتَـا   فَمَـا عَلاَقَـةُ الطَّعَـامِ بـالكَـرَى

الوصيفة :

الأَكْـلُ قَبْـلَ النَّـوْمِ ثِقْـلٌ وأذَى   ورُبمَّـا جـاء بـأَضْغَـاثِ الـرُّؤَى

الملكة [لنفسها]:

عَـرَفْـتُ، الآنَ، رُؤْيَـايَ   ومـا خَـلَّطَ أَحْـلاَمِـي
وقَـدْ يُغْـرِيـكِ بـالأَكْـلِ   طُـهَـاةُ الفُـرْسِ والشَّـامِ

[ثم إلى تتا]: تِتَا أينَ كُنْتِ؟

الوصيفة : وَراءَ الخَدَمْ

الملكة : وكَيْفَ عَدَدْتِ عَليّ اللُّقَمْ

الوصيفة :

لَبَـدْتُ هُنـاكَ فَمَـا مِنْ يَـدٍ   تَـفُـوتُ عَـلَيَّ ولا مِـن قَـدَمْ
ولَمْ يَخْفَ عنِّي كَيْـدُ يَطُوفُ   ولا وَحْيُ لَحْظٍ ولا هَـمْسُ فَمْ
أخافُ القُصُورَ وأخْشَى السُّمُومَ   ومـا مَنْـزِلُ السُّمِّ إلا الـدَّسَمْ

الملكة :

يـا لَـكِ مِـنْ رَفِـيـقَـهْ   مُـحْـسِـنَـةٍ شَـفِـيـقَـهْ
مَـرْحَـى، تِـتَـا، كَـذَا تِـتَـا   فَـلْتَـكُـنِ الـصَّـدِيـقَـهْ

الوصيفة :

سَيِّـدَتـي أخْـجَـلْتِـنِـي   لَـيْسَ بمـا جِئْتُ عَجَبْ
مـا قُـمـتُ، يـا سَـيِّـدَتِـي   إلاّ بِـبَـعْضِ مـا وَجَـبْ

الملكة :

ولَــكِــنْ، يــا تِــتَــا، مــا أَخْــطَرَ الــسُّــمَّ عَــلَى بــالِــكْ

ولِــي فــي فَــارِسٍ عــامُ   فَمَــا فكَّــرتُ فــي ذَلِــكْ

الوصيفة :

أَرَى قَــمْــبِيــزَ والــفُــرْسَ   بِــمَــوْلَاتــي قَــدْ جُــنُّــوا

ولَــوْلَا ذاكَ لَــمْ يَــخْــلُ   مِــنَ الــسُّــمِّ لَــهَــا ذِهْــنُ

الملكة :

ولِــمْ لا نَــحْــذرُ الــسُّــمَّ   أَمَــا فــي فــارسٍ نَــحْــنُ

هُــنَــا الجَــلَّادُ والــسَّيــفُ   هُنَــا السَّجَّــانُ والسِّجْن

الوصيفة :

ومــاذا ضَــرَّ مــا قُــلْتِ   إذا لــم يَــحِــنِ الــحَــيْــنُ

الملكة [بعد برهة تفكير]:

أَرَى قَمْبِيــز ذَلَّ ورَقّ طَبْعــاً   بِــربِّكِ هَــلْ رَأَيْتِ عَلَيْــهِ حُبّــا

الوصيفة :

أَجَلْ هو يَقْصرُ الخَطَوَاتِ مَهْلاً   وكــانَ يَمُــدُّهــا خَــطْفــاً ووَثْبــا

[ثم في تلعثم وتردّد]:

سَــأَسْــأَلُ فــآحْلَمِي عَــنِّي فــإنِّي   أَمُــوتُ ولا أَرَاكِ عَــليّ غَــضْــبَــى

سُــؤالٌ مَــلْكَــتِي هَــلْ مِنْ جَــوَابٍ

الملكة :   أَدُونَكِ، يا تِتَا، شَيْءٌ يُخَبَّا

الوصيفة :

زَعَــمْنَــا أنَّ قَــمْبِيــزاً مُحِــبٌّ   فَهَــلْ تَجْــزِينَه بــالحُبِّ حُبّــا

الملكة :

أُحِبُّ أنــا؟ ضَلَّ مــا قَدْ ظَنَنْتِ   وإنْ خِلْتِ ظَنَّــكِ لم يَكْــذِبِ

الوصيفة :

ولـمْ لاَ؟ وقَمْبِيـزُ لا بـالـقَبِيـح ولا بـالـدَّمِـيم ولا بـالـغَبِـي
ولا هُـوَ بـالـمَـلِكِ الـبَـرْبَـرِيّ ولا الـوَحْشِ ذي النَّـابِ والمَخلَبِ
ولَكِنْ فَـتًى خَـيِّـرٌ كـالسُّحَـابِ وَضِـيءُ البَشَـاشَـةِ كـالكَـوْكَـبِ
يَـزِيـنُ الـسَّـرِيـرَ إذا آحْـتَـلَّهُ وإنْ سَـارَ كـانَ حُـلَى الـمَـوكِـبِ

الملكة :

صَـدَقْتِ تتَا هـو زَيْنُ الشَّبَـابِ إلَـهُ القَنَـا قَمَـرُ الغَـيْهَـبِ[1]
إذا غُلِبَتْ في القِتَـالِ المُلوكُ وفي السِّـلْمِ عَـزَّ فَلَمْ يُـغْلَبِ
يُسَيْـطِرُ كـالشَّمْسِ سُلْطَانُـه على مَشْرِق الأَرْضِ والمَغْرِبِ
ولَكِنْ مَتَى، يـا تِتَـا، دُلِّهَتْ بَنَـاتُ الفَـرَاعِينِ بـالأَجْنَبِ
وما نَلْتَقِي في جَلاَلِ الجُـدُودِ ولا في العَقِيـدَةِ والـمَـذْهَبِ
بَـخٍ بَخْ، تِتَـا، أُفٍّ، مَـرْحَى تِتَا

الوصيفة : حَنَانَيْكِ، عَفْواً، ولا تَغْضَبِي
لقَــد قُلتُ حَقّــاً ومــاذا عَليَّ إذا قَــوْلَـهُ الحقِّ لم تُعْجِبِ؟

[تنسحب الملكة إلى غرفة مجاورة ويدخل قمبيز. . . . . .]

مــا أرى من تتــا؟ تتـا، أَيْنَ مَـوْلاَ تُـكِ فيمَ آحْتِجَـابُهـا أَيْنَ سارَتْ؟

تتي [لنفسها]: رَبِّ مـاذا بـه ومـا هَـاج قَمْبِيزُ ومـا بَـالُ نَفْسِـهِ اليَـوْمَ ثارَتْ؟

تتي [لقمبيز]: هِي في حُجْرَةَ المَلاَبِسِ

قمبيز :

لاَ بَلْ هِيَ قَـدَ جاءهـا النَّبا فَتَـوارَتْ
خَـبِّـرِيـنـي مَـنْ أَبُـوهَـا أَبْـريـاسٌ أَمْ أَمَـازِسْ
وبِـنِـفْـرِيـتَ تُـسَـمْـى أم تُـسَـمَّـى بِـنِـتَـاتِس

---

(١) الغيهب: الظلام.

إحْـذَرِي أنْ تَـكْـذِبيني   إحْـذَرِي سُـلْطَانَ فـارِسْ

تتي : سَيِّدِي، ما هٰذِهِ الأَخْبارُ كِسْرَى مَنْ رَوَاهَا

سَيِّدي كَيْفَ آتَّهَمْتُمْ   مَلْكَةَ الفُرْسِ النَّبِيلَهْ

قمبيز :

سَأُرِيهَا كَيْفَ تَنْقَا   دُ وتَأْتِي لِي ضَئِيلَهْ

في غَدٍ تَدْخُلُ مِصْراً   بِنْتُ فِرْعَوْنَ ذَلِيلَهْ

وتَرَى السَّيْفَ مَخُوفاً   وتَرَى النَّارَ مَهُولَهْ

وتَرَى النِّيلَ دَماً والـ   أَرْضَ جَرْدَاءَ مَحُولَهْ[1]

لا أُنَاسٌ ولا مَوَاشٍ   لا بِنَاءٌ لا خَمِيلَهْ

الوصيفة :

سَيِّدي، صَبْراً تَجِدْ عا   قِبَةَ الصَّبْرِ جَمِيلَهْ

سَيِّدِي، لا تُصْغِ إلاّ   لِسَجَايَاكَ النَّبِيلَهْ

قمبيز :

أنا لم أُخْلَقْ لِبَسْطِ الكَفِّ أَسْتَجْدِي بَخِيلَهْ

أنا للسّيْفِ ولِلرُّمْحِ وإخْضَاعِ القَبِيلَهْ

لا تِتَا. لا. إنّ بالمَلْكَةِ كِبْراً ومَخِيلَهْ[2]

[ثم بسخرية]:

أنا من تُرْبٍ خَسِيسٍ   وهْيَ مِنْ أرضٍ جَلِيلَهْ

أنا للطِّينِ سَلِيلٌ   وهل للشَّمْسِ سَلِيلَهْ

الملكة [وهي راجعة]:

ما الصَّوْتُ مَنْ تُكلّمينَ يا تِتَا؟

الوصيفة : سَيِّدَتِي. سَيِّدِيَ المَلْكُ أَتَى

---

(١) محولة: أي محلة جدباء.

(٢) مخيلة: خيلاء.

الملكة [ملتفتة]: المَلْكُ جاء حُجْرَتي؟ كَيْفَ مَتَى؟؟

[ثم ناهضة ومقبلة على الملك]:

المَلْكُ في مَقْصُورَتِي، يا مَرْحَباً، يا مَرْحَبَا

الملك [ويقبل على الملكة]:

سَلاَمٌ، مـلْكَـة الـفُـرْس وبِـنْـتَ العِلْيَـةِ الـصِّـيـدِ

الملكة :

سَـلاَمٌ سَـيِّـدَ الأَرْضِ سَـلاَمٌ حَـيْـدَر الـبِـيـدِ[1]

ومَـنْ دانَـتْ لـه الـدُّنْـيَـا وألْـقَـتْ بـالـمَـقَـالِـيـدِ

[ثم مستمرة]:

لَـمْ أتَـعَـوَّدْ أنْ أرَى مَـوْلَايَ عِنْـدِي في الضُّحَى

قمبيز :

خَـالَـفْـتُ نُـظْمَ عَـادَتـي وجِئْـتُ فـي شَـأْنٍ دَعَـا

الملكة :

مـا لَـكَ كِسْـرَى عـابِسـاً ما لِـي أَرَاكَ مُـغْـضَـبَـا

الملك [ويصفق]:

أَجَلْ جِدُّ غَضْبَانَ

الملكة : مِمَّ الغَضَبْ؟

الملك : رُوَيْدَكِ، نِفْرِيتُ تَدْرِي السَّبَبْ

الملكة [لنفهسا]:

دَعَـانِـي بـآسْـمِـيَ لـم يَـدْعُـنـي كَـمـأْلُـوفِ عـادِتِـه بـالـلَّقَـبْ

تُـرَى لَمْ يـزَلْ جـاهِـلاً أَنَّنِي أَتَيْتُ لفـارِسَ بـاسْمٍ كَـذِب

قمبيز [ملتفتاً وراءه خارج الباب وينادي]:

---

(١) الحيدر: الأسد.

فانِيسُ. أقبِلُ آدنُ، جِيءْ

الملكة [لنفسها]: فانيسُ؟ لا. لا يَدْخُلِ

فـانِـيسُ لا أَجْـهَـلُه لَـيْسَ لِمِـصْـرَ بـالـوَلِي
عَـدُوُّ قَـوْمِـي وبِـلاَ دِي كَيْفَ يُصْفِي الـوُدَّ لِي

[ثم إلى قمبيز]:

مَـوْلاَيَ إنِّـي مـا فَـرَغْـتُ، بَـعْـدُ، مِـنْ تَـجـمُّـلِي
فَـكَـيْـفَ أَسْـتَـقْبِـلُ فـي هَـذا الـلِّبَـاسِ المُـهْـمَـلِ

[لنفسها]:

يـا وَيْـلَتَـاهُ مـا أَرَا دَ بـاَصْطِحَـابِ الـرَّجُـلِ
إيـزيسُ مـا بَـالِـي، أَحْـسَـسْـتُ بِـشَـرٍّ مُـقْـبِـلِ

الملك :

مـا لَـكِ، يـا مَـلْكَـةُ، لَـمْ تُـرَحِّـبي وتَـحْـفِـلِي؟
ما لَكِ أَجْفَلْتِ؟

الملكة [مضطربة]:

أنا؟ لا، سَيِّـدِي، لـم أَجْـفِـلِ

الملك :

إذَنْ هَـبِـي الإذْنَ لِـفَـا نِـيسَ دَعِـيه يَـدْخُـلِ

الملكة :

لا بَـأْسَ في أن أَراه عِنْـدِي إنْ كُنْتَ، يـا سَيِّـدِي، مُصِـرًّا
لَـكِـن أَأُنـسِـيتَ أنَّ فـانِـيس خـانَ بـالأَمْسِ عَـهْـدَ مِـصْـرَا
وفَـرَّ مِـنْـهَـا ولَـسْـتُ أَدْرِي مـاذا دَعَـاه لأَنْ يَـفِـرَّا
وكـانَ في الجَيْشِ ذا مَكَـانٍ وقـادَ بَـرّاً وقـادَ بَـحْـرَا

قمبيز :

لَـكِـنَّـه الـيَـومَ فـي بِـلاَدِي أَجَـلُّ مِـمَّـا ذَكَـرْتِ قَـدْرَا

الملكة :

وسَـوْفَ يَجْـزِيكُمُ جُحُـوداً　　كما جَزَى أَهْلَ مِصْرَ كُفْرَا

قمبيز :

لَقَـدْ أتَـانِي بِـكُـلِّ سِـرٍّ　　عَنْ مُلْكِ مِصْرٍ لم يُخفِ سِرّاً

حَتَّى الـذي قـد كَتَمتِ عَنّي

[ثم ينادي]:　　فانِيسُ

فانيس :　　مَلْكِي لَبّيْكَ عَشْرَا

[ثم هو يدخل]:

سـلامُ الشَّمسِ مِنْ مصْـرَ　　سَـلَامُ الـنَّـارِ مِنْ فـارِسْ

عَـلى الـمَـلْكَـة نِـفْـرِيـتَ　　أو الـمـلْـكَـةِ نـيـتَـاتِسْ

الملكة [لنفسها]:

رَمَانِي النَّذْلُ بالسَّهْمِ

[ثم لفانيس]:　　سَلَامٌ لَكَ يا فانِسْ

ويَـا مَنْ هُـوَ في الـفُـرْسِ　　ومِـصْـرَ القـائـدُ الـفـارِسْ

وفي القَصْـرَيْنِ مِنْ سُـوسٍ　　وسـايـيسَ هُـوَ الـحَـارِسْ

فانيس :

ومـاذا ضَـرَّ يـا بِنتَ المَـوَالِي　　وإنْ تَـأْبَيْ فيـا بِنْتَ الأَعَـادِي

أَجـلْ، مَـوْلَاتِـيَ، الإغْـرِيـقُ قَـوْمِـي

أُحِـبُّـهُـمُ　　ويُـونَـانٌ　　بِـلَادِي

هَـجَـرْتُهـمَـا إلى مِـصْـرٍ صَـبِيّـاً　　لِـكَسْبِ مَـعِـيشَـةٍ وطِـلَابِ زَادِ

فَصِـدْتُ الـرِّزْقَ حَتَّى صـارَ عِنْـدي　　وجـاوَزَه إلى المَجْـدِ اصْـطِيَـادِي

سَهِـرْتُ على اللِّواءِ بِمصْـرَ جُهْـدِي　　وفِـرْعَـوْنٌ وقَـوْمُـكِ في رُقَـادِ

الملكة : كَذَبتَ فَلَمْ تَكُنْ إلا مَسُوداً

فانيس :　　فَسَوَّدَنِي ذَكَائِيَ وآجْتِهَادِي

الملكة : أجيراً كُنْتَ عِنْدَ أبي وقَوْمِي

فانيس :

فموَّلَنِي نَشَاطِي وآقْتِصَادِي
جَعَلْتُ الأَرضَ كالصَّحْراءِ تَحْتي ... وكُنْتَ اللَّيْثَ مِنْ وَادٍ لِوادِي

الملكة :

أَرَاكَ عَلِيّ، يا فَانِيسُ، تَجْرُو ... أَجَرَّأَكَ المَلِيكُ عَلَى عِنَادِي؟
ككَلبٍ خَلْفَ سيِّدِه تَجَرَّا ... فَوَاثَبَ رائحاً، وَسَطَا بِغَادِي

فانيس :

بَدَأْتِ، أَميرةَ الوَادِي، بِشَتْمِي ... وما أنا يا ابْنَةَ المَقْتُولِ بادِي
لَقَدْ عَيَّرتني أنِّي غريبٌ ... ولُوعٌ بالسِّفَارِ وبالرِّيَادِ

الملكة :

لَقَدْ هَجَمَ الوَقَاحُ على مَكَاني ... وأَخْشَى أنْ يَصِيرَ إلى التَّمَادِي

[ثم للملك]:

مَوْلَايَ قِفْ فانيسَ عِنْدَ حَدِّهِ ... أَوْ رُدَّه لا تُلْجِنِي لِرَدِّهِ
عَلِمْتَ حِقْدَهُ على قَوْمِي فَلَا ... تَدَعْهُ يَنْفُثْ فِيَّ سُمَّ حِقْدِهِ

الملك : عَلامَ أُقْصِيهِ

الملكة : لأَنَّهُ أَتَى ... يَشِي بِنَا ويَفْتَرِي كَعَهْدِهِ

الملك :

فانيسُ جاءَ ناقِلاً مُبلِّغاً ... ولَيْسَ ما جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ

[ثم مستمرّاً]:

أَرَاكِ، نِفْرِيتُ، غَيْرَ مُنْصِفَةٍ ... رُوَيْدَ لا شَيْءَ يُوجِبُ الغَضَبَا
كُونِي مَكَاني!؟ ما كُنْتِ فاعِلةً؟ ... إذن قَلَبْتِ الزَّمَانَ فانْقَلَبَا

الملكة :

لا، سَيِّدِي، إنَّ للزَّمَانَ يداً ... قَدْ ضَرَبتْ كَفَّ كُلِّ مَن ضَرَبَا

الملك :

نـفُـريـتُ، ثُـرْتِ عَـلَى فَـنِـيس ومَـا حَـفِـظْتِ وَلاَءَهُ
ونَـسِـيـتِ خِـدْمَـتَـهُ بِـمِـصْـرَ ومـا ذَكَـرْتِ بَـلاءَهُ

الملكة :

لاَ، سَـيِّـدي، لاَ. نَـحِّـهِ أنَـا لا أُطِـيـقُ لِـقَـاءَهُ

[ثم مستمرة]:

ما بِكَ، مَوْلاَيَ، مـا أَثـارَكَ مَـا أَذْكَـاكَ إنِّي أرَاكَ مُلْتَـهِبَـا

قمبيز :

أثـارَنِـي مِـنْـكِ أنْ كَـذَبْـتِ وذَا فَـانِيسُ قـد جـاءَ يَفْضَحُ الكَـذِبَا

[ثم مستمراً]:

هَـلُمِّـي الآنَ، نِـفْـرِيـتُ هَـلُمِّي، يـا نـتِـيـتَـاسُ
بـأيِّ آسْـمَـيْـكِ أدْعُـوكِ

الملكة : بِذَا أو ذَاكَ لا بَاسُ

فَـيَـا قَـمْـبِـيـزُ، لَـوْ دَانَـتْ لَـكَ الأيَّـامُ والـنَّـاسُ
فـلَنْ تَسْطِـيـعَ أنْ تَـقْـهَـرَ نَـفْـسـاً حَـلَّهَـا الـيَـاسُ

قمبيز : أنْتِ مَمْلُوءَةٌ من اليَأْسِ مِنِّي

الملكة : أَجَلِ اليَأْسُ مِنْكَ مِلْءُ ثِيَابِي
فَلْيَكُنْ

الملك :

إنِّـنـي سَـأَلْـتُ سُـؤَالاً لِمْ إذنْ هِبْتِني، وهِبْتِ جَوَابِي
كَيْفَ أَدْعُوكِ، يا عَرُوسُ؟

الملكة : بِمَـا شِئْتَ، بِشَـرِّ الأَسْـمَـاءِ والأَلْـقَـابِ
بـالَّـذِي أنْتَ أَهْلُه مِنْ بَـذاءٍ والَّـذِي أنْتَ أَهْلُهُ مِنْ سِبَابِ

الملك :

أَنْتِ لَمْ تُــذْنِبي بَــل الــذَّنْبُ ذَنْبِي
أنَــا قَــدْ شِئْتُ أَنْ تَكُــونِــي رِكَــابِي

الملكة :

لَـيْسَ مــا شِئْتَ أو أَتَــيْتَ غَــرِيــباً
قَــد تَــكُــونُ المَــهَــا رِكَــابَ الــذِّئَــابِ

الملك : إحْذَرِي، أيُّها الفَتَاةُ، انْفجَارِي

الملكة : إنْفَجِرْ ما بِي ٱنْفِجارُكَ ما بِي

الملك :

جِئْتِ ذَنْبــاً تُعَــاقَبِــيــنَ عَــلَيْــهِ كُــلُّ ذنــبٍ رهــيــنــةٌ بــالــعــقــابِ

الوصيفة [بصوت منخفض]:

إكْظِمِي الغَيْظَ، يا أَمِيرَةُ

الملكة [وتشير إلى قمبيز]:

بَلْ يَخْرُجُ مِنْ حُجْرَتي ومِنْ مِحْرَابِي

الملك [لفانيس والوصيفة]:

أُنــظُرَا وٱسْمَعــا تُحــاوِلُ أنْ أَبْــرَحَ قَصْــرِي وأَن أُفَــارِقَ بَــابِي

الوصيفة [للملكة بصوت منخفض]:

راجِعِي الحِلْمَ مَلْكَتِي سايرِيــهِ لاطِفيــهِ لِيِّني له في الخِطَابِ
لا تُهِيجِي به الجُنُونَ فَيــطْغَى إنّــهُ آدَمٌ بــظُفْــرٍ ونــابِ

فانيس [همساً]:

أَحْـسِنِـي الــرَّدَّ، ملْكَــتِي، وٱحْـفَــظِـيــنَــا
إنَّــنَــا هــا هُــنَــا ثَــلاَثُ رِقَــابِ

الملكة :

خِفْتَ، فانيسُ، مِنْ عَذَابِ نَهَارٍ
كَيْفَ عَرَّضْتَ أَنْفُساً لِلْعَذَابِ
عَجَبٌ مِنْ خَرَابِ عُمْرِكَ تَخْشَى
أَنْتَ مَنْ سَاقَ أُمَّةً لِلْخَرَابِ

الملك : بِنْتُ مَنْ أَنْتِ، يا نِتيتاسُ

الملكة : بنتُ الشَّمْسِ بِنْتُ العَوَاهِلِ الأَرْبَابِ
والِدِي في السَّمَاءِ فَهُوَ إِلَهُ

الملك : فَلِمَاذَا مَرَّغْتِهِ في التُّرَابِ
قَدَ نَبْذْتِ آسْمَكِ الذي كان سَمَّا ... كِ، وجُبْتِ البِلَادَ بِآسمٍ كِذَابِ

[ثم مستمراً]:

نتيتاسُ، تَمَرَّدْتِ ... فما أَبْقَيْتِ لِي صَبْرَا
وكَلَّمتُكِ في الذَّنْبِ ... فما أَبْدَيْتِ لي عُذْرَا
وما أَجْرَأَ ما كُنْتِ ... عَلَى شَتْمِيَ ما أَجرَا
فَمَا غَرَّكِ بالبَأْسِ ... وبالسُّلْطَانِ ما غَرَّا

الوصيفة [بصوت منخفض]:

خُذِي في اللِّينِ، مَوْلَاتِي

فانيس [همساً]: خُذي، سَيِّدَتي، الحِذْرَا
فَقَدَ تَأْخُذُه النَّوْبَةُ حَتَّى يَحْرِقَ القَصْرَا

قمبيز :

دَعِي العِزَّةَ بالجِنْسِ ... نِتيتاسُ، دَعِي الكِبْرَا
ولا تُلْقِي عَلَى إحْسَا ... نِيَ النِّسْيَانَ والكُفْرَا
أما أَحْبَبْتُكِ الحُبَّ ... الَّذِي أنْتِ بِهِ أَدْرَى
وفَضَّلْتُكِ في القَصْرِ ... على البَيْضَاءِ والسَّمْرَا

وقَــدَّمْــتُــكِ فــي الأَزْوَا ج قَبْــلَ الأُخْتِ مِنْ كِسْرَى

الملكة :

لَــقَــدْ كُــنْــتَ وَرَاءَ الــحُــبِّ تُــخْــفِــي الــنَّــابَ والــظُّفْــرَا
ومَــا أَفْــرَحَــنِــي أَنِّــي تَــقَــدَّمْتُ عَــلَى الأَسْــرَى
ولا أَنَّــكَ تَــرْعَــانِــي وتَــنْسَــى النَّعْجَــةَ الأُخْــرَى

الملك : مَلْكَةَ الفُــرْسِ ، أَمْسِ

الملكة : واليَوْمَ

الملك : كَلَّا ، لَسْتِ أَهْــلاً لِصُحْبَةِ المــالِكِينا

الملكة : أنــا بِنْتُ المُلُوكَ أَصْلُحَ للمُلْك، جُـدُودِي تملَّكُـوا العــالَمِينَـا

الملك :

قَــد خُـدِعْتُ الشُّهورَ، يـا ابْنَــةَ فِــرْعَــوْ
نَ، ولَوْلاَ فــانسٌ خَـدَعْـتُ الـسِّـنِـيــنَــا

فانيس [لنفسه]:

أَحْمَـدُ الله قد نَجَـوْتُ بِرَأْسي وأَمنْتُ المُهَـوَّسَ الْمَجنُـونَــا

الملكة :

لَيْسَ فـانيسُ لـلأَمَـانَـةِ أَهْــلاً إِنَّ مَنْ خانَ لَمْ يَخَفْ أن يَخُونَا

الملك : سَتَرَيْن العِقَابَ

الملكة : إنِّي تـأَهَّبْتُ، فَهَـاتِ العَــذَابَ، هات المَنُونَا

الملك : لا. فما ها هُنا العِقَابُ، ولَكِنْ

الملكة : أَيْنَ؟

الملك : في حَيْثُ شِئْتُ، لمْ تَسْأَلِينَا؟

مِصْـرُ أَوْلَى بأن أُحـاسِبَ فيها وأُحـلَّ العِقَـابَ بـالخـادِعِينَــا

في غَــدٍ تَــدْخُلِينَ مِصْــرَ مَــعَ الـجَيْشِ

الملكة : أنا؟ لا أُرافِقُ الغاصِبِينَا

الملك : بَلْ تَسِيرينَ تَحْتَ رايَةِ فانِيسَ

وما تَصْحَبِينَ إلاّ أَمِينَا

الملكة : سَيِّدِي

الوصيفة : مَـلْكتـي دَعِي العُنْفَ

الملك : ماذا؟

الملكة : كيف لَقَّبْتَ بالأمينِ الخؤونا

فانيس [همساً]:

صانِعِي، أيُّها الأَمِيرَةُ

الملكة : دَعْنِي

فانيس : إهْدَئي حاسِنِي عَسَى أنْ يَلِينَا

الوصيفة : مَلْكَتِي قال سَيِّدي المَلِكُ الحَقَّ

الملكة : صَهٍ أَنْتِ يا تِتَا تَكْذِبينَا

فانيس : سَترَيْنَ النَّعِيمَ تَحْتَ لِوَائِي

الملكة : بِلْ أَرَى البُؤْسَ تَحْتَه والهُونَا

الملك : وكأنَّ الوَجْهَيْن بانا من الوا دي

وزالا سُهُولَةً وحُزُونَا

أُرْسِـلُ السَّيْـلَ تـارَةً، وأُجِيـلُ السَّيْفَ، آنـاً، وأُشْعِـلُ النَّـارَ حِينَـا

الملكة :

عُـدْ إلى الرُّشْدِ، مـا جَنَتْ مِصْرُ، يا قَمْـ

ـبِيـزُ، مـا ذنـبُ أَهْـلِهَـا الآمِـنـيـنَـا

[ثم مستمرة]:

أَمِـيـرَ الـفُـرْسِ قُـلْنَـا كُـلَّ شَـيْءٍ
وَلَـمْ نَـقُـلِ الـحَـقِـيـقَـةَ والـصَّـوَابَـا

الملك : أَعِنْدَكِ مِنْهُمَا شَيْءٌ؟

الملكة : وَلِمْ لَا

الملك : إِذَنْ قُولِيهِمَا، وزِنِي الخِطَابَا
ذَكَرْتِ الحَرْبَ هَلْ تَخْشَيْنَ مِنْهَا

الملكة : وَلِمْ لَا وَهْيَ أَجْدَرُ أن تُهَابَا؟

الملك :

وَلَـكِـنَّـا مُلُوكَ الفُـرْسِ نَغْشَى مَخَـاوِفَهَا ونَجْعَلُهَـا لِعَـابَـا
أَرَاكِ هَـدَأْتِ نَـاتِيتَـاسُ رَوْعـاً

فانيس : وكان الرُّشدُ فارقَها فثَابَا

الملكة :

ذَكَرْتَ، مَلِيكَ فارسَ، حَرْبَ مِصْرٍ وأُنْسِيتَ العَـوَائِقَ والصِّعَـابَـا
سيَـطْوِي الجَيْشُ نَحْـوَ حِيّـاضِ مِصْـرٍ
بِـحَـارَ الـمِـلْحِ والـلُّجَـجَ الـعِـذَابَـا
وأَغْبَى النَّاسِ مُنْشَمِرٌ لِحَرْبٍ تَـوَقَّـعَ أَنْ يُصِيبَ ولا يُصَـابَـا
ودُونَ النِّيلِ

الملك : ماذا دُونَ مِصْرٍ؟

الملكة : يَجُوبُ الجَيْشُ صَحْرَاءً يَبَابَا
تَـرَى تِيهـاً تَجُـرُّ الخَيْـلُ فِيـهِ قَـوَائِمَها وتَنْسَحِبُ انْسِـحَـابَـا
يَضِـلُّ الجَيْشُ هَـدْيَتَـهُ عَلَيْـهِ ويُـظْمِئُـهُ ويُـورِدُهُ السَّـرَابَـا[1]

---

(١) الهدية: الجهة.

تَرَى جِلْدَ الجَمَالِ عَلَيْهِ يَفْنَى   وتَحسَبُهـا مِن اللَّهَثِ الكِلاَبَـا

الملك :

لا تُــرَاعَى فمـا عَلَى الجَيْش بَــأْسٌ   كُــلُّ شَـيءٍ على الـحُــدُودِ تَـهَـيَّـا

قَـدَ وَجَدْنَـا الجِـرَارَ في مِصْـرَ والمَـا   ءَ نَـعْـدَمِ الـرِّجَـابَ الـسُّـقِـيَّـا[1]

فانيس :

وآشْتَـرَيْنَـا الخَفِيـرَ بالمَـــالِ، والحـا   رِسَ، والحَـــامِيَ الأَمِيـنَ الـقَــوِيَّـا

الملكة [لفانيس]:

كُـلُّ هٰذَا فَعَلْتَهُ أَنْتَ، يـا نَــذْ   لُ

فانيس :   أَجَلْ ما أَتَيْتُ أمراً فَرِيًّا

إنَّ قَمْبِيــزَ بِي حَفِيٌّ وفِـرْعَــوْ   نَ أمـازِيس لم يَكُنْ بِي حَفِيّـا

الملكة : وابْنُهُ ما جَنَى عَلَيْكَ ومِصْرٌ؟

فانيس :   جَنَيا الطَّرْدَ والجُحُودَ عَلَيَّا

أنـــا كـالسَّيفِ لم يَصُنِّي كَمِيٌّ   قَـدْ رَمَانِي فـاعْتَضْتُ عَنْهُ كَمِيًّـا[2]

الملكة : وجَحَدْتَ الذي طَعِمْتَ مِن النِّعمَةِ

فانيس :   لا. ما طَعِمْتُ مِن ذاكَ شَيًّا

كُنْتُ كـالسَّيْفِ كُلَّما كــافأُوني   جَعَلُوا السُّمَّ لي طَعَـامـاً ورِيًّـا

الملكة [إلى قمبيز]:

وهَبْكَ بَلَغْتَ، يا مَوْلَايَ، مِصْراً

الملك :   وماذا عِنْدَ مِصْرَ

---

(١) السقى : الساقون.

(٢) الكمي : لابس السلاح.

الملكة : تَجِيءُ غابَا

تَــرَى أُسْــدَ القِتَــالِ عَـلَيْــهِ شَتَّى   تَــقَـلَّدتِ الــصَّــوَارِمَ والـحِـرَابَــا
وثَـمّ تَــرَى الـفَـيَــالِقَ مِــن رُمَــاةٍ   تَـكَــادُ قِسِيُّهُــمْ تَــرِدُ الـسَّـحَــابَــا
إذا نَــظَرُوا عَــلَى زادٍ غُــرَابــاً   أَصــابُــوا بَـيْنَ عـيْنَيْــهِ الـغُــرَابَــا

الملك [يبتسم مستهزئاً]:

رُمَاةٌ؟

[ثم إلى فانيس والوصيفة]:

حَدِّثوها كَيْفَ أَرْمِي
وكَـيْفَ أُصِيبُ فـي السُّـحْبِ الـعُقَــابَــا

الملكة : أأَنْتَ بِجَمْعِهِمْ تُقْتَاسُ كِسْرَى
وأَنْــتَ الــمَــوْتُ حَـيْـثُ رَمَــى أَصَــابَــا

الملك : إذَنْ ماذا؟

الملكة : أَخَافُ عَلَيْكَ جَيْشاً
كَمَــرْكُــومِ الحَصَى يُخْــطِي الحِسَــابَــا
وأَخْــشَــى أَنْ يَــقُــولَ الــنَّــاسُ زَوْجِــي
غَــدَاةَ ذَهَــابِــهِ نَــسِــيَ الإيَــابَــا

الملك [لفانيس]:

فــانــيسُ صَــفِّــق ونــادِ   يــا مَــعْــشَــرَ الــقُــوَّادِ

[يدخل الحرّاس والقوّاد]

قمبيز [للقائد ميجا صاحب الأخبار]:

مِيجا

ميجا :

لــبَّــيْــكَ رَبِّــي   لَــكَ التَّحِيَّــاتُ والسُّجُــودُ

الملك [للملكة]:

يـا مَلْكَـةَ الفُـرْسِ ذاكَ مِيجَـا   يَعْلَمُ مـا يَحْشُـدُ الـوُجُـودُ
خَـرِيطَةُ الأَرْضِ في يَـدَيـهِ   السُّفْـنُ والخَيْـلُ والجُـنُـودُ

الملك [لميجا]:

ميجـا تَكَلَّمْ، ما حَـالُ مِصْـرٍ   ما الجَيْشُ في مِصْرَ ما الحُدُودُ؟

الملكة : هاتِ ميجا، قُلْ، تَكَلَّمْ

ميجا [في اضطراب]: مَلْكَتِي

الملكة : ما الذي تَدْرِي عن الجَيْشِ المَجِيدْ

ميجا :

جَيْشُ مَـوْلَاتِي كَـالعَهْـدِ بِـهِ   كـامِلُ العُـدَّةِ مَوْفُـورُ العَـدِيـدْ

الملك [في غضب]:

هــاتِ مــا عِــنْـدَكَ مِــنْ أَخْــبَـارِهِ
واخْشَ أَنْ تَـنْـقُصَ واحْـذَرْ أَنْ تَـزِيـدْ

ميجا [مضطرباً]:

يــا إِلَـهَ الـفُـرْسِ لا تَـبْـرَحْ فَـمِـي
وأَعِــنِّــي. كَـيْـفَ أُبْـدِي وأُعِـيـدْ

[ثم للملكة]:

إِنَّ وِرْدَ السِّلْمِ مِنْ كَثْـرَتِـهِ   نَسِيَتْ أَظْفَارَهـا فيـه الأُسُودْ
وآخْتِـلَافُ الجُنْـدِ فِيمَـا بَيْنَهُمْ   أَخَذَ البَأْسَ وإِنْ أَبْقَى الحَدِيدْ
أَصْبَحَ الجَيْشُ

[ويسكت قليلاً]

الملك [لميجا]: تَكلَّم

الملكة : قُلْ أَبِنْ

ميجا : كـالـقَـطِـيـعِ آخْـتَـلَفـتْ فـيـه الـجُـلُودْ

حُشِـرَ اليُـونـانُ فـي رَايَتِـهِ   وتَرَاغَى الزَّنْجُ وآنْدَسَّ العَبِيدْ[1]
وغَـدَا كـلُّ طَـرِيـدٍ لم يَجِـدْ   سَبَبَ الرِّزْقِ أتى الجَيْشَ يَصِيدْ

الملكة [لنفسها]: والخَيْلُ يـا ميجا هُنَاك؟

ميجا :

قَلِيلَةٌ   في جَيْشِ مِصْرَ قَلِيلَةُ الفُرْسَانِ

الملكة :

أَسَفاً على الفِتْيانِ أَيْنَ حَمَاسُهُمْ   قتَـلَ النَّعِيمُ حَمِيَّـةَ الفِتْيَـانِ

الملك [ملتفتاً إلى ميجا]:

مَـلِيْـكَـةُ الفُـرُسِ ، مِـيجـا   قَـدْ اكـتَـفَـتْ بِـبَـيَـانِـكْ
فَـخُـذْ مَـرَازِبَـةَ الـفُـرْ   سِ وامْضِ مِيجـا لِشَـانِـكْ[2]

نتيتاس :

قَمْبِيـزُ مـا شِئْتَ فـاصْـنَـعْ   إنِّـي أرَاكَ مُـصِـرّاً
تُـغِـيـرُ أَنْـتَ وتَـغْـزُو   ويَـحْـفَظُ اللهُ مِـصْـرَا

قمبيز : وفـارِسٌ يـا ابْـنَـةَ الـنِّـيـلِ مـا لِـفـارِسَ ذِكْـرُ

نتيتاس :

لا أيُّـهـا الـمَـلْك مـالِـي   في غَيْـرِ مَـهْـدِي فِكْـرُ

قمبيز :

نـتيـتـاسُ آسْـمَـعِي أَنْـتِ   تُـسِيـئـيـنَ إلـى مِـصْـرَا
غـداً يَـهْـلِكُ أَهْـلُوهـا   وتُـمْسِـي تَـحتَـهُـمْ قَـبْـرا

---

(١) تراغى الزنج: تصايحوا.
(٢) المرازبة: القادة.

نتيتاس :

وَقَــاهَــا مِــنْــكَ آمُــونُ ولا آسْــطَعْــتَ لـهــا ضَــرّا

قمبيز :

هٰــذَا الــتَّـجَـنِّــي كَـثِـيــرُ هــذا لَــعَـمْـرِي الـغُـرُورُ

لَــقَــد تَـحَـمَّــلَ صَــدْرِي مــا لا تُــطِـيــقُ الـصُــدُورُ

[ثم مستمراً]:

كفــا عَبَثــاً بسُلْطَاني وبَــأْسِي كَفَى مـا كـانَ نـاتيتـاسُ مِنْـكِ

غَـداً يَتَحـدّثُ الــرُكْبَـانُ عَنِّي ويَرْوِي النَّاسُ ما يَرْوُونَ عَنْـكِ

كَـذَبْتِ عليّ يا آبْنَـةَ أبريـاسٍ حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وفَتْكِي

أنــا قَـمْـبِـيـز بْنُ كِـسْــرَى أنــا جَـبَّــارُ الـوُجُــودِ

وأنــا الــنــارُ أُصُــولــي وبَــنُــو الـنّــارِ جُـدُودِي

وَيْــلَ فِــرْعَــوْنَ ومِــصْــرَ مِــنْ جُــنُــودِي وبُــنُــودِي

قمبيز [لنفسه]:

رَبَّــاهُ، وَيْـحِـي، ويْــحَ لِــي رَبَّــاهُ، مــالِــي لا أَعِــي

رَبَّاهُ، نَارَاهُ ما الَّذِي أَجِدُ

كأنّما النَّارُ فيّ تَتَّقِدُ

يــا نــارُ كُــونــي لِــي رمَــادُ، كــن عَــوْنِــي

[ثم إلى نتيتاس]:

إنْـتَـظِرِي الـبَـطْشَ يــا بِــنْــتَ فِــرْعَــوْنِ

أَنَــا قَـمْـبِـيـزُ بْنُ كِـسْــرَى أنَــا وَحْشٌ أنَــا غُــولْ

لَـسْتُ بــالـعِـجْـلِ أبَــالِـي وعَــلَى الـنَّــارِ أبُــولْ

قمبيز [لنفسه]:

قَــدْ رَجَـعَ الصَّفِيــرُ لي يــا لَـيْـتَــهُ لَـمْ يَـرْجِـعِ

مــا بَــالُ عَيْنِي أظْلَمَـتْ مــا بَـالُ ســاقِي جَمَـدَتْ

أَيْـنَ الـطَّبِـيـبُ أزْدَشِــرْ؟

[ويغشاه الصرع]

الملكة [بعد أن يأتي الطبيب]: هذا الطَّبِيبُ قَدْ حَضَرْ

[يدخل الطبيب ويطلب نقله]

الملكة [تدنو منه في حنو وعطف وتقول]:

يـا وَيْـحَ زَوْجِي، وَيْـحَـهُ هَـاجَ وعـادَه الـصَّـرَعْ

يـا نـارُ، كُـونِـي حَـوْلَـهُ أدْرِكْـهُ، يـا آمُـونُ رَعْ

[يخرجون به]

فانيس :

ألانَ نِـتيـتـاسُ تَـعَـالَـيْ إلـى الـهُـدَى

تَعـالَيْ إلـى الـرَّأْيِ الصَّـوَابِ تَـعَـالِي

نِـتيتـاسُ أنْـتِ الـيَـوْمَ مَـلْكَـةُ فـارِسٍ

بَـلَغْـتِ الـذُّرَى مِـنْ سُـؤْدُدٍ وجَـلَالِ

الملكة :

ولَـكِـنْ أبِـي فـانِـيسُ لا تَـنْسَ مـا أَبِـي

وجَـدِّي وأنِّـي بِـنْـتُ أَصْـيـدَ عـالِـي

فانيس :

ولَـكِـنْ أَلَـمْ يَـخْـلَعْ أَبَـاكِ أمـازِسٌ

ويَـفْـتِـكْ بِـهِ فـي ثَـوْرَةٍ وقِـتَـالِ

ويَجْلِسْ عـلى كُـرْسِيّ مِـصْـرَ مَكَـانَـهُ

ويَـخْـلُفْـهُ فـي جَـاهٍ أَفَـادَ ومَـالِ

الملكة :

أَجَـلْ قَـدْ خُـلْعِنَـا مُـلْكَنَـا وتَـصَـرَّفَتْ

بـنـا سُـوقَـةٌ مـن جـنـدنـا ومَـوالـي

فانيس :

إذَنْ فَـدَعِـي قَـمْـبِـيـزَ يَـثْـأَرْ لِـزَوْجِـهِ
وَيَـضْـرِبْ بِيُـمْنَى أَوْ يُصِبْ بِـشِـمَـالِ
دَعِيـهِ يُعَـاقِبْ سـارِقَ التَّـاجِ مِثْلَمْـا
يُـعَـاقَبُ فـي مَـنْـفِـيسَ لِصٌّ لآلِـي

الملكة :

تَـأَمْـل وحَـقِّقْ مَـنْ تُخَـاطِـبُ يـا فَـتًـى

فانيس : أُخَـاطِـبُ عَـقْـلاً مِـنْ وَرَاءِ جَـمَـالِ
لَقَـدْ قُلْتُ قَـوْلاَ لَـيْسَ يَـأَبَـاهُ عَـاقِـلٌ
فلا تنظُريني واسمعي لِمقالـي

الملكة :

ولَـكِـنْ أَمَـامِـي صُـورَةٌ مِـنْ خِـيَـانَـةٍ

فانيس : وَمَـا لَـكِ، يـا بِـنْتَ الـمُلُوكِ، ومـالِـي

الملكة :

وأَنْـتِ تِـتَـا مـاذا تَـرَيْـنَ؟

الوصيفة :

خِيَـانَـةً وأَطْمَـاعَ قُـوَّادٍ ولُـؤْمَ رِجَـالِ

الملكة : فَدَيْتُكِ مِنْ مِصْرِيَّةٍ

الوصيفة :

بَـلْ أَنَـا الـفِـدَى لسيِّـدتي مِنْ قُـدْوَةٍ ومِثَـالِ

الملكة [لفانيس]:

أَتَسْمَعُ كَلْبَ الصَّيْدِ؟

فانيس : حَـمْـقَـاءُ غِـرَّةٌ وما لِيَ أُلقِي لِلْحَمَاقَةِ بـالِي

الملكة :

عَمًى لَـكَ، يا فَـانِيسُ، وآمْشِ بِـلاَ عَصـاً
وَدُونَ دَلِـيــلٍ فــي رُؤُوسِ جِـبَــالِ

فانيس : لَكِ الشكرُ مَوْلاَتِي

الملكة :

لَـكَ الـوَيْــلُ مِنْ فَتًـى فإنَّكَ مِنْ مَعْنَى المُروءَةِ خَالِي
أأوطِىءُ خَيْــلَ الفُرْسِ مَهْـدِي ومَلْعَبِي
وتُــرْبَــةَ آبَــائـي ومَــنْــزِلَ آلِــي
وأشْعِــلُ نـارَ الفُــرْسِ في أيْكَـةِ الصّبَــا
ومــا بَــوَّأتْــنــي مِــنْ رُبًــى وظِــلاَلِ
وأغْمِــدُ سَيْفَ الفُـرْسِ في صَـدْرِ أُمَّــةٍ
نَـمتْنِي، وتَـنْمِـي أُسْــرَتِي وعِـيَــالِي
إذَنْ لا أوَى جَــدِّي الــسَّمَــاءَ ولا أبِــي
ولاَ جَــلَّ عَــمِّــي أو تَــبَــارَكَ خَــالِــي
وأفْــضَــلُ مِــنِّــي كُــلُّ ذَاتِ مُــلاءَةٍ
وَرَاءَ حُــقُــولٍ أو وَرَاءَ تِــلاَلِ
تَــهُشُّ عَــلَى شَــاةٍ وتَــحْـمِــلُ جَــرَّةً
وتَـمْشِـي عَـلَى الـوَادِي بِـغَـيْـرِ نِـعَـالِ

[يدخل قمبيز ثم الحاجب ويقول]:

إلَهَ الفُرْسِ

الملك : ماذا؟

الحاجب :

ثَــمَّ رُسْــلٌ أتَـوْا مِن مِصْرَ بـالنَّبَأ العَظِيمِ

الملك : وما يَقُولُونَ؟

الحاجب :

يَقُو لُونَ أَمَازِيسُ هَلَكْ

الملك : ثُمَّ؟

الحاجب :

يَقُولُونَ آبْنُهُ بسامَتِيكَ قَدْ مَلَكْ

الملكة [لنفسها]:

مِصْرُ... ... رُسْلٌ؟ لَيْتَ شِعْرِي ما الخَبَرْ
وطَنِي، يا رَبِّ، لا مُسَّ بِشَرْ

قمبيز الملك [ملتفتاً للملكة والوصيفة]:

يا مَلْكَةَ الفُرْسِ أَصْغِي ويا تِتَا هَلْ سَمِعْتِ
قَد مَاتَ فِرْعَونُ مِصْرٍ

الملكة والوصيفة [بصوت واحد]:

تَعِيشُ مِصْرُ وتَبْقَى

ستار

الفصل الثالث

المنظر الأول

«الأميرة نفريت على ضفاف النيل تشكو إليه وتنتحر بأن تلقي بنفسها فيه»

وَيْحِي لَقَدْ أَوْدَتْ بِيَ الأَنَانِيَهْ
عِشْتُ فَمَا أَحْبَبْتُ إلاَّ ذَاتِيَهْ
ولا آفْتَكَرْتُ بِسِوَى لِذَّاتِيَهْ
حَتَّى قَذَفْتُ وَطَنِي في الهَاوِيَهْ
ألنِّيلَ. ألنِّيلُ بِجَنْبِي، هاهِيَهْ
أَمْوَاجُهُ تَهْتِفُ بِي، مُنَادِيَهْ

* * *

يا نِيلُ، يا قِوَامَ كُلِّ شَيّ
ومانِحَ الحَيَاةِ كُلَّ حَيّ
هَيَّ اغْسِلِ الذَّنْبَ العَظِيمَ هَيّ

[ثم تلقي نفسها]

المنظر الثاني

في منفيس

«جماعة من المصريين والمصريات يتحادثون ويتذاكرون بغي قمبيز وجنوده وبعض ما أصاب الناس من المصائب من جراء الفتح الفارسي - في ساحة من ساحات منفيس»

أحد الرجال [لزميل له]:

تَعالَ يا (باطا) قُلْ لِيَ بالله
كَيْفَ تَرَى الحُكْمَا كَيْفَ تَرَى الظُّلْمَا

باطا :

أَصِخْ أَصِخْ يا دَادْ إسْمَعْ وكُنْ عَوْنِي
قَمْبِيزُ في الظُّلْم بِأَلْفِ فِرْعَوْنِ

[ثم لهجار]:

وأَنْتِ يا هِجَارْ ماذا تَقُولِينَا

هجار :

آمُونُ ذو المَنِّ يُبْقي الفَرَاعِينَا
الفُرْسُ في مِصْرَ طُغْيَانُهمْ قَدْ زَادْ

هُـمْ صَـلَبُـوا الـتِّـمْـسَـاحْ عَـلَى ضِـفَـافِ الـوادْ
وكَـلَّفُـوا الـعُـصْـفُـورْ يَـمْـشِـي مَـعَ الـصَّـيَّـادْ

[تقبل امرأة مصرية عجوز]

فيقول أحدهم: وهَذِهِ دوبَارَهْ

آخر : الشَّيْخَةُ الثَّرثَارَهْ

الأول :

هَـلُمِّـي يـا دُوبَـارَا هـاتِـي اَذْكُـرِي الأَخْـبَـارَا

دوباره :

لا تَـسْـأَلُـونِي مـا الـخَـبَـرْ مِصْـرُ تَـرَى الـيَـوْمَ الـعِبَـرْ
لَـكِـنْ صَـهٍ حَـذَارِ لا يَـدْرِيَـنَّ دارِي
عـارضَـنِي الـسَّـاعـةَ في طَـرِيـقِي
فَتًـى مَـلِيْـحُ الـحُـسْـنِ والـبَـرِيـقِ

يسألها سائل: مِن الجُنُودِ؟

العجوز : لا! مِن القُوَّادِ

عـالـي الـمَـكَـانِ ظـاهِـرُ الـمِـيـلاَدِ

آخر : وما أَتَى ما فَعَلاَ؟

العجوز : عَانَقَنِي وقَبَّلاَ

الأوّل : وأَيْنَ؟ فَوْقَ فَمِكِ الدُّرِّيِّ

آخر : أو مِنْ عَلَى جَبينِكِ البَدْرِيّ

آخر : أو فَوْقَ خَدٍّ مِثْلِ رَوْثِ البَغْلِ

الأول : أو فَوْقَ ذَقنٍ مِثْلِ كَعْبِ النَّعلِ

العجوز : أَهَذِهِ نَجْدَتُكُم يا فِتْيَهْ

أَهٰكَذَا تُحْمَى بِمِصْرَ النِّسْوَهْ
يا أَسَفَا على القُرونِ الخَالِيَهْ
يا أَسَفَا على النُّفُوسِ العالِيَهْ

[وتنصرف مغضبة مهرولة]

أحدهم [ويرى شخصاً مقبلاً]:
هٰذَا أَها، مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟

ثاني : كَيْفَ أَنْتَ يا أَهَا؟

أهـا : مِنْ ضَيْعَتِي

الأوّل : وكَيْفَ هِي؟

أها : قَدْ لَقِيَتْ ما سَاءَهَا
إوَزِّي كُـلُّه طَـاحَ وبَـطِّي كُـلُّهُ طـارَا
وأُخْـتِـي خُـطِفَـتْ مِـنّـي وزَوْجِـي جُـلِّلَتْ عـارَا

الجماعة :
إذنْ لَـقَـدْ آن أَنْ نـثُـورَ نَـطْرُد قَـمْبِـيزَ والـجُـنُـودَا
الـغـابُ في شِـقْـوةٍ وبُؤسٍ فمـا الَّـذِي يُمْسِـكُ الأُسـودَا

أحد الجماعة:
خُـذُوا حِذْرَكُمْ أَقْبَـلَ الطَّاغِيـةْ مـع الـوَزَرَاءِ وفي الحـاشِيَـهْ
وذا السَّيْـفُ في يَـدِ جَـلَّادِهِ يُسَـلُّ على الأَرْؤُسِ العـالِيَـهْ

آخر :
تِـلْكَ مَـصَـائِـبُ وقَـدْ صُبَّتْ عـلى هٰـذَا الـبَـلَدْ
أَمْـضُـوا بِنَـا، أَمْـضُـوا بِـنَـا لـيَـسْـمَـعـنَّـا أَحَـدْ

[ينصرف المصريون ويدخل قمبيز في وزرائه وقوّاده ثم يقبل جنود يسوقون أسرى من النوب...]

قمبيز :

مـاذا يَـسُـوقُ الـجُـنُـودُ مَـنِ الـوُجُـوهُ الـسُّـودُ؟
هٰذي عَفَارِيتُ

وزير :

لا. بَلْ مَـوْلَاي هٰـذِي قُـرُودُ

قمبيز :

لـكِـنّـهـمْ حَـيْـثُ دارَتْ رَحَـى الـقِـتَـالِ أُسُـودُ
بَـلَوْتُـهُـمَ بـقـتـالـي لـمَّـا حَـوَتْـنَـا الـحُـدُودُ

قائد : النُّوبُ جُنْدُ بِسَامَا

قائد آخر : بَلْ هُمْ أَشَدُّ جُنُودِهْ
وأَثْـبَـتُ الـجَـيْشِ يَـوْمَ الـقِـتَـالِ تَـحْـتَ بُـنُـودِهْ

قمبيز :

يـا جُنْـدُ، حُلُّوا عن الأَسْـرَى وِثَـاقَهُـمُ
خلُّوا عن الـسُّـودِ قَـدْ أَعْتَـقْتُ أَقْـرَانِـي
ويـا بَنِي النُّـوبِ مُلْكِي لَنْ يَضِيـقَ بِكُـمْ
مَـنْ شـاءَ فَلْيَـبقَ فـي مُلْكِـي وسُـلْطَانِـي
والـجَـيْشُ دارَكُـمُ إنْ كـانَ يُـعْـجِـبُـكُـم
أن تَـلْحَقُـوا بـمُشَـاتِـي أو بفُـرْسَـانِـي

الأسرى النوب :

يـا بَنِـي الـنُّـوبِ هَـلُمُّـوا رَقصةَ الـحَـرْبِ لِكِـسْـرَى
سَـيِّـدُ الأَرضِ عَـفَـا عَـنّـا فَـمَـا نَـحْـنُ بـأَسْـرَى

[ثم يفك وثاقهم فيرقصون رقصة الحرب وينشدون]

الـنُّـوبُ جِـيـلْ، حُـرٌّ أَصِـيـلْ، يَـقْـضِـي الـدُّيُـونْ
نَـحْـنُ الأُسُـودْ، حُـمْـرُ الـجُـلُودْ، حُـمْـرُ الـعُـيُـونْ

لَــنَــا لِــبَــدْ، مِــن الــزَّرَدْ، هِــيَ الــحُــصُــونْ
نَــغْــشَــى الــقِــتَــالْ، ولا نُــبَــالْ، طَــعْــمَ الــمَــنُــونْ

نَــحْــنُ شُــعُــوبٌ وشِــيَــعْ وَرَاءَ أَسْــوَانَ نَــقَــعْ
عُــرُوشُــنَــا مِــن الــجَــرِيــدْ تِــيــجَــانُــنَــا مِــنْ الــوَدَعْ

نَــحْــنُ قَــبِــيــلَ الــشُّــلُكِ فِي الــعَــنْــجَــرِيــبِ نَــتَّــكِــي
والــصَّــيْــدَ نَــهْــوَى والــقَــنَــصْ ونَــطَّــلِــي بــالــوَدَكِ[1]

لِلْحَــرْبِ نَمْشِي الــهَــرْوَلَــهْ نَــبْــعَــثُ فــيــهــا الــجَــلْــجَــلَــهْ
مَمْزُوجَةً بالوَلْوَلَهْ

[وبعد الفروغ من الرقص يقبل عليهم قمبيز ويقول]:

قمبيز :
زِهْ يــا جُــنُــودْ زِهْ يــا أُسُــودْ

[كبير النوب لخازن الملك]:

زِهٍ زِهٍ هــاتِ الــنُّــقُــودْ

[يدفع الخازن إليهم ما لا فيأخذونه وينصرفون]

[يتراءى فرسان ثلاثة]:

قمبيز : مَن الغُبَارُ؟

وزير : رُسُلٌ

قمبيز : مـاذا إلَيْنَا حَمَلُوا

قائد : وها هُمُ تَرَجَّلُوا

[يقف الفرسان بحضرة الملك]

قمبيز : ماذا وَرَاءَ الرُّسُلِ

---

(١) الودك: الوسم.

أحدهم : الدَّعَوَاتُ للمَلِكْ

قمبيز : ماذا لَدَيْكُمْ ما الخَبْر؟

أحدهم : حَوَادِثٌ ذاتُ خَطَرْ

قمبيز حَوَادِثٌ؟ قُلْ أخا الهَيْجَا تَكَلَّمْ

الرسول : بِسامَتِكَ يا مَوْلَايَ خَانَا

الوزير الأكبر:

بِسَامَاتِيكَ خان؟

الرسول : أَجَلْ أَمِيري

قمبيز : وكَيْفَ؟ ما أَتَى؟

الرسول : نَقَضَ الأَمَانَا

قمبيز : وما بُرْهَانُكُمْ؟

الرسول :

كُتُبٌ ورُسْلٌ يُثِيرُ بها القُرَى، آناً، فَآنَا

قمبيز :

وهَلْ وَجَدَتْ دِعَايَتُه سَمِيعاً وهَلْ حَلّتْ مِن الوَادِي مَكَانَا

الرسول :

أَجَابَتْ دَعْوَةَ المَخْلُوعِ مُدْنٌ ومُدْنٌ ما جَعَلْنَ لِذاكَ شَانَا

قمبيز : وأَيْنَ فِرْعَوْنُ ابْسَمَا

الرسول : في مَنْفَ يَغْدُو ويَرُوحْ

حُرٌّ كَمَا شِئْتَ لَهُ بَيْنَ القُصُور والصُّرُوحْ

مِنْ مَعْبَدٍ لِمَعْبَدٍ ومِنْ ضَرِيحٍ لِضَرِيحْ

وحَوْلَه كُهَّانُ مَنْفِيس، يَجُرُّونَ المُسُوحْ

وكُـــلُّهُـــمْ مُشِـــيْـرُهُ

الوزير الأكبر: بِئْسَ المُشِيرُ والنَّصُوحْ

آخر :

مَنْ لَمْ يَكُنْ كـاهِنـاً في مِصْـرَ أو مَلِكـاً
ولاَ تَـرَاه لِـهٰـذا أو لِـذَا تَـبَـعَـا
فَـلاَ تَـقِيـسَـنَّ فـي هٰـذِي البِـلاَدِ بِـهِ
إلَّا الـمَـوَاشِـيَ والأَحْـجَـارَ والسِّـلَعَـا

قمبيز :

وُزَرَائِي ودَهَـاقِيـني آنْـظُرُوا أُنْظُرُوا ذلك فِـرْعَوْنُ «ابْسَمَـا»

الوزير الأكبر:

يَـدْفَـعُ القُـوَّادُ والجُنْـدُ بِـهِ وهُـوَ في القَيْدِ يَجُـرُّ الأَدْهَمَـا

قائد :

كـادَ فِـرْعَـوْنُ من آسْتِكْبَـارِهِ أنْفُـهُ يَـدْفَـعُ في أَنْفِ السَّمَـا

[فرعون يقف بين يدي قمبيز في عظمة وإباء واستكبار]

قمبيز : بِساماتيكُ

فرعون : قَمْبِيزُ

قمبيز : أَتَدْعُو بآسْمِهِ المَلْكَا

فرعون :

غَـداً تَـفْـقِـدُكَ الـفُـرْسُ ويَـخْلُو عَـرْشُـهـا مِـنْـكَـا
ومُـلْكٌ قَـدْ مَـضَـى عَـنِّـي سَـيَمْـضِي فـي غَـدٍ عَنْـكَـا

[قمبيز يدخل في الغضب شيئاً فشيئاً]:

قمبيز : وهذا الفَتْحُ يا فِرْعَوْ نُ؟

فرعون : عُدْوَانٌ وإجْرَامُ
أمَــا عِنْـدَكَ، يــا قَمْبِيــزُ، لـلنَّكْبَـةِ إكْــرَامُ

قمبيز :
عَفَــوْتُ عَنْـكَ، أمْسِ، يــا إبْـسَـا فَـلَمْ تَـرْعَ الــوَفَـا

فرعون :
يــا عَـجَبَــا يــا عَـجَـبَـا عَـبْـدٌ عــن الــرَّبِّ عَــفَــا

قمبيز [هائجاً]:
خُــذُوهُ بــالــخَـنَـاجِــرِ سُــلُّوا لِـسَــانَ الــفــاجِــرِ

فرعون [في عظمة وصبر وثبات]:
هــاتُـوا سُيُــوفَ الفُـرْسِ هــاتُــوا القَنَــا
هـاتُوا المُـدَى هـاتُـوا حِبَالَ الحَـدِيـدْ
لا تَحْسَبُــوني بَشَـراً بـائِـداً فِـرْعَـوْنُ حَيٌّ خـالِـدٌ لا يَبِيـدْ

قمبيز :
إذَنْ خُــذُوهُ بَـعِـيــدَا صُـبُّــوا عَـلَيْـهِ الــحَـدِيــدَا

[يأخذه الجند ويخرجون به]

[يدنو وزير شيخ من قمبيز ويقول له]:

القائد :
مَـوْلاَيَ، تِلْك غَضْبَةُ المَقْهُـورِ ونَـزْوَةُ الضِّرْغَـامـةِ المَـأْسُــورِ
مَوْلاَيَ، بالنارِ، بقُدْسِ النُّـورِ إغْفِرْ لهذا الصَّـارِمِ المَكْسُورِ
فإنه ضَحِيَّةُ الأُمورِ

قمبيز [صائحاً بالجند وهم ذاهبون بفرعون بسما]:
إذَنْ رُدُّوا الأسِيــرَ إلـيَّ رُدُّوا فــإنَّـا مـا انْتَهَيْنـا مِنْــهُ بَعْـدُ

[يرجع الجند بفرعون ويقفونه أمام قمبيز]:

قمبيز :

تَـعَـالَ فِـرْعَـوْنَ ابْـسَـمـا   تَـعَـالَ مِـنِّـي نـاحِـيَـهْ
لَـقَـد عَـفَـوْتُ مَـرَّةً   وقَـد تَـكُـونُ الـثَّـانِـيَـهْ

فرعون : لا مَـرْحَـبـاً أَمْسِ ، ولا الـيَـوْمَ، بِـعَـفْـوِ الـطاغِـيَـهْ

قمبيز :

تَأَمَّـلْ هَـلْ لَبستَ اليـومَ ذُلّاً   وكُنْتَ تَجُرُّ، أمسِ ،الذَّيْـلَ تِيهَا

فرعون :

كذا الدُّنْيا تُغَيِّرُ، يا ابْنَ كِسْرَى   فَخَفْهـا إنَّهـا لا خَيْـرَ فِيهَـا
وهَبْـكَ قَهَرْتَني أَقْهَـرْتَ مِصْـراً

قمبيز : أَجَلْ، وَوَضَعْتُ سَيْفِي في بَنِيهَا

وبَعْـدَ غَـدٍ أُطَـوِّقُهـا بِنَـارٍ   تَـطُوفُ على البِلَادِ ومـا يَلِيهَـا
وتَجْعَـلَ مِنْ هَيَـاكِلِهـا رَمَـاداً   وتُنْـزِلُ في الأَزِقَّـةِ مُتْـرَفِيهَـا
وتَـدْعَـكُ فـي تُـرَابِ الـذُّلِّ أَنْـفـاً
يَـطُولُ عـلى الـنُّـجُـومِ ويَـزْدَرِيـهَـا

فرعون :

رُوَيْـدَكَ يـابْنَ كِسْـرَى، قِفْ، تمهّـلْ
فَـعَـادَةُ مِـصْـرَ تَـقْـهَـرُ قـاهِـرِيـهَـا

قمبيز :

رُوَيْـدَكَ أَنْـتَ، يـا فِـرْعَـوْنُ، إِنِّـي
إذا حَـطَّمْتُ مِـصْـرَ فَـمَـنْ يَـقِـيـهَـا
أَلَـيْـسَـتْ فـارِسٌ والأَرضُ تَـحْـتِـي
وأَمْـرِي فـي الجَـنُـوبِ وفي الـشَّـمَـالِ
وقـد غَـطَّتْ فَـضَـاءَ الأَرْضِ خَـيْـلِي
وهَـبَّتْ في السُّـهُـولِ وفـي الـجِـبَـالِ

فرعون :

شَمَخْتَ بِخَيْلِكَ، يا فارِسيُّ فَماذَا صَنَعْتَ بِخَيْلِ القَدَرْ؟

تَأَمَّلْ مَكَانِي وما حَلَّ بِي أَلَمْ تَتّعِظْ بي أَلَمْ تَزْدَجِرْ

قمبيز : ما أَنْتَ، يا مَخْدُوعُ

فرعون : فِرْعَوْنُ ابْسَما

قمبيز : بَلْ أَنْتَ مَأْسُورٌ عَلَيْكَ قُيُودُ

وغَداً يَنُوبُ عن القُصُورِ ورُحْبِها

سِجَنٌ يَضِيقُ ومَنْزِلٌ مَسْدُودُ

وتُدَسُّ في الأَجْدَاثِ غَيرَ مُحنّطٍ

يَلْهُو بِهَيْكَلِكَ البِلَى والدُّودُ

فرعون : قَمْبِيزُ

قمبيز : فِرْعَوْنُ ابْسَما، صَلِّ، آبْتَهِلْ

وآهْتِفْ لَعَلَّ العِجْلَ عَنْكَ يَذُودُ

أنْظُرْ إلى أَينَ آنْحَطَطْتَ

فرعون : كَذَبْتَ لَمْ

يَنْحَطَّ لِلشَّرَفِ الرَّفِيعِ عَمُودُ

إنَّ الجَوَاهِرَ في التُّرَابِ جَوَاهِرٌ

والأُسْدُ في قفص الحديد أُسودْ

قمبيز :

سَنَرَى هَلُمُّوا يا جُنُودُ أَسِيرَكُمْ

عُودُوا بِهِ مِنْ حَيْثُ جِئْتُمْ عُودُوا

قمبيز [مستمراً]:

وأينَ نِفْرِيتُ آبْنَةُ الكَذّابِ قَد آن أنْ يَنالَها عِقَابِي

الوزير الأكبر:

نِفْـرِيتُ مِنْ مَخَافَـةِ الحِسَـابِ   أَلْقَتْ بنفسِهــا إلى العُبَــابِ

وذَهَبَتْ

قمبيز [ويضحك ضحكة جنونية]:

لَكِنْ بَلاَ إِيَابِ

[تحضر نتيتاس وتقول]:

نتيتاس : قَمْبِيزُ؟

قمبيز : من ذا نِشاسٌ

نتيتاس : أَجَلْ

قمبيز : ومَاذا أَتَى بِكْ؟

نتيتاس :

أَتَــيْــتُ أُنْــقِــذُ قَــوْمِــي   ومَــوْطِـنِـي مِــنْ عَــذَابِــكْ

قمبيز : والزَّوْجُ يا نِتيتاس؟

نتيتاس : وأُنْقِذُ الزَّوْجَ أَيْضَا

قمبيز [ساخراً]: ومِمَّ؟

نتيتاس :

مِــنْ شِــدَّةِ الــبَــلاَءِ   وغَـضَـبِ الأَرْضِ والـسَّمَــاءِ

قمبيز [في غضب]:

إِذْهَبِي، يــا بِــنْــتَ فِـرْعَـوْنَ، اذْهَــبِـي

أَعْــزُبـي يــا حَـيَّــةَ الــنِّـيــلِ اعْــزُبِــي

فانيس :

تَــأَخَّــرِي، سَــيِّــدتــي   لا تَــعْــرِضِي لِـغَــضَــبِــهْ

قمبيز : فانيس أَنْتَ ها هُنَا

فانيس : مَوْلَايَ لي لَمْ يَنْتَبِهْ

نتيتاس [متهكمة]: مَوْلَاكَ كَمْ تَخْدَعُهُ

مَوْلَاكَ كَمْ تَسْخَرُ بِهْ

قمبيز [إلى قوّاده]: أَحَقٌّ هُوَ بِي يَهزا

[ثم إلى فانيس]: أَحَقٌّ أَنْتَ بِي تَسْخَرْ

وفـي الأَحْـلَامِ تَبْـدُو لِـي   وهَـذا الـوَجْـهُ لِي يَـظْهَـرْ

وقَـدْ يَـصْـفَـرُّ كـالـلَّيْـمُـو   نِ أَوْ يَـحْـمَـرُّ كـالـبَـنْـجَـرْ

[ويهجم عليه بالخنجر]

فانيس : أَمِيري ، سَيِّدي ، مَلْكِي

قمبيز [ويطعنه بالخنجر]: أَغِثْهُ ،أَيُّها الخِنْجَرْ

[ضجة في صفوف المصريين]

أحدهم : قَدْ هَلَكَ الوَاشي

آخر : قَدْ هَلَكَ الخَائِنْ

كَـافَـاهُ قَـمْـبِـيـزُ شَـرَّ الـمُـكَـافَـاةِ

فانيس [بعد أن يضربه قمبيز بالخنجر]:

آهٍ مِـن الخِـنْجَـرِ مـا أَحَـرَّهُ   آهِ من الحِـمَـامِ مـا أَمَـرَّهُ

[لقمبيز] :

قَـمْـبِـيـزُ شُـلَّتْ يَـمِـيـنُـكْ   ولا أَفَـاقَ جُـنُـونُـكْ

[لنفسه] :

وَيْـحِي أَرَى عَيْـنِـي تَـغِـيمُ وسَـاعَـتِـي

تَـدْنُـو وأَشْـعُـرُ بـآنْـقِـطَاعِ فُـؤَادِي

الـذَّنْبُ لي أنـا قـد خَـرَجْتُ لِفَـارِسٍ
ومَـنـحْـتُ، مَـجْـنُـونـاً هُـنَـاكَ وِدَادِي
فـانـيسُ أَنْتَ نَـشَـأْتَ جُـنْـدِيّـاً فـمُـتْ
كـالـجُـنْـدِ والْـقَ مَـصَـارِعَ الـقُـوَّادِ
سِـيَّـانِ حين تُحطُّ فـي جَـوْفِ الثَّـرَى
مَـوْتُ الـفِـرَاشِ ومَـوْتَـةُ الـجَـلَّادِ
يـا نَـفْسُ، لـم أَحْـمِـلْ عَـلَيْـكِ دَنِـيّـةً
لاقِـي المَـنِـيَّـةَ بـالـضَّـمِـيـرِ الـهـادِي
يُـونَـانُ تَـغْـفِـرُ لِـي وآلِـهَـتِـي بـهـا
سَـهِـرَتْ عُـيُـونُـهـمُ عـلى أَوْلَادِي
قـد خُنْتُ مِصْـرَ وخُنْتُ سَـاداتي بِـهَـا
لـكـنَّـنـي مـا خُـنْـتُ قَطُّ بِـلَادِي

أصوات [من جانب المصريين]:

فـانـيسُ لا عِـلْمَ لَـهُ بِـمَـا جَـرَى
قـد قَـتَـلُوا أولَادَه ومـا دَرَى

[تظهر الجند يدفعون فتى فيقول قمبيز]

قمبيز : وهذا الفَتَى مَنْ، ولِمْ سُقْتُمُوهُ إليَّ؟

جندي : فتًى في النّواحِي يَروُدْ(1)

قمبيز : وما كان يَأْتِي؟

الجندي : يُثِيرُ البلَادَ
ويُغْرِي القُرَى بآغْتِيالِ الجُنُودْ

قمبيز :
تَنحَّـوْا بِـه فـاقْـطَعُـوا رَأْسَـهُ عَسَـاهُ لأَمْثَـالِهـا لا يَعُـودْ

(1) يرود: يروح ويجيء.

نتيتاس [تسمع وهي متراجعة ضجة فتنظر فيستوقفها المنظر فتقول]:

مـاذا رَأيـتُ ومـاذا؟ سَمِعْتُ؟ مَنْ يَـدْفَعُـونَـا
مَن ذا إلـى الـنّـار سـاقُـوا مَـن أوْرَدُوه الأتُـونَـا
تـاسُـو؟ أجَـلْ هُـوَ تـاسُـو أتَـوْا بـه الـمَـجْـنُـونَـا
قَـسَـا الـجُـنُـودُ عَـلَيْـهِ والـجُـنْـدُ لا يَـرْحَـمُـونَـا

مـا بـالُـه عَـرَفَ الـوَفَـاءَ وكَيْفَ ثـابَ إلـى الـرّشَـادْ
رَبِّـي. أأشـفُـعُ فـيـه؟ لا لا كَيْف أمْنعُـهُ الجِـهَـادْ
لا. لَـنْ تَحُـولَ شَفَـاعَتِي بَيْنَ الـضّحِـيَّـةِ والـبِـلادْ

هـذِهِ مَـيـتَـةُ عِـزٍّ إمْضِ تـاسُـو بِـسَـلامِ
قـد صَفَحْنـا لَـكَ عَنْ ذا كَ الـتَّـجَـنِّـي والأثَـامِ
لا تَمُتْ بـالـكَـاسِ والـطّا سِ ولَـكِـنْ بـالـحُـسَـامِ
سَـرَّنِـي أنَّـك تَـقْـضِـي لِـلحِمَـى حَـقَّ الـذِّمَـامِ

وشَـفَـانِـي أنَّـك الـذّا ئِـدُ عَنْ مِصْـرَ الـمُحَـامِي
زُلْ لِـتَـبْـقَـى كَـودَادِي مُـتْ لِتَـحْـيَـا كَـغَـرَامِي

[ثم تتراجع وتقول]:

والآنَ إلى طِيبَـةٍ والصَّعِيـدْ لِحَشْرِ الدُّعَـاةِ وحَشْد الجُنُـودْ
وقَـهْـرِ الـعَـدُوِّ وإرْغَـامِـهِ وقَـذْفِ المُغيـرِ وَرَاءَ الحُـدُودْ

[وتخرج]

[يستجمع تاسو ويقول، وكأنما سمع ما قالت نتيتاس]

عَفَتْ نتيتـاس فيـا مَـرْحَبـاً بِـكَ اليومَ يـا مَـوْتُ مِنْ زَائِـرِ

قمبيز [إلى وزرائه]:

مـا الـرّأيُ يـا وُزَرائـي فـإنَّـنـي لَـسْـتُ أدْرِي
مـاذا بـأبْـنَـاءِ مِـصْـرٍ مِـنَ اخْـتِـيَـالٍ وكِـبْـرِ

قائد :

نَحْنُ بَنُو الشَّيْطَانِ   وهُمْ بَنُو الإِنْسَانِ

ثان :

والناسُ مِنْ طينِ السِّكَكْ   وهُمْ سُلَالَةُ المَلَكْ

قمبيز :

أبيٌّ لَعَمْرِيَ فِرْعَوْنُ مِصْرَ   ويُشبِهُهُ قَوْمُه في إباهْ
سأَدْعَكُ في التُّرْبِ آنافَهُمْ   وأُلْصِقُ بالأرْضِ تِلْكَ الجِبَاهْ

قائد :

سيدي، لا تُبْدِ رِفْقا   وآمْضِ في الأَعْنَاقِ دَقًّا

ثان :

وآهْدِمِ الأبْرَاجَ هَدْماً   وآحْرُق الأجْرانَ حَرْقا

ثالث :

ودَعِ الوَادِيَ قاعاً   وآحْلُق الشَّطَّيْنِ حَلْقَا

قائد رابع [عالي السن]:

سَيِّدِي بَلْ تترَفَّقْ   فَهُوَ بالقادِرِ أليَقْ

قمبيز [يضحك ضحكة جنونية]:

خُذُوا يا قَادةَ الفُرْس   أخاكُم إنَّه جُنَّا

قائد : أمِيري خَرِفَ الشَّيْخُ   فلُمْهُ أوْ لُمِ السِّنَّا

قمبيز [يغمد خنجره في القائد الشيخ ويقول]:

خُذْ طَعْنَةً فيها الشِّفَا   تَصْرِفُ عَنْكَ الخَرَفَا

القائد [وهو يتلقى الطعنة]:

يا وَيْحَه، قد عادَه الجُنُونُ   بَلْ أنَا حِينَ هِجْتُهُ المَجْنُونُ

قمبيز : وآبيسُ مَعْبُودُهُم أين هُو؟

قائد : هُو العِجْلُ

ثان : وهُو الذي أَلَّهُوا

وزير : ثَوَى العِجْلُ في حُجَراتِ الجَلاَلِ

قائد : وقَدْ نعَّمُوهُ وقَدْ رَفَّهُوا

الثاني :

ولَـيْسَ إِلَـهـاً ولَـكِـنّـمـا على الشَّعْبِ كُهّانُه مَـوَّهُـوا

أحد القائدين [لزميل له]:

هُمْ يَعْبُدُونَ العِجْلَ يا أزْدشِرْ

أزدشر : يا لَكَ مِنْ أُحْمَقَ ثَرْثَارِ

ونَحْنُ؟

الأول : ألنَّارُ إلهٌ لنَا

أزدشر : ما الفَرْقُ بينَ العِجْلِ والنَّارِ

الأول : أَفَيْلَسُوفُ أَنْتَ؟

أزدشر : بَلْ مُلْحِدُ

الأول : أَنْتَ؟ إذن عِشْ، وآمْض بالعَارِ

مـا كـانَتْ النَّـارُ بمُحْتَـاجَـةٍ إلـى قَليـلِ الـدِّيـنِ كَـفَّـارِ

قمبيز : وأَيْنَ هو العِجْلُ؟

قائد : في قُبَّةٍ تَـلِيـقُ لِـكِـسْـرَى وآبـائِـهِ

قمبيز [مغضباً مشيراً]:

أَمْـسِـكُـوا الـكَـلْـبَ خُـذُوهُ، أدِّبُـوهُ

مـا أَبِي العِـجْـلُ، بَـلْ العِـجْـلُ أَبُـوهُ

القائد : الوَيْلُ لِي جُنَّ

صديق له في أذنه: ما جُنَّ إلاَّكَا
فـأَنْـتَ سـاوَيْـتَ بـالـعِـجْـلِ مَـوْلاَكَـا

آخر له :
أَهٰكَـذَا، يـا أَحْمَقُ، السُّلُوكْ أَهٰـكَـذَا يُخـاطَـبُ المُـلُوكْ؟

[يؤتى بالعجل، فيثور لرؤيته جنون قمبيز]

قمبيز :
والآنَ، مـاذَا رأَيْـتُـمْ ومـا الَّـذِي تُـفـتُـونَـا
ومـا الَّـذِي نَـحْـنُ بـالـعِـجْـلِ، يـا تُـرَى، صَـانِـعُـونَـا

قائد :
يَـصُـبُّ كِـسْـرَى عَـلَيْـهِ مِـنْ الـبَـلاَءِ فُـنُـونَـا

آخر :
عَلِّقْـهُ بَيْنَ الأَرْضِ والسَّمَـاءِ وآتْـرُكْـهُ للغِـرْبـان والحِـدَاءِ

آخر :
إدْفِـنْـهُ فـي الأَرْضِ حَـيّـاً وهِـلْ عَـلَيْـهِ الـتُّـرَابَـا

الأول : إذْبَحْه ذَبْحَ خَرُوفٍ

الثاني : وآخْنُقْهُ خَنْقَ دَجَاجَةْ

آخر [يتهكم]:
إصْـلِـبْـهُ فَـوْقَ عَـمُـودٍ مِـنْ هَـيْـكَـلِ الـمَـعْـبُـودِ

وزير : أَحْرِقْهُ يا مَوْلاَيَ بالنَّارِ

قمبيز : إخْسَأ فَهَذَا أَعْظَمُ العَارِ
مـاذا يَقُـولُ النَّـاسُ عنَّـا غَـداً أَلْقَـوْا إلى النِّيْـرَانِ بـالفَـارِ
قـد دَنَّسُوهَـا، وَهَيَ مَعْبُـودُهُـمْ مِنْ جُثَّـةِ العِجْـلِ بـأَقْـذَارِ

[ويظهر الغضب على قمبيز فيقول له قائل منهم]:

قائد :

مَـولَايَ مـا ذاك فَـارٌ ... بَـلْ أَلْـفُ فَـارٍ وفَـارِ

آخر :

يـا سَـيِّـدَ الأَرْضِ ، أَبْشِـرْ ... رَأْيُ الـوَزيـرِ أَصَـابَـا

غَـداً يَـقُـولُـونَ بِمَـنْـفِـيسِ ... تَـغَـدَّتِ الـنَّـارُ بـآبِـيسِ

قمبيز [مقتنعاً ومقهقهاً]:

أَجَـلْ غـداً يُـقَـالُ في الأَخْبَـارِ ... العِجْـلُ قَدْ بَـاتَ طَعَـامَ النَّـارِ

[ثم يقبل على أبيس ويخاطبه]:

إلَـهَ الـنِّـيـلِ لِـمْ تَـغْـضَـبُ ... ولِـمْ تَـكْـسِـرُ جَـفْـنَـيْـكَـا؟

تَـأَمَّـلْ شَـبَـحَ الـمَـوْتِ ... أَلَـمْ يَـبْـدُ لِـعَـيْـنَـيْـكَـا؟

وهٰـذَا خِنْجَـرِي الـمـاضِي ... فَـخُـذْهُ بَـيْـنَ قَـرْنَـيْـكَـا

[ويطعنه ثم يتراجع خطوة ويقول]:

إلَـهِـي مـا تَـرَى عَـيْـنِـي ... خَـيَـالَاتٌ وأَشْـبَـاحُ

وقَـتْلَى قَـدْ غَـدَوْا حَـوْلِـي ... وقَـتْـلَى غَـيْـرُهُـمْ راحُـوا

وجَـرْحَى جَـذَبُـوا ثَـوْبِـي ... وجَـرْحَى غَيْرُهُمْ صَـاحُـوا

هٰـذِي عَـوَاقِـبُ بَـغْـيٍ ... هٰـذَا الـقِـصَـاصُ الـمُـتَـاحُ

لا بُـدَّ مِـنْ عَـدْلِ يَـوْمٍ ... يَـرْتَـدُّ فِـيـهِ الـسِّـلاحُ

قائد : وَيْحَ لِقَمْبيزٍ

آخر : وَيْحَ لَـهُ جُنَّا

الأول :

مَـنْ يُـقْـتَـلُ الـيَـوْمَ ... مَـنِ الـشَّـقِـي مِـنَّـا

قمبيز [مستمرّاً]:

هٰـذا أَخِـي يَـصِـيـحُ بِـي ... وتِـلْـكَ أُخْـتِـي تَـنْـتَـحِـبْ

وآخَـرُ يَـسْـأَلُـنِـي أَيْـنَ دَمـي؟ أَيْـنَ؟ أَجِـبْ

قائد آخر:

هٰـذَا ضَـمِـيـرُهُ صَـحَـا هَـذَا ضَـمِـيـرُهُ ٱنـتَـبَـهْ
حَـتَّـى رَأَى آثَـامَـهُ ولَـمْ يَـكُـنْ لـهـا أَبَـهْ

آخر لنفسه: ثَارَ بِهِ ضَمِيرُهُ

[ثم لزميل له همساً]:

وما الضَّمِيرُ حَيْدَرُ؟

حيدر [للزميل]:

سَـرِيـرَةٌ تَـنْـدَمُ أَحْـيَـانـاً وحِـيـنـاً تَـزْجُـرُ
ويَـرْجِـعُ الـنَّـاسُ لَـهَـا إلاّ آمْـرُؤٌ لا يَـشْـعُـرُ

الأول [رستم لِحيدر]:

وأَيْنَ مَنْزِلُ الضَّمِيرِ؟

حيدر: مَوْضِعٌ مِن الجَسَدْ
أنـظُرْ. هُنَـا، يـا رُسْتُـمُ، القَـلْبُ وهـا هُـنَـا الـكَـبِـدْ

[ويشير إلى أعلى الصدر وأسفله وإلى ما بينهما (المعدة)]

[ثم مستمراً]:

وهـا هُـنَـا الضَّـمِـيـرُ بَـيْـنَ الـقَلْـبِ والـكِـبْـدِ قَـعَـدْ

رستم:

هُنَا الدَّجَاجُ والحَمَامُ ها هنا بِلاَ عَدَدْ

حيدر:

والـبَـطُّ أَيْـضـاً والإِوَزُّ والـحِـمَـارُ والـوَتَـدْ
وكُـلُّ مـا تَـسـرِقُ أو تَـخْـطَـفِ مِـنْ هٰـذَا الـبَـلَـدْ

رستم:

حَـيْـدَرُ هَـلْ يُـجْـتَـرَعُ الـضَّـمِـيـرُ أو هَـلْ يُـزْدَرَدْ

وهَـلْ لَـهُ خَـوْصَـلَةٌ وهَـلْ لَـهُ رِجْـلٌ ويَـدْ

حيدر :

يـا أَخِـي إنّ الـضَّـمِـيـرَ الـنَّـفْسُ أو بَـيْـتُ الـشُّـعُـورْ
وهُـوَ فِـيـلٌ فـي صُـدُورٍ وهُـو فَـأرٌ فـي صُـدُورْ
وجِـبَـالٌ مِـنْ حَـدِيـدٍ أو جِـبَـالٌ مِـنْ حَـرِيـرْ
وسَـعِـيـدُ الـنَّـاسِ مَنْ لَـمْ يَشْـكُ مِنْ وَخْـزِ الـضَّمِـيـرْ

قمبيز [يقوم هائجاً وكأنـما يفرّ من شبح شقيقه الذي قتله]:

مـاذا بِـيَـا؟ مـاذا بِـيَـا هَـذَا شَـقِـيـقـي بُـرْدِيَـا
هَـذَا شَـقِـيـقِـي بُـرْدِيَـا وخِـنْـجَـرِي فـي صَـدْرِهِ
جِئْـتَ أخِـي تَـجْـزِي أخـا كَ عَـنْ قَـبِـيـحِ غَـدْرِهِ

[ثم يزداد هياجاً ويفرّ من شبح أخته التي قتلها]:

أَتُـوسَـةُ زَوْجِي ألا تَغْفِـرِينَ أَتُـوسَـةُ أُخْتِي ألا تَصْفَحِـينَ

[ثم ينظر يميناً ويساراً وهو كالمجنون ويقول]:

آهٍ لِـيَـهْ آهٍ لِـيَـهْ مـا هَـذه الـزَّبـانـيَـهْ
كَـتِـيـبَـةٌ بِـمَـوْضِـعِ وعَـسْكَـرٌ في نـاحِـيَـهْ
وأَرْؤُسٌ بِـوَهْـدَةٍ وأَرْجُـلٌ بِـرَابِـيَـهْ
كُـلٌّ يَـصِـيـحُ رُدَّ رُو حِـي رُدَّ لـي دِمَـائـيَـهْ

قمبيز [مع الأشباح]:

وَيْـلِي مِن الـمَـاضِـي ومِـن أَشْـبَـاحِـهِ
هَـذِي خَـيَـالاَتُ الـزَّمَـانِ الـخـالِـي
عَجَبُ الـعَجَـائِـبِ وَيْـحَ لي مـاذا أرَى؟
شَـبَـحٌ. أجَـلْ شَبَـحٌ وطَـيْـفُ خَـيَـال
شَـبَـحٌ كـالـمَـلَكِ الـوا قِـي لِـعَـيـنَـيَّ يَـلُوحْ
شَـبَـحٌ كـالـزَّنْـبَـقِ الـنَّـا عِـمِ يَـغْـدُو ويَـرُوحْ
ظَـهَـرَ الـحُـسْـنُ عَـلَـيْـهِ وسَـرى الـطِّـيبُ يَفُـوحْ

تِمْثالُ نيتيتاسَ حَوْلَ مَذاهِبِي   أَحْبِبْ بنتيتاسَ والتِّمْثالِ
ما بَالُه أَلْقى عَليَّ سَكِينَةً   وأَراحَ وِجْدَاني وأَنْعَمَ بالِي
زَوَجاهُ نتيتاسُ مَلْكةَ فارسٍ
ما لِي حُرِمْتُ حَنَانَ قَلْبِكِ مَالِي
يا لَيْتَنِي لَمْ أَسْمَعِ الوَاشِي ولَمْ
أَخْرُجْ حِيالَكِ مِنْ قَدِيم ضَلاَلِي
قد ساءَ حالِي في غِيابِكِ فارْجِعِي
هَيْهاتَ بَعْدَكِ مَنْ يَرِقُّ لِحالِي
أأراكِ عِنْدِي، والأُمُورُ رَخِيَّةٌ
وأَرَاكِ عِنْدَ شَدَائِدِ الأَهْوَالِ
بالله، يا طَيْفَ الحَبِيبةِ، قُلْ لَها   خَلَّفْتُ قَمْبِيزاً بأَسْوَأ حَالِ
صِفْنِي لَهَا تَعِساً كما شاهَدْتِني
قَدْ عادَني صَرَعِي وجَدَّ خَبَالِي
يا بِنْتَ مِصْرَ، ويا يَتِيمَةَ تاجِها
عُودِي، فِداؤُكِ دُولَتِي ورِجَالِي

[ثم مستمراً]: طابَ وِرْدُ الحِمَام، يا نَفْسُ، هَيَّا
خِنْجَرِي، خِنْجَرِي، إليّ، إليَّا

[ويطعن نفسه بالخنجر ويقع]

جماعة من الفرس:

يا فُرْسُ، يا قَوْمَ كِسْرَى   النَّازِلِينَ السَّحَابَا
كِسْرَى مَضَى لِلنَّارِ   شُقُّوا عَلَيْهِ الثِّيَابَا
وحَطِّمُوا في ثَراهُ   سُيُوفَكُم والحِرَابَا

[كبراء الفرس يتشاقون الثياب]

أحدهم لآخر:

هـاتِ ثِـيَـابَـكْ وخُـذ ثِـيَـابِـي
تَـعَـالَ خُـذ قَـمِـيصِـي وأَعْـطِـنِـي قَـمِـيصَـكْ

[يمزق كلاهما قميص الآخر]

مصري من الحاضرين [لآخر همساً]:

أنْـظُرْ أخي الفُرسَ وما نابَهُمْ شَقُّوا على المَجْنُونِ أثْوَابَهُمْ

الكهان [لجماعة المصريين]:

يـأيُّهَا المَـرْضَى آسْجُـدُوا عَـلَى دِمَـاءِ «آبِـسِ»
ويـا أصِـحّـاءُ انْـهَـلُوا مِـن دَمِـهِ الـمـقَـدَّسِ
يـا لـشَـقَـاءِ جَـسَـدٍ فـي دَمِـهِ لَـمْ يُـغْـمَسِ

المصريون يتشاقون الثياب:

فارسي إلى آخر:

أنـظُرْ إلـى أَبْـنَـاءِ مِـصْـرَ فـإنَّ أَمْـرَهُـمُ عُـجَـابْ
أنْـظُرْ أَلَـسْـتَ تَـرَاهُـمُ شَقُّوا على العِجْلِ الثِّيَابْ

وزير فارسي [يخطِب المصريين]:

أيُّـهـا الـكُـهّـانُ مِـنْ شَـتَّـى الـرُّتَـبْ
عَـظُمَ الـخَـطْبُ فَمَـا تُـغْنِي الخُـطَبْ
إنَّ كِـسْـرَى تَـغْـفِـرُ الـنَّـارُ لَـهُ
كـانَ فـي مَـصْـرعِ آبِـيس الـسَّـبَـبْ
أيّها الشَّعْبُ

مصري لـرفـاقـهُ: أَمِيلُوا إسْمَعُوا
كَيْفَ يُنْشِي المُسْتَبِدّونَ الخُطَبْ

الوزير [مستمراً]:

قـد أتَـى قَـمْـبِـيزُ كِـسْـرَى مـا أتَـى
وهُـوَ مَـدْفُـوعٌ بـسُـلْطَانِ الـغَـضَـبْ

مصري [لأخيه بصوت منخفض]:

لَيْتَهُ بالَ عَلَى نِيرَانِكُم بَوْلَةً تُطْفِي لَظَاهَا واللَّهَبْ

الخطيب الوزير:

نَحْنُ لا نُسْأَلُ عَنْ فَعْلتِهِ

قَدْ جَنَى الرَّأسُ فما ذَنْبُ الذَّنَبْ

أيّها الكُهّانُ قَدْ حَلّ عَلَى رَبِّكم آبيسَ مَقْدُورٌ غَلَبْ

[ثم ملتفتاً للشعب قائلاً]:

ما لِي أَرَى مِنْ جانِب الشَّعْبِ

بَوَادِرَ الفِتْنَةِ والشَّغْبِ

قائد فارسي:

ما أغْضَبَ الشَّاةَ مِن الجَزّارِ

حَذَارِ حِلْمَ فارسٍ حَذَارِ

لا تَقِفُوا لِسَيْفِها والنَّارِ

[تتفرّق الجماعة هنا وهناك ويقف جماعة من المصريين فيقول أحدهم]

أحدهم [لزميل له]:

ماذا جَرَى؟

زميله : أمَا تَرَى؟ على الثَّرَى هٰذا الدَّمَا

آخر :

آبِسْ عُقِرْ، آبِس نُحِرْ سَاءَ الخَبَرْ، ما أشأَمَا!

الثاني :

حَامِي الحِمَى ما آستَسْلَمَا لَكِنْ سَمَا إلى السَّمَا

آخر :

لَقَدْ وَهِمْتَ يا أخِي أَفِقْ وراجِعِ الرَّشَدْ

أبِيسُ فارَق الوَتَدْ وسَارَ رِحْلَةَ الأبَدْ

الأول :

الـعَـمَـى يـا أَخِي الـعَـمَـى أَتْـرُكِ الأَرْضَ والـدِّمَـا

وتَـأَمَّـلْ مَعِي السَّـمَـا اتَّـخِـذَ الجَـوَّ سُـلَّمَـا

هُـوَ هَـذَا تَـبَـسَّـمَـا وعَـلَى الجَـمْـعِ سَـلَّمَـا

وإلى الخُلْدِ قَدْ سَمَا

الثاني :

عَـجِـيـبٌ شَـأْنُ آبِـيسَ لآبِـيسَ جَـنَـاحَـانِ

وهٰـذَا الـرِّيشُ مِـنْ دُرٍّ ويَـاقُـوتٍ ومَـرْجَـانِ

وهٰـذَا هُـوَ يَـرْعَـاكَ بِـعَـيْـنَـيْـهِ ويَـرْعَـانِـي

آخر [لزميلين له]:

أَنْـظُر «أني» إسْمَـع «فُتَـا» أَبِيسُ بـالـفُـرْسِ سَـخَـرْ

جَـنَّـنَ قَـمْـبِـيـزَ ولَـمْ يَـزَلْ بِـهِ حَـتَّى انـتَـحَـرْ

شيوخ الكهان :

بُـورِكْـتَ يـا آبِـيسْ يـا صَـاحِـبَ الـمَـجْـدِ

يـا مَـوْضِـعَ الـتَّـقْـدِيسْ ومَـنْـزِلَ الـحَـمْـدِ

سِـرُّكَ فـي مَـنْـفِـيسْ وأَنْـتَ فـي الـخُـلْدِ

شبان الكهان :

أَبِـيسُ سِـرْ لِـلسَّـمَـاءْ وانْـزِلْ مَـعَ الـخَـالِـدِينْ

وخَـلِّ تِـلْكَ الـدِّمَـاءْ تُـحَـاسِـبُ الـمُـعْـتَـدِيـنْ

أَنْـتَ سَـمَـاءُ الـجَـلاَلْ حِـمَـى الـدِّيَـارِ الأَمِـيـنْ

الـقَـرْنُ كـالـشَّـمْسِ طَـالْ وعَـزَّ فـي الـعَـالَـمِـيـنْ

يـا صُـورَةً مـن فُـتَـاحْ ومِـنْ سَـنَـاهُ الـمُـبِـيـنْ

هٰـذا شُـعَـاعُ الـصَّـبَـاحْ أَمْ غُـرَّةٌ فـي الـجَـبِـيـنْ

ستار الختام

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الست هدى

شيطان بنتاءور
أو لبد لقمان وهدهد سليمان

علي بك الكبير
أو دولة المماليك

عنترة

فشودة
رواية منظومة

قمبيز